الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

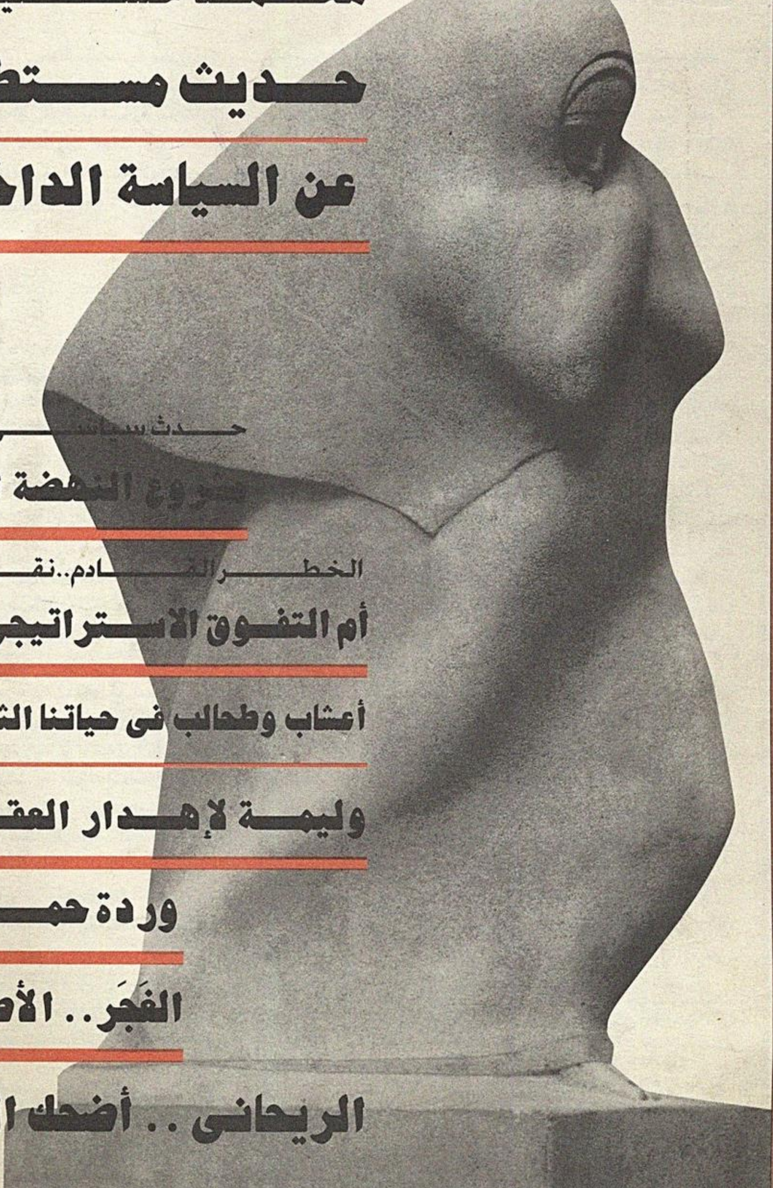
مجلة شهرية . العدد السابع عشر . السنة الثانية . يونية ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 17 - June 2000

محمد حسنين هيكل



حديث مستطرد عن السياسة الداخلية



حدث سياسى وحَّد الأمة

مشروع النهضة المصرى ١٩١١

الخطر القادم.. نقص المياه

أم التفوق الاستراتيجى لإسرائيل؟

أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية!

محمد سليم العوَّا

وليمة لإهدار العقل!!

سلامة أحمد سلامة

وردة حمراء لجاهين

الفَجر.. الأصل والتاريخ

الريحانى .. أضحك الناس ٣٠ عاماً

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد السابع عشر
يونية ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد عكاشه .. أستاذ الطب النفسى
- جيمس رايزن .. صحفى أمريكى
- سعد لبيب .. خبير إعلامى
- سمير فريد.. ناقد فنى
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ
- عادل الألوسى .. كاتب عراقى
- عبادة كحيلة .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى
- عبدالعظيم حماد .. صحفى
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد سليم العوّا .. محام
- محمد فؤاد الذاكرى .. باحث فى التراث العلمى، من سوريا
- مرفت عبدالناصر.. أستاذ الطب النفسى فى جامعة ليستر بإنجلترا
- نهلة إمام .. باحثة فى الأنثروبولوجى
- هديل غنيم.. صحفية

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٥٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

حــــوار.. لا شــــجار

نتفق أو نختلف.. سنتيمترات هنا أو سنتيمترات هناك، حول المكان الذى يجب أن نضع فيه الخط الفاصل بين حرية الإبداع وحرمة المقدسات.

ونتفق أو نختلف.. قليلا أو كثيرا، حول المدى الذى تتحدد به مسئولية الكاتب، قانونية أو اجتماعية، ومسئولية الناشر، شخصا كان أو جهة رسمية.

نختلف.. ربما. ولكننا نتفق بالضرورة، على أن «الاختلاف» يُحسَم ـ إذا كان لا بد أن يُحسَم ـ بالحوار، ولا شىء غير الحوار.

ولعلنا نتفق أيضا، على أن ما جرى فى مصر، وامتد بالتالى ـ إذاعيا وصحفيا ـ إلى محيطها العربى، فى الأسابيع الماضية، لم يكن بحال من الأحوال «حوار».

فى الحوار، يحدد الناس ـ بداية ـ حول ماذا بالضبط يتحاورون، وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى ما زالت موضعا للخلاف. ومن ثم للحوار. ثم ما هى المرجعيات المتفق عليها. وما هى التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات. هنا ـ وهنا فقط ـ يبدأ تبادل «حقيقى» لوجهات النظر. بين أطراف يُفتَرض أنها تعلم أن «الحوار» يعنى بالضرورة أن هناك «رأيا آخر». ليس لنا ـ بالتالى ـ أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

كل هذا ـ للأسف ـ كان بعيدًا كل البعد عن وصف ما جرى. سواء على صفحات الصحف، أو فى الشارع وعلى منابر المساجد وساحات الجامعة، أو حتى قبة البرلمان. فلأسباب تعددت منابعها، وتباعدت أهدافها، وفى مناخ محتقن حاد الاستقطاب، كان كل هذا الصخب، سياسيا وحزبيا وقضائيا وصحفيا وعلى شاشات التليفزيون. وشهدنا ـ للأسف ـ فى أكثر من مناسبة، من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيه» اللاحق فى الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر.

وكان يسيرًا علي من يقف على مسافة مناسبة من المشهد، أن يلاحظ أن جانبًا كبيرًا من «المعركة» لم يكن أبدًا حول الرواية، بل دار فعليا على هامشها، فعلاً ورد فعل، صدىً ورجع صدى. وكان طبيعيـًا ـ والحال كذلك ـ أن يتلون المشهد بالضجيج والصياح. والعراك والشجار، والقنابل المسيلة للدموع.. والدماء.

وحين لم تجد الأزمة ـ وهى أصبحت كذلك ـ من يديرها. وحين توارت كعادتها تقاليد الحوار فى خضم الصياح والضجيج، كان طبيعيا أن تتوالى التداعيات، وتختفى القضية الأصلية ـ إذا كان ثمة من «قضية».

وفى حين يبقى الجميع «منشغلين»، تبقى حقيقة أن الجميع «خاسرون». سواء من اعترفوا بذلك، أو من اعتقدوا بغير ذلك، يستوى في ذلك من قدموا البلاغات ـ والبلاغات المضادة ـ ومن أعلنوا البيانات، ومن أصدروا القرارات. ومن كانوا أيضا موضوعا لكل ذلك.

وللأسف، وعلى غير عادة «الحوار»، سينتهى «الشجار» تاركا كل الأسئلة مفتوحة. فالجدل الذى ظنه البعض فكريا، لم ينته إلى إجابة واحدة يقدمها لمجتمع يرقب ـ فى هدوء أحيانا وانفعال أحيانا أخرى ـ ساسته ومفكريه.

فى «وجهات نظر» كان قرارنا الأولىّ أن نظل بعيدًا عن ساحة اختلطت فيها كل الأوراق. ثم بدا لنا ، ولعلكم معنا، أن ندلل على موقفنا الثابت من أن الاختلاف فى الرأى لا يتطلب غير «الحوار».

والحوار يعنى فى تفسيره النهائى: تبادلا لـ «وجهات نظر». وهذا ما حرصنا عليه بمقالين أحدهما للدكتور سليم العوّا، والآخر لرئيس التحرير.

وإن كنا قد حرصنا أيضا على ألا يجرفنا «الجدل المستنزف للطاقات» وتستغرقنا الأجواء المحيطة. فبقى مقالنا الرئيسى ـ وهو أيضا يركز على فضيلة الحوار ـ مشغولا بقضايانا الحقيقية. ففى «حديث مستطرد عن السياسة الداخلية» يكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن شواغل ومشاكل مصر.. وعن «الولاية والإدارة».

رغم الرأى القائل بأن الصحفيين ليسوا بساسة، ولاينبغى أن يكونوا، إلا أن الواقع ـ عبر التاريخ كله ـ يقول بأن الصحافة لم تكن أبدًا مجرد نافذة على ما يجرى فى معترك السياسة. بل كانت ـ بإرادتها أحيانا وبإرادة آخرين فى معظم الأحيان ـ أداة فاعلة فى هذا المعترك.

تشير وثائق وكالة المخابرات المركزية بوضوح إلى محاولات دءوب لمسئولى الوكالة الذين تولوا ملف انقلاب ١٩٥٣ العسكرى فى إيران، لاستخدام الصحافة على نطاق واسع للتعتيم على الدور الأمريكى «الاستخباراتى» فى الإطاحة برئيس وزراء إيران المنتخب، والإيحاء بأن القصة كلها كانت «انتفاضة داخلية ضد الحكومة ذات الاتجاه الشيوعى». وبالفعل لم يذكر أحد من المراسلين الأمريكيين قط أن بعضا من الاضطرابات كان من إعداد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون.

ليس ذلك فقط، فوثائق الاستخبارات تحكى كيف أن ضابطا من ضباط الوكالة ـ كان يعمل صحفيًا من قبل ـ استغل صلاته المهنية القديمة ليدس بين برقيات «أسوشيدبرس» مقالا من طهران عن المرسومين الشاهانيين «اللذين كانت الاستخبارات المركزية نفسها قد كتبتهما».

ولكن يبقى للعملة دائمًا وجه آخر. فاليوم، وبعد ما يقرب من خمسة عقود من التعتيم «المتقن والمتعمد»، كشفت «الصحافة» ـ أيضا هذه المرة ـ تفاصيل العملية السرية للانقلاب «الأمريكى» ضد مصدق فى طهران، وعلى لسان المخطط الرئيسى للانقلاب.

وتبقى قيمة هذا التقرير الصحفى فى أنه قبل اليوم لم يكن أحد أبدًا يستطيع أن يقطع بالدور الحقيقى للاستخبارات الأمريكية فى تخطيط و«تنفيذ» الانقلاب العسكرى الذى أطاح برئيس الوزراء الإيرانى المنتخب محمد مصدّق ليدعّم الشاه محمد رضا بهلوى قبل نصف قرن من الزمان خاصة بعد أن توالى تقاعد المشاركين أو وفاتهم، دون الكشف عن التفاصيل الأساسية. وكانت الوكالة المركزية الأمريكية قد ذكرت أن السجلات الخاصة بهذا الموضوع قد «أتلفت».

الوثيقة التى مازالت محظورة، والتى تكشف تفاصيل أول عملية ناجحة تطيح بها المخابرات الأمريكية بحكومة أجنبية، نشرتها الـ «نيويورك تايمز» وتنشرها «وجهات نظر» بترتيب خاص.

وجهات نظر

محمد حسنين هيكل

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية



لا يمكن فصل أى مجال من مجالات المعرفة والفكر والفعل عن السياسة باعتبار أن السياسة هى الاهتمام بالشأن العام، وتشخيص وتوصيف ظروفه، وتحديد أولوياته - فكراً ومتابعةً ومشاركةً، وتصدياً إذا توفر الاستعداد وتحققت الأهلية، لمسئولية إدارة موارده وإمكانياته واختياراته، لتحقيق أقصى المطلوب - أو أقصى الممكن - من المطالب والضرورات الوطنية

١

عن العمل السياسى ووسائله!

سألنى كثيرون والسؤال مشروع : «لماذا لا أكتب عن الشئون السياسية المصرية؟ وهل أكتب عن شواغل ومشاكل العالم والإقليم - كما فعلت فى أعداد سابقة من هذه المجلة - ثم أنسى أو أتناسى شواغل ومشاكل مصر لا أقاربها، فإذا فعلت فمن بعيد ودون تحديد؟

وإحساسى - ولعله لم يكذب علىّ - أننى مطالب بالرد على هذا السؤال توضيحاً لواقع الحال، واحتراماً للسائلين واعترافاً بحقهم.

وبداية فإن هذه المجلة ليست مجلة سياسية بالدرجة الأولى، وإنما هى بالقصد من إصدارها مجلة ثقافية، أدبية، فنية، ثم سياسية بعد ذلك.

أذكر ذلك عارفاً أنه لا يمكن فصل أى مجال من مجالات المعرفة والفكر والفعل عن السياسة باعتبار أن السياسة هى الاهتمام بالشأن العام، وتشخيص وتوصيف ظروفه، وتحديد أولوياته - فكراً ومتابعةً ومشاركةً، وتصدياً إذا تَوَفَّرَ الاستعداد وتَحَقَّقَت الأهلية، لمسئولية إدارة موارده وإمكانياته واختياراته، لتحقيق أقصى المطلوب - أو أقصى الممكن - من المطالب والضرورات الوطنية.

وإذا كان ذلك، فإن كل شأن عام سياسة، بما فى ذلك الثقافة والأدب والفن، وحتى الاقتصاد رغم اجتهادات تتصور أسبقية للاقتصاد على السياسة ناسية أن ذلك ينزع عن القرار الاقتصادى إنسانيته (لأن الاقتصاد فى خدمة بشر)، وناسية أيضا أن ذلك ينزع عن القرار الاقتصادى مشروعيته (باعتبار صدور القرار الاقتصادى - حتما - عن سلطة سياسية تملك شرعية الاختيار النهائى مستندة على إرادة أوسع وأشمل من مذكرة موظف أو حتى رأى خبير قد يرى وجها من وجوه الحقيقة، وتغيب عنه وجود يتحمل مسئوليتها غيره - وبالتحديد سياسة فوضتها الأغلبية وأناطت بها - دستورياً - مسئولية القرار).

على أنه وحتى إذا استحال فصل السياسة عن مجالات الشأن العام بما فيها الثقافة والأدب والفن وغيرها - فإن لكل مجال مقاديره، ومعاييره، ومواقع التركيز المطلوبة له أكثر من غيرها فى لحظة معينة، أى أنه تركيب تتفاوت فيه المكونات.

وهكذا فإنه مع التسليم بأن السياسة محيط واسع وغير محدود لكل الأنواع والأجناس، فإن هذه المجلة اتخذت لنفسها موضعاً أقرب إلى الثقافة والأدب.

وربما أضفت أننى فيما كتبت لهذه المجلة زدت - ربما أكثر من اللازم - فى جرعة السياسة مقدارا ومعيارا، وتركيزا أيضا، لكنى آثرت أن أفعل ذلك هنا عن أحد طريقين :

■ أولهما طريق أحاديث موصولة على نحو أو آخر بالتاريخ الجارى أو القريب، وقد حاولت ما حاولت مقتنعا بأن التاريخ ليس عملية تسجيل لوقائع ما جرى، لأن الوقوف عند هذا الحد تدوين تختص به السجلات تحفظ ما فيها، ولعلها أيضا تغيبه عن النظر. وأما التاريخ أو الالتفات نحوه، خصوصا ما كان منه مُعاصراً - جارياً أو قريباً - فهو جهد يأخذ على نفسه أن يراجع ويقيم ويضىء إلى أوسع ما يسمح به الزمن من كشف للخفايا، أو يُوَفِّره التقدم من أدوات للتحليل.

[وذلك ما فعلته فى فصول كتبتها لهذه المجلة عن الملك «حسين»، وعن الملك «الحسن»، وعن سوريا، وعن يوجوسلافيا، وعن غير ذلك. ومعظمه التفات إلى التاريخ بمنطق أن السياسة تاريخ فى حالة سيولة وخلق عند مرحلة التكوين وقبل أن تتماسك الكتلة وتشد الحياة قامتها!]

■ وأما الطريق الثانى - الذى حاولت عليه - سياسياً - فيما كتبت لهذه المجلة - فهو اختيار زوايا للحوار مع المصالح العليا للأوطان، وبينها الوطن المصرى بالطبع، ومثاله ما كتبت أخيرا عن المسلمين والأقباط، مُرَكِّزاً فيه على اعتقاد لدىَّ شرحته - أو جرّبْت - مؤداه أن المسئولية الأولى لرئاسة الدولة فى مصر مكلفة بقضيتين تسبقان غيرهما بمراحل، وهما : قضية مياه النيل - وقضية الحياة المشتركة لدينين على أرض وطن واحد.

وكل ما عدا ذلك يمكن اللحاق به.

....

....

عندما قرأ الفنان الأستاذ حلمى التونى هذا المقال لكى يقرر نوع الرسم الذى يصاحبه، كان اختياره خارجا عن المألوف، رأى أن يكون التوضيح الفنى للمقال، صورة لتمثال محمود مختار الشهير «الخماسين».

على أنني خارج صفحات هذه المجلة تعرضت للقضايا السياسية الرئيسية ضمن مقالات ومحاضرات ولقاءات صحفية ظهر كثير منها في مصر، ولقاءات إذاعية وتلفزيونية سُمِعَ بعضها وشوهِدَ هنا قادماً من مواضع خارج الوطن، والأسباب معروفة، ومفهومة، ولا أريد أن أطيل في أمرها أو أبالغ في أهميتها!!

ومن تلك المواضع فقد قلت ما أردت قوله في وقته، وظني أن فترة صلاحية بعضه ما تزال سارية المفعول!

وإذن فقد كتبت عن الشئون السياسية وقلت - وفعلت ذلك هنا وفعلته هناك!

لكنه من الحق أن أشير إلى أنني في كل ما كتبت وقلت حسبت انه من واجبي - وواجب غيري - أن يقول كل منا كلمته ثم يمشي (على حد تعبير للفيلسوف الروماني الأشهر «لوشيوس أنايوس سنيكا»). وذلك عن تَصَوُّرٍ يرى أن طبائع السياسة المعاصرة لا تحتمل شدة الإلحاح والتكرار، فنحن أمام أحوال مستجدة تؤثر على العمل السياسي ووسائله، وهي تُبَدَّل فيها وتُغَيِّر، وتفرض عليها مُعَدَّلات سرعة لها قدرة على عبور المسافات خطفاً للبصر بما يستتبعه ذلك من تغييرات متوالية في المشاهد والصور!

وعلى سبيل المثال فإنه منذ قامت الثورة الفرنسية كانت وسيلة العمل السياسي هي تعبئة وعي الجماهير، وتحريك أكبر كتلها ودفعها مباشرة لمواجهة معاقل الطغيان سواء في قصور الملوك (فرساي) أو في سجونهم (الباستيل). ثم جاءت تجربة نابليون لتكشف أن «تعبئة أوسع الجماهير وتحريك كتلها يعتمد بالدرجة الأولى على استثارة عواطفها، وتلك مغامرة لأن العواطف المستثارة بالتعبئة تتحرك قبل أن تفكر، وتنطلق قبل أن تُدَقِّق، وهكذا فإن جماهير الثورة الفرنسية التي صرخت بنداء الجمهورية في وجه «لويس السادس عشر» وهو يعتلي المقصلة كانت نفسها التي هتفت أمام «نابليون» وهو يعتلي العرش إمبراطوراً لفرنسا!

وكان ذلك عصرا في وسائل العمل السياسي وممارساته.

....

....

وعندما جاءت الثورة البلشفية في روسيا فقد كان زعيم الثورة وقائدها «فلاديمير إيليتش لينين» يقول أن مهمة الثورة أن تصل بعقائدها وشعاراتها إلى أوسع الجماهير حيث تتواجد. وفي تلك الأيام كانت أوسع الجماهير محتشدة في المصانع والحقول والجامعات وشوارع المدن الكبرى، ثم أفاقت الثورة البلشفية من نشوتها عندما اكتشفت في أواخر الثمانينات أن أوسع الجماهير لم تعد موجودة بتجمعاتها في المصانع والحقول والجامعات وشوارع المدن، وإنما تبعثر الجمع أفراداً يجلس كل منهم وحده صامتا في غرفة وأمامه جهاز تليفزيون يملأ الغرفة أصواتاً، وألواناً.

أي أنها وسائل الاتصال الحديث وليس هدير الحشود وخفق البنود!

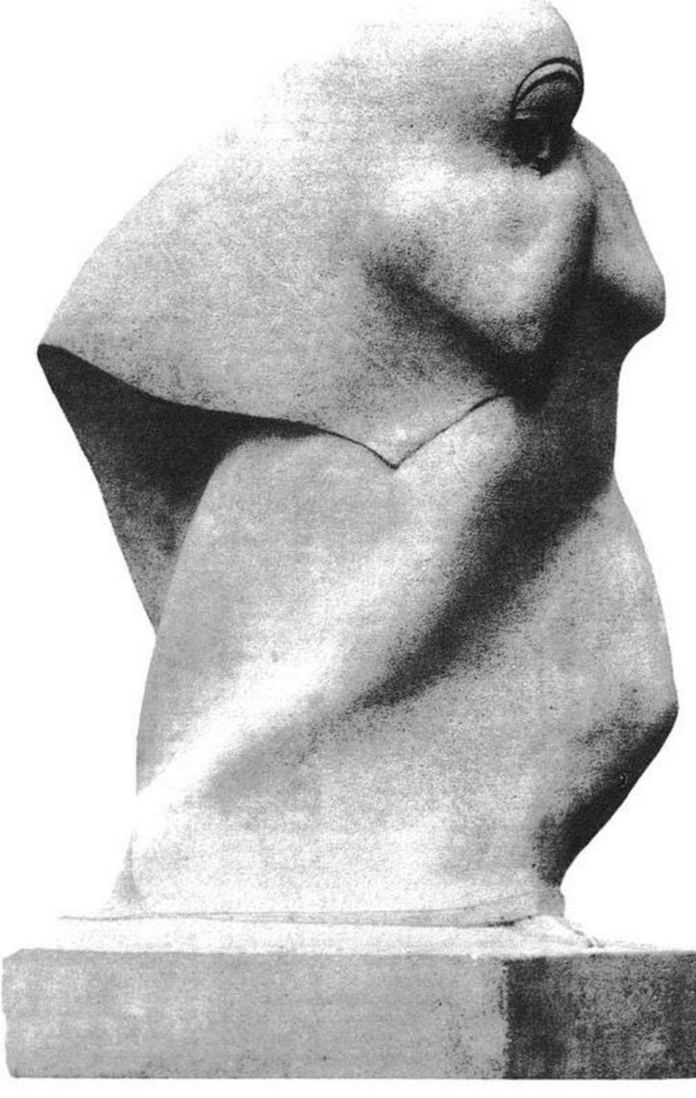
وكان ذلك عصراً ثانياً في وسائل العمل السياسي وممارساته.

....

....

وجاء الدور على النموذج الأمريكي في ممارسة السياسة، وهو نموذج يستخدم الإعلام لتوجيه رسالة قصيرة محددة، تختزل العقائد والمبادئ في عبارة محبوكة يمكن «استهلاكها» بسهولة كأنها قطعة «هامبورجر» جاهزة للبلع، أو زجاجة «كوكا كولا» جاهزة للشرب، وهكذا ترددت في الولايات المتحدة الأمريكية عبارات لها رنين مثل : «العقد الاجتماعي العادل» (على أيام «روزفلت») - و«الحدود الجديدة» (على أيام «كنيدى») - و«المجتمع العظيم» (على أيام «جونسون») - و«الوفاق الدولي» (على أيام «نيكسون») - و«النظام العالمي الجديد» (على أيام «بوش») - و«رخاء غير مسبوق» (على أيام «كلينتون»).

وكانت هذه الرسائل شحنات موجهة باستمرار إلى ناخب جاهز ... معرض ومكشوف، ثم إنه كان لا بد من زيادة تكثيف الجرعات حتى يستمر المفعول، ولم يستطع الإعلام مجاراة الشوط إلى نهايته، وكان أن أصبح الإعلان حامل الرسائل إلى النهاية سابقاً على الإعلام، وهنا اشتدت حاجة السياسة إلى المال وقودا للحملات الانتخابية وعماداً لفُرَص نجاحها، ولم يعد مُهِمّا أن يكتشف الناخب الأمريكي بعد فوات الأوان أن الرسالة التي وصلته والعبارة المحبوكة التي أخذته كانت عهداً بغير تحقيق ووعداً بغير وفاء. والسبب أن كل رئيس أمريكي يعرف سلفاً أن إقامته في البيت الأبيض محددة، مقيدة بمدتين اثنتين، ثماني سنوات لا تزيد بنص دستورى لا يمكن الالتفاف عليه، ولا موضع فيه لثغرة، وكان من تداعيات ذلك ما وصلت إليه الأمور حين اكتشف الرئيس الحالي «بيل كلينتون» أن البيت الأبيض أصبح خالياً إلا منه وحده - في هذه السنة الأخيرة من إدارته، فزوجته هجرته مُرَشَّحة لمجلس الشيوخ على مقعد نيويورك، ونائبه «آل جور» تركه بحثاً عن فرصة



حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

للعودة إلى البيت الأبيض رئيساً وليس نائباً، ومع زوجته ومع نائبه خرج معظم موظفي البيت الأبيض لأن «كلينتون» في رأيهم شمس غاربة، بينما «هيلاري» لديها أمل، و«جور» مستقبل محتمل. وكان أن الرئيس الأمريكي وهو ما زال شاغل المكتب البيضاوي الشهير لتسعة شهور، وَجَدَ نفسه عاطلاً، وارتأى أن يملأ فراغ وقته بتصوير فيلم بعنوان «الأيام الأخيرة - رئيس عاطل» - وفي مشاهده ظهر يغسل سيارته أمام البيت الأبيض، ويكنس الممر المؤدي إلى مكتبه، ويُشَذِّب أوراق الشجر في حديقة الورد، ويقص الحشائش. ثم تمادى «كلينتـــون» بروح المرح - أو ربما المرارة - فعرض هذا الفيلم على طاقم الصحفيين المعتمدين في البيت الأبيض، وقد جلس من حضر منهم ست دقائق يتفرجون على شريط مضحك لـ«رئيس عاطل»!

وكان ذلك عصراً ثالثاً في وسائل العمل السياسي وممارساته.

....

....

لكن النموذج الأمريكي مثل «مُستَحدَثات» كثيرة ظهرت في أمريكا لم يلبث أن طرح نفسه على الآخرين، وخصوصاً في أوروبا، وبينهم بريطانيا. وبرغم تقاليد عريقة في وسائل العمل السياسي وممارساته في ذلك البلد فإن النموذج الأمريكي وَجَدَ من يَتَلَهَّف عليه، وآخره تجربة «توني بلير» الذي نجح في الانتخابات قبل أربع سنوات. والحاصل أن «بلير» لم ينجح ويصل إلى الحكم بقوة مبادئ حزب العمال وإلهامها، وإنما على العكس نجح بنسيان هذه المبادئ وإزاحة بقاياها داخلا على الناخبين بعاصفة من العبارات مُحكمة التعبئة، والشعارات سهلة المضغ والبلع، والصور الخاطفة، والانطباعات المؤثرة. وكانت وصفة «بلير» للنجاح في الانتخابات هي حزب حديدي يلتزم نظاما لا يخرج عنه أحد، ناسياً أن تنوع الآراء داخل حزب العمال كان يعطي لهذا الحزب حيوية ذات مذاق خاص، لكن «بلير» مع الضرورات اللازمة لعاصفة الإعلان الحامل لرسالة واحدة محكمة ومحبوكة أصبح يرى في تلك الحيوية الخاصة لحزب العمال دعوة للانقسام، وبدلا منها فإن المطلوب هو منهج التليفزيون يحتاج إلى سيناريو مكتوب بحروفه ونبراته، وأدوار مرسومة بحركاتها وإشاراتها، إلى جانب إخراج لا مجال فيه لحوار من خارج النص، ولا لنجوم من خارج المسار كما كان يفعل بعضهم في الماضي القريب لحزب العمال مثل «إنيورين بيفان» و«مايكل فوت» و«توني بن».

وقد فرض «بلير» رؤيته للعمل السياسي واستطاع اكتساح حزب المحافظين وحصل على أغلبية لم يسبق لها مثيل في التجربة البرلمانية البريطانية.

لكن ظروفاً أخيرة أثبتت أن النموذج الأمريكي في السياسة صعب خارج التجربة الأمريكية ودستورها الذي أحسن الآباء المؤسسون للجمهورية صياغة مواده، وتأكيد سلطة نصوصه وقدرتها على المراجعة والموازنة باستمرار.

[وإذا كانت تجربة انتخابات عمدة لندن («كِن ليفنجستون») قبل أسابيع قليلة قد دَلَّت على شيء، فدلالتها التأكيد - مرة أخرى - على أن النموذج الأمريكي في السياسة غير قادر على النجاح في غير الولايات المتحدة، ذلك أن عمدة لندن الجديد عمالي أصيل، وصوت ناشز على حروف ونبرات السيناريو المكتوب، ثم هو نجم من خارج المسار، وقد تمرد وأعلن العصيان، وحاول «بلير» أن يمنعه من ترشيح نفسه لعمودية لندن، ووصل إلى حد طرده من الحزب واصفاً نجاحه في الانتخابات - إذا حدث بمعجزة - بأنه «فضيحة مخزية للحزب وعار»! - لكن «ليفنجستون» خاض معركته مستقلا واكتسحَ، لأن الناخب البريطاني أعطاه من حجم الأصوات ما فاق كل تَوَقُّع حتى تحَوَّلَ نجاحه إلى إهانة لرئيس الوزراء أمام المتمرد المنشق عليه - وفي نفس الوقت فإن مرشح «بلير» لعمودية لندن «فرانك دوبسن» (وكان وزيرا للصحة طلب منه «بلير» وضغط عليه حتى يترك الوزارة ويخوض انتخابات العمودية لإسقاط «ليفنجستون») لم يسقط فقط وإنما جاء ترتيبه الرابع أسفل القائمة، وتوافق ذلك مع انتخابات المحليات وقد خسرها حزب العمال، وأعقبتها استطلاعات للرأي العام في نفس الفترة أظهَرَت أن الناخب البريطاني أصبح يرى «بلير» رَجُلاً «مبرمجاً» «متكبراً» يطلب السلطة دون سياسة مفهومة يحكم على أساسها، وبغير مبادئ مقبولة يسعى لتحقيقها. ثم إنه ليس «عنده أكثر مما ترى العين منه»، وأكثر مما تسمع الأذن عنه، وكلها مَشاهد مرسومة، وأصوات تدرب عليها صاحبها والتزم كأنها سيناريو فيلم أو مسرحية - سطح بلا عمق، وعنوان بلا موضوع!

زاد - على أوهام الزمن الجديد - ومع مراحل أكثر تعقيداً - أن زعماء العالم الثالث - والشواهد كثيرة في آسيا وأفريقيا - راحوا يطلبون من رعاياهم أن يتحلوا بكفاءة الزمن الإلكتروني، أما هم - هؤلاء الزعماء - فقد أصروا على الاحتفاظ لأنفسهم بسلطان الزمن القبلي. وكان ذلك تناقضا في ضرورات الأشياء يضاف إلى تناقض سبقه في تقليد الأشكال على غير فهم أو على غير اقتناع!

وزاد الحرج حين انكشف أن «بلير» - وقد عَرَفَ أن مُرَشَّحَه لعمودية لندن سوف يسقط أكيداً - أصدر توجيهاته إلى أجهزة الحزب بأن تدعو لانتخاب «ستيف نوريس» مُرَشَّح حزب المحافظين، وبذلك يسقط المتمرد عليه ثم يكون في مقدوره أن يلومه على ضياع عمودية لندن من الحزب بادعاء أن تنافس اثنين من العمال هو الذي فتح الفرصة لمرشح المحافظين!

وفشلت محاولة الدقيقة الأخيرة، وانكشف موقف رئيس حزب العمال - رئيس الوزراء!

وبان أن اتجاه الرأي العام البريطاني يطالب «توني بلير» بأن يتواضع، وأن يحد من التَصَنُّع في أدائه قولاً وفعلاً، وأن يكف عن تمثيل «الدور». وكان عليه أن يستنتج أن ما جرى له إنذار مبكر، إذا فهم درسه تنفتح أمامه فرصة ثانية في انتخابات السنة القادمة، وإذا لم يستوعبه فهو أمام خطر أكيد من داخل حزبه أو من خارجه - وهكذا فإن النموذج الأمريكي - الرئاسي - لم يُحَلِّق عالياً في أجواء السياسة البريطانية!]

ومن الملحوظ أن واحداً من أهم الساسة الأوروبيين في القرن العشرين وهو «هيلموت كول» (الرجل الذي حقق وحدة ألمانيا بعد الهزيمة الساحقة في الحرب العالمية الثانية، وبعد تقسيم إلى شرق وغرب دام أكثر من أربعين سنة أوشكت أن تجعل تقسيم الشعب الألماني أبدياً) - تعثر وأضاع مجده في مزالق النموذج الأمريكي. وكان المنزلق الذي تدحرج «كول» إليه هو «الإعلان» يُعَوِّض ما يُقصِّر فيه «الإعلام» من الحملات الانتخابية، ولم يجد «كول» كفايته من مصادر التمويل الظاهرة (الكافية لتمويل الحملات الإعلانية) فاتجه إلى المصادر الخفية وقوداً لمحركات العمل السياسي. وكان ذلك هو الذي أوقع «كول» من قمة المجد إلى هاوية الفضيحة.

وهكذا في ألمانيا - وحتى قبل بريطانيا - ثبت أن النموذج الأمريكي في السياسة له شروط أخرى.

وأصبحت أزمة «بلير» و«كول» درساً يستحق القراءة بعناية.

وفي كل الأحوال فإن التجربة في نهاية المطاف أصبحت عصراً رابعاً في وسائل العمل السياسي وممارساته.

....

....

وكان أن دول العالم الثالث، أو معظمها، وهي جميعا وافدة على التجارب السياسية، حديثة عهد بنماذجها - صنعت لنفسها خليطا من كل شيء وصل إلى علمها، أو تابعته فاتبعته متوهمة أنه الزمن الجديد. ثم استفحلت الظاهرة بعد غياب المؤسسين الأول لحركات التَحَرُّر والاستقلال الوطني، ممن كان شاغلهم الأساسي مطلب تحرير أوطانهم قبل أي اعتبار آخر.

ثم زاد - على أوهام الزمن الجديد - ومع مراحل أكثر تعقيداً - أن زعماء العالم الثالث - والشواهد كثيرة في آسيا وأفريقيا - راحوا يطلبون من رعاياهم أن يتحلوا بكفاءة الزمن الإلكتروني، أما هم - هؤلاء الزعماء - فقد أصروا على الاحتفاظ لأنفسهم بسلطان الزمن القبلي.

وكان ذلك تناقضا في ضرورات الأشياء يضاف إلى تناقض سبقه في تقليد الأشكال على غير فهم أو على غير اقتناع!

وهكذا فإنه في التجارب السياسية للعالم الثالث اختلط ملوك «البوربون» مع إمبراطورية «نابليون»، وتداخل «آل رومانوف» مع الحزب الشيوعي السوفيتي بقيادة مؤسسه «لينين»، وساح «كنيدي» و«كلينتون» على «بلير» و«كول»، وأصبحت لوحة العمل السياسي في هذه البلدان من العالم الثالث أشبه ما تكون بلوحة تجريب لكل مدارس الرسم في وقت واحد، من الكلاسيكية إلى التأثيرية، ومن التكعيبية إلى السوريالية، ومن التجريد ... إلى الكاريكاتور!

وفي هذا المناخ ظهرت في العالم الثالث نماذج غريبة لشخصيات أغرب، فالنموذج الإمبراطوري لـ«نابليون» استعاره «بوكاسا» في جمهورية أفريقيا الوسطى، ونموذج «كوميونة باريس» الثورية الأولى استعاره «بول بوت» في كمبوديا لأوسع حمَّام دَم في التاريخ، ونموذج «ليوبولد» الذي اعتبر الكونجو ملكاً شخصياً له استعاره «موبوتو» بعد مائة سَنة فاعتبر الكونجو مِلكية مطلقة يحكمها هو لنفسه وبنفسه، ونموذج الرأسمالية الليبرالية استعاره الجنرال «بينوشيه» ليصنع حرية السوق بالنارِ والدَم في شيلي! وغيرهم، وغيرهم (وقد أثرت اختيار النماذج الأصلية وطبعاتها المستجدة لشخصيات من بعيد دَفعاً للظنون).

وكان ذلك عصراً غريباً وعجيباً في السياسة، ولا تزال معنا بعض نماذجه إلى هذا اليوم من منتصف السنة الأولى من القرن الواحد والعشرين!

على أن هذه النماذج على تنوعها لا تصنع قاعدة عامة تسري على العالم الثالث كله - فذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً بإطلاق - والصحيح أنه كانت هناك تجارب تطلعت أمامها وأدارت البصر حولها، ولعلها اتعظت وتَرَوَّت!

....

....

وفي كل الأحوال فإن أوضاع العالم الثالث كله، سواء في ذلك نماذجه الغريبة والعجيبة في العمل السياسي ووسائله، أو تلك التي حاولت أن تتعظ وتتروَّى - كانت أحوالاً ترجح التأني في الحكم عليها، خصوصاً بالنظر إلى تباين مراحل التطور، وضغوط القوى الخارجية، وتزاحم المذاهب الفكرية، وجموح تطلعات البشر.

وذلك كله كان يُزكي منطق الفيلسوف الذي قال منذ قرابة ألفي سنة : «قل كلمتك وامش»!

وقد قالها وَصفة لنظرية التغيير بالتطور، ولم يقلها وصفة لنظرية التغيير بالانقلاب، فهذه قصة أخرى! ■

٣

... «الولايـــــة» والإدارة

■ ربما اضفت اننى ألتزم - ربما - أكثر من غيرى - بمنطق «قل كلمتك وامش»، ولى فى ذلك أسباب.

مقدمة الأسباب أننى أنتمى إلى منهج فى العمل الصحفى هو أقرب إلى التقرير الإخبارى: بمعنى أنه التمهيد لأى موضوع بالوقائع الرئيسية فيه والمستجدة عليه، ثم يتبع ذلك طرح الأفكار الرئيسية المحيطة بهذا الموضوع، وفى الأخر يجىء الدور على استخلاص المعانى والدلالات. وهكذا فهو بالتسلسل المنطقى:

- وقائع - أى خبر أكيد ومُوَثّق قدر ما هو ممكن.

- تحليل للخبر دقيق وواضح قدر ما هو متاح.

- وفى النهاية تعليق أو رأى صريح - ومسئول - قدر ما هو مُستطاع!

ومثل هذا المنهج بالطبيعة لا يحتمل طول الوقوف ولا شدة الإلحاح لأنه منهج يسعى أو يحاول السعى إلى عقل قارئه، ولعله يستثيره للحوار معه فى إطار متفق عليه، ويشارك معه فى مناقشة هذا المتفق على إطاره - وتحليله، ثم استخلاص رأى فيه قابل لدرجات من التعدد دون الارتداد مرة أخرى إلى الخلاف على مُسلّمات وبدهيات، وإلى الصراع على مداخل ومقدمات - وذلك ما يحدث معظم الأحيان ويُحَوّل كل حوار إلى صدام، وكل مناقشة إلى فُرقة تعيد نفسها كل مرة، وتعود لتبدأ قصة الحياة من نبضة الخلية الأولى!

....

....

يلحق بذلك أن الثورة المستجدة على وسائل الإعلام فى زماننا تُزكى هذا المنهج وتدعو إليه بحقائق الأمور، ذلك أن تعدد المصادر وتدفق المعلومات وقدرة الصور على نقل الوقائع وضخ الإيحاءات — تجعل مناهج أخرى فى العمل الصحفى سلالات معرضة للإبادة فقدت مناعتها فى مناخ لم تعد قادرة على الحياة فيه! ومن ذلك مثلاً منهج «التعبئة»، ومنهج «الإنشاء»، ومنهج «الإثارة» - فهذه المناهج كلها تعتمد لغة الضغط والإلحاح، لكن تعدد المصادر وتدفق المعلومات وقدرة الصور تقتضى تفتحاً وقبولاً واستعداداً يستجيب للمتغيرات.

وإذن فهذا المنهج: «قل كلمتك وامش» يمثل لى - أولا - خياراً مهنياً - ثم هو يتمثل أمامى - ثانيا - منطق عصر.

هناك بعد ذلك عامل ذاتى يكاد يلزمنى بمنهج «قل كلمتك وامش»، وملخصه أننى أستشعر فى أعماقى انحيازاً بجزء من قلبى إلى «زمن معين»، وهذا انحياز لا أخفيه ولا أداريه، وهو انحياز لا يغرينى به حنين إلى ما مضى، وإنما يشدنى إليه اقتناع حقيقى بأهمية تجربة إنسانية كبيرة تمثل المساحة الفعلية لحيوية الأمة العربية فى القرن العشرين.

ولعلى فى ذلك متأثر بمدرسة أستاذ التاريخ العظيم «إريك هوبسباوم» الذى يرى أن القرون لا يصنعها تعداد السنين (مائة سنة)، وإنما تصنعها كثافة الأحداث وعمر وعمق التجارب الحية والفاعلة فى حركة المجتمعات الإنسانية، أى أن «هوبسباوم» لا يضع فى حساب التاريخ سنوات الطفولة ولا سنوات الشيخوخة ولا فترات النوم: لأن الطفولة بلا إرادة، والشيخوخة بلا قوة، والنوم - فى أحسن أحواله - أحلام جميلة بلا فعل مفيد!

هكذا فإن القرن العشرين فى حساب «هوبسباوم» (وبالتقويم الغربى) هو الفترة التى بدأت مع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، واختتمت بنهاية الحرب الباردة سنة ١٩٩١. أى أن القرن العشرين على هذا الأساس وبحساب «هوبسباوم» ليس مائة سنة، وإنما هو ٧٥ سنة فقط - والباقى وهو ٢٥ سنة ليس داخلا فى حساب التاريخ الغربى لأنه مُوَزّعٌ بين الطفولة والشيخوخة والنوم!

وإذا أخذت بهذه القواعد فى حساب القرون فظنى أن حساب القرن العشرين (بالتقويم العربى) هو الفترة من أعقاب الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية سنة ١٩١٩ (وقد تزامنت إلى حد كبير مع الثورة العربية فى الشام وشبه الجزيرة العربية، ومع إعلان وعد «بلفور» بوطن لليهود فى فلسطين) - ثم إن هذه الفترة امتدت إلى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. وهكذا فإن القرن العشرين (بالتقويم العربى) وفق هذا الظن ليس مائة سنة، وإنما هو خمسون سنة على وجه التقريب، أى أنه نصف قرن من حيوية التاريخ. (وليست هناك حاجة بأحد إلى اصطناع الأدلة وسوق البراهين، ذلك أنه حينما «تقول» أى سياسة و«تتصرف» على أساس «أن أكثر من ٩٩٪ من أوراق أهم قضاياها لم تعد فى يدها» - فمعنى ذلك ببساطة أن إرادتها لم تعد عنصراً فاعلاً فى تقرير مصائرها، وهذا بدوره يعنى أنها هاجرت من التاريخ أو استعفت!)

وربما أضفت أن حيوية التاريخ - فيما أحسب - هى الخروج - بيقظة واستعداد - إلى متغيرات العصور، والتعامل معها، وقبول تحدياتها وصراعاتها، والتفاعل مع أحلامها وطموحاتها، وليس القعود وتجنب المخاطر طلباً للسلامة بظن أن الخروج إلى الطريق العام (مجرى الحركة التاريخية) يُعَرّض السائرين عليه لمفاجآت القدر ولو تحت عجلات سيارة مسرعة، وبالتالى فإن الاختباء أسلم - وظنى أن الاختفاء من القدر يساوى الاختفاء من التاريخ!



لكنى - وهنا النقطة التى أقصدها بعد هذا الاستطراد - أذكّر نفسى دائماً بحقيقة أننى منحاز - كما قلت - ولو بجزء من قلبى، ومع أنى أحاول ألا أسحب هذا الانحياز على عقلى موقناً أن حركة التطور لا تتوقف - إلا أننى أتَحَوّط - أو أحاول - ولهذا ألزم نفسى بمنطق «قل كلمتك وامش». وتحسبى أن الإلحاح إذا جاز من غيرى فهو غير جائز لى (هذا مع العلم بأننى لا أعتقد بوجود إنسان غير منحاز إلى ناحية أو أخرى، فانحياز البشر جزء من طبيعة البشر وإلا فَقَدَ الإنسان إنسانيته وتَحَوّلَ جماداً لا يحس، ولا يشعر، ولا يُقبل على أشياء ويعرض عن غيرها بوازع شعور أو ضمير، وهذه مسألة يطول الشرح فيها وكذلك التفسير!)

والخلاصة أننى مستعد للاعتراف بانحيازى (حتى وإن أنكر غيرى)، ثم إننى أغالب بالعقل هذا الانحياز (جهد الممكن)، ناظراً إلى مستجدات يتواصل فعلها ويشتد فى حقبة من التاريخ الإنسانى فوارة (بالعلم والتكنولوجيا والمعرفة والثقافة) وبمعدلات ووتائر لم يسبق لها مثيل طوال تجربة البشر فى صنع القرون على مسار التاريخ!

ولعله من هنا أننى أحاول أن أراجع نفسى باستمرار فيما أقوله عن شئون السياسة الداخلية، متمهلاً قبل أن أقول، ماشياً دون تلكؤ بعد القول.

....

....

تضاف إلى أسباب مراجعة النفس أسباب أخرى تدعو إلى منهج «قل كلمتك وامش»، وهى أسباب عاطفية أو تكاد أن تكون كذلك:

— منها أننى قلت كثيرا طول حياتى، وآن أن أجعل من الكثير قليلا!

— ومنها إحساسى بأنه كما أن القرون لها حسابات تطول أو تقصر، فإن البشر لهم أعمار صلاحية افتراضية لا بد أن تحذف منها هى الأخرى سنوات الطفولة والشيخوخة والنوم، ولعله من الخير للمشتغلين بالشأن العام أن يرجعوا بمسافة إلى بعيد (وليس إلى وراء)، وأن يتركوا للناس - إذا شاءوا - أن يسألوهم «لماذا ابتعدوا؟» بدل أن يسألوهم «لماذا يتلكئون بعد فوات الأوان؟». ومن هنا ما قلته فى يوم من الأيام بأننى أفضّل أن يسأل الناس - إذا سألوا - «لماذا لا يكتب هذا الرجل؟!» - بدل أن يسألوا «لماذا يكتب هذا الرجل؟!»

وهكذا فإننى - ومنذ أكثر من ربع قرن - آثرت أن يصل صوتى إلى الناس من بعيد، وأن يصل رفيقاً بالوقائع والناس والظروف التزاماً بأصول منهج، واقتناعاً بمنطق عصر، واتساقا مع مشاعر ذاتية تختلط فيها التجربة - مع الأمل المتجدد - مع حركة التطور المتقدمة فى الزمان إلى أمام. ولعل ذلك - بدوره - تزكية إضافية - رابعة أو خامسة - لمنهج ومدرسة «قل كلمتك وامش»!

وتظل هناك غير المنهج والمدرسة والذاكرة والمشاعر - حقائق موضوعية هامة تستدعى - ولا أقول تفرض - منطق «قل كلمتك وامش» - فى أى محاولة للاقتراب من الشئون السياسية الراهنة فى مصر.

وأولى هذه الحقائق الموضوعية أن النظام السياسى المصرى الحديث نظام رئاسى له خواص ينفرد ببعضها ويشترك فى بعضها الآخر مع أنظمة مثيلة له معاصرة.

ولعلى أوضح بداية أننى أعنى بالنظام الرئاسى ما يفهمه العالم كله من مدلول هذا التعبير، فالنظام الرئاسى فى الولايات المتحدة مثلاً يعنى الإدارة - فهى «إدارة كلينتون»، وقبله «إدارة بوش»، وقبلهما إدارة «ريجان»، وهكذا.

لكننا فى مصر - وفى العالم العربى - نتحدث عن الولاية ولا نتحدث عن الإدارة، وذلك تعبير شاع - فى مصر على الأقل - أيام الرئيس «السادات» وتكرّرَ مراراً بعد سنة ١٩٧٣، واستعاده الرئيس «السادات» فى أكثر من مناسبة قال فيها أنه «منذ ولاه ربه على هذا الشعب» فعل كذا وكذا، أو حدث هذا أو ذاك، أى أن الأساس هو «الولاية» وما بعده ترتيب عليه، وهنا المشكلة.

والشاهد أنه إذا كان فى استطاعة ملوك القرون الوسطى وخلفاء العصور الإسلامية أن يتحدثوا عن ولاية آلت إليهم من الله - وهُم ظله على الأرض - فإن مثل هذا الحديث استحالة فى أزمنة الدساتير والقوانين والمواثيق والعهود الإنسانية الكبرى، وفى أزمنة جرى فيها ترويض أعتى الأنظمة الملكية، ووقع إرغامها على أن تضيف «الدستورية البرلمانية» لاحقة بالملكية فى الوصف وسابقة عليها فى الحقيقة! - ثم قضت على الملكية أن تكون محصورة فى المراسم لا تتجاوزها إلى سلطة الحكم - وهكذا رسمت واستقرت حدود:

■ نظم برلمانية - وبعضها ملكى! - وفيها فإن رئاسة الدولة مختصة بالمراسم، وأما القوة الحقيقية فمع الأغلبية فى المجلس النيابى (وذلك مثلاً ما نراه فى إسرائيل).

■ نظم رئاسية - وفيها فإن رئاسة الدولة هى المسئولة عن الإدارة، مع وجود تمثيل شعبى يختص

بالمتابعة والرقابة دون أن يتدخل فى الإدارة.

والذى يحدث أن العالم المتقدم يعرف ويتصرف على أساس أن السلطة تفويض مؤقت من شعب يملك الولاية - بمعنى السيادة - في حوزته، ثم هو يُفَوِّض بالانتخاب الحُر بعض تنظيماته وأفراده بإدارة شئونه السياسية، مُتَعَرِّضين طول الوقت للحساب باعتبارهم «إدارة» (وليس ولاية) كما فى الولايات المتحدة الأمريكية - وهكذا فإن الكل : يُحاوِر «الإدارة» - وبالشدة أحياناً كما حدث للرئيس «كنيدى» بعد محاولته الفاشلة لغزو كوبا سنة ١٩٦١ - ويُعارِض «الإدارة» كما حدث للرئيس «جونسون» بسبب حرب فيتنام - ويُحاكِم «الإدارة» كما حدث للرئيس «بيل كلينتون» بسبب تصرفات شخصية تجاوز بها حدود اللياقة ولو لم يتجاوز حدود القانون فى قضية «مونيكا لوينسكى» - ويعزل «الإدارة» كما حدث للرئيس «ريتشارد نيكسون» لأنه خَدَعَ الرأى العام الأمريكى وكذب عليه كما حدث فى فضيحة «ووترجيت»!

لكن مقولة «الولاية» ما زالت تتردد فى مصر (وفى غيرها)! - ومعها تطرأ إشكالية حساسة ومُعَقَّدة فى نفس الوقت.

ذلك أنه إذا أراد أحد أن يتحدث عن السياسة فسوف يجد نفسه - حتى إذا لم يرد - موجهاً حديثه إلى رئاسة الدولة مباشرة، لأنها الإدارة المسئولة عن القرار السياسى طول مرحلة التفويض (وليس الولاية). وإذا وقع الاتفاق على أن مناقشة القرار السياسى أصلاً وفصلاً هى المنشأ والجوهر فى أى كلام أو كتابة فى السياسة، فإن الإشكالية تطرح - بل تفرض - نفسها!

ومعها مأزق متعدد المستويات :

- المستوى الأول أن اعتبار الرئاسة - إدارة هو الحق الذى يقوم على أصلٍ وسَنَدٍ فى النظام الجمهورى الرئاسى.

- والمستوى الثانى أنه إذا كان ذلك فمن الظلم توجيه الحديث إلى وزير أو إلى وزارة، لأن الواقع متجاوز للاثنين - الوزير والوزارة - وهو منوط بتفويض شعبى ودستورى مُنِحَ للرئيس ولم يُمنح لغيره، فالآخرون جميعاً رجاله، بما فيهم رؤساء الوزارات، لأنهم اختياره وحده وتحت مسئوليته، وحتى إذا ابتدأ الحديث مُوَجَّهاً إليهم فهو بعدهم واصلٌ بحقائق الأمور إلى الرئيس باعتباره المسئول المُفَوَّض بالإدارة.

- والمستوى الثالث أنه مع حديث «الولاية» (وشدة الإلحاح عليه) فإن الحوار والجدل مع «وَلِىِّ الأمور» يبدو غير لائق، ويصبح مُتَجاوِزاً للتقاليد والأعراف - والأدب - (وأحياناً مُتَجاوِزاً للقانون) - وذلك فى معظم الأحوال حاجز - ولو بالمراسم - يباعد بين «الوالى» وبين «الرعية»!

....

....

والشاهد أننى واجهت هذا المأزق بنفسى مع ثلاثة رؤساء، وفى حين قبل منى «جمال عبد الناصر» ما قلته حواراً وجَدَلاً مع سياساته (ولم يقبل بسهولة من زملاء لى فى «الأهرام») - فإن حوار تلك الفترة وجدلها - ليناً وشدةً - كان من أظهر وأشهر قسمات التجربة السياسية والفكرية فى منتصف الخمسينات وحتى معظم الستينات من القرن العشرين!

ثم عدت وواجَهْتُ نفس المشكلة - فى ظروف مختلفة - مع «أنور السادات»، وقد قبل الرجل - منى ومن غيرى - حواراً وجدلاً مع سياساته حتى سنة ١٩٧٤، ثم بدأ يضيق ذرعاً حتى نفد صبره فى أواخر السبعينات وأول الثمانينات، فأحالنى - وآخرين غيرى - إلى المُدْعى الاشتراكى، ثم اختصر الإجراءات ووضعنى - وآخرين غيرى - فى السجن!

ولقد فعلت نفس الشىء مع «حسنى مبارك» ومن بعيد - لاختلاف الظروف والعصور - ومع ذلك فإن الأمر لم يخل من التباس وتعقيد.

ومع أن الرجل حاول أن يتفهم، وكان فى كل الظروف مجاملاً - فإن الأجواء لم تكن ربيعاً باستمرار. وقد أحسست أن ذلك أمر لا حيلة فيه لأحد، والمسئول التباس سياسى ساد طويلاً وثقلت وطأته على الحياة السياسية فى مصر، وهو التباس عدم التفرقة بين «ولاية الرئيس» و«إدارة الرئيس».

> مؤسسة الرئاسة
> تمارس عملها دون
> مرجعية تتمثل فى
> نصوص دستورية قاطعة،
> فالنص «الأعظم» وهو
> الدستور نفسه (والذى يُقسم
> الجميع يمين الالتزام بطاعته)
> نص تجاوزه الواقع، فبعض مواده ما
> زالت تتحدث عن «الاشتراكية»،
> وعن «تحالف لقوى الشعب العامل»،
> وعن «قطاع عام يقود التنمية»،
> إلى آخره.. إلى آخره - وهذا كله
> وغيره لم يعد له وجود فى
> الحياة الواقعية، ومعنى ذلك
> أن المرجعية الدستورية
> للدولة لم تعد حاكمة

وربما أن جزءاً من هذا الالتباس السياسى ثقيل الوطأة ينشأ من أن القرارات التى تتخذها بعض أجهزة السلطة لا تجد لنفسها حامياً غير الرئيس، وسواء كان ذلك بقصد أو دون قصد فإن قرارات هذه الأجهزة تُجَرُّ ذيولها فى نهاية المطاف وتضعها على أبواب الرئاسة (عارفة ربما بغير وعى أن التفويض الدستورى هناك عند هذه الأبواب وليس عند غيرها).

وللإنصاف فإن بعض المهام التى تكلف بها المؤسسات العاملة فى السياسة باسم وسلطة الرئيس أو إدارته لا تستوعب - فى بعض الأحيان - مقتضى ما هى مُكَلَّفة به، ولعلى أزيد الأمر إيضاحاً وتفصيلاً بالقول أنه «بين كل الوزارات التى تشكلت ضمن إدارة الرئيس «حسنى مبارك» فإن وزارة الدكتور «عاطف صدقى» كانت هى الوزارة الوحيدة التى استوعبت لنفسها - وإن بعد تردد - تكليفاً أو مُهِمَّةً واضحة ومُحَدَّدة.»

كان تكليفها هو الإصلاح المالى (أو ما سُمِّى كذلك)، وقد أنجزته تلك الوزارة بإجراءات كانت ولا تزال موضع جدل - لكن حساب أى تكليف يكون على أساس مرجعيته - وكان الإصلاح المالى هو مرجعية وزارة «عاطف صدقى».

ومع أن إجراءات هذا الإصلاح المالى تَحَوَّلَت فى بعض الأحيان إلى جراحة وَصَلَت لأطراف حية من جسم الوطن (خصوصاً طبقات شعبه العاملة) - فإن وزارة «عاطف صدقى» نَفَّذَت ما كُلِّفت به بالأعصاب الباردة لجَرَّاح يمشى فى اللحم بسلاحه لكنه يعرف عمله ويؤديه بمثابرة (أقولها بإنصاف مع العلم أننى لا أعرف الرجل، ولم تزِد كلمات أى حديث بيننا عن عبارات اجتماعية مُختَصَرة كلما صادَفَت الظروف والتقينا).

ثم حَدَثَ فعلاً حين اشتدت المعارضة للإجراءات التى اتخذتها وزارة «عاطف صدقى» بموجب ما استوعبته من تكليفها - أن رئيسها وضع نفسه تحت مظلة الرئاسة طالباً الحماية، وخرج الرئيس بالفعل مُدافِعاً بإصرار، رافضاً تغيير الوزارة مهما زاد الإلحاح، ثم استبقى هذه الوزارة عُمراً أطول مما عاشته أى وزارة غيرها فى التاريخ المصرى المعاصر. وعندما وصلت مُهِمَّة الإصلاح المالى إلى قرب نهايتها - وإلى القاع من قدرة الناس على الاحتمال - كان الرئيس هو الذى أبلغ «عاطف صدقى» بأن أوان التغيير قد حان.

لكن انصراف وزارة وحضور وزارة غيرها لا يحل الالتباس ولا يخفف وطأته. ■

٣

زحام حول مؤسسة الرئاسة

■ ■ إن مؤسسة رئاسة الجمهورية قضية بالغة الأهمية، وهى فى الواقع العملى هذه اللحظة - وقبلها وبعدها - أهم المؤسسات السياسية وأقواها فى مصر، وأوسعها نفوذاً وتأثيراً، لكنه يضاعف من خطورة دورها الآن - عدد كبير من الاعتبارات :

■ الاعتبار الأول أن مؤسسة الرئاسة تمارس دورها القيادى (فى الداخل وفى الخارج) وسط حشد من الظروف المعقدة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، وثقافياً أيضاً.

■ والثانى أن مؤسسة الرئاسة تمارس هذا الدور القيادى منفردة تقريباً، فهى وحدها مصدر القرار، وهى وحدها جهة المتابعة، وهى وحدها سلطة المراجعة فى وقت تشحب فيه قدرة وكفاءة أجهزة أخرى.

■ والثالث أن مؤسسة الرئاسة تمارس عملها دون مرجعية تتمثل فى نصوص دستورية قاطعة، فالنص «الأعظم» وهو الدستور نفسه (والذى يُقْسِم الجميع «مخلصين» يمين المحافظة عليه!!) نص تجاوزه الواقع، فبعض مواده ما زالت تتحدث عن «الاشتراكية»، وعن «مُدَّعٍ اشتراكى» يطارد ويعاقب الخارجين عن مبادئها، وعن «تحالف لقوى الشعب العامل»، وعن «قطاع عام يقود التنمية»، إلى آخره.. إلى آخره - وهذا كله وغيره لم يعد له وجود فى الحياة الواقعية، ومعنى ذلك أن مرجعية النص الدستورى (رغم القَسَم) لم تعد حاكمة لأنها فارقت زمنها أو أن الزمن هو الذى فارقها!

■ والرابع وهو متصل ولصيق بما سبقه أن مصر تخضع منذ سنة ١٩٨١ لقانون الطوارئ، وهو قانون يعطى للسلطة التنفيذية صلاحيات غير مقيدة بأى ضمان، وذلك يراكم فى مكان واحد سلطات غير مسبوقة فى تاريخ مصر الحديث.

■ والاعتبار الخامس أن المؤسسات الأخرى الفاعلة فى تنظيم الدولة (وأولها المجالس النيابية) تَعَرَّضَت لظروف خَصَمَت من شرعيتها حتى قبل أن تتقدم لممارسة سلطتها (وذلك ما حدث لهيئات ومجالس نيابية على سبيل المثال)!

■ والاعتبار السادس أن المشاركة فى السياسات الإقليمية - وكلها فى حالة تغيير وفوران وقلق - احتاجت إلى اتصالات وعلاقات وتحركات معظمها غير ظاهر وغير معروف وغير محدد - وفى ذات الظروف فإن هناك مواقف والتزامات وتصرفات ترتبت على ذلك، وبقوة الضرورات فإن تلك المواقف والالتزامات والتصرفات يجب أن تبقى محجوبة عن الناس، والأسرار فى العادة

تعطى أصحابها سلطة يصعب إخضاعها للحساب.

وذلك كله - وربما غيره - أدى إلى تشابك فى علاقات القوة وتقاطع فى خطوطها لم يسبق له مثيل - وهو واصل كله إلى مؤسسة الرئاسة.

....

....

ولقد سمحت لنفسى ذات مرة، وكان ذلك قبل خمس سنوات، أن أطرح ضرورة إعادة تنظيم جهاز الرئاسة، متوجهاً بالحديث إلى الرئيس، عارفاً مقامه، ومتأكداً أنها مسئوليته. وهكذا وفى سياق خطاب عام فى معرض الكتاب (وكانت تلك آخر مرة أدعى فيها إلى الحديث فى ذلك المعرض) - سمحت لنفسى أن أقول ما نصه :

«إن الظروف الآن تتطلب إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وفى مقدمتها رئاسة الجمهورية، حتى يستطيع مكتب الرئيس ومعاونوه المختارون أن يؤدوا مهامهم الحيوية. إن رئاسة الجمهورية فى بلد مثل مصر هى مركز الأعصاب الحساسة للدولة، وبالتالى فهى شأن الجميع، ومن حق أى مواطن الآن أن يدقق النظر ليكتشف أنه ليس فى الرئاسة إلا واحد أو اثنان من المستشارين، ومن الأكيد أن ذلك لا يكفى إذا كان للرئاسة أن تتحمل تبعات ما تتحمل به، وبخاصة فى مرحلة قادمة. ولقد كانت هذه قضية ملحوظة باستمرار، ولأنها حساسة فإن أحداً لم يقترب منها مباشرة...».

ثم وَصَلتُ فى ذلك الخطاب أمام معرض الكتاب سنة ١٩٩٥ - إلى أن أقول :

«وربما أضفت أن رئاسة الجمهورية فى مصر لا تحتاج إلى بيروقراطية ثقيلة بجوار الرئيس، لكنها بالتأكيد فى حاجة إلى مجموعة عالية الكفاءة، شديدة اليقظة، قادرة على المتابعة والاستجابة بسرعة، مستعدة لالتقاط الأفكار، وإنشاء المبادرات، وتصور السياسات وبدائلها ووضعها باستمرار تحت عناية الرئيس».

والحقيقة أن ذلك الرأى الذى قلته فى محاضرة عامة بشأن مؤسسة الرئاسة كان صدى متأخراً لحديث سابق مع الرئيس «حسنى مبارك» فى مرة نادرة تفضل فيها كريماً ودعانى إلى لقائه، ووقتها بدا لى وكان الرجل يدير فى رأسه متغيرات عصره ويحلم بأن يترك على تاريخ مصر بصمة تدل عليه، وشاغله - كما بدا فيما قال - أن ما يجرى فى عوالم الفكر والفعل يُحَتِّم على مصر أن تبدأ مرحلة جديدة تتسع لطموحات كل الناس، ولمشاركة كل الناس فى ذات الوقت.

وقد استمعت إليه يومها فى يقظة، وناقشت معه بصراحة، مُدركاً أن وقت رئيس الدولة ليس مباحاً للهدر أو الخفة، وإنما هو وقت - بمعايير المسئولية - غالٍ ... وأتذكر أننى استأذنته أن أتوقف - بشىء مَن الإطالة - عند مسألة إعادة تنظيم جهاز الرئاسة باعتباره محرك جهاز الدولة («الدينامو» كذلك قلت).

ولا أظننى - بما سوف أتطرق إليه من هنا - أذيع سراً، فالموضوع عام، والواقعة سابقة من زمن بعيد، لكن القضية ما زالت هامة - هذه اللحظة - كما كانت هامة قبلها بوقت طويل.

....

....

فى ذلك اللقاء قبل وقتٍ طويل سمحت لنفسى أن أتحدث فى ذلك الموضوع، وتفضل الرئيس واستوضح قصدى، وأوضحت قدر ما أستطيع، ثم وصلت إلى القول بأن تتابع المتغيرات وتداخل القضايا، وأهمية تقليل الفارق الزمنى بين مشاكل تطرح نفسها وقرارات تستجيب لها - أصبحت تفرض الآن تنظيماً مؤسسياً كاقدر وأكفأ ما يكون التنظيم المؤسسى. ثم أضفت ما ملخصه أن هناك ثلاثة نماذج لتنظيم «رئاسة الدولة» يمكن دراستها والاستفادة منها. وهذه النماذج الثلاثة هى :

— تنظيم العمل فى «البيت الأبيض» حيث يوجد أقوى نظام رئاسى فى العالم.

— تنظيم العمل فى «البيت رقم ١٠ داوننج ستريت» حيث يوجد أقوى نظام برلمانى فى العالم وفيه يقوم رئيس الوزراء بقيادة العمل الوطنى فعلاً، بينما رئاسة الدولة الرسمية - الملكة - قاصرة على «تشريف» المراسم لا تزيد بعدها.

— وأخيراً تنظيم العمل فى بيت الرئاسة فى «فوبورج سانت أونوريه» المشهور باسم «قصر الإليزيه» فى باريس، فهناك يوجد تنظيم فريد توصل إليه الرئيس الفرنسى الأسبق «شارل ديجول» ومزج فيه النظام البرلمانى بالنظام الرئاسى.

وكان ظنى أن دراسة تنظيم العمل فى هذه المؤسسات الثلاثة بواسطة أحد رجال الرئيس الأقربين كفيل بأن يعطى تَصَوُّراً جديداً وملائماً لدور مؤسسة الرئاسة فى مصر. ثم تجاوزت حدى بسماح الرئيس وسماحته واقترحت اسما بالذات أعرف ثقته فيه وقربه منه.

وكان رد الرئيس هو «إبداء خشيته من بناء تنظيم كبير للرئاسة لأن مَن فيه قد يتحولون إلى مركز قوة، ويصبح حاجزاً يمنع - أكثر منه جهازاً يعاون.

وكان قولى «أن تلك الخشية ليست محققة بالضرورة، والأمر فى النهاية راجع إليه، لكنه إنصافاً له يحتاج إلى جواره مباشرة ما يطمئنه إلى أن هناك فى ميادين التشريع والقانون والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الإقليمية والدولية، والاتصالات الشعبية وغيرها - مؤسسة مستقلة تتصل وتحاور وتتابع وفق تعليماته باستمرار، عارفة حدودها، فاهمة أنها ليست حكومة فوق الحكومة».

وكان رأيى، وقد عبرت عنه بوضوح كان اهتمامه يشجع عليه، أنه بغير جهاز كفء وقادر على المتابعة فى رئاسة الجمهورية وتحت توجيه الرئيس، فإن أى جهد يقوم به أى واحد من معاونيه جهد فردى محصور - وربما محاصر - مهما بلغت درجة كفاءته.

وتساءل الرئيس - وأشهد أنه كان مهتماً بالحوار - «عما إذا لم يكن من الأفضل ولمنع الازدواج فى الحكم أن يكون مجلس الوزراء بكامله جهاز الرئاسة فى التنفيذ والمتابعة؟».

وسمحت لنفسى أن أواصل عرض رأيى قائلاً أنه «نظراً لتعدد اهتمامات الدولة الحديثة، وتعقيدات المشاكل التى تواجهها، والتَّمَدُّد المُتَرَهِّل فى دواوين الدولة حتى تلك المختصة



منها بالمتابعة والرقابة - فقد يستطيع جهاز نشيط ومتحرك فى الرئاسة أن يخدم الرئيس بأفضل من أى بديل آخر». وعُدتُ هنا فاستشهدت بما جرى فى بلاد أخرى دون أن يؤدى إلى ازدواجية فى السلطة خصوصاً والنظام رئاسى.

وعرضت أنه «فى البيت الأبيض مثلاً فإن للرئيس الأمريكى جهازاً للشئون الداخلية يعمل فيه قرابة مائتين وخمسين خبيرا ومستشارا، ثم أن هناك للشئون الخارجية جهازاً آخر هو مجلس الأمن القومى، وفيه من داخل البيت الأبيض عدا من يحضرون اجتماعاته الرسمية عند اللزوم - أكثر من أربعمائة مستشار وخبير - وهؤلاء جميعاً يمارسون - ولعلم الرئيس وإطلاعه - مسئولية المتابعة والرقابة، وهم باسم الرئيس أطراف فى الحوار الذى يصنع القرار الأكثر ملاءمة لسياسة الإدارة مع كل وزارات الدولة - ومع الكونجرس بمجلسيه، هذا مع العلم أن الكونجرس الأمريكى هو أقوى هيئة تشريعية ورقابية عرفتها التنظيمات الدستورية فى الدنيا».

وأضفت أن «الحوار بين الرئاسة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية المتمثلة فى الوزارة هو سر النشاط الفوار فى التجربة السياسية الأمريكية، وهو أيضاً ضمان أكبر مشاركة شعبية، لأن حوار هذه المؤسسات - وهو بالطبيعة مفتوح أو محسوس بوسائط الإعلام - واصل بالتأكيد إلى عامة الناس وقادر على تمكينهم من قدر كبير من المشاركة فى قضايا العمل الوطنى، خصوصاً إذا كان ما يصل إليهم حصيلة علم ومعلومات واجتهادات مؤسسات قادرة».

ثم أبديت تخوفاً مؤداه «أنه فى مصر وبكل السلطة اللا محدودة لرئاسة الدولة - مع تزاحم القضايا وإلحاحها - فإن رئاسة الدولة سوف تجد نفسها - وحتى لا تعطل دولاب العمل، ودون بدائل كافية تحت نظرها - مدفوعة بعض الأحيان إلى الموافقة على ما تقدمه الوزارة إليها، ثم تجىء لحظة تفاجأ فيها مؤسسة الرئاسة بأن الأمور تَعَثَّرَت والمشاكل تراكمت من وراء ظهرها، وأن تدخلها فى الدقيقة الأخيرة عاجل لا يحتمل التأخير!!»

وعلى أية حال ففى ذلك اليوم من زمان طويل قلت ما قلت للرئيس بنفس منطق «قل كلمتك وامش». وبالفعل قلته ومشيت. ثم أعدت قوله - دون ملابساته - فى معرض الكتاب ومشيت، لكن القضية ما زالت مطروحة حتى اليوم، لأن الرئيس فيما ظهر آثر فى نهاية تفكير وتقدير أن تكون الوزارة «جهازه» وأن يكون الوزراء «هم أنفسهم مكتب الرئاسة».

وفى بداية التفويض الذى مُنِحَ لحسنى مبارك فقد مضى الرجل يحاول لملمة أطراف الدولة على مهل، كما أنه بحَذَرٍ راح يزيل آثار احتقان وطنى تداخل مع الفترة الأولى من إدارته، ولعله مع اقتراب التسعينات توصل إلى خياره الذى كلف بمقتضاه الدكتور «عاطف صدقى» كى يؤلف وزارة تكون بحقائق الأمور مسئولة أمامه، وكان الاختيار كما أظهرت التجربة معقولاً، لأن الهدف كان محدداً لا يحتمل لبساً ولا تأويلاً، وهو التكليف بالإصلاح المالى حتى يمكن لهذا الإصلاح المالى أن يكون بداية تنطلق منها وعلى أساسها مرحلة تنمية شاملة.

وكانت هذه قضية أعقد، لأن الإصلاح المالى مجرى ملاحى واحد، فى حين أن التنمية الاقتصادية بحر واسع عميق لا تظهر شطآنه، ولا تبين تضاريسه تحت الماء!

....

....

وحدث أن وزارة «عاطف صدقى» استهلكت نفسها فى الإصلاح المالى وأعبائه الاجتماعية - وانعكس ذلك فى حالة ضيق عام - خصوصاً مع توسع وزير المالية وتفننها فى حملة جباية للضرائب والرسوم بكل الوسائل قديمة وجديدة - ثم ترافق ذلك مع ظهور موجة من العنف والعنف المضاد قاسى منها المجتمع المصرى - ولا يزال.

لكن ذلك كله اعتبر مخاطرة مقبولة فى سبيل تحقيق الإصلاح المالى، وحتى تتهيأ الأرض والقاعدة لمرحلة التنمية الشاملة. خصوصاً وقد تحقق - للإنصاف - إنجاز يستحق التقدير فى تجديد منشآت البنية الأساسية. وهذا تمهيد لم يكن هناك غنى عنه قبل الانتقال بالتغيير إلى مرحلة التنمية الشاملة..

وعندما حان وقت التغيير - وأنا هنا أتحدث عن متابعة للحوادث لا أملك وراءها علماً مباشراً أستند إليه - فقد وقع اختيار الرئيس على الدكتور «كمال الجنزورى» مسئولاً أمامه عن مرحلة جديدة يحكمها منطق أنه إذا كانت مرحلة الإصلاح المالى هى المدخل إلى المستقبل - فإن مرحلة التنمية الشاملة هى المستقبل ذاته.

وكنت - وغيرى - على استعداد لقبول هذا المنطق من داخل فكره العام وفى إطار سياقه المعروف على أمل أن يتحرك العمل الوطنى وأن تكون حلوله سابقة لأزماته، وأن تجىء إجراءاته سابقة لمنجزاته (حتى لو بدا المنطق وصفة جاهزة من صندوق النقد الدولى ومعه البنك الدولى).

وفى البداية فقد رحت - وراح غيرى كثيرون - أتابع حركة وزارة الجنزورى.

ولأن معرفتى بالرجل كانت سطحية فقد وجدتنى من البداية أستغرب بعض مظاهر أدائه العام أو أداء وزارته. ولقد وجدته - مثلاً - يحفظ أرقاماً كثيرة عن ظهر قلب، ويتكلم دون ورق أمامه. وكان ظنى أن طاقة رئيس الوزراء أهم من أن تشغلها وتثقل عليها حزم أرقام وجداول. لأن رئيس الوزراء بطبيعة مهمته السياسية يحتاج أكثر إلى أن تشغله منظومات الفكر والتخطيط. وأما الأرقام والجداول فيمكن أن يحفظها مساعدوه أو تذكره بها أوراقه. وأما هو فاهم من الأرقام والجداول سياسات العمل وخصوصاً توصيف وتحديد وسائلها، ثم متابعة تنفيذها. كذلك فقد كنت أتخوف من الكلام المسترسل دون مراجع مكتوبة فى شئون العمل العام وضوابطه. لأنى أرى الكلام مُنزلقاً فى بعض المرات بأصحابه إلى غير ما يقصدون - وأحياناً إلى أبعد مما يقصدون!

لكنه قيل لى ولغيرى أن الرَجُلَ «كمبيوتر» متحرك. وأن طاقته على الاستيعاب بلا حدود. وأن المشكلات التى يتناولها على أطراف أصابعه (وكان بعض القائلين رجالا أثق فى صواب رأيهم، وبينهم من عرفه عن قرب).

....

....

ثم راحت تستوقفنى ملاحظات...

أولها رقم جرى طرحه مفاجأة عن متوسط دخل الفرد فى مصر.

وكنت أعرف من أرقام المنظمات الدولية (البنك والصندوق بالذات) أن متوسط دخل الفرد فى مصر ما بين ٦١٢ إلى ٦٤٠ دولارا فى السنة. ولكن الدكتور «الجنزورى» خرج فجأة برقم جديد ارتفع به دخل الفرد فى مصر إلى الضعف وأكثر - أى إلى ما بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ دولار للفرد فى السنة.

وساءلت نفسى، وسألت غيرى، وقيل لى بأن الحساب الجديد جرى على أساس قاعدة جديدة (يسمح بها الصندوق والبنك أحياناً)، وبمقتضاها فإنه يمكن حساب قيمة الدخل «بأى عملة على أساس ما تشتريه هذه العملة فى وطنها من سلع وخدمات».

ولم أقتنع بالقاعدة الجديدة فى الحساب، ثم سمعت من واشنطن أنه كانت هناك موافقة استثنائية على هذه القاعدة إكراماً لمصر وتشجيعاً لسياسة الإصلاح - وأيضاً مجاملة للدكتور «الجنزورى»!

وقد تَفَهَّمْتُ ذلك فى حينه وإن لم أقتنع به، ذلك أنه إذا تَغَيَّرت قاعدة الحساب هذه اللحظة فإن تغيير القاعدة يجب أن يسرى قبل هذه اللحظة أيضاً لكى يستقيم القياس، وإلا فإن الأرقام تتحوّل إلى نوعٍ من خداع البَصَر لا تحتاجه مرحلة تنمية شاملة وجادة.

وكانت الملاحظة الثانية التى استوقفتنى أن حديث المشروعات العملاقة ملأ الدنيا وشغل الناس، وصعد بسرعة إلى رأس قائمة الأولويات، وفى الصدارة منه «مشروع توشكى»، وكنت أتابع باهتمام، وفى نفس الوقت بحيرة!

وأتذكر أننى فى ذلك الوقت سُئلتُ (والسائل من الأقطاب الكبار فى الإدارة): «لِمَاذا لم نشعر بحماستك لمشروع توشكى (وهو مشروع مثير للخيال) - كما شعرنا من قبل بحماستك لمشروع السد العالى»؟

وكان ردى:

«إننى غير قادر على الحماسة للمشروع لأننى لا أعرف عنه ما فيه الكفاية ... بل إن ما أعرفه من قبل يدعونى الآن إلى حيرة أشد. فهيئة تعمير الصحارى بحثت فكرته سنة ١٩٦٤، ثم انتهت إلى العدول عنه.

ولست أعرف ما الذى جَدَّ فى أمره، ولكن قيل لى أن الدكتور «الجنزورى» لمح إمكانيات المشروع حين كان محافظاً للوادى الجديد، واختار من يومها أن يحتفظ بما لمحه من إمكانيات المشروع ليوم تكون له فيه كلمة نافذة. وحين أصبح رئيساً للوزراء فقد أحس الرَجُل أن ذلك اليوم جاء».

وكان رأيى أنه «ليكن» - لكن المشروع يحتاج إلى دراسة دولية تليق بحجمه وتكاليفه، وبمهام تنفيذه وتشغيله. ثم قلت: «إننى بالطبع لا أفهم فى المشروعات الهندسية العملاقة، لكنه فيما يتعلق بالسد العالى فإننى تَحَمَّسْتُ له من واقع دراستين وشهادتين:

حدث أننى قرأت خبراً فى إحدى الصحف مؤداه أن البنك الدولى عَرَضَ المشاركة فى تمويل مشروع توشكى، وسألت فى مقر البنك فى واشنطن، وتلقيت ما مؤداه «أن أحداً فى البنك لا علم له بما نشر».... ثم بدأت الأخبار تجىء عن ضرورة تقليص حجم المشروع والنزول به إلى قرابة الخمس أو العُشر من حجمه الأصلى، والذى حدث أن بعض التعاقدات. وليس كلها لحسن الحظ. جرت على ما سبق به التفاؤل

■ الدراسة الأولى قام بها البنك الدولى فى واشنطن ومعه خبراء أكثر دول العالم تقدماً وهى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وكلها توافرت على دراسة المشروع تمهيداً لإمكانية مشاركتها فى تمويله.

ــ وكانت الشهادة اللاحقة بهذه الدراسة أن مشروع السد العالى: ممكن هندسياً - ومفيد اقتصادياً.

ثم كان أن البنك الدولى والدول الغربية الثلاثة عَدَلَت عن تمويل المشروع لأسباب سياسية معروفة الآن ومشهورة - وحُجَّتها المُعلنة فى ذلك الوقت أن «حجم المشروع أكبر من أن تستطيع طاقة مصر الاقتصادية حالياً أن تتحمله»!

■ وكانت الدراسة الثانية هى ما قام به الاتحاد السوفيتى (وهو بلد مُتَقَدِّم فى بناء السدود)، وجاءت دراسة الخبراء السوفيت للمشروع فى مناسبة طلب مصر أن يتعاون الاتحاد السوفيتى معها فى بناء السد العالى... وهكذا توافر خبراء الكتلة الشرقية على الدراسة، ثم توصلوا إلى الشهادة.

ــ وكانت الشهادة السوفيتية أن مشروع السد العالى: ممكن هندسياً - مفيد اقتصاديا.

ثم إن الاتحاد السوفيتى مستعد!

كان ذلك كله أمامى حين تَحَمَّسْتُ لمشروع السد العالى: دراسة دولية على أوسع نطاق ممكن فى الغرب المتقدم - وفى الشرق المُجَرَّب..

ثم شهادة دولية من الغرب والشرق تشيد بالمشروع وتُزَكِّيه.

وكان الشرط الوحيد الذى بقى معلقاً - هو مدى استعداد الشعب المصرى لتَحَمُّل الأعباء والتكاليف.

وأبدى الشعب المصرى كامل استعداده، وكانت المعارك السياسية والعسكرية والنفسية الهائلة التى دارت حول بناء السد العالى أوضح تأكيد وتعزيز لذلك الاستعداد».

وكانت خاتمة جوابى على السؤال الذى وُجِّهَ إلىّ عن مشروع «توشكى» العملاق هو أننى بأمانة لا أستطيع تحديد موقفى لأنى لا أعرف ما فيه الكفاية، وبرغم أننى تابعت عروضاً وشروحاً قدمها مسئولون كبار، فإن ما تابعته لم يصل بى إلى يقين. وفى النهاية فأنا لا أستطيع رفض المشروع ولا أستطيع تأييده لأنى لا أملك ما يسند موقفى فى الحالتين، وإن كنت أتمنى أن يُعرَض على محافل الهندسة والاقتصاد فى العالم حتى نثق وحينئذ نستطيع جميعاً أن نتحمس.

ثم حدث أننى قرأت خبراً فى إحدى الصحف مؤداه أن البنك الدولى عَرَضَ المشاركة فى تمويل مشروع توشكى، وسألت فى مقر البنك فى واشنطن، وتلقيت ما مؤداه «أن أحداً فى البنك لا علم له بما نُشر»....

ثم بدأت الأخبار تَجىء عن ضرورة تقليص حجم المشروع والنزول به إلى قرابة الخُمس أو العُشر من حجمه الأصلى، والذى حدث أن بعض التعاقدات - وليس كلها لحسن الحظ - جرت على ما سبق به التفاؤل قبل أن يفرض الواقع ضرورة المراجعة!

وازدادت الحيرة عندى، وعَبَّرتُ عن ذلك فى مقابلة تليفزيونية أذيعَت من بيروت وشوهِدَت على نطاق واسع فى القاهرة، واعتبرت مرة أخرى «أننى قلت كلمتى ومشيت».

ثم توافقت مع ذلك مضاعفات تجلت فى سَعَة فى الإنفاق هُيِّئ لى معها وكان مصر قد عثرت على كنزٍ خبئ يفوق «كنوز سليمان» (على فرض أنه كانت هناك بالفعل كنوز من أزمنة غابرة تركها «سليمان» وعثرت عليها حكومة مصر فى آخر الزمان).

فى تلك الفترة بدا وكأن كل شىء سهل - وكل مطلب متاح - وكل اعتماد جاهز - وكل استيراد مباح - وكل مشروع دون انتظار لجدواه مقبول - وكل اقتطاع من الثروة العقارية خصوصاً فى المحافظات البحرية هدية لا تُرَد. ثم إنه فى المضاربات التى تعرضت لها الثروة العقارية فكل طلبات للقروض مقبولة وأحياناً أكثر. ولسنتين أو ثلاث طغت موجة من التفاؤل غامرة، وكنت صادقاً أحاول البحث لها عن أساس وسند.

وكان اللافت للنظر أن حجم الدين الخارجى الذى انخفض - نتيجة لإعفاءات أمريكية وأوروبية حصلت عليها مصر بعد حرب الخليج، ونتيجة تحويلات لأرصدة مصرية آثرت فى أعقاب هذه الحرب أن تعود إلى أوطانها - قابلته من الناحية الأخرى زيادة فى حجم الدين الداخلى تبدو متصاعدة بانتظام، وبشهادة تقارير البنك المركزى.

وفى الواقع فإن الدين الخارجى كان قد نزل من قرابة خمسين بليون دولار إلى قرابة ثلاثين، ولكن الدين الداخلى زاد من قرابة ستين بليون جنيه مصرى إلى أكثر من ١٨٠ بليون جنيه مصرى - وفى بلد أخذ بمبدأ حرية العملة - فإن الدين الداخلى يصبح له ثقل الدين الخارجى وهمه.

وكان تزايد الدين الداخلى مؤشراً خطراً خصوصاً إذا نُظِرَ إليه على ضوء ما تحذر منه تقارير البنك المركزى عن نقص فى الموارد التقليدية التى كانت تضخ الدولار فى النظام المالى المصرى، وأهمها: تحويلات المصريين فى العالم العربى - وعوائد قناة السويس - ودخل السياحة - والصادرات تقليدية أو غير تقليدية.

وكانت المشكلة الأخطر فى الدين الداخلى هى تكاليف خدمته، أى الفوائد التى تُدفع عنه، وقد ظلت هذه الفوائد تتصاعد حتى وصلت إلى ١٧ مليار جنيه سنوياً، وهو عبء خانق لميزانية الدولة - ومع ذلك وبرغم مخاوفى فإن المناخ العام ظل ندياً، وكان هناك فيضٌ من الأرقام الرسمية يوحى بأنه ربيع إلى الأبد وهذه نسماته تهب!

وكان يمكن لسباق الآمال أن يتجاوز حدود التفاؤل لولا سباقات من نوع آخر راحت تكشف فى تلك الفترة أمام الناس ما يلفت أنظارهم إلى أن شيئاً ما ليس على ما يرام»!

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

كان السباق الأول ظاهرة تفاقمت في الحياة الاجتماعية المصرية، وتمثلت في تكالب على الاستهلاك «مُتَوَحِّش» (!)، وكانت مظاهر «الوَحشيَّة» كثيرة وبينها الأفراح التي تقام في فنادقِ القاهرة الكبرى (وفنادق خارج القاهرة أيضا).

وكذلك راح الناس يقرءون ويسمعون عن أفراحٍ تتكلَّفَ ما بين مليونين إلى خمسة ملايين من الجنيهات - وبينها ما زاد على ذلك - وأحياناً بكثير!

وكان السباق الثاني - ولعله غير بعيد عما سلف - هو التخاطف لأموال النظام المصرفي والحصول على أكبر ما يمكن الحصول عليه منها، وتحويله إلى الخارج، ثم الهرب.

كان الخطف بعشرات الملايين ومئاتها - ودون مساءلة لمن سمحوا وسَهَّلوا - وكان هؤلاء الخاطفين تسللوا إلى خزائن البنوك تحت جنح الظلام وعبثوا - ولم يكن ذلك بالضبط ما حدث!

وتكررت عمليات الهرب حتى أصبحت قصة كل يوم، وأبطال القصص نوعان من الناس رجالاً ونساءً:

■ نوع كان يقيم في مصر لكنه كان لا يزال غير مطمئن - كما يقول - إلى «ليبرالية» الاقتصاد، وحين اطمأن تقدم. لكن معرفة هؤلاء بالليبرالية كانت من نوع «خاص» -! - فقد تقدموا، وأمسكوا بما استطاعوا، ثم اختفوا من السوق ومن البلد.

■ ثم نوع آخر قيل أنهم نوابغ سوق أفزعهم غياب اقتصاده الحر عن مصر، وكذلك هاجروا إلى بعيد، لكنهم الآن وقد وجدوا وطنهم يتغير قرروا العودة حتى يساعدوه على إنجاح تجربته ويخدموه بأموالهم وبعيونهم!

لكن هؤلاء الآخرين - أو معظمهم - جاءوا - حين جاءوا - على قانون «يوليوس قيصر»: «جئت ورأيت وانتصرت» - فهُم جاءوا - ومدوا أبصارهم وأيديهم - وأخذوا، وعادوا إلى حيث كانوا مرة أخرى!

والشاهد أن الكل راح يغرف من النظام المصرفي ويعبئ.

ونتيجة هذه السباقات - فإن «وُحوش الاستهلاك»، و«أبطال الهرب» بما تراد العين وتطوله اليد، كلاهما لا يعنيه أن يقفل الباب ولا أن يطفئ النور! - وراءه!

وكانت الأبواب التي تركت مفتوحة بالإرهاق بعد السَهَر - المتوحش - الصاخب، أو بالعَجَلة المطلوبة للخروج هربا دون التفات إلى الوراء، هي التي أظهرت الحقيقة أمامَ الناظرين حتى قبل أن يطلبوها بأول سؤال!

وعندما تفجرت خفايا ما جرى سابقاً ولاحقاً - فقد تبين أن هناك خمس ظواهر رئيسية لا بد من مواجهتها:

■ الأولى - أن هناك صرفاً على «المشروعات العملاقة» ضغط على كل الموارد وأخذ لصالح الأجل الطويل حجماً من الاعتمادات لا بد أن يؤثر على الأجل القصير - والراهن. هذا على فرض أن «المشروعات العملاقة» مدروسة بعناية ومؤكدة في فائدتها.

■ والثانية - أنه حدثت عملية نهب واسعة للنظام المصرفي وهي تستوجب حساباً - لكنها مع الحساب تحتاج إلى إعادة ضبط وتنظيم.

■ والثالثة - أن هناك أزمة في السيولة سببتها مضاعفات ما جرى، ابتداء من الصرف على مشروعات عملاقة - تحتاج الآن إلى إعادة نظر - وحتى مواكب الهاربين بودائع البنوك وأمرهم يحتاج إلى ملاحقة نيابة وقضاء.

وكان محتماً أن أزمة السيولة سوف تفرض نتائجها التلقائية - وتهدد بتوقف المشروعات - وإلى الكساد والبطالة.

■ والرابعة - وهذه ظاهرة نصف خارجية، أن ذلك كله توافق مع أزمة الأسواق الآسيوية وانخفاض عملتها المفاجئ، وهذا أغرى عدداً كبيراً من المستوردين بإغراق السوق المصرية بسلع آسيوية رخيصة أزاحت وكَدَّست في المخازن سلعًا مصرية تَحَوَّلت إلى رؤوس أموال عاطلة، ومصانع مُتَعَثِّرة، وعمالة إلى الشارع!

■ والخامسة - أنه في النتيجة اشتد الضغط على الجنيه المصري وتأثر موقفه أمام الدولار، وتلك قضية معقدة تتطلب مواجهة غير قابلة للتأجيل طويلاً بغير حسم!

....

....

وكان التشخيص العام للأزمة أنه حدث تسرب غير محسوب للمال العام قاد إليه تفاؤل سابق لأوانه - ثم تَحَوَّل التسرب إلى نزيف ظهرت عوارضه وعواقبه، وهنا لم يعد في الإمكان حجب الحقيقة أو التستر عليها، وإنما لابد من مواجهة لها، وكانت المواجهة الممكنة واحداً أو أكثر من حلول لكل منها محاذيره:

■ طبع ورق نقد جديد يغطي الحاجة إلى السيولة - والخطر في ذلك أنه قد يصبح طريقاً إلى التضخم وانفلات الأسعار.

■ أو جذب تدفقات مالية جديدة من الخارج عن طريق تشجيع زيادة الصادرات - والسبيل إلى ذلك تخفيض الجنيه المصري إزاء الدولار بحيث تقل أسعار السلع والخدمات المصرية (بما في ذلك السياحة) ويزيد الطلب - والخطر في ذلك أنه رهان غير مؤكد، فليست هناك في مصر سلع فائضة قابلة للتصدير ولا تصدر، كما أن أسعار السياحة في مصر لسوء الحظ عند المستوى الأدنى وأقل.

■ ثم إن مجرد التفكير في تغطية الحاجة إلى السيولة بطبع بنكنوت جديد، مضافاً إلى إشارات ولو من بعيد عن احتمال تخفيض الدولار - أدى إلى عملية حبس للدولار تواكبت مع اختناق في سيولة الجنيه المصري، لأن أي دولار قديم أو جديد آثر أن يقف في مكانه حتى يعرف إذا دخل - ما هو سعره؟ وفي نفس الوقت لا يجد نفسه مرهوناً - إذا قرر أن يخرج.

....

....

وحدث موقف مزعج .. لأن الحقائق راحت تفرض ضروراتها بصرامة وحزم..

وفي مواجهة أزمة حقيقية فإن محاولة إدارتها جاءت مدعاة لأسى شديد، فلم يكن هناك - في معظم الأحيان - نقص في الكفاءة فقط - ولكن كان هناك - في بعض الأحيان - نقص في الكبرياء.

....

....

واستعمل البنك المركزي بعض احتياطياته لدعم الجنيه المصري في حدود بليونين من الدولارات (كما يظهر من استقراء تقاريره) - لكن الخطير الذي وقع هو أن مطالب دعم الجنيه



تزايدت مع محاولة للتغطية قادت إلى عثرات لم يكن لها لزوم.

وكان ذلك كله نوعاً من ألعاب القمار خطر. تتوهم أن لديها أملاً - غافلة عن أن مطالب ومصالح الأوطان لا تُحل بأوراق اللعب!

....

....

ولم تكن المشكلة أن هذه الأزمة التي ضربت النظام المصرفي، والوضع المالي، والنتائج المترتبة على ذلك في الاقتصاد المصري - هي الأزمة الأولى، ولكنها الخامسة في الترتيب.

الأولى - هي المشكلة التي جاءت مع ما سُمِّيَ بالانفتاح في منتصف السبعينات وحتى أواخرها. وكانت هذه المشكلة شاغل الناس في حينها وقد تابعوها في الصحافة وفي المحاكم وفي السجون، وجرى ذلك تحت ضغوط رأيٍ عام صَدَمَه أن جسور العبور إلى التضحية في أكتوبر ١٩٧٣ تَحَوَّلت إلى جسور عبور إلى الثروة بعد ذلك بسنتين أو ثلاث.

والثانية - هي الطريقة التي طاح فيها بعضهم في الاقتصاد المصري خالطين بين الخاص والعام (وبينهم أحد الأصدقاء الأقربين من الرئيس «السادات»، وقد عصف بمؤسسات قابضة كانت تنظم حركة الشركات، وألغى بهمسة منه أجهزة رقابة كانت تستطيع أن تلفت النظر مبكراً وتُنَبِّه، وقام بتوزيع مئات من توكيلات الشركات الأجنبية الكبرى أخذها من حوزة القطاع العام، وكانت تلك عملية «هندسة» لتوزيع الثروة غريبة، فكل واحد من هذه التوكيلات كان قادراً على صُنع مليونير في نفس الدقيقة والثانية، ولعلها أول مرة في التاريخ يتم فيها توزيع الملايين على طريقة take away التي تلجأ إليها محلات الوجبات السريعة، فتبيع لزبائنها ما يأخذونه معهم ليأكلوه حيث يريدون، في مكاتبهم أو بيوتهم أو حتى سياراتهم)!

والثالثة - أن الفلسفة التي جرت عليها سياسة الخصخصة كانت مقولة «أنها خصخصة الشركات الخاسرة التي لم يعد القطاع العام قادراً عليها - ثم تغيرت المقولة فأصبحت بيع الشركات الرابحة مشروطاً ببناء غيرها أكبر وأحدث - من فوائض أموال الخصخصة. ثم وقعت الخصخصة فعلاً ومعها استعمال حصيلة بيع مشروعات القطاع العام الرابحة لسداد مصروفات جارية (قيل أنها تسهيل معاش مُبَكِّر لبعض العاملين، وسداد ديون متأخرة لبعض الشركات).

والرابعة - هي الكارثة التي صنعتها بيوت المال الإسلامية من بداية الثمانينات إلى نهايتها.

ثم جاءت الخامسة - وهي الأزمة الراهنة، وقد تُرِكَت طويلاً تنتظر دون قرار، وزادت تكاليفها كثيراً عندما أضيفت إليها فوائد التأخير مضاعفة ومركبة!

ثم نزل فوق هذا كله جو من الكآبة أشاعته حوادث مزعجة من مذبحة الأقصر إلى مذبحة الكشح!

....

....

وضمن أعراض الأزمة سرى الشعور بنوع من المرارة مبعثه تَوَهُّم البعض أن ما وقع عرض داهِمٌ حَلَّ فجأة فأيقظ الأحلام على فزع. والحقيقة أن الأزمة زحفت من قبل ذلك إلى حياة الناس وضيقت عليهم، لكن المسكنات كانت تلعب دورها بنجاح. وكانت تلك المسكنات موجبة وسالبة في نفس الوقت.

— الموجب فيها هو حالة الحشد التكنولوجي الكثيف. وهو حشد على نحو شديد الكثافة، وكان قادراً ولو لفترة على أن يجعل ظاهر الأمور يُكذِّب حقائقها باستمرار - و«يبخ» حولها عُطور التفاؤل منعشة ومعطرة.

— وأما السالب فهو واقع أنه مع وجود نوع من التعددية الحزبية فإن وسائل هذه التعددية في الوصول إلى الناس مغلولة اليد، في حين أن ألوان التليفزيون - وهو وسيلة العصر - تأخذ الناس إلى استرخاء يصاحبهم حتى مضاجعهم!

على أنه حين تجاوز الشعور بالأزمة محسوسة ومُعاشة - طاقة كل ما هو موجب أو سالب - فإن حدة الصدمة لم يعد في الإمكان تخفيضها مهما كانت قوة المسكنات وحقن البنج نصفياً أو كاملاً!

وهنا اختلط ما هو مالي بما هو اقتصادي، بما هو اجتماعي، بما هو ثقافي، بما هو ديني، بما هو إنساني! وسَرى شعور بالإحباط.

وكان أن علت الأصوات وزاد القصف الإعلامي وغير الإعلامي، وكان المقصود بالضجة أن تتوه المسئولية بين أطراف كل منها يتهم الآخر بأنه السبب في الأزمة.

ومع إقالة وزارة وتكليف وزارة أخرى وصل الخلط إلى عنان السماء.

وكانت الأزمة أكبر من وزارة سبقت، وأكبر من وزارة لحقت خصوصاً والوجوه هي نفس الوجوه، والأصوات هي نفس الأصوات مع بعض اختلافات طفيفة لا تكاد تُرى! - أي أنها أعقد من أن تلقى على مسئولية «كمال الجنزوري»، وأخطر من أن تترك لمسئولية «عاطف عبيد».

وهنا أيضا - وبرغم كل شيء - فإن التزامي بمنطق «قل كلمتك وامش» ظل قائماً، على ظن أن كل أزمة لها حل.

وهذه الأزمة كذلك.

لكن الأهم من أزمة تَحل (بفتح التاء) وأزمة تُحَل (بضم التاء) هو أن تكون «المؤسسات الشرعية حاضرة باستمرار، وأن تكون «النُخَب من قيادات العمل الوطني» قادرة طول الوقت. وهنا يصل الحديث إلى نقطة هي قلب المستقبل ذاته! ■

٤

الحضانات ـ الحافظات لقيادة العمل الوطني

■■ في كل ما يُقال - أو لا يُقال - من أسباب، وما يُشار إليه - أو لا يُشار - من المشاكل والأزمات - فإن تحدى المستقبل هو الأولى بالرعاية والعناية. ليس فقط لكل الدواعي المعروفة والتقليدية عن أهمية المستقبل فوق الماضي والحاضر - وإنما قبل ذلك وبعده لأن تحدى المستقبل الجديد في هذا الزمان لم يسبق له مثيل. وفيه ما يصعب تصوره.

والواضح أن تحدى المستقبل مع بدايات القرن الواحد والعشرين هَمٌّ ثقيلٌ خصوصاً أن العالم العربي - وكثيرا من دول العالم الثالث معه - ما تزال بحساب التقويم العالمي للتاريخ - بعيدة حتى عن القرن العشرين. وربما أن بعضها ما زال بعيداً - أيضاً - عن القرن التاسع عشر.

والشاهد أن «تحدى المستقبل» اغرق في الكلام كثيراً واعرض عن الفهم طويلاً - وعندما يحل الكلام محل الفهم في توجيه الأفعال. فإن أضخم وأفخم الألفاظ تصبح أعلاها. وهكذا فإن صنع المستقبل مهددٌ بأن يصبح صناعة الإنشاء.

وكان ذلك طبيعياً مع غياب دور النخب القائدة في معظم المجتمعات العربية. ومعها ما تبشر به وتدعو إليه - عادة - من الطموحات المشروعة ومجموعات القيم الحامية.

وكان غياب هذه النخب عن دورها في صنع المستقبل وبعيداً عن صناعة الإنشاء - ظاهرة مخيفة. ذلك أن غياب النخب القائدة في أي مجتمع يعني أنه جيش بلا جنرالات - أي بلا قيادة تحشد وتخطط وتزحف.

وفي الماضي. وفي الحاضر. وفي المستقبل. فإن النخب في أي مجتمع هي قياداته - جنرالاته - وإذا طلب طالب ممن يعنيهم أمر المستقبل وهَمُّه أن يستطلع شكل ما هو قادم - فإن أول ما ينبغي له أن يسأل عنه. ويذهب إليه. ويقيس إمكانياته ودرجة استعداده - هو «الحضانات» العامة التي تسمح بظهور النخب. وتقدر على فرزها وعلى دفعها إلى مقدمة الصفوف في مجتمعاتها.

وهنا في مصر مثلاً فإن «حضانات» النخب المهيأة للقيادة في العصر الحديث (بالمعيار التقليدي للحداثة في العالم العربي وهي بداية القرن التاسع عشر) - تعرض نفسها على النحو التالي :

■ كان «الأزهر» هو حضانة النخبة الأولى التي لعبت الدور الافتتاحي في الحركة الوطنية السياسية وفي التنبه الثقافي منذ بداية ذلك القرن التاسع عشر - وقد برز من هذه النخبة رجال من طراز ووزن الشيخ «عبدالرحمن الجبرتي» والشيخ «حسن العطار» والشيخ «رفاعة رافع الطهطاوي» (وقرب نهاية القرن كان الأزهر ما زال حضانة نخب من أمثال الشيخ «محمد عبده» والشيخ «مصطفى المراغي» والشيخ «محمود شلتوت»).

■ وكانت ملكية الأراضي الزراعية (طبقة كبار الملاك ومتوسطيهم) هي حضانة الموجة الثانية من النخب المصرية التي تَصَدَّرت مقدمة الصفوف أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان أبناء هؤلاء الملاك الذين تعلموا أو عادوا من بعثاتهم التعليمية إلى أوروبا هُم طلائع الدولة المصرية المستقلة - رجال من أمثال «لطفي السيد» و«واصف غالي» و«محمد محمود».

■ وكانت مهنة المحاماة هي حضانة الموجة الثالثة من النخب خصوصاً هؤلاء الذين تصدوا لقضية الاستقلال - رجال من أمثال «سعد زغلول» و«مصطفى النحاس» و«مكرم عبيد». وفي الحقيقة فإن هذه النخب من المشتغلين بالقانون - وبالذات المحاماة - كانوا هُم الذين قادوا العمل السياسي طوال فترة ما بين ثورة سنة ١٩١٩ إلى ثورة سنة ١٩٥٢.

■ وكان الجهاز الإدارى للدولة خصوصاً أواخر الثلاثينات «حضانة» نخب مؤثرة صنعت - الموجة الرابعة - رجالاً من أمثال «محمود فوزى» و«عبد المقصود أحمد» و«مجدى وهبة».

وكان هؤلاء واقع الأمر من رجال الصف الثاني الذين علت نجومهم. ومن ثم خرجوا إلى مواقع مؤثرة.

■ وفي تلك الفترة وقبل وبعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا - فقد بدا أن الحركة الشبابية والطلابية هي «حضانة» الموجة القادمة من قيادات العمل السياسي - ووقعت الأنظار على شباب من أمثال «نور الدين طراف» و«فتحي رضوان» و«إبراهيم شكرى». لكن مجيء الحرب العالمية الثانية عطل على نحو ما دور هذه النخبة وإن عاد بعضهم إلى واجهة الصورة في مراحل تالية.

■ وبعد الحرب العالمية الثانية. وربما من آثار الفوران الهائل الذى أحدثته. فإن الدور جاء على القوات المسلحة لتكون حضانة النخب في مرحلة عاصفة من تاريخ القرن العشرين - وظهر رجال من أمثال «صدقي سليمان» مهندس السد العالي أثناء ملحمة بنائه. و«محمود يونس» مهندس الملاحة في قناة السويس بعد تأميمها. و«محمود رياض» كبير خبراء الصراع العربي الإسرائيلي (ويلاحظ أنني تجنبت أسماء قادة ثورة يوليو جميعاً وفي مقدمتهم «جمال عبدالناصر»).

■ وبعد ثورة ٢٣ يوليو فقد انفتح المجال لنخب جذبها العمل العام من الجامعات ومن النقابات المهنية (المهندسين من أمثال «عزيز صدقي» و«مصطفى خليل» و«سيد مرعى») - وأساتذة الجامعات (من أمثال «على الجريتلي» و«عبد المنعم القيسوني» و«رفعت المحجوب»).

«حضانات» النخب الرئيسية المهيأة لقيادة العمل الوطني كانت بالترتيب : الأزهر. طبقة ملاك الأراضي. الأحزاب السياسية. الجامعات. النقابات (والنقابات المهنية غالباً، وبالذات نقابات المحامين والمهندسين والمعلمين والأطباء). القوات المسلحة. الجهاز الإدارى للدولة

مؤدى ذلك أن «حضانات» النخب الرئيسية المهيأة لقيادة العمل الوطني كانت بالترتيب : الأزهر - كبار ومتوسطى ملاك الأراضي الزراعية - الأحزاب السياسية - الجامعات - النقابات (والنقابات المهنية غالباً. وبالذات نقابات المحامين والمهندسين والمعلمين والأطباء) - القوات المسلحة - الجهاز الإدارى للدولة.

وكانت حركة هذه الحضانات كلها تياراً عريضا يمكن متابعة حركته ورصدها - لكن اللافت أن مراجعة تجربة الحياة السياسية والفكرية والثقافية في مصر ومنذ أوائل القرن التاسع عشر طرحت ظاهرة تدعو إلى الاستغراب. مؤداها أن «النخب المصرية» تتعرض طول الوقت لعملية تسرب واستهلاك عالية السرعة. متواصلة الإيقاع!

وعلى سبيل المثال فإن النخب التى أفرزتها محاولة النهضة التي قام بها «محمد على» في بدايات ذلك القرن تعرضت لنوع من الإزاحة بالكشط تنزع منها بعضاً من أعلى وأغنى طبقاتها - والمجتمعات الحية ليست مثل اللبن تصح أكثر إذا تخلصت من دسمها. وإنما تحتاج المجتمعات باستمرار إلى كل ما توفره وتثريه عوامل الطبيعة والحياة من تراكم مختزن!

[وهكذا فإن الرجال الذين ساهموا في مشروع ذلك البِنَاء العظيم أو ظهروا على جوانبه. أطيح بهم بعد ضربه. وفيهم «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى وجد نفسه منفياً في السودان. وبينهم قواد البر والبحر ومديرو المصانع الذين قادوا في عصر «محمد على» وقد وجدوا أنفسهم إما منفيين في أعماق الريف. وإما عاطلين تحت أسوار القلعة.

وقرب نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تواصلت عمليات كشط النخب وإزاحتها. ثم تكررت مرات متوالية : مرة لتصفية بقايا عهد الخديو «إسماعيل». ومرة لقطع دابر ثورة «عرابى». ومرة ثالثة لاستئصال المقربين من الخديو «عباس حلمى» كي يخلو الجو للسلطان «حسين كامل» والسلطان «فؤاد» بعده. ولم تكن هذه مجرد تغييرات طبيعية. وإنما كانت جميعاً عمليات عنف عرفت السجن مثلما جرى للعرابيين ضباطاً ومدنيين بعد الاحتلال البريطاني. وعرفت المنفى مثلما جرى لأنصار الخديو الأخير في تاريخ مصر حتى بين الكُتَّاب والشعراء. وأولهم «أحمد شوقى».

ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ وشخصية «سعد زغلول» بكل قوتها وعنفها. وقد تَحَوَّلت الثورة في مرحلة منها إلى عملية كشط وإزاحة قادها «سعد زغلول» نفسه : فخصومه هُم «برادع الإنجليز» - وإقدام «عدلي يكن» على المفاوضة معهم معناه أنه «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» - ووصل الأمر إلى حد أنه «الاحتلال على يد سعد وليس الاستقلال على يد عدلى» - وكانت هذه أكبر عملية كشط وإزاحة للنخب في تاريخ مصر الحديث. فقد طالت أكثر العناصر استنارة وأوسعها ثقافة وأكفاها استعداداً للخدمة العامة. وكان الذين كشطوا وأزيحوا من حزب «الوفد» في تلك الفترة من يمكن اعتبارهم بالفعل «صفوة الصفوة» («La crème de la crème») - وقد تمكن «سعد زغلول» بشعبيته الكاسحة من وضعهم جميعاً (حزب الأحرار الدستوريين) وراء سور من العزلة لا يقدرون على الخروج منها. فإذا حاولوا فهي محاولة فار في مصيدة.

وفيما بعد تكررت انقسامات «الوفد» وكشطت وأزيحت مجموعات من «صفوة الصفوة» - طبقة بعد طبقة - وبينها على سبيل المثال مجموعة «على الشمسى» ورفاقه. و«أحمد ماهر» ومن سانده من حزب «السعديين» - ثم جاء الدور على النجم الأكثر سطوعاً في تاريخ «الوفد» وهو «مكرم عبيد». ومن انضم إليه في حزب «الكتلة». وكانت عملية كشط وإزاحة «مكرم عبيد» قاسية. وهي لم تدفع به فقط إلى الهامش وإنما أخذته إلى المعتقل. وأخيراً أزاحته إلى المنفى بالتغييب داخل الوطن!

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

■ وحتى فى مجال الاقتصاد فقد جرى كشط وإزاحة واحد من أهم البنائين العظام وهو «طلعت حرب» نفسه. فقد حاصره تحالف تلعمه «أحمد عبود» (باشا)، وقاده «حسين سرى» (باشا) [رئيس الوزراء حينئذ]- وآخرون، وساندهم من ساند فى القصر، ورضى عنهم من رضى فى السفارة البريطانية. والنتيجة أن مؤسس بنك مصر أرغم على التقاعد وأسىء إلى سمعته، واعتزل معه آخرون شاركوه فيما بنى وشيد.

■ وفى ظروف التجربة الحزبية فى مصر فإن عملية كشط النخب وإزاحتها دفعت بكثيرين من ذوى القيمة المحققة أو المحتملة إلى خارج دائرة الضوء. فقد كانت وزارات «الوفد» بدون استثناء تقال. وفى أعقاب إقالتها يُعفى من مناصب الدولة رجالها المحسوبون عليها، ويحل بدلهم من يملأ مواقعهم من أحزاب الأقلية. وإذا ما حدث العكس وجاء «الوفد» (وغالباً ما كان مجيئه فرضاً على القصر سواء بقوة الرأى العام أو بإملاء السفارة البريطانية لحاجتها إلى نفوذ هذا الحزب فى أوقات الشدة) - فإن كل الرجال المحسوبين على أحزاب الأقلية كان عليهم أن يجمعوا أوراقهم وأن يخرجوا من الدواوين إلى الشوارع.

وتزايدت سرعة عمليات الكشط والإزاحة مع تدهور الحياة السياسية عموماً - وحين هوت الأحزاب السياسية جميعاً إلى القاع الذى وصلت إليه وسط أكوام من الرماد تخلفت من حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢.

ثم استمر التمرغ فى القاع والرماد حتى سقط الحكم الملكى فى يوليو من تلك السنة.

[■ وفى تلك الأيام فإن استهلاك النُخَب لم يقتصر على مجالات السياسة والاقتصاد فحسب، وإنما طال الثقافة والأدب حتى أن نجومًا عالية فى سماء الفكر كادت تتهاوى من اختلال قوانين الجاذبية حولها:

«طه حسين» استهلكه حزب الوفد أو كاد.

و«العقاد» استهلكه الدفاع عن القصر أو كاد.

و«سلامة موسى» استهلكه الإهمال أو كاد.]

■ وعندما قامت الثورة سنة ١٩٥٢ فإن الصورة لم تكن أفضل - ذلك إنه بحكم التغيير الكبير الذى كان مطلوباً فإن شيئاً من الكشط والإزاحة كان مفهوما بدواعيه - لكن العجلة واصلت دورانها إلى محطات مختلفة: تطهير جهاز الدولة القديم - حل الأحزاب - الخلاف مع «محمد نجيب» - المعركة مع الشيوعيين - الصدام مع الإخوان المسلمين - تطبيق القرارات الاشتراكية - تصفية الإقطاع.

وبصرف النظر عن أى قصد فإن كل عملية كشط وإزاحة كانت تخصم من رصيد إنسانى يصعب تعويضه (خصوصاً إذا أضيف إليه نزيف العقول المهاجرة. وإن كانت تلك مشكلة لا تخص مصر وحدها).

....

....

والشاهد أنه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية القرن العشرين تقريباً، فإن «حضانات» النخب كانت قد قدمت أفضل ما بقى عندها، إما لجهاز الدولة بما فى ذلك وزاراته ومجالسه وهيئاته، أو للقطاع العام وقد أصبح هو القوة الضاربة على جبهة التنمية الشاملة خصوصاً بعد معركة السويس. وفى الواقع فإن تجمع هذه النخب فى جهاز الدولة والقطاع العام كان هو الذى صنع معجزة ما بعد نكسة سنة ١٩٦٧.

على الجبهة الداخلية: فإن هذه المعجزة واصلت عملية استكمال التنمية فى ظروف حرب. فاستمر بناء مشروعات ضخمة أولها مشروع السد العالى ومجمع الألمنيوم. وغيرهما - وفى الوقت نفسه تم دفع تكاليف إعادة بناء القوات المسلحة وتجهيزها للحرب - ومع هذه الأعباء الثقيلة جرت المحافظة على أسعار السلع والخدمات كما كانت قبل الحرب.

وكانت لحظة الذروة فى عطاء هذا الحشد من النخب الباقية فى الدولة والقطاع العام هى الأساس الذى جعل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ممكنة بالنسبة للرجل الذى وضعت الأقدار فى يده سلطة القرار وهو «أنور السادات». وقد اتخذه بشجاعة وجسارة عارفاً أن قراره يقف على أرضية مستعدة.

ثم لم تكد مدافع الحرب تسكت حتى عادت عمليات الكشط والإزاحة تمارس دورها وكأنها الآن مهمة مطلوبة وبإلحاح.

وهكذا فإنه بشكل ما بعد حرب أكتوبر حدث تناد سريع إلى فك التعبئة. لكن ذلك التنادى توسع لـ«يفك» ما هو أخطر وأكبر من التعبئة للحرب. ووقتها ترددت فى الأجواء مقولتان رن صداهما وكأنهما صوت نذير.

■ كانت المقولة الأولى: أن «القطاع العام فات زمنه ولم يعد الآن لازماً».

وربما أن العصور كانت قد اختلفت بالفعل - لكن القطاع العام كان معقل الحيوية الاقتصادية فى البلد وقتها، وموطن أهم النخب التى جاءت بها إلى ساحة العمل الوطنى «حضانات» متعددة.

ولأن القطاع العام لم يعد له - وفق هذه المقولة - لزوم، فإن الاستثمارات الجديدة حجبت عن مؤسساته رغم أن الدولة كانت تأخذ فائض نشاطه.

وظل القطاع العام ضحية عملية تجويع حتى بَتَّ الرئيس «مبارك» فى الأمر.

ثم بدأت سياسة الخصخصة - وبالطبع فإن أنشط النخب العاملة فى القطاع العام رأت شكل ما هو قادم، وغادرته مبكراً. وكانت تلك بداية قطاع الأعمال - مجرد البداية.

■ وأما المقولة الثانية فهى أن «حرب أكتوبر هى آخر الحروب».

■ وكان معنى ذلك أن القوات المسلحة، وهى القوة التى كان العمل الوطنى مجنداً لخدمتها بهدف تحقيق قدرٍ كاف من النصر يفتح الباب لاحتمالات أوسع وأبعد فى الإقليم - لم تعد مطالبة بشىء. وعلى نحو ما فقد كان معنى مقولة إنها «آخر الحروب» - أن الوطن لم تعد له استراتيجية عليا يسعى لتحقيقها. وقيل فى هذا الوقت، وما زال يقال حتى الآن، أن السلام هو الاستراتيجية العليا لمصر. والحقيقة أن السلام لا يمكن أن يكون استراتيجية أى بلد فى العالم. وإلا كان معنى ذلك أنه السلام بأى ثمن - وهنا ترخص قيمة السلام! (ومن المفارقات أن إسرائيل تعتبر استراتيجيتها استراتيجية أمن - والسلام



نتيجة وليس استراتيجية. وذلك ما تقول به كل قوى الدنيا الفاعلة الحية فى عصرها وزمانها).

(وبدوره فإن السلام كمطلب استراتيجى - فتح الباب لفُرقة وطنية فتحت المجال بدورها لعمليات كشط وإزاحة فى كل المجالات من السياسة إلى الثقافة. ومن الجامعة إلى النقابات المهنية. ومن قيادات الأحزاب إلى اتحادات الطلبة - وهكذا.)

ثم كان بعد ذلك أن توالت وقائع.

■ وقع أنه فى هذه الفترة تفجرت حوادث ١٧ و١٨ يناير ١٩٧٧ - عندما صدرت قرارات برفع أسعار كل السلع مرة واحدة - وخرجت الطبقة المتوسطة (الصغرى) فى اليوم الأول من هذه المظاهرات تحتج على الرفع المفاجئ للأسعار. وووجهت المظاهرات بنزول القوات المسلحة لحفظ النظام. واشترطت قيادة هذه القوات فى ذلك الوقت إلغاء رفع الأسعار قبل أن تنزل قوات الجيش لحفظ النظام. وحدثت استجابة للشرط - مؤقتاً - على نية مبيتة ليوم آخر!

وكان أن شيئا ما فى التركيب الطبقى المصرى ارتبك واختل - ثم وُصفت حوادث ١٧ و١٨ يناير بأنها «انتفاضة حرامية». وأعقبها من إجراءات الكشط والإزاحة ما هو لازم للتعامل مع «انتفاضة حرامية». ومن يومها سكتت الطبقة المتوسطة (الصغرى) فى مصر ولم يعد لها صوت يُسمع - لكن قلبها عليه آثار جرح - مازال!

■ ثم وقع أنه فى نهاية سنوات حافلة بالتوتر جرت اعتقالات سبتمبر ١٩٨١، وجرى اغتيال الرئيس «السادات». وكانت اعتقالات سبتمبر قد طالت مساحة ضخمة من «حضانات» النخب من بين قادة الأحزاب السياسية، ومجالس إدارات النقابات المهنية، وأساتذة الجامعات، والتنظيمات الشبابية والطلابية، وقادة ونجوم الأحزاب السياسية من كل الاتجاهات (وكان الجمع شاملاً إلى درجة أننى رأيت قائد سجون منطقة «طرة» يدخل إلى سجن الملحق وينظر فى باحته ويقول بصوت مسموع تشيع فيه نغمة من الدهشة لم يستطع هذا الرجل المتمرس فى العمل البوليسى كتمانها: «...إن أمامى هنا من المساجين ما يكفى لتشكيل خمس أو عشر «وزارات»!»)

وهكذا فإن حَدَثاً خطيراً (اغتيال رئيس) وتغييراً بالغ الأهمية (مجىء رئيس جديد وسط ظرف خطر) - وقع ومعظم النخب المصرية غائبة: إما عاطلة بغير وظيفة، أو هاربة تتوقى إجراءات قمع، أو أنها بالفعل وراء قضبان السجن!

....

....

وفى سنوات التسعينات وحتى الآن فقد بان أن قطاع الأعمال الجديد - القطاع الخاص - يطرح نفسه «حضانة» للنخب الجديدة (وتلك على أى حال من قسمات العصر فى كثير من بلدان الغرب) - وكان يمكن الرضى بهذه المقولة بواقع أن هذا القطاع أصبح موطن أو مهجر معظم ما تبقى من نخب الماضى، ومقصد ومطلب معظم القادمين إلى اقتصاد مستجد ومختلف.

لكن المشكلة أن كل ما ظهر من ملابسات سبق شرحها عند نقطة الانتقال من مرحلة الإصلاح المالى - إلى مرحلة الإصلاح الاقتصادى - سحب ضباباً رمادياً على هذا القطاع الجديد أثر على مناخه. والمناخ عنصرٌ هامٌ فى كفاءة ومصداقية «الحضانات» «الحافظات» للنخب.

وهنا القلق المستبد والخوف من آفاق يحجبها الضباب!

(والحقيقة أن تلك كلها ظواهر وأعراض لا تقتصر على مصر. وإنما هى موجودة على نحو أو آخر فى كل بلدان العالم العربى. لكن الصمت هناك سيد الموقف. والشعوب مجبرة عليه بالعنف أو لاجئة إليه بالخوف - وأما مصر - أقولها شهادة حق - فإنها ماتزال قادرة على النظر إلى نفسها فى المرآة، حتى إذا كانت المرآة أحياناً مُقعَّرة تعكس الصور بأقسى من حقيقتها!)

وعلى أى حال فقد قلت ما قلت حتى الآن والمستقبل شاغلى وقصدى بأكثر من الماضى والحاضر.

المستقبل شاغلى وقصدى - وهو قلقى وخوفى - لأنه يطرح سؤالاً رئيسياً لا تصح معه ولا تصدق فيه مقولة «قل كلمتك وامش».

لأن ذلك السؤال الرئيسى - يصل بنا إلى قرب «الحضانات» «الحافظات» للنخب، حيث يكون فى مقدورنا أن نطل سائلين أنفسنا برهبة:

- هل بقى شىء يقدر على التعامل مع طغيان عصور دخلت علينا فعلاً. وفيها قوى تبغى السيطرة والرضا بهذه السيطرة ارتهان - ومعارف لا غنى عنها وإلا فهو الموت جهلاً - وأدوات يحسن الناس إدارتها فتكون لهم شهادة ميلاد جديد - ومرجعيات سياسية وقانونية تنظم حياتهم فى أوطانهم ويتسق بها النص الواجب احترامه مع الحق الواجب التزامه.

هل بقى شىء؟

وإذا كان فكيف؟ ومتى؟! ■

مؤامرة هزت إيران

جيمس رايزن



طوال ما يقرب من خمسة عقود، كان دور أمريكا فى الانقلاب العسكرى الذى أطاح برئيس وزراء إيران المنتخب وأعاد الشاه للسلطة، مفقوداً بالنسبة للتاريخ، وموضع جدل شديد داخل إيران، وصمتاً مطبقاً فى الولايات المتحدة. وتوالى تقاعد المشاركين أو وفاتهم، الواحد وراء الآخر، دون الكشف عن التفاصيل الأساسية، وذكرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أن سجلات العملية - التى كانت أول عملية ناجحة تطيح من خلالها بحكومة أجنبية - قد أتلفت.

إلا أن نسخة من تاريخ الوكالة السرى الخاص بالانقلاب ظهرت على السطح، لتكشف الأساليب الداخلية لمؤامرة أعدت المسرح للثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، ولجيل من الكراهية المعادية لأمريكا فى واحدة من أقوى دول الشرق الأوسط.

وتكشف الوثيقة التى مازالت محظورة، الدور المحورى الذى قام به مسئولو المخابرات البريطانية فى بدء الانقلاب والتخطيط له، وتبين أن واشنطن ولندن كانت لهما مصلحة مشتركة فى الحفاظ على سيطرة الغرب على البترول الإيرانى.

ويذكر التاريخ السرى لوكالة الاستخبارات المركزية، الذى كتبه المخطط الرئيسى للانقلاب وحصلت عليه صحيفة «نيويورك تايمز» أن نجاح العملية كان فى معظمه محض صدفة. فالوثيقة تشير إلى أن الوكالة كانت تضمر ازدراء يكاد يكون تاماً للرجل الذى كانت تمكنه من السلطة، وهو الشاه محمد رضا بهلوى، الذى كانت تسخر منه باعتباره جباناً متردداً. وهى تروى لأول مرة جهود الوكالة المضنية لإغراء الشاه وحثه على أن يكون له دور فى الانقلاب الخاص به.

وكانت العملية، التى حملت الاسم الكودى TP-Ajax، هى خطة العمل المفصلة لسلسلة من مؤامرات وكالة الاستخبارات المركزية لتحريك الانقلابات وزعزعة الحكومات خلال فترة الحرب الباردة - بما فى ذلك الانقلاب الناجح الذى رتبته الوكالة فى جواتيمالا سنة ١٩٥٤ والتدخل الكوبى الذى كانت له نتائجه الوخيمة والمعروف باسم خليج الخنازير سنة ١٩٦١ وفى أكثر من مثال، أدت هذه العمليات إلى نفس النوع من العداوة طويلة الأمد تجاه الولايات المتحدة التى حدثت فى إيران.

ويقول التاريخ إن ضباط الوكالة المنظمين لانقلاب إيران عملوا بشكل مباشر مع ضباط الجيش الموالين للشاه، واختاروا بديل رئيس الوزراء، وأرسلوا سيلاً من المبعوثين لتعزيز شجاعة الشاه، ووجهوا حملة من تفجير القنابل التى قام بها إيرانيون تظاهروا بأنهم أعضاء فى الحزب الشيوعى، وزرعوا مقالات ورسوما كاريكاتيرية فى الصحف.

ولكن التاريخ السرى يشير إلى أنه فى الليلة التى حددت لخلع رئيس الوزراء محمد مصدق، لم يسر أى شىء تقريباً وفقاً للخطط التى وضعت بعناية بالغة. فواقع الأمر أن مسئولى وكالة الاستخبارات المركزية كانوا على استعداد للفرار من إيران، عندما سيطر العديد من الضباط الإيرانيين المجندين على مظاهرة موالية للشاه فى طهران واستولوا على الحكم.

ويكشف التاريخ أنه بعد يومين من الانقلاب، أدخل مسئولو الوكالة ٥ ملايين دولار لإيران لمساعدة الحكومة التى أتوا بها فى تدعيم نفوذها.

وكانت الخطوط العامة للدور الأمريكى فى الانقلاب قد كشف النقاب عنها فى إيران فى البداية، ثم فى مذكرات ضباط وكالة الاستخبارات المركزية وروايات أخرى منشورة. إلا أن الكثير من النقاط

المحددة ظلت محظورة. والتاريخ السرى الذى حصلت عليه «نيويورك تايمز» هو أول رواية حكومية مفصلة للانقلاب يتم نشرها.

وكانت الولايات المتحدة بطيئة فى إتاحة ملفات إيران للاطلاع. وتعهد اثنان من مديرى الوكالة، هما روبرت جيتس و ر. جيمس وولسى، بحظر الاطلاع على السجلات الخاصة بأعمال الوكالة السرية، بما فى ذلك الانقلاب. إلا أن الوكالة ذكرت منذ ثلاث سنوات أن عدداً من الوثائق ذات الصلة بالانقلاب كانت قد أتلفت فى أوائل الستينيات.

وذكر متحدث رسمى باسم وكالة الاستخبارات المركزية أن الوكالة أبقت على حوالى ألف صفحة من الوثائق المتصلة بالانقلاب، إلى جانب التاريخ ورواية تاريخية كتبت فى وقت لاحق. كما قال إن الأوراق التى أتلفت فى أوائل الستينيات كانت نسخاً وملفات عمل.

وذكر كبير مؤرخى وزارة الخارجية أن مكتبه تلقى نسخة من التاريخ منذ سبع سنوات، إلا أنه لم يتخذ قراراً بعد بشأن رفع الحظر عنها.

وقد تلقت «نيويورك تايمز» التاريخ السرى، وكذلك التقييمات العملياتية التى كتبها مخططو الانقلاب، من مسئول سابق كان يحتفظ بنسخة منه.

والواقع أن الانقلاب كان نقطة تحول فى تاريخ إيران الحديث، ومازال مصدر ضيق دائم فى العلاقات بين واشنطن وطهران. فقد قوى دعائم سلطة الشاه، الذى حكم بقبضة من حديد ما يربو على ٢٦ سنة وهو على صلة وثيقة بالولايات المتحدة. وقد خلعه سنة ١٩٧٩ المتشددون الذى خرجوا فى مسيرات إلى السفارة الأمريكية، وأخذوا رهائن من الدبلوماسيين، وأعلنوا أنهم كشفوا النقاب عن «عش الجواسيس» الذين كانوا يتحكمون فى إيران على مر العقود.

وأيدت حكومة آية الله روح الله الخمينى الهجمات الإرهابية على المصالح الأمريكية تأييداً كبيراً، بسبب التاريخ الأمريكى الطويل فى دعم الشاه. وحتى فى ظل حكام أكثر اعتدالاً، مازال إيرانيون كثيرون يشعرون بضيق من دور الولايات المتحدة فى الانقلاب ومن دعمها للشاه.

وفى كلمة ألقتها فى شهر مارس، اعترفت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية بدور الانقلاب المحورى فى العلاقة المضطربة مع إيران وكانت أقرب إلى الاعتذار مما كان عليه أى مسئول أمريكى آخر من قبل.

وقالت أولبرايت: «كانت حكومة أيزنهاور تعتقد أن أعمالها لها ما يبررها لأسباب استراتيجية. غير أن الانقلاب كان نكسة بالنسبة لتطور إيران السياسى. ومن السهل أن نرى فى الوقت الراهن السبب فى أن الكثير من الإيرانيين لا يزالون غاضبين من هذا التدخل من جانب أمريكا فى شئونهم الداخلية».

إن التاريخ يوضح الحسابات التى أشارت إليها مادلين أولبرايت فى كلمتها. وهو يقول إن بريطانيا هى التى نسجت خيوط المؤامرة سنة ١٩٥٢ وبينما رفضتها حكومة ترومان، قبلها الرئيس أيزنهاور بعد توليه منصب الرئاسة بوقت قصير سنة ١٩٥٣، بسبب مخاوفه بشأن البترول والشيوعية.

الجذور
بريطانيا تحارب تأميم البترول

حقيقة الأمر أن جذور الانقلاب تعود إلى المواجهة البريطانية مع إيران، التى استعصت السيطرة عليها فى ظل عقود من الهيمنة البريطانية شبه الاستعمارية.

وكان ما تصبو إليه هو حقول البترول الإيرانية. فقد احتلت بريطانيا إيران فى الحرب العالمية الثانية لحماية طريق إمداد إلى حليفها الاتحاد السوفيتى. ولمنع البترول من السقوط فى أيدى النازيين - حيث أقصت والد الشاه، الذى رأت أنه لا يسهل قياده، عن الحكم. واحتفظت بريطانيا بسيطرتها على بترول إيران بعد انتهاء الحرب من خلال شركة البترول الأنجلو إيرانية.

وفى سنة ١٩٥١ صوت البرلمان الإيرانى لمصلحة تأميم صناعة البترول، وانتخب أعضاء البرلمان المؤيدون للقانون المدافع الرئيسى عنه الدكتور مصدق رئيساً للوزراء.

وردت بريطانيا على ذلك بالتهديدات والعقوبات الاقتصادية. ورفض الدكتور مصدق - وهو محام تلقى تعليمه فى أوروبا وكان وقتها فى أوائل السبعينيات من عمره ويميل إلى البكاء والجيشان العاطفى - الرجوع عن قراره. ويقول التاريخ إنه فى الاجتماعات التى عقدت فى نوفمبر وديسمبر ١٩٥٢، فاجأ مسئولو الاستخبارات البريطانيون نظراءهم الأمريكيين بخطة تتعلق بعملية مشتركة لخلع رئيس الوزراء المزعج.

ويشير التاريخ إلى أن الأمريكيين، الذين «لم تكن لديهم نية مناقشة هذه المسألة بالمرة»، وافقوا على دراستها. إذ كانت لها جاذبيتها. وكانت معاداة الشيوعية قد بلغت حد الحمى فى واشنطن، وكان المسئولون يشعرون بالقلق من احتمال خضوع إيران لنفوذ الاتحاد السوفيتى، الذى كان له وجود تاريخى هناك.

وفى مارس ١٩٥٣ دفع تطور غير متوقع بالمؤامرة إلى الأمام: فقد أورد مركز وكالة الاستخبارات المركزية فى طهران أن جنرالاً إيرانياً اتصل بالسفارة الأمريكية بشأن دعم انقلاب يقوده الجيش.

لقد خدعت حكومة أيزنهاور التى بدأت الحكم حديثاً. فالائتلاف الذى انتخب الدكتور مصدق كان فى سبيله للتشظى، وأصبح الحزب الشيوعى الإيرانى، توده، نشطاً.

ويقول التاريخ إن آلن و. دلاس مدير الاستخبارات المركزية وافق فى ٤ أبريل على استخدام مليون دولار أمريكى «بأية طريقة تؤدى إلى سقوط مصدق».

ويمضى التاريخ قائلاً: «كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تصل إلى تسوية بترولية عادلة، مما يمكن إيران من أن تصبح قوية اقتصادياً وقادرة على أداء التزاماتها المالية، وتتولى مطاردة الحزب الشيوعى القوى بصورة خطيرة».

وخلال بضعة أيام حدد مسئولو الوكالة ضابطاً كبيراً، هو الجنرال فيض الله زاهدى، ليكون رأس حربة الانقلاب. واقتضت خطتهم قيام الشاه بدور رئيسى.

وكتب المسئولون قائلين: «كانت توليفة الشاه - جنرال زاهدى التى تدعمها الأصول المحلية لوكالة الاستخبارات المركزية ستنعم بفرصة جيدة لإقصاء مصدق، وخاصة فى حالة قدرة هذه التوليفة على استمالة أكبر عدد من الحشود التى فى الشوارع، وإذا رفض جزء كبير من حامية طهران تنفيذ أوامر مصدق».

إلا أنه طبقاً لما ذكره التاريخ، فإن المخططين كانت لديهم شكوك بشأن ما إذا كان الشاه يمكنه تنفيذ هذه العملية الشجاعة أم لا.

وكانت أسرة الشاه قد استولت على عرش إيران قبل ذلك باثنتين وثلاثين سنة وحسب، عندما قاد والده القوى انقلاباً بنفسه. إلا أن مسئولى الوكالة كتبوا أن الشاه الصغير كان «بطبعه مخلوقاً متردداً، تتملكه شكوك ومخاوف لا وجود لها». وكثيراً ما يكون على خلاف ما مع عائلته، بمن فيهم الأميرة أشرف، «الأخت التوءم القوية المولعة بتدبير المكائد».

وكان الشاه يعانى كذلك مما أسمته وكالة الاستخبارات المركزية «الخوف المرضى» من المؤامرات البريطانية، وهى عقبة يحتمل أن تقف فى سبيل أية عملية مشتركة.

وفى مايو ١٩٥٣ أرسلت الوكالة الدكتور ويلبر وهو أستاذ متخصص فى العمارة الفارسية إلى قبرص لمقابلة نورمان داربيشاير، رئيس فرع إيران فى الاستخبارات البريطانية، بغرض وضع الخطط الأولية للانقلاب. وكان الحد من مخاوف الشاه يأتى فى مقدمة جدول أعمالهما: وتشير وثيقة صادرة عن هذا الاجتماع إلى أنه سيتم إقناعه بأن الولايات المتحدة وبريطانيا «تعتبران مسألة البترول أمراً ثانوياً».

وتطرق النقاش فى الاجتماع إلى موضوع شائك، وهو هوية العملاء الأساسيين داخل إيران. وذكر البريطانيون أنهم جندوا شقيقين اسم عائلتهما رشيديان،

ويكشف التاريخ أن الأمريكيين لم يثقوا فى البريطانيين بشأن هوية أفضل «عملاء» لهم داخل إيران.

وفى الوقت ذاته انقسم مسئولو وكالة الاستخبارات المركزية على إذا ما كانت الخطة التى وضعت فى قبرص يمكن أن تنجح أم لا. وحذر مركز طهران القيادة من أن «الشاه قد لا يتصرف بحسم ضد مصدق». كما قال إن الجنرال زاهدى، وهو الرجل الذى اختير لقيادة الانقلاب، «بدا مفتقراً إلى الدافع والحيوية والخطط المحددة».

ورغم تلك الشكوك، بدأ مركز الوكالة فى طهران فى نشر «دعاية رمادية»، وتوزيع رسوم كاريكاتير معادية لمصدق فى الشوارع، وزرع مقالات فى غير مصلحته فى الصحافة المحلية.

وضع الخطط
محاولة إقناع شاه متردد

كانت المؤامرة قيد التنفيذ، مع أن الشاه كان محارباً متردداً ولم يكن أيزنهاور قد أعطى الموافقة النهائية.

وفى أوائل شهر يونيو، التقى مسئولو الاستخبارات البريطانيون والأمريكيون من جديد، وكان اللقاء هذه المرة فى بيروت، حيث وضعوا اللمسات الأخيرة على الاستراتيجية. وبعد ذلك بوقت قصير وصل إلى طهران رئيس قسم الشرق الأدنى وأفريقيا فى وكالة الاستخبارات المركزية كيرمت روزفلت، حفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت، لإدارتها.

وكان الشاه يمثل مشكلة منذ البداية. فقد كانت الخطة تقتضى أن يتماسك الشاه عندما تثير وكالة الاستخبارات المركزية أعمال الشغب الشعبية، وبعد ذلك يصدر مرسومين شاهانيين بعزل الدكتور مصدق وتعيين الجنرال زاهدى رئيساً للوزراء.

وجاء فى التاريخ السرى أن الوكالة سعت إلى «خلق ذلك الضغط على الشاه الذى يجعل توقيعه على الأوراق المطلوبة منه أيسر عليه من رفضه القيام بذلك». وقد لجأ المسئولون إلى شقيقته الأميرة أشرف طلباً للعون.

وفى الحادى عشر من يوليو، وقع الرئيس أيزنهاور التوقيع النهائى بالموافقة على الخطة. وفى الوقت نفسه تقريباً، زار ضباط وكالة الاستخبارات المركزية والاستخبارات البريطانية الأميرة أشرف فى الريفيرا الفرنسية وأقنعوها بالعودة إلى إيران وإبلاغ شقيقها العمل بموجب الخطة الموضوعة.

وأثارت عودة الأميرة غير المحبوبة عاصفة من الاحتجاجات من القوى المؤيدة لمصدق. فى الوقت الذى غضب فيه الشاه من عودتها دون موافقته ورفض رؤيتها فى البداية. إلا أن أحد موظفى القصر - وهو عميل بريطانى آخر، طبقاً لما جاء فى التاريخ السرى - استطاع الوصول إلى أشرف فى ٢٩ يوليو.

ولكن التاريخ لا يكشف ما قاله الشقيقان كل منهما للآخر. إلا أن الأميرة نقلت لشقيقها خبر أن مسئولى وكالة الاستخبارات المركزية أدرجوا الجنرال هـ. نورمان شوارتسكوف ضمن المشاركين فى حملة الانقلاب. والجنرال شوارتسكوف، وهو والد قائد حرب الخليج، كانت قد نشأت بينه وبين الشاه صداقة قبل ذلك بعشر سنوات، أثناء قيادته للبعثة العسكرية الأمريكية فى إيران. وأبلغ الوكالة «أنه كان متأكداً من الحصول على التعاون المطلوب».

وسعى البريطانيون كذلك للسيطرة على الشاه والتأكيد له على أن عملاءهم يتحدثون

فى كلمة ألقتها فى شهر مارس، اعترفت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية بدور الانقلاب المحورى فى العلاقة المضطربة مع إيران وكانت أقرب إلى الاعتذار مما كان عليه أى مسئول أمريكى آخر من قبل

باسم لندن. وفى أواخر شهر يوليو جاءه العميل البريطانى أسد الله رشيديان ودعاه لانتقاء عبارة تتم إذاعتها فى أوقات محددة سلفاً ضمن برنامج هيئة الإذاعة البريطانية باللغة الفارسية - كدليل على أن رشيديان يتحدث باسم البريطانيين.

ويبدو أن تلك الممارسة لم يكن لها أثر كبير. فقد أبلغ الشاه رشيديان يومى ٣٠ و٣١ يوليو أنه سمع الإذاعة ولكنه «طلب وقتاً لتقييم الموقف».

وفى أوائل أغسطس زادت وكالة الاستخبارات المركزية من الضغط. فقد هدد العملاء الإيرانيون الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون الزعماء المسلمين بـ«عقاب شديد إن هم عارضوا مصدق»، سعياً منهم لإثارة المشاعر المعادية للشيوعية فى المجتمع الدينى.

وبالإضافة إلى ذلك، يشير التاريخ السرى إلى أن منزل شخصية مسلمة بارزة واحدة على الأقل ألقى عليه عملاء الوكالة القنابل باعتبارهم شيوعيين. إلا أنه لم يذكر إن كان هناك من أصيب من جراء هذا الهجوم.

وكانت الوكالة فى الوقت ذاته توسع حملتها الدعائية. ومنح صاحب صحيفة كبيرة قرضاً شخصياً قدره ٤٥ ألف دولار «اعتقاداً بأن هذا سوف يجعل صحيفته خاضعة لأغراضنا».

ومع ذلك ظل الشاه على ما هو عليه من عناد. وفى اجتماع عقد فى أول أغسطس مع الجنرال شوارتسكوف، رفض التوقيع على مرسومى وكالة الاستخبارات المركزية بإقالة مصدق وتعيين الجنرال زاهدى. فقد ذكر أنه يشك فى تأييد الجيش له فى أية مواجهة.

وتذكر الوثيقة أنه أثناء الاجتماع كان الشاه مقتنعاً بأن القصر زرعت به أجهزة تنصت، حتى أنه «سار بالجنرال إلى داخل قاعة الحفلات الكبرى، وسحب طاولة صغيرة إلى وسطها بالضبط» وصعد عليها كى يتحدث، وأصر أن يفعل الجنرال الشىء نفسه.

وكما جاء فى التاريخ، فإن «هذا الاجتماع أعقبته سلسلة من الاجتماعات التقليدية، بعضها بين الشاه وروزفلت والبعض الآخر بين رشيديان والشاه، حيث مورس فيها ضغط شديد، فى محاولات يائسة للتغلب على موقف ثابت يتسم بالتردد والعجز عن اتخاذ أى قرار». وفى تلك الأونة أدرك الدكتور مصدق أن هناك مؤامرة تحاك ضده. وهنا انتقل إلى تدعيم السلطة بالدعوة إلى استفتاء قومى لحل البرلمان.

ومن الواضح أن نتيجة الاستفتاء الذى أجرى فى ٤ أغسطس زورت لتكون فى مصلحته: وأوردت صحيفة «نيويورك تايمز» فى ذلك اليوم أن رئيس الوزراء فاز بنسبة ٩٩,٩ بالمائة من الأصوات. وكان ذلك بمثابة عون لمخططى المؤامرة، حيث أوجد «قضية يمكن مهاجمة مصدق بشأنها بلا هوادة» من جانب صحافة المعارضة التى تدعمها الوكالة.

كل هذا والشاه يأبى اتخاذ أى إجراء ضد الدكتور مصدق.

وجاء فى التاريخ السرى أنه «فى الثالث من أغسطس كانت لروزفلت جلسة طويلة وغير حاسمة مع الشاه» الذى «ذكر أنه ليس مغامراً، ومن ثم لا يسعه المخاطرة بما يخاطر به أى مغامر. وهنا أوضح روزفلت أنه ما من سبيل غير ذلك لتغيير الحكومة وأن الاختبار بات بين مصدق وقوته والشاه والجيش، الذى كان لا يزال معه، ولكنه قد يفلت من يده عما قريب».



كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تصل إلى تسوية بترولية عادلة، مما يمكّن إيران من أن تصبح قوية اقتصادياً وقادرة على أداء التزاماتها المالية، وتتولى مطاردة الحزب الشيوعى القوى بصورة خطيرة» وخلال بضعة أيام حدد مسئولو الوكالة ضابطاً كبيراً، هو الجنرال فيض الله زاهدى، ليكون رأس حربة الانقلاب. واقتضت خطتهم قيام الشاه بدور رئيسى

وأبلغ روزفلت الشاه «أن الإخفاق فى العمل لن يؤدى إلا إلى إيران شيوعية أو إلى كوريا ثانية».

فما كان من الشاه الذى كانت لا تزال الشكوك تلح عليه إلا أن سأل روزفلت إن كان بإمكان الرئيس أيزنهاور إخباره بما يفعله.

ويذكر التاريخ السرى أنه «بالصدفة المحضة والحظ الطيب، خرج الرئيس، أثناء كلمته التى ألقاها فى مؤتمر حكام الولايات فى سياتل فى الرابع من أغسطس، عن النص المكتوب ليقول ما يوحى بأن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدى وهى ترى إيران تسقط خلف الستار الحديدى».

وبحلول العاشر من أغسطس كان الشاه قد وافق فى النهاية على رؤية الجنرال زاهدى وعدد قليل من ضباط الجيش المشاركين فى المؤامرة. وحينئذاك أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية رشيديان كى يقول إن روزفلت «سوف يغادر البلاد وهو فى غاية الضيق ما لم يتخذ الشاه إجراء ما خلال أيام معدودات».

وأخيراً وقع الشاه المرسومين فى ١٣ أغسطس. وانتشر خبر اعتزامه دعم انقلاب يقوده الجيش بسرعة بين ضباط الجيش المؤيدين للجنرال زاهدى.

الانقلاب
الأيام القليلة الأولى تبدو شديدة السوء

بدأ الانقلاب فى ليلة الخامس عشر من أغسطس وعرضه على الفور للخطر ضابط ثرثار فى الجيش نقلت ملاحظاته لمصدق.

ويذكر التاريخ السرى أن العملية «كان من المحتمل أن تنجح بالرغم من هذا الإنذار المبكر، ما لم يتسم معظم المشاركين بالرعونة وعدم القدرة على اتخاذ القرار فى اللحظة الحرجة».

وعلم رئيس أركان حرب الدكتور مصدق، الجنرال تاغى رياحى، بالمؤامرة قبل ساعات من بدايتها وأرسل نائبه إلى ثكنات الحرس الإمبراطورى.

وطبقاً لما جاء فى التاريخ، ألقى القبض على النائب هناك فى الوقت الذى كان فيه الجنود المؤيدون للشاه يطوفون بالمدينة يقبضون على كبار المسئولين الآخرين. وقطعت خطوط التليفون بين الجيش ومكاتب الحكومة، كما احتل السنترال.

ولكن التليفونات ظلت تعمل بطريقة غامضة، مما أعطى قوات مصدق ميزة كبيرة. كما راوغ الجنرال رياحى الوحدات المؤيدة للشاه، حيث قام بحشد تأييد القادة لرئيس الوزراء.

وألقى القبض على الجنود المؤيدين للشاه الذين أرسلوا لإلقاء القبض على الدكتور مصدق فى بيته، بدلاً من أن يقبضوا هم عليه. وفر ضابط الجيش الذى يعمل مع الجنرال زاهدى عند رؤيته للدبابات والجنود الموالين للحكومة فى قيادة الجيش.

ويروى التاريخ أنه فى صبيحة اليوم التالى أعلنت إذاعة طهران أن الانقلاب ضد الحكومة فشل، وأن الدكتور مصدق سارع بتقوية قبضته على الجيش والمنشآت الرئيسية. وكان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية داخل السفارة يتخبطون: ويشير التقرير إلى أنه لم يكن أمامهم «من سبيل لمعرفة ما كان يجرى».

غادر روزفلت السفارة وتعقب الجنرال زاهدى، الذى كان مختبئاً شمالى طهران. وما يدعو للاستغراب أن الجنرال لم يكن على استعداد للتخلى عن العملية. واتفق الرجلان على أنه كان لا يزال بإمكان الانقلاب أن ينجح، شريطة القدرة على إقناع الشعب بأن الجنرال زاهدى هو رئيس الوزراء المشروع.

ويبين التاريخ أنه فى سبيل تحقيق ذلك كان على مخططى الانقلاب نشر خبر توقيع الشاه على المرسومين.

وبناء على ذلك أرسل مركز وكالة الاستخبارات المركزية فى طهران رسالة إلى وكالة «أسوشيتد برس» فى نيويورك مؤكداً أن «التقارير غير الرسمية تشير إلى أن قادة المخطط مسلحون بمرسومين من الشاه، أحدهما يقيل مصدق والآخر يعين الجنرال زاهدى ليحل محله».

وأوضح التاريخ أن الوكالة وعملاءها رتبوا كذلك لذكر أمر المرسومين فى بعض صحف طهران.

وسرعان ما أحبطت مبادرة الدعاية. فقد ألقى القبض على الكثير من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الإيرانيين أو كانوا مختبئين. وفى ذلك المساء أعد عملاء الوكالة بياناً من الجنرال زاهدى كانوا يأملون فى توزيعه على الشعب. إلا أنهم لم يجدوا المطبعة التى لم تكن مراقبة من قبل القوات الموالية لرئيس الوزراء.

وفى السادس عشر من أغسطس تلقت العملية ضربة مميتة، عندما علم أن الشاه قد فر إلى بغداد. وهنا أرسلت قيادة وكالة الاستخبارات المركزية برقية إلى مركز بغداد تحث فيها روزفلت، رئيس المركز، على المغادرة فوراً.

ولكن روزفلت لم يوافق على المغادرة، حيث أصر على أنه لا تزال هناك «فرصة ضئيلة للنجاح»، لو أن الشاه أذاع بياناً من إذاعة بغداد واتخذ الجنرال زاهدى موقفاً شجاعاً.

وكانت أولى دلائل انحسار المد قد ظهرت مع التقارير التى تشير إلى أن الجنود الإيرانيين فرقوا مجموعات حزب توده الشيوعى وضربوها وجعلوها تهتف بتأييدها للشاه. ويروى التاريخ أن «المركز ظل يشعر بأن المشروع لم يمت موتاً تاماً».

وفى تلك الأثناء كان الدكتور مصدق قد أخفق فى تحقيق غايته، حيث كان يلعب بين يدى وكالة الاستخبارات المركزية بحله البرلمان عقب الانقلاب.

وأخيراً أعلن الشاه فى صبيحة السابع عشر من أغسطس من بغداد أنه وقع المرسومين - مع أنه كان قد تأخر فى ذلك كثيراً، الأمر الذى جعل مخططى الانقلاب يخشون أن يكون الوقت قد فات.

وفى تلك اللحظة الحرجة، خفض الدكتور مصدق أعداد حرسه. فبعد أن خدعت الحكومة بمغادرة الشاه وإلقاء القبض على بعض الضباط المشاركين فى الانقلاب، استدعت كل القوات التى كانت قد نشرتها حول المدينة، اعتقاداً بأن الخطر زال.

فى تلك الليلة رتبت وكالة الاستخبارات المركزية تهريب الجنرال زاهدى وغيره من كبار العملاء الإيرانيين وضباط الجيش إلى داخل مجمع السفارة «فى قاع السيارات وفى عربات الجيب المغلقة» من أجل عقد «مجلس للحرب».

وهناك اتفقوا على شن هجوم مضاد فى التاسع عشر من أغسطس، حيث أرسلوا رجل دين بارزا من طهران إلى مدينة قم المقدسة فى محاولة لتنظيم دعوة إلى حرب مقدسة ضد الشيوعية. (بعد سنوات من ذلك وصفت القوى الدينية، التى كانوا يسعون لاستغلالها، الولايات المتحدة بـ«الشيطان الأكبر».)

وعن طريق أوراق سفر زورتها وكالة الاستخبارات المركزية، ذهب ضباط كبار فى الجيش إلى الحاميات النائية لإقناع القادة بالانضمام إلى الانقلاب.

ومرة أخرى خيب الشاه آمال الوكالة. فقد

غادر بغداد إلى روما في اليوم التالي، فيما يبدو نفياً. وأوردت الصحف المؤيدة للدكتور مصدق أن أسرة بهلوي انتهت، وعزا بيان صادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي محاولة الانقلاب إلى «مؤامرة أنجلو أمريكية». وحطم المتظاهرون التماثيل الإمبراطورية - وهو نفسه ما فعلوه بعد ٢٦ سنة أثناء الثورة الإسلامية.

ويومها أبرق مركز وكالة الاستخبارات المركزية إلى القيادة طالباً النصح بشأن «الاستمرار مع عملية TP-Ajax أو الانسحاب».

ونعلم من التاريخ أن «القيادة أمضت يوماً يتسم بالاكتئاب واليأس. وذكرت الرسالة التي أرسلت إلى طهران ليلة الثامن عشر من أغسطس أن العملية تمت تجربتها وفشلت، وأنه في غياب التوصيات القوية، ينبغي وقف العمليات المضادة ضد مصدق».

النجاح
مفاجأة كل من الوكالة وموسكو

في الوقت الذي كان الأمريكيون يوشكون فيه على التخلي عن العملية، حدث تغير في الحالة المزاجية في شوارع طهران.

ففي صبيحة التاسع عشر من أغسطس، نشر العديد من صحف طهران مرسومي الشاه اللذين طال انتظارهما، وسرعان ما تجمعت الحشود المؤيدة للشاه في الشوارع.

ويذكر التاريخ السري أن الحشود «كان لا ينقصها إلا القيادة». وهو ما قدمه عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الإيرانيون. وبدون أوامر محددة، قاد صحفي من أهم عملاء الوكالة الإيرانيين حشداً إلى البرلمان، محرضاً الناس على إشعال النار في مكاتب الجريدة التي يملكها وزير خارجية الدكتور مصدق. وقاد عميل إيراني آخر من عملاء الوكالة حشداً لتدمير مكاتب الصحف المؤيدة لحزب توده ونهبها.

ويذكر التاريخ أن «خبر حدوث شيء مخيف تماماً انتشر بسرعة كبيرة في أنحاء المدينة».

وحاولت وكالة الاستخبارات المركزية استغلال الموقف، حيث أرسلت رسائل عاجلة بضرورة قيام الأخوين رشيديان واثنين من كبار العملاء الأمريكيين بـ«استمالة قوات الأمن إلى جانب المتظاهرين».

غير أن الأمور في تلك اللحظة كانت أسرع من أن تديرها الوكالة، فقد ظهر فجأة عقيد في الجيش الإيراني كان مشاركاً في المؤامرة قبل أيام خارج البرلمان ومعه دبابة، بينما استولى أفراد الحرس الإمبراطوري، الذي كان قد حل في ذلك الوقت، على الشاحنات وساروا بها في الشوارع. ويذكر التاريخ السري أنه «بحلول الساعة العاشرة والربع كانت شاحنات محملة بأفراد الجيش المؤيدين للشاه في الميادين الرئيسية».

وعند الظهر بدأت الحشود في تلقي التوجيه المباشر من بضع ضباط شاركوا في المؤامرة وعدد ممن غيروا مواقفهم. وخلال ساعة سقط مكتب البرقيات المركزي، وأرسلت البرقيات إلى الأقاليم تحث على انتفاضة مؤيدة للشاه. وبعد تراشق قصير، سقطت قيادة الشرطة ووزارة الخارجية كذلك.

وظلت إذاعة طهران الهدف الأكبر الذي يسعون للاستيلاء عليه. وبما أن مصير الحكومة لم يكن معروفاً، فقد كانت الإذاعة تبث برنامجاً عن أسعار القطن. إلا أنه حشداً من المدنيين وضباط الجيش ورجال الشرطة انقض عليها قبل العصر. وتحدث مؤيدو الشاه على الهواء، حيث أذاعوا خبر نجاح الانقلاب وقرءوا المرسومين الشاهانيين.

وفي السفارة، كان ضباط الوكالة يشعرون بالفخر والفرح، وأخرج روزفلت الجنرال زاهدي من مخبئه. وجاء ضابط من الجيش بدبابة وأوصله إلى محطة الإذاعة، حيث تحدث إلى الأمة.

وفي الوقت الذي جرى فيه إحضار الدكتور مصدق وغيره من مسئولي الحكومة، وضع الضباط المؤيدون للجنرال زاهدي «المؤيدين المعروفين لـ TP-Ajax» على رأس كل وحدات حامية طهران.

فوجئ الاتحاد السوفيتي بما جرى مفاجأة تامة. ذلك أنه حتى في الوقت الذي كانت تنهار فيه حكومة مصدق، كانت إذاعة موسكو تذيع تقريراً عن «فشل المغامرة الأمريكية في إيران».

إلا أن قيادة وكالة الاستخبارات المركزية فوجئت قدر مفاجأة موسكو، عندما وصلتها أخبار نجاح الانقلاب. إذ يشير التاريخ إلى أن الأمر «بدا وكأنه نكتة سخيفة، في ظل الاكتئاب الذي كان لا يزال يخيم نتيجة لما حدث في اليوم السابق».

وعلى مدار اليوم كانت واشنطن تتلقى معظم معلوماتها من وكالات الأنباء، حيث تلقت برقيتين فقط من المركز. ويبين التاريخ أن روزفلت أوضح فيما بعد أنه لو كان أبلغ القيادة بما يجري «لظلت لندن وواشنطن أنهم مجانين وطلبت منهم التوقف فوراً».

ومع ذلك كانت وكالة الاستخبارات المركزية تحظى بنفوذ تام داخل الحكومة. وفي العام التالي أطاحت بحكومة جواتيمالا، وظهرت أسطورة تقول إن الوكالة يمكنها الإطاحة بأية حكومة في العالم. وأثبتت إيران أن صنع ملك من ملوك العالم الثالث أمر قد يتم بسرعة وبعنف.

وجاء في التاريخ السري لوكالة الاستخبارات المركزية عند وصف التاسع عشر من أغسطس ١٩٥٣: «كان يوماً ما كان له أن ينتهي. ذلك أنه حمل في طياته ذلك الإحساس بالفرح وبالرضا وبالابتهاج، حتى أنه من المشكوك فيه أن هناك يوماً آخر يدانيه في ذلك».

نجاح محدود
لمحاولة استغلال الصحافة الأمريكية

تشير وثائق وكالة الاستخبارات المركزية الداخلية إلى أن مسئولي الوكالة المخططين لانقلاب سنة ١٩٥٣ في إيران كانوا يأملون في زرع مقالات في الصحف الأمريكية تقول إن عودة الشاه محمد رضا بهلوي كانت نتيجة لانتفاضة داخلية ضد الحكومة ذات الاتجاه الشيوعي.

إلا أن تلك الآمال خابت إلى حد كبير. ويشير تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية الخاص بالانقلاب أن عملاءها حققوا نجاحاً محدوداً في توجيه الصحفيين الأمريكيين، وإلى أن أياً من الأمريكيين الذين كانوا يغطون الانقلاب لم يعمل مع الوكالة.

ويبين تحليل للتغطية الصحفية أن الصحفيين الأمريكيين كانوا يبعثون ببرقيات صريحة وتقوم على الحقائق تظهر بشكل بارز دور الشيوعيين الإيرانيين في عنف الشوارع الذي أدى إلى الانقلاب. ولم ينقل المراسلون الغربيون في إيران وواشنطن قط أن بعضاً من الاضطرابات كان من إعداد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون. كما أنهم لم يبرزوا كثيراً التقارير الدقيقة المعاصرة لتلك الأحداث في الصحف الإيرانية وفي إذاعة موسكو، وكانت تؤكد قيام القوى الغربية بترتيب عودة الشاه في الخفاء.



كانت الخطة تقتضي أن يتماسك الشاه عندما تثير وكالة الاستخبارات المركزية أعمال الشغب الشعبية، وبعد ذلك يصدر مرسومين شاهانيين بعزل الدكتور مصدق وتعيين الجنرال زاهدي رئيساً للوزراء. وجاء في التاريخ السري أن الوكالة سعت إلى «خلق ذلك الضغط على الشاه الذي يجعل توقيعه على الأوراق المطلوبة منه أيسر عليه من رفضه القيام بذلك». وقد لجأ المسئولون إلى شقيقته الأميرة أشرف طلباً للعون

كان ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بثماني سنوات وحسب، مما جعل الصحفيين الأمريكيين يدركون المصلحة القومية التي حددتها ست سنوات من المواجهة بين الحلفاء والمحور. وكانت تسيطر على الصفحات الأولى من الصحف الغربية مقالات عن المواجهة الكونية الجديدة مع الاتحاد السوفيتي، وعن تفوق موسكو في صنع الأسلحة النووية، وعن مزاعم الكونجرس الخاصة بالنفوذ «الأحمر» في واشنطن.

ويذكر التقرير أنه في أحد الأمثلة كان من الواضح أن ضابطاً من ضباط الوكالة، كان يعمل صحفياً من قبل، يمكنه استغلال اتصالاته القديمة في وكالة «أسوشيتد برس» كي يضع بين برقيات الأخبار مقالاً من طهران عن المرسومين الشاهانيين اللذين كانت وكالة الاستخبارات المركزية نفسها قد كتبتهما. إلا أن الوكالة كانت تعتمد في الغالب على وسائل أقل مباشرة لاستغلال وسائل الإعلام الأمريكية.

وتشير الوثيقة إلى أن قسم إيران في وزارة الخارجية الأمريكية تمكن من وضع إحدى دراسات الوكالة على صفحات مجلة «نيوزويك»، «باستخدام القناة العادية بين ضابط القسم وأحد الصحفيين». وكان المقال واحداً من تقارير صحفية مزروعة عديدة، حتى أنه عندما أعيد طبعها في طهران غذت «حرب الأعصاب» ضد رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق.

ويشير التاريخ إلى أن عملية إيران كشفت نقاط ضعف الوكالة فيما يتصل بتحريك الصحافة الأمريكية. فوكالة الاستخبارات المركزية «كانت تنقصها الاتصالات القادرة على وضع المادة بطريقة لا تجعل الناشر الأمريكي يفطن إلى مصدرها».

ويكشف التاريخ أن أحد ضباط الوكالة، وكان يعمل تحت ستار كونه المسئول الصحفي بالسفارة، نقل بالسيارة صحفيين أمريكيين إلى منزل خارج طهران حيث جرى إطلاعهما على مرسومي الشاه الذي يقيل أحدهما رئيس الوزراء.

وكتب كينيث لاف مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» في طهران أثناء الانقلاب عن المرسومين الشاهانيين في الصحيفة في اليوم التالي، دون أن يذكر الطريقة التي رآهما بها. كما ذكر في مقابلة أجريت معه أنه كان قد وافق على شرط مسئول السفارة الأساسي، وهو ألا يذكر الدور الأمريكي في تنظيم الرحلة.

وأوضح لاف أنه لم يكن يعرف في ذلك الوقت أن المسئول كان يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية.

وبعد نجاح الانقلاب، أشار لاف باقتضاب في أحد المقالات إلى تقارير الصحافة الإيرانية الخاصة بالتورط الأمريكي. ونشرت صحيفة «نيويورك تايمز» كذلك مقالاً من موسكو يتضمن اتهامات سوفيتية بأن الولايات المتحدة كانت وراء الانقلاب. ولكن يبدو أنه لا «نيويورك تايمز» ولا غيرها من الهيئات الصحفية الأمريكية درست مثل تلك الاتهامات دراسة جادة.

وفي بحث كتبه لاف سنة ١٩٦٠ أثناء دراسته بجامعة برينستون، أوضح أنه «كان مسئولاً بصورة مهمة عن التعجيل بالنصر النهائي لأعوان الشاه».

كما قال إنه عندما رأى ست دبابات تقف أمام محطة إذاعة طهران، «أبلغت قادة الدبابات أن أناساً كثيرين كانوا يقتلون وهم يحاولون اقتحام منزل الدكتور مصدق، وأنه يمكن أن تكون لهم فائدة ما بدلاً من بقائهم بلا

عمل عند محطة الإذاعة. وأضاف قائلاً: «ساروا بمركباتهم إلى شارع كوخ ووضعوا الدبابات الثلاثة عند منزل الدكتور مصدق دون أن تشتبك في قتال».

وذكر لاف الذي ترك «نيويورك تايمز» سنة ١٩٦٢ في مقابلة أجريت معه أنه حث الدبابات على الاشتباك «لأنني أردت وقف إراقة الدماء».

ويشير لاف إلى أنه بعد عدة أشهر أبلغه روبرت دوتي - وكان وقتها مدير مكتب القاهرة ورئيسه هو - بأدلة عن تورط أمريكا في الانقلاب.

إلا أن دوتي، الذي توفي سنة ١٩٧٤، لم يكتب عن هذا الموضوع. وبحلول صيف ١٩٥٤، قرر لاف إبلاغ مكتب نيويورك بما يعرفه. وفي خطاب مؤرخ في ٢٦ يوليو ١٩٥٤ إلى إيمانويل فريدمان، وكان وقتها محرر الشئون الخارجية، كتب لاف قائلاً: «الحالة الوحيدة منذ التحاقي بـ «نيويورك تايمز» التي سمحت فيها للسياسة بالتأثير على مقاربة خبرية صارمة، كانت هي عدم نقل الدور الذي قام به عملاؤنا في إقصاء مصدق».

وذكر لاف أنه كان يأمل أن يأمره محرر الشئون الخارجية بمتابعة الموضوع، ولكنه يقول إنه لم يتلق أي رد.

كما قال: «كنت أريد أن أدع فريدمان يعرف أنني كنت أعرف أن ثمة تورطاً أمريكياً في الانقلاب، ولكنني لم اكتب عنه. كنت أتوقع منه أن يقول: «اقفز على هذه القصة». غير أنه لم يكن هناك أي رد». وتوفي فريدمان سنة ١٩٧١.

مصدق .. سياسي غريب ينجب تاريخاً غريباً

باستثناء آية الله روح الله الخميني أبي ثورة إيران، ما من زعيم ترك أثراً عليها أعمق من ذلك الذي تركه محمد مصدق. وما من حدث من أحداث القرن العشرين زاد من شك إيران في الولايات المتحدة مثل مؤامرة خلعه.

إنه محام غريب الأطوار تلقى تعليمه في أوروبا، وكان أبوه موظفاً وكانت أمه تنحدر من سلالة ملوك الفرس. وعمل الدكتور مصدق وزيراً ومحافظاً قبل معارضته لاعتلاء رضا شاه العرش في العشرينيات.

سجن مصدق ثم وضع قيد الإقامة الجبرية في ضيعته في قرية أحمد أباد المسورة غربي طهران. وفي نهاية الأمر اشترى القرية وكان يزرع المحاصيل وأسس مدرسة ابتدائية وبدأ مشروعاً للصحة العامة.

وعندما أجبرت بريطانيا وروسيا رضا شاه على ترك الحكم لمصلحة ابنه محمد رضا بهلوي سنة ١٩٤١، أصبح الدكتور مصدق عضواً في البرلمان. وقد امتدح كبطل بسبب خطبه النارية عن شرور السيطرة البريطانية على صناعة البترول. وفي سنة ١٩٥١، عندما صوت البرلمان لمصلحة تأميم الصناعة، عين الشاه الشاب الدكتور مصدق رئيساً للوزراء، اعترافاً منه بشعبية القوميين.

وفي ذلك المنصب أصبح أسير قوميته، وعجز عن التوصل إلى تسوية بشأن البترول. وحتى عندما تفاوض البريطانيون مع إيران، كسبوا تأييد كبرى شركات البترول لفرض مقاطعة عالمية على البترول الإيراني.

ومع ذلك أصبح الدكتور مصدر في العالم النامي رمزاً لمعاداة الإمبريالية. وقد كان يحظى بالاحترام رغم سلوكه الغريب، ومنه إدارة العمل من السرير وهو يرتدي بيجاما صوفية رمادية اللون، وبكاؤه أمام الجماهير وعدم انقطاع شكواه من اعتلال صحته.



عقود من الاضطرابات داخل إيران

● ١٩٤١ بريطانيا والاتحاد السوفيتي يغزوان غربي إيران لمواجهة خطر النفوذ النازي الآخذ في الاتساع.

● ١٩٥١ محمد مصدق، وهو قومي مغال في قوميته، ينتخب رئيساً للوزراء في ظل حكم الشاه. ويثير مصدق غضب البريطانيين بمحاولة تأميم صناعة البترول.

● ١٩٥٢ الاستخبارات الأمريكية والبريطانية تخلع مصدق. الانقلاب يدعم السلطة فيبقى حكم الشاه، مما يضمن التعاون بشأن البترول ويحد من التوسع الشيوعي.

● ١٩٦٣. ٦٤ الزعيم الديني آية الله روح الله الخميني ينفى إلى تركيا، بعد انتقاده لعلاقة الشاه بالولايات المتحدة.

● ١٩٧٨ الاضطرابات تجتاح إيران. الخميني يؤسس حركة معارضة في باريس.

● ١٩٧٩ الثورة الإيرانية تجبر الشاه على مغادرة إيران. يسمح له بدخول الولايات المتحدة بعد شهر للعلاج من السرطان في كانساس سيتي.

● ١٩٧٩ الخميني يعود ليعلن قيام الجمهورية الإسلامية.

يحتل الطلاب الإيرانيون السفارة الأمريكية في طهران بدعم منه. يؤخذ اثنان وخمسون أمريكياً رهائن لمدة ٤٤٤ يوماً. أمريكا تجمد الأرصدة الإيرانية.

● ١٩٨٠ الولايات المتحدة تقطع علاقاتها بإيران، وتحظر الصادرات الأمريكية إليها، وتطرد الدبلوماسيين الإيرانيين.

إجهاض مهمة عسكرية أمريكية سرية لإنقاذ الرهائن بسبب سوء الأحوال الجوية. ثمانية جنود يلقون حتفهم في حادث طائرة هليكوبتر.

● ١٩٨١ الإفراج عن الرهائن بعد دقائق من انتهاء فترة رئاسة كارتر. عقد محكمة تعويضات أمريكية إيرانية في لاهاي.

● ١٩٨٦ الكشف عن صفقة أمريكية لإعطاء السلاح للإيرانيين مقابل المساعدة في الإفراج عن الرهائن الأمريكيين المحتجزين في لبنان.

● ١٩٨٨ السفينة الحربية الأمريكية فانسن تسقط طائرة ركاب إيرانية بطريق الخطأ على الخليج الفارسي، وتقتل ٢٩٠ شخصاً على متنها.

● ١٩٨٩ وفاة آية الله الخميني ويحل محله على خامنئي زعيماً روحياً للبلاد. ينتخب رئيس البرلمان الإيراني على أكبر هاشمي رافسانجاني رئيساً.

● ١٩٩٣ تبدأ حكومة كلينتون حملة لعزل إيران، حيث تتهمها بدعم الإرهاب والسعي للحصول على الأسلحة النووية ومحاولة تعطيل عملية السلام في الشرق الأوسط.

● ١٩٩٥ الولايات المتحدة توقف كل الأعمال التجارية والاستثمارات مع إيران.

● ١٩٩٦ الرئيس كلينتون يوقع قانوناً يفرض العقوبات على الشركات الأجنبية التي لها استثمارات ضخمة في إيران أو ليبيا «الإرهابيتين».

● ١٩٩٧ رجل الدين المعتدل محمد خاتمي يفوز في انتخابات الرئاسة الإيرانية. كلينتون يصف انتخابه بأنه يدعو للأمل، ولكنه يصر على استحالة عودة العلاقات ما لم تشجب إيران الإرهاب ومعارضة جهود السلام في الشرق الوسط وأسلحة الدمار الشامل.

● ١٩٩٨ خاتمي يقترح التبادل الثقافي كوسيلة لإنهاء عدم الثقة، إلا أنه يستبعد بدء حوار بين الحكومتين.

وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين تدعو الإيرانيين للانضمام إلى الولايات المتحدة في رسم «خريطة تؤدي إلى العلاقات الطبيعية». إيران ترد بأن مثل هذه الخطوة لا بد أن تتبعها أفعال.

● ١٩٩٩ حكومة كلينتون تعلن أنها سوف تسمح للشركات الأمريكية ببيع الطعام والمواد الطبية لثلاث دول لم تعد ضمن قائمة الدول الإرهابية. وهي إيران وليبيا والسودان.

● ١٩٩٩ كلينتون يطلب من خاتمي المساعدة في حل مسألة تفجير مبنى سعودي قتل فيه ١٩ جندياً أمريكياً وجرح المئات.

حكومة كلينتون تجدد مسعى إجراء محادثات «على أساس من التكافؤ والاحترام المتبادل». إيران ترفض المسعى بعد يومين.

الولايات المتحدة توافق على تزويد شركة بوينج الخطوط الجوية الوطنية الإيرانية بقطع الغيار لضمان سلامة طائراتها من طراز ٧٤٧.

● ٢٠٠٠ أولبرايت تعلن رفع الحظر الأمريكي عن الواردات الإيرانية من السلع الكمالية. كما تعترف بدور أمريكا في انقلاب ١٩٥٣، حيث تقترب من الاعتذار عنه أكثر من أي مسئول أمريكي قبلها.

لقد جمع الدكتور مصدق كل خيوط السلطة في يده. وعندما رفض الشاه طلبه السيطرة على القوات المسلحة سنة ١٩٥٢، استقال، ليعاد تعيينه رغم الاضطرابات الشعبية.

وحينذاك أبدى قدراً من الاستبداد، حيث تجاهل البرلمان بإجراء استفتاء قومي للحصول على موافقة بحله. وفي تلك الأثناء انزعجت الولايات المتحدة من قوة الحزب الشيوعي الإيراني الذي كان يؤيد مصدق.

وفي أغسطس ١٩٥٣ أدت محاولة الشاه عزل الدكتور مصدق إلى نزول أتباعه إلى الشوارع. وهنا فر الشاه، وسط مخاوف في حكومة أيزنهاور الجديدة من احتمال اقتراب إيران أكثر مما يجب من موسكو.

ومع ذلك فإن الدكتور مصدق لم يعزز مصالح الشيوعيين، رغم حصوله على تأييدهم. ومن المفارقات أن الحزب تخلى عنه في نهاية الأمر، حيث رأى أنه ليس ملتزماً الالتزام الواجب وأنه شديد القرب من الولايات المتحدة. وفي الوقت الذي أقصاه الانقلاب الشاهاني بعد عدة أيام من الفوضى، كان قد اكتسب عداء الكثير من ملاك الأراضي ورجال الدين والتجار.

وبعد محاكمته أمضى ثلاث سنوات في السجن وانتهى به الحال إلى الإقامة الجبرية في ضيعته. وفي مارس ١٩٦٧ توفي مصدق، وكان في منتصف الثمانينيات من عمره بعد أن أنهكه العلاج بالراديوم من سرطان الحنجرة.

وعندما أتت الثورة برجال الدين إلى السلطة سنة ١٩٧٩، حاول القوميون المعادون للشاه إحياء ذكرى مصدق. وتم تغيير اسم طريق في طهران من طريق بهلوي إلى طريق مصدق.

إلا أن آية الله الخميني كان لا يراه داعية للإسلام، وإنما للقومية الفارسية، وكان يحسده على شعبيته. وهكذا أصبح اسم طريق مصدق هو والي أسر، نسبة إلى الإمام الغائب الذي سيظهر يوماً ما حسب اعتقاد الشيعة، وسوف يقيم المجتمع السياسي الإسلامي الكامل. ومع ذلك فإنه حتى الإمام الخميني نفسه كان حريصاً على ألا يتمادى في ذلك. فقد أصبحت القاعدة هي تجاهل الدكتور مصدق، وليس تجريحه.

وبعد عشرين سنة، أعيد تبجيل مصدق نتيجة لعودة القومية من جديد والشعور بالإحباط فيما يتصل بالتشدد الإسلامي. ويحرك مصدق الشباب الذي يهفو إلى الأبطال دون أن يعثر عليهم، سواء بين الملوك أو رجال الدين.

وفي الحملات الانتخابية المحلية في شهر فبراير ١٩٩٩ والانتخابات البرلمانية التي أجريت بعد ذلك بعام، استفادت إعلانات الإصلاحيين من وجه مصدق المستطيل الحزين. وفي كل عام منذ وفاته، يتجمع مؤيدوه في ضيعته.

ومازال ميراثه يثير قدراً كبيراً من الجدل. وفي شهر أغسطس، أقر البرلمان مشروع قانون يلغي يوم العطلة الذي يوافق يوم تأميم صناعة البترول سنة ١٩٥١، حيث أثار هذا القرار احتجاجات في الصحافة.

فقد جاء في صحيفة «خرداد» اليومية الإصلاحية: «وأأسفاه! لقد تجاهل البرلمان أوضح رمز من رموز كفاح الشعب الإيراني طوال تاريخه ضد الاستعمار».

وفي نوفمبر اضطر أعضاء البرلمان لإعادة يوم العطلة كما كان. ■

ينشر بترتيب مع نيويورك تايمز
The New York Times, April 2000
ترجمة أحمد محمود

"أول وثيقة كتبها الكندى على آلة العود"

العرب سبقوا الأوروبيين فى التدوين الموسيقى

عادل الألوسى



لا يكاد يخلو حجر فى جنوبى الجزيرة العربية وقلبها وشمالها من نقش تذكارى، نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين، ويكتبون على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء قبائلهم، وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم.

هذا النوع من التدوين البدائى حفظ لنا الشىء الكثير من المؤثرات عن الأقدمين، وعلمنا الشىء الكثير من جوانب نشاطهم الفكرى والعقائدى وجوانب من تراثهم.

وبالمقابل، فإن تراثًا ضخمًا من الأدبيات العربية قد ضاع وسقط فى مطاوى النسيان؛ لأنه لم يدون، وبذلك قال الجاحظ: «للعرب بديهية ساطعة كأنها الإلهام».

وقد ظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيدونه إلا قليلاً وفى ظروف خاصة، حتى أخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات النبى (ص) وأحاديثه، وفى تقييد بعض الأخبار التاريخية، فدون زياد بن أبيه كتابًا فى المثالب، ودون عروة بن الزبير غزوات النبى (ص)، ومن ثم بدأ تدوين الحديث.

وهكذا بدأت حركة التدوين مع أوائل القرن الثانى، وظهر تدوين الشعر الجاهلى تدوينًا منهجيًا قائمًا على التوثيق والضبط والتسجيل.

ولكننا نتساءل هل انسحب نشاط التدوين عند العرب على مجمل نتاجاتهم الأخرى كالموسيقى والغناء مثلا؟ ولنعد إلى البداية:

فى الموسيقى كوّن الإنسان لنفسه لغة الغناء، ثم كون لنفسه اصطلاحًا لكتابته، وبين العهدين أجيال وعصور، فالاصطلاحات الأولى لتدوين الموسيقى كانت - فيما يبدو - مبهمة وناقصة، وكان الموسيقيون قبلها يحفظون الموسيقى بالنقل والسماع، كما يفعل أكثر الموسيقيين عندنا اليوم؛ ولما كانت الذاكرة لا تكفى لتسجيل كل شىء، وأن الألحان والأنغام تنسى مع الأيام، فقد بدأوا بوضع علامات فوق كلمات الغناء، على أن تلك العلامات لم تكن فى البدء لتعبر عن طبقة الصوت بدقة أو لتعين كميته الزمنية، فكانت إما أن نستنتج استنتاجًا مبنيًا أكثره على المقاطع اللفظية أو تؤخذ نقلاً عن حفاظ الموسيقى!

وقد استعملت شعوب العصور الوسطى كثيرًا من أنواع الكتابة الموسيقية، منها الكتابة على طريقة الحروف الأبجدية، ومنها الكتابة بأشكال وضعية.. وفى أوروبا توجد الآن الكثير من المخطوطات التى دونت فيها الأغانى والأناشيد على الطريقتين. وفى مكتبة أكسفورد يوجد كتاب خطى يحتوى على رواية غنائية، تعود إلى القرن العاشر الميلادى، كتبت فوقها الموسيقى فوق أسطر الشعر بكلا النوعين معا. هذا ما يتصل بالموسيقى الغربية، غير أن لموسيقانا العربية تاريخها الآخر وطابعها المميز.

بدءًا لنستمع إلى ما يقوله أحد الباحثين الغربيين (فى دائرة المعارف الفرنسية) عن تدوين العرب للموسيقى: «إن ما كتب عن الموسيقى العربية اعتبارًا من القرن الثامن للميلاد كان سيئًا كثيرًا، وفى ظل هذه المدونات نجد أثر التدوين الذى تعلمناه نحن الغربيين من العرب..

إن العرب ورثوا حضارات ذات ثراء فكرى مدوّن، وقد سجل ابن النديم فى كتابه المعروف «الفهرست» الكثير من رواة الشعر والنثر. كما نقف على الكثير مما خلفته الحضارات القديمة: السومرية والبابلية والفرعونية مدونا على الحجر والطين والصخور، وكان لابد أن يترك ذلك الموروث أثره الواضح فى العطاءات التى استمرت بدون توقف فى أذهان فلاسفة العرب ومنظريهم الموسيقيين.

عند هذه النقطة نقف أمام حقيقة التدوين عند العرب، ممثلة بوثيقتين تاريخيتين: الأولى: لوحة سومرية تمثل أقدم نوتة موسيقية فى التاريخ، أرجعها العالم الأثارى «ونشن جويمن» إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهى مقطوعة موسيقية تعزف على الآلات الوترية. ومعروف أن السومريين مثل المصريين القدماء كانوا يستخدمون عددًا من الآلات الوترية، كما كشفت هذه اللوحة عن معرفة السومريين بالسلم الموسيقى، وعلى هذا يعتبر السومريون أول من عرف السلم الموسيقى فى التاريخ!

أما الوثيقة الثانية، فقد وصلتنا من القرن الثالث للهجرة، وهى تمثل أقدم وثيقة موسيقية للحن، مدونة لآلة العود، والعود آلة معروفة منذ الألف الثانى قبل الميلاد.

هذه الوثيقة دونها الكندى الفيلسوف العربى (ت ٢٥٢هـ) وهى تمرين للطرب على العود، وقد نشرت هذه الوثيقة بنصها الأصلى المخطوط مع تجسيد اللحن بالعلامات الموسيقية الحديثة ببغداد سنة ١٩٦٢.

وفى إطار هاتين المرحلتين التاريخيتين، نقف أمام جملة من الحقائق تمثل دور العرب والمسلمين فى التدوين الموسيقى.

كتب إسحق الموصلى إلى إبراهيم بن المهدى برسم الصوت، وكتابته (أى تدوينه)، وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى الكثير من أسماء الموسيقيين العرب الذين دونوا ألحانهم أو على الأقل عرفوا طريقة كتابية معينة للألحان.

وفى كتاب «الأدوار» لصفى الدين الأرموى، وفى كتاب «الفتحية فى الموسيقى» للاذقى، نماذج من «النوطة» العربية القديمة، فقد وجدت أبيات من الشعر فى تلك المؤلفات ملحنة، والنغمات مدونة بالحروف الأبجدية مع زمان كل نغمة ووقتها مسجلة بالأرقام.

واستعمل الكندى فى أبحاثه الموسيقية وخاصة فى كتابه «فى خبر تاليف الألحان»، الحروف الأبجدية فى تدوين النغمات، واستعمل الأصابع حسب مواضعها، وكانت تلك طريقة الفارابى فى التدوين أيضا، كما استعملها ابن سينا وغيرهما، وكان الموسيقيون العرب يستعملون الخطوط الملونة دلالة على النغمات ودرجاتها.

وقد عثر المستشرق «دير لانجيه» الذى درس المخطوطات الموسيقية العربية القديمة على كتب عربية احتوت على مدونات موسيقية، فدرسها ونشر بعض نصوصها فى المجلات الفرنسية فى الخمسينيات من القرن الماضى.

أما فيما يتصل بتجويد القرآن الكريم، وهل كان لحن التجويد يدون؟ فيمكن لنا أن نعود قليلاً إلى التاريخ: فحين شعر المسلمون بحاجتهم إلى استنباط قواعد مضبوطة لتجويد آى الذكر الحكيم، أسرعوا إلى وضع تلك القواعد لتثبيت طرق القراءة الصحيحة، حتى صار علم التجويد يشبه النوتة الموسيقية تماما، فهو يحدد بوضوح عن بعض الحروف، ومدُ البعض الآخر مدًا منفصلا أو متصلا بحركات مخصوصة تشبه تماما الدورة الزمنية فى علم الموسيقى، وهو بين الحروف التى تقلقل أو تفخم أو ترقق، والتى تشبع مع بيان السكت، ومواقعه ووقته مبينًا بالحركات أيضا، إلى جانب إيضاح مواضع الوقف اللازم والجائز مما يصح أن يعتبر أقرب إلى أساليب الترقيم فى الوقت الحاضر.

وقد أقبل القراء على علم التجويد يتلقون قواعده ويطبقون التلاوة عليها، وما كان يصح لقارئ أن يتعلم تلاوة القرآن إلا إذا أجازه أستاذه بذلك، وهذا الأمر لايزال قائمًا فى مصر.

وهكذا وضعت أسس «النوطة الموسيقية»، ولكن بشكل دينى صرف، حين أخذ العرب والمسلمون منذ وقت مبكر يشبعون حاجاتهم الروحية إلى الموسيقى من خلال تلاوة وترتيل القرآن الكريم.

إذن، فقد سبق العرب الأوروبيين أنفسهم فى معرفة فن التدوين الموسيقى، ولكننا ينبغى - توخيا للدقة - أن نقول أنهم عرفوا شكلاً من التدوين عبروا عنه بطرق مختلفة وبسيطة، تعكس ذلك الطموح المبكر نحو الخلق والإبداع والتوجه الدائم نحو التمدن والرقى.

حرب القنوات الفضائية

سعد لبيب

لم يمض وقت طويل على إعلان إمارة دبى إنشاء مدينتها الحرة «للإنترنت والإعلام»، والتى تقدم تسهيلات غير محدودة للفضائيات العربية، حتى أعلنت وزارة الإعلام المصرية عن عزمها إصدار القوانين التى تسمح بإنشاء قنوات فضائية خاصة.

وفى الوقت الذى مثَّل فيه الإعلان المصرى مفاجأة للكثيرين، بدا أن مفاوضات جدية تجرى بين عدد من «ملوك» الإعلام العرب، والمسئولين فى مدينة دبى الحرة تمهيدا لنقل محطاتهم إلى هناك.

ورغم أن القوانين المصرية لم تصدر بعد، ورغم أنه لا توجد خطوات «عملية» ملموسة حتى الآن لإنشاء قنوات خاصة تنطلق من مدينة السادس من أكتوبر، إلا أن ملف الفضائيات العربية «وضعها الحالى واحتمالات المستقبل» يبقى ملحًا فى هذه الظروف.

الإعلامى المخضرم «سعد لبيب» يكتب لـ«وجهات نظر» هذا التقرير المفصل:

عدد القنوات الفضائية المتاحة للمشاهدة فى المنطقة العربية أو أجزاء منها وصل إلى ٤٥٢، أربعمائة واثنتين وخمسين قناة فضائية

الفضاء ملك للإنسانية كلها وليس ملكاً لدولة أو مجموعة دول ولا يملك أحد أن يمنع شخصاً أو مؤسسة ما من استغلال الفضاء فى الحدود المتفق عليها دولياً. فنحن إذن أمام موقف لا حيلة لنا فيه، وكل ما نستطيعه هو ترشيد استخدامه بحيث نحقق من خلاله أقصى ما يمكن من الإيجابيات، ونقلل ما يمكن أن يترتب عليه من آثار سلبية

هالنى وأنا أتابع بعض الدوريات المتخصصة فى البث الفضائى أن عدد القنوات الفضائية المتاحة للمشاهدة فى المنطقة العربية أو أجزاء منها خلال شهر رمضان الماضى وصل إلى ٤٥٢، أربعمائة واثنتين وخمسين قناة فضائية، وهو رقم أقل ما يوصف به أنه فظيع وغير إنسانى لأنه يتجاوز كل مدركات الإنسان وحواسه واحتياجاته والظروف التى نعيشها.

ثم تخرج علينا مصر بقرارها بتحرير عملية بث القنوات الفضائية من مصر وكانت حكراً على الإذاعة والتليفزيون المصرى، وتبدأ استعدادات بعض الهيئات والمؤسسات المصرية والعربية والدولية لبث قنوات جديدة خاصة مستقلة عن أى تدخل حكومى، فيزيد الفضاء العربى زحاماً على زحام.

وتتواكب هذه الخطوة الجديدة الجريئة مع خطوات مماثلة قررتها كل من الأردن ودبى والبحرين ولبنان - وبصرف النظر عن أى نتيجة أخرى فالمؤكد أن هذه التحركات ستؤدى إلى ظهور قنوات فضائية عربية جديدة غير رسمية فى الأغلب الأعم.

ومفهوم طبعاً أن كل القنوات الفضائية التى تصل إلى المشاهد العربى لا تذيع كلها باللغة العربية بل إن الغالبية العظمى تذيع بلغات بعضها متداول فى المنطقة العربية وبعضها بعيد عن ثقافتها .. كما أن بعض هذه القنوات يتكرر على أقمار مختلفة بمعنى أن نفس القناة تؤجر قمراً معيناً ليركز على منطقة ما، ولكنه يستأجر أيضاً قناة قمرية أخرى ليتوجه إلى منطقة مختلفة .. ويمكن أن تتكرر هذه العملية، ولكنها عند الحساب الأخير تحسب كأنها قناة جديدة.

ومع ذلك يبقى العدد رهيباً .. ويبقى السؤال: ما الذى يمكن أن تقدمه كل هذه القنوات؟ وهل يحتاج المواطن العربى إلى كل هذا الكم من قنوات الترفيه والإعلام؟ والأهم من هذا وذاك، ما الذى يمكن أن نفعله إزاء هذا الوابل الفضائى لكى نستفيد ما وسعتنا الاستفادة منه، وقد أصبح وكأنه قدر محتوم؟

ورغم أن القنوات التليفزيونية الفضائية «الفضائيات» تبث عادة بواسطة الأقمار الصناعية المخصصة للاتصالات، إلا أن تلك الأقمار لا تعدو أن تكون «وسيلة نقل» تملكها مؤسسة رسمية أو غير رسمية، متعددة الجنسيات غالباً، ويقتصر دورها على تشغيل القمر بقنواته المختلفة طوال عمره الافتراضى الذى قد يتراوح من ٧ إلى ١٦ سنة، وإتاحة هذه القنوات لتأجيرها من جانب من يشاء من المؤسسات التليفزيونية، أو مؤسسات الاتصالات العامة والخاصة، لفترات محدودة، ولقاء أجر محدد، يتناسب مع إمكانيات القمر.

تتعدد مؤسسات الاتصالات الفضائية التى تملك أقماراً صناعية بين مؤسسات وطنية وإقليمية ودولية، وهى تقوم على أسس تجارية وفنية، ولا علاقة لها بما تنقل هذه الأقمار من إشارات تليفزيونية أو إذاعية أو تليفونية أو معلوماتية .. فهذه كلها من مسئولية الجهات المستأجرة للقنوات القمرية.

يأخذ كل قمر صناعى للاتصالات موقعه فوق خط الاستواء على ارتفاع حوالى ٣٦ ألف كيلو متر عن سطح الأرض ويدور فى مسار ثابت على هذا الارتفاع، وبنفس سرعة الأرض بحيث يظل موجهاً إلى نقطة ثابتة على الأرض، وبذلك تتوزع الأقمار على خطوط الطول حول الأرض، ويعرف كل قمر بموقعه على خط الطول شرق جرينتش أو غربه. ويفصل كل قمر عن الآخر خمس درجات طول، لضمان عدم تداخل الإشارات بينها، وقد تصل فى المستقبل ومع التقدم التكنولوجى، إلى ثلاث درجات فقط، لكى تتاح الفرصة لعدد أكبر من الأقمار .. وتتولى توزيع هذه المواقع إدارة خاصة تابعة للاتحاد الدولى للاتصالات فى جنيف.

كل قمر له مواصفات خاصة تسجل فى الاتحاد الدولى، وتشمل فيما تشمل عليه مدى الإشارة المرئية والصوتية وقوتها والنطاق الجغرافى للتغطية، والعمر الافتراضى للقمر. ويمكن أن تمتلك المؤسسة القمرية الواحدة أكثر من قمر عامل.. ويعرف كل قمر منها بموقعه بالإضافة إلى رموز أخرى تدل عليه فيقال مثلاً عربسات (1 - C) أى «القمر الثالث فى الشبكة العربية للاتصالات الفضائية، فى الجيل الأول) ٣١ درجة شرقاً/ وعربسات ٢) A (أى القمر الأول فى الجيل الثانى) ٢٦ درجة شرقاً وهكذا.

كل قمر له محطة أرضية للتوجيه والمراقبة، تتولى توجيهه عن بعد حتى يظل فى مداره الثابت، ومراقبة أداء قنواته القمرية، والعمل على ضبطها عن بعد، كما أن له محطة أرضية أخرى للتعامل معه إرسالاً واستقبالاً، وتتناسق معه من حيث الترددات وتوجيه الإشارات وقوتها، فهى التى تبث له البرامج ليلتقطها ويعيد توزيعها، كما تتولى أيضاً استقبال البرامج الصادرة منه، التى غذته بها محطات أخرى تعمل بنفس المواصفات.

وتنقسم أقمار الاتصال إلى نوعين، الأولى تسمى اصطلاحاً أقمار توزيع، وهى التى تلتقط الإشارة من المحطة الأرضية، لتوصلها إلى محطة أرضية أخرى متناظرة، وهذا هو النوع الذى يتعامل مع محطات التليفزيون التى تستقبل عن طريقه المواد التى تغذيه بها محطات أخرى (تقارير إخبارية، مباريات رياضية أو غيرها).

النوع الثانى من أقمار الاتصال هو أقمار البث المباشر، والتى تأخذ الإشارة من مصادرها المختلفة المتناظرة معها، وتبثها إلى أجهزة التليفزيون المنزلية المباشرة دون المرور على المحطة الأرضية للقمر، أو محطات البث التليفزيونى .. ويحتاج جهاز التليفزيون المنزلى فى هذه الحالة إلى هوائى «دش» يتجه ناحية القمر، وجهاز سمى اصطلاحاً «ريسيفر» لتحويل الإشارة بما يتناسب مع جهاز التليفزيون المنزلى .. ويتناسب حجم الهوائى عكسياً مع قوة الإشارة الصادرة من القمر، وكذلك درجة البعد عن بؤرة أو مركز تغطية القمر، فيزيد الحجم عند الأطراف، ويقل فى الأماكن القريبة من المركز.

كما أن البث الذى يصل إلى المنازل ينقسم إلى نوعين: الأول مفتوح، والثانى «مشفر» أى أن الإشارة الصادرة من القمر أو محطة البث - فى هذا النوع - تكون مركبة بطريقة معينة أى بشفرة خاصة، بحيث لا يمكن استقبالها إلا إذا كان لدى المشاهد جهاز لفك الشفرة، وهو يسمى «ديكودر» والمشاهد لا يحصل عليه طبعاً إلا إذا دفع الأجر المحدد لاستخدامه، وقد لجأت كثير من قنوات التليفزيون إلى هذا النظام لضمان الحصول على مقابل مادى أو رسم للمشاهدة، يضاف إلى الموارد الأخرى للقناة، التى قد تتمثل فى حصيلة الإعلان، أو الدعم الحكومى أو من أية مؤسسة أخرى معنية، أو غير ذلك. وكثير من القنوات التى لجأت إلى التشفير بدأت مفتوحة حتى يتعرف عليها المشاهدون ويألفوها، حتى إذا انتقلت إلى نظام التشفير ضمنت قطاعاً من المشاهدين يحرصون على متابعتها ويدفعون مقابل ذلك رسم الاشتراك.

الجديد فى موضوع البث الفضائى، استخدام النظام الرقمى مع ضغط الإشارة، وهو نظام يفتح المجال أمام تقسيم القناة القمرية إلى أربعة أو خمسة أقسام يمكن أن تصل إلى ثمانية، كل قسم منها يصلح لحمل قناة تليفزيونية مستقلة، وبالتالى أصبح القمر الذى يشتمل على ١٢ قناة قمرية مثلاً، يستطيع توزيع ٤٨ قناة تليفزيونية أو أكثر، الأمر الذى أدى إلى خفض تكلفة استئجار القنوات، وزيادة عدد المطروح منها فى سوق الاستخدام الفضائى.

تزامن مع هذا التقدم التكنولوجى، ظهور نظام الحزم البرامجية، ويقوم على أساس تجميع عدد من القنوات التليفزيونية معظمها فضائى وبعضها أرضى، من جانب مؤسسة متخصصة، تتيحها للذين يرغبون فى استقبال هذه المجموعة من القنوات لقاء اشتراك مالى معين، ويتم ذلك باستخدام «ديكودر» خاص بالنظام الذى يتم فيه الاستقبال إما عن طريق شبكة مايكروويف أرضية متعددة الاتجاهات تسمى MMDS، أو عن طريق هوائى متصل بقمر معين هو الذى يحمل حزمة القنوات.

البث الفضائى فى المنطقة العربية

تربط الدول العربية جميعها شبكة فضائية عربية عن طريق القمر العربى «عربسات» الذى أنشأته وزارات المواصلات العربية، وانطلق أول أقماره عام ١٩٨٥ ولكل دولة محطة أرضية أو أكثر مرتبطة بالشبكة، ويتم عن طريقها تبادل الأخبار وفى وقت محدد، بالإضافة إلى نقل الاحتفالات فى المناسبات الدينية والمناسبات الرياضية .. ويجرى التبادل هنا بين الدول العربية جميعها، أو بين الراغبين فى تبادل أحداث معينة، أو يتم بطريقة ثنائية.



كانت أقمار الجيل الأول لعربسات من النوع الذي يطلق عليه أساساً أقمار التوزيع، فقد كانت قنواته من طراز «C» الذي يتعامل مع المحطات الأرضية لتوزيع إشارات التليفزيون والتليفون، ولا تصل إلى المشاهدين في المنازل، فيما عدا قناة واحدة من طراز «S» كانت تسمى غزيرة الإشعاع وكانت تصلح للاستقبال الجماعي، أو هوائيات صغيرة نسبياً (قطر يزيد على ثلاثة أمتار) وبقيت بغير استخدام لمدة خمس سنوات.

وقد أطلق القمر الأول من الجيل الثاني لعربسات في منتصف عام ١٩٩٦ بعد انتهاء أعمار الجيل الأول. وقد تم تصميم قمر الجيل الثاني بالاستفادة من التقنيات الحديثة المتطورة، فأضيفت إليه حزمة الترددات «كي يو» ذات الطاقة الإشعاعية القوية التي يمكن استقبالها عن طريق المحطات الأرضية أساساً - مع استخدام هوائيات قمرية متطورة تتيح تغطية المنطقة العربية بطاقة عالية، ومع توسيع رقعة التغطية لكي تشمل أجزاء كبيرة من أوروبا وآسيا وأفريقيا. ويضم القمر ٣٤ قناة قمرية (الجيل الأول كان يضم ٢٦ قناة فقط) منها ٢٢ قناة في الحزمة الترددية «سي» التي تتعامل مع المحطات الأرضية، و١٢ قناة في الحزمة الترددية «كي يو» ويبلغ العمر الافتراضي لأقمار الجيل الثاني ١٢ سنة، وكانت سبع سنوات في الجيل الأول.

وقد أطلق أول أقمار الجيل الثالث من عربسات (٣) ٨ في فبراير ١٩٩٩ واحتل نفس موقع الجيل الثاني (٢٦ درجة شرق) الأمر الذي يتيح لمشاهديه استقبال قنوات القمرين معاً بطبق ثابت واحد. ويستخدم القمر الجديد النظام الرقمي الذي يوفر أكثر من ٣٠٠ قناة فضائية - والعمر الافتراضي له ١٢ عاماً.

بالإضافة إلى القمر العربي، كانت مصر أول من أطلق قمرا مصريا خالصا أسمته «نايل سات ١٠١» وذلك في أبريل ١٩٩٨ ليأخذ مكانه في الموقع المداري ٧ درجات غرباً، وهو مشروع عملاق تشكلت له شركة تجمع بين رأس المال العام والخاص وتولت تصنيعه الشركة الفرنسية «ماترا ماركوني» ويضم القمر ١٢ قناة قمرية عاملة. ويستخدم التكنولوجيا الرقمية مع ضغط الإشارة والتي تتيح مضاعفة عدد القنوات التليفزيونية في كل قناة قمرية إلى ثمانية أضعاف العدد على الأقل، ويمكن أن يصل العدد إلى أكثر من ذلك، وبذلك يتسع «النايل سات» لست وتسعين قناة تليفزيونية. ويمكن استقبال قنواته مباشرة في المنازل بأطباق صغيرة يقل قطرها عن ٦٠ سنتيمتراً وأجهزة «ديكودر» بأسعار اقتصادية، وهو يغطي المنطقة العربية كلها، وعمره الافتراضي ١٥ عاماً.. وقد أطلق بواسطة الصاروخ الأوروبي «إيريان» من قاعدة «جوانا» الفرنسية.

وينتظر أن يطلق القمر الثاني من أقمار نايل سات في أغسطس القادم (عام ٢٠٠٠) بإذن الله ويحمل «نايل سات ١٠٢» ١٢ قناة قمرية تغطي نفس منطقة التغطية الخاصة بالجيل الأول «نايل سات ١٠١»، منطقة الشرق الأوسط مع إضافة هوائي جديد للتمكن من التوصيل الصاعد من إنجلترا.

أما عن الخدمات التي يقدمها «نايل سات» شأنه في ذلك شأن عربسات ٣،٢ فتتمثل أولاً/ في الإرسال التليفزيوني والإذاعي بالنظام الرقمي من خلال مجموعة من القنوات المصرية والعربية والعالمية، عامة ومتخصصة، مفتوحة أو مشفرة، وثانياً/ خدمات المعلومات، ومن بينها النقل الإليكتروني للمواد الصحفية كالجرائد والمجلات من مراكز التحرير إلى المطابع المنتشرة في منطقة التغطية، والتعامل مع الإنترنت بسرعة عالية، ومعلومات الأسواق والمال والأحوال الجوية، وتوزيع برمجيات الكمبيوتر لمستخدميها، ونقل ملفات وقواعد بيانات من نقطة إلى أخرى أو إلى عدة نقاط.

ولاتقتصر تغطية المنطقة العربية على القمرين العربي والمصري إذ تقع المنطقة العربية وفقاً لتصنيف الاتحاد الدولي للاتصالات (ITU) ضمن المنطقة رقم (١) وهي التي تضم المناطق الواقعة بين خطي طول ٦٠ درجة شرقاً و٢٠ درجة غرباً، وتشمل إلى جانب منطقة الشرق الأوسط قطاعات واسعة في أوروبا وأفريقيا.

والذي يعنينا هنا بالإضافة إلى الأقمار العربية السابق الإشارة إليها، الأقمار الجديدة التالية:

- القمر الأوروبي «يوتلسات» W.2
- والقمر الأوروبي «يوتلسات» ٣
- ثم يوتلسات «هوت بيرد» ٥

وتحمل هذه الأقمار عدداً من القنوات الفضائية العربية التي ترى من مصلحتها تغطية مناطق أخرى في أوروبا وأفريقيا إلى جانب المنطقة العربية التي تغطيها أقمار عربسات والنيل سات، وباستخدام ترددات أيسر للمشاهدين في المناطق المستهدفة.

وتجدر الإشارة إلى أن منطقة الخليج والمشرق العربي تدخل كذلك ضمن المنطقة رقم (٣) في تصنيف الاتحاد الدولي للمواصلات، وهذه أصبحت تغطيها الآن مجموعة الأقمار الجديدة تستخدمها بعض القنوات العربية ولعل من أهمها:

- أقمار آسيا سات ٢ - ١ / ٣ B - A
- الأقمار الهندية إنسات ٢ C ٢ - B ٢
- القمر باناماسات ٤ - ٧
- القمر الدولي NSS 703 وكان يسمى انتلسات ٧٠٣
- القمر الروسي اكسبريس ٦ - والقمر الاندونيسي بالابا C_2

القنوات الفضائية العربية

١ - القنوات الرسمية

بدأت مصر بإطلاق أول قناة تليفزيونية فضائية باستخدام الحزمة (١ س) لغزيرة الإشعاع على أقمار الجيل الأول من «عربسات» في ديسمبر ١٩٩٠، ثم توالى إطلاق القنوات الفضائية العربية الأخرى حتى أصبح لكل دولة عربية قناة فضائية أو أكثر تابعة للهيئة التليفزيونية الرسمية أو لوزارة الإعلام مباشرة، وانطلقت قنوات أخرى من جانب مؤسسات عربية غير رسمية، من مراكز بث خارج المنطقة العربية وباستمرار مع أقمار أخرى غير عربية، ولو أن مجال بثها يشمل المنطقة العربية أساساً. وتخصصت بعض هذه القنوات في نوعيات معينة من البرامج، كما تجمع بعضها في شكل «حزم» ضمت قنوات أخرى غير عربية، ودخل كثير منها في مرحلة التشفير، وذلك كله على التفصيل الذي سيرد في الفقرة التالية.

وتختلف أسباب إطلاق قنوات فضائية عربية رسمية، من حالة لأخرى.

فعدد من هذه القنوات يحمل القناة أو القنوات الوطنية ذاتها، بالإضافة إلى بثها عن طريق الشبكات الأرضية، للوصول إلى تجمعات سكانية لاتصل إليها هذه الشبكات.

ويحدث هذا أكثر ما يحدث في البلاد ذات المساحات الجغرافية الشاسعة (السعودية وليبيا والسودان على سبيل المثال) وهذا لا يمنع طبعاً من وصول البث إلى بقية المناطق التي يغطيها القمر، ولكن الجمهور المستهدف أساساً هو الجمهور داخل الدولة ذاتها.

وهناك دول أقامت نظامها الفضائي لربط محطاتها التليفزيونية المحلية، كلها في شبكة واحدة للتبادل (سلطنة عمان والجزائر على سبيل المثال) وفي هاتين الحالتين لا تقدم القنوات الفضائية برامج خاصة، بل تنقل ما تحمله القنوات الوطنية.

وهناك عدد آخر من القنوات الفضائية العربية الرسمية، قصد منها التعريف بسياسات الدول وثقافتها خارج حدودها (مصر وسوريا على سبيل المثال) ويدخل

فى هذا الإطار قنوات فضائية عربية فى شمال أفريقيا أساساً، موجهة بالدرجة الأولى إلى المغتربين المغاربة فى الدول الأوروبية.

وفى هذه الحالات تعتمد القناة الموجهة إلى الخارج على نسب تزيد أو تقل من إنتاج القنوات الوطنية، ويضاف إليها ما تنتجه خصيصاً للبث الخارجى.

وقبل أن ينتهى الحديث عن القنوات العربية الرسمية لابد من الوقوف عند «قناة النيل الدولية» إذ أنها القناة العربية الوحيدة الموجهة إلى الجمهور خارج المنطقة العربية باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكان افتتاحها فى ٣١ مايو ١٩٩٤، وتذاع على الأقمار العربية (عربسات) والمصرية (نايل سات) والدولية (انتلسات) والأوروبية (يوتلسات) بالإضافة إلى بثها على قناة UHF وتتضمن خدمة إخبارية شاملة ويصل إرسالها حالياً إلى ٢٣ ساعة يومياً، وتغطى المنطقة العربية والشرق الأوسط ونصف أفريقيا الشمالى، وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

٢ - القنوات العربية الخاصة
(غير الحكومية)

أ - قناة مركز تليفزيون الشرق الأوسط (أم - بى - سى) (mbc).

وهى أول محطة تليفزيونية عربية فضائية مملوكة للقطاع الخاص، أنشئت بتمويل سعودى مقرها لندن، وصدر ترخيصها من هيئة التليفزيون المستقل فى بريطانيا ITV، وبثها مفتوح (غير مشفر) وتعتمد فى تمويلها إلى جانب ما تلقاه من دعم، على إيرادات الإعلان والبرامج المكفولة. وقد بدأت إرسالها فى ١٨/٩/١٩٩١ وتبث برامجها باللغة العربية لتغطى أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ووصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولذلك فهى تستخدم مجموعة من الأقمار الصناعية هى فى الوقت الحالى :

- عربسات ٢٢٦ A شرقاً، الخدمة ٢٠، لتغطية المنطقة العربية.
- الشبكة الأوروبية، يوتلسات ١١ F1
- الشبكة الأمريكية ANA
- الشبكة البريطانية BTIDT

وتستقبل هذه القناة فى أوروبا بصحن قطره ثمانون سنتيمتراً، وفى الأقطار العربية بهوائيات من ٨٠ إلى ١٢٠ سم، بالإضافة إلى الاستقبال بنظام «الكيبل»، أو مباشرة من خلال شبكات البث الوطنية فى بعض الدول العربية (البحرين - قطر - الأردن). أما فى السعودية فقد وسعت القناة خدماتها عبر نظام الكيبل متعدد الاتجاهات مقابل رسوم محدودة، فأصبح لها خمس قنوات هى :

الأخبار - الأفلام - البرامج الثقافية - شئون الأسرة - المنوعات.

وتخطط قناة الشرق الأوسط لتوسيع هذه الخدمة مستقبلاً لتشمل الخدمة منطقة الخليج العربى بأكملها.

وأهم ما يميز القناة، الخدمة الإخبارية الشاملة، التى تغطى مصادرها كافة الدول العربية بالإضافة إلى مراكز النشاط الإخبارى فى العالم، وهى خدمة تمتاز بدرجة عالية من الموضوعية - فيما عدا موضوعات محددة بحكم مصادر تمويلها .. وتشمل إلى جانب نشرات الأخبار، عدداً كبيراً من البرامج الوثائقية والندوات والمناقشات واللقاءات وبرامج المال والاقتصاد، والبرامج المفتوحة بالإضافة إلى استخدامها شبكة خاصة للمعلومات المكتوبة (التليتكست Tele-Text).

ب - قنوات راديو وتلفزيون العرب (ايه - آر - تى ART):

بدأ راديو وتلفزيون العرب بقناة تلفزيونية فضائية واحدة فى ١٨/١٠/١٩٩٣، على عربسات، من مركز البث فى «فوشينو» بإيطاليا، وهو مركز دولى للمحطات الأرضية المتصلة بالعديد من الأقمار الصناعية .. والقناة يملكها رجل الأعمال السعودى صالح كامل ومجموعة البركة .. وتقوم على أساس تجارى، ولا تقدم نشرات أخبار أو برامج إخبارية، باستثناء وحيد بدأ فى سبتمبر ١٩٩٦، ببرنامج مع «حمدى قنديل» وقد تبعت القناة الرئيسية العامة، مجموعة من القنوات المتخصصة :

- قناة الرياضة - نوفمبر ١٩٨٣
- قناة الأطفال - ديسمبر ١٩٩٣
- قناة الأفلام - يناير ١٩٩٤

ومع بداية أبريل ١٩٩٤، امتدت ساعات البث لتصبح على مدار ٢٤ ساعة، باستثناء قناة الأطفال فتذيع ١٢ ساعة يومياً تبدأ بعدها قناة أخرى هى :

- قناة الموسيقى - فتذيع لمدة ١٢ ساعة.

واستمرت القنوات الخمس مفتوحة (غير مشفرة) حتى نوفمبر ١٩٩٦ حيث دخلت ضمن حزمة «الأوائل» على القمر الأمريكى «عربسات ٨٢»، والمصرى «نايل سات ١٠١» اللذان يغطيان المنطقة العربية - ثم أضيفت لمجموعة قنوات ART قنوات أخرى غير مشفرة موجهة إلى أمريكا وأفريقيا واستراليا باللغة العربية.

ج - قناة أوربيت :

وهى إحدى قنوات مجموعة شركات «الموارد» السعودية التى يرأسها الأمير خالد بن عبد الرحمن آل سعود، وبدأت البث رسمياً فى ٢٥/٥/٩٤. وسيرد ذكرها بقدر من التفصيل عند الحديث فيما بعد عن «شبكة أوربيت» ضمن الجزء الخاص بحزم القنوات التليفزيونية.

د - قناة الجزيرة : ISC

ولها وضع خاص يختلف عن القنوات الفضائية الحكومية وغير الحكومية. فقد أنشأتها مؤسسة لها استقلالها الذاتى، بتمويل من دولة قطر التى يقتصر دورها - حتى الآن - على التمويل دون الإشراف أو الإدارة، ولا تربطها أية علاقة بتلفزيون قطر أو وزارة الإعلام .. وقد بدأت القناة إرسالها من «الدوحة» فى نوفمبر ١٩٩٦، وتخصصت فى الأخبار، والأحداث الجارية، وتقدم برامجها باللغة العربية.

وتبث القناة إرسالها عبر القمر الصناعى العربى «عربسات ٢ A 26 درجة شرقاً»، «والقمر الأوروبى» يوتلسات ١١ F 16 درجة شرقاً «وأخيراً انضمت لها قنوات نايل سات ١٠١ و ١٠٢ ولقناة الجزيرة مراسلون فى أهم العواصم العربية وبعض العواصم الغربية.

هـ - شبكة الأخبار العربية ANN :

قناة متخصصة فى الأخبار والأحداث الجارية تذيع باللغة العربية على مدار ٢٤ ساعة، وتبث برامجها من لندن على أقمار يوتلسات (الاوروبى) ونايل سات (المصرية) وهى غير مشفرة، وتذيع الإعلانات ولو أنها غالباً تعتمد على دعم بعض الأنظمة العربية.

و - قناة «سات ٧» :

وقد تخصصت فى خدمة مسيحيى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بدأت البث عام ١٩٩٦ من قبرص باللغة العربية ولمدة ثلاث ساعات أسبوعياً زادت إلى سبع ساعات ونصف وأدخلت لغات أخرى غير عربية.

ويذاع يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع على القمر الأوروبى يوتلسات Fs بالإضافة إلى بانام سات ٤ يوم الجمعة.

ويعتمد البرنامج فى تمويله على الهبات التى يحصل عليها من الكنائس المحلية والعالمية والأفراد، ويأمل أن يزيد التمويل حتى يتمكن من البث اليومى.

ز - قناة اقرأ الفضائية:

هى قناة عربية إسلامية شاملة مفتوحة (غير مشفرة) بدأت عام ١٩٩٨ تنهل من نبع الإسلام الحنيف، وجمهورها هو كل الناطقين أو الذين يفهمون اللغة العربية داخل المنطقة العربية أو خارجها، وتعتمد التاريخ الهجرى وبجانبه الميلادى، وتوقيت مكة المكرمة بجانب توقيت جرينتش وتعتمد فى تمويلها على الإعلانات ورعاية البرامج وريع الأوقاف المخصصة لها والاشتراكات الشرفية والتبرعات غير المشروطة من أصدقاء القناة.

وتذيع القناة لمدة ٢٤ ساعة طوال أيام الأسبوع منها أربع ساعات لخدمة القرآن الكريم، وتعمل القناة تحت مظلة راديو وتلفزيون العرب ART بالتعاون مع الشركة العالمية للإنتاج الإعلامى GMP القاهرة.

وهناك عدد آخر من القنوات الخاصة ظهر حديثاً (١٩٩٩) مثل قناة «الأندلس» ويمتلكها رجل الأعمال السعودى محمد العشماوى وتبث من «ماربلا» فى أسبانيا، وهناك قناة «المستقلة» تصدر عن دار نشر المستقلة ومركزها لندن.

وأخيراً ظهرت قناة التسوق «تميمة» للإعلان والترويج لبعض السلع والخدمات عن طريق الاتصال التليفونى.



يقولون أن الإعلام الغربى الذى يصلنا عن طريق القنوات الفضائية يبث فينا الدعايات السياسية بطريق مباشر أو غير مباشر، بما يؤثر على مواقفنا السياسية أو انتماءاتنا الوطنية .. وهو أمر لا نريد أن ننكره وإنما هو نوع من التحدى الذى يمر به العالم منذ الحرب العالمية الأولى

ح - قنوات النيل المتخصصة:

ارتبط إنشاء قنوات النيل المتخصصة بإطلاق القمر الصناعى المصرى «نايل سات»، وما يوفره من إمكانيات كبيرة فى البث بعد الأخذ بالنظام الرقمى وضغط الإشارة. وقد أنشئ لها قطاع خاص ضمن اتحاد الإذاعة والتليفزيون المصرى (ومن المحتمل أن تتحول فى المستقبل إلى شركة يساهم فيها القطاع الخاص) ويبلغ عددها سبع قنوات بدأت أولاها بالفعل وهى «قناة النيل للدراما» فى شهر سبتمبر ٩٦ وبدأت بث برامجها مشفرة ولمدة ١٥ ساعة، لمنطقة الخليج والولايات المتحدة الأمريكية باستخدام القمر الصناعى «بنام سات»، ثم تم نقلها إلى القمر المصرى وتشاهد حالياً من خلال شبكة الكوابل CNE فى مصر، أما بقية القنوات المتخصصة فهى :

الإخبارية - الثقافية - الرياضية - الأسرة والطفل - والمنوعات .. بالإضافة إلى ٧ قنوات للتعليم العام (بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم المصرية) وهى :

التعليم الابتدائى والإعدادى - الثانوى العام - الثانوى الفنى - قناة محو الأمية وتعليم الكبار - اللغات - وأخيراً قناة التنوير.

وهناك قناتان للتعليم الجامعى (بالتعاون مع وزارة التعليم العالى المصرية) وهما : قناة الجامعات - وقناة المعاهد العليا .

وقناة أخرى للبحث العلمى والتكنولوجيا وهى (بالتعاون مع وزارة البحث العلمى المصرية).

وهناك قناتان للصحة (بالتعاون مع وزارة الصحة المصرية) وهما :

قناة أمنحتب للصحة - وقناة حورس للتدريب المتقدم للعاملين فى المجال الصحى.

«حـــزم» القنـــوات التليفـــزيونية،

بدأ الأخذ بهذا النظام كما سبق القول لتوفير مورد مالى للقنوات التليفزيونية سواء فيها العامة أو الخاصة يضاف إلى مواردها من الإعلان، ويمكن أن تضم الحزمة قنوات أرضية إلى جانب القنوات الفضائية. أما بالنسبة للمشاهد فالمفروض فى كل حزمة أن تقدم عدداً من القنوات قد لا يتاح معظمه لكثيرين من المشاهدين وبأسعار للديكودر (جهاز فك الشفرة) وأجهزة الاستقبال، تقل عن تكلفة اقتناء هوائيات الأقمار المختلفة.

ونعرض فيما يلى أهم هذه الحزم فى المنطقة العربية.

١ - الشركة المصرية للقنوات الفضائية :CNE

تأسست عام ١٩٩١ وهى شركة استثمارية يشارك فيها اتحاد الإذاعات والتليفزيون، بدأت مزاولة نشاطها باستقبال وإعادة بث القناة الإخبارية العالمية CNN لمدة ٢٤ ساعة يومياً، ولها احتكار هذا النوع من البث فى مصر، وتطورت أعمالها وزاد عدد ما تقدمه من خدمات للمشتركين حتى وصل إلى ٦٣ قناة.

تضم قنوات النيل المتخصصة، و١٦ قناة لدول عربية ٩ قنوات مشفرة من مجموعة قنوات راديو وتليفزيون العرب و١٣ قناة من مجموعة «شوتايم» .

٢ - مجموعة الأوائل السعودية ST NET١

وتشترك مع راديو وتلفزيون العرب ART التى أطلقت عام ١٩٩٤ وتضم عدداً من قنوات هذه

الشركة بالإضافة إلى قنوات مصرية وعربية أجنبية ويتم البث بمشاركة الشركة المصرية للقنوات الفضائية CNE.

٣ ـ شبكة أوربت:

وهي عضو في مجموعة شركات «الموارد» السعودية ويرأسها الأمير خالد بن عبدالرحمن آل سعود، وتضم الشبكة مجموعة تتآلف في الوقت الراهن من ١٧ قناة تلفزيونية عربية وأجنبية، تعيد بثها إلى جانب ١٢ قناة إذاعية.

وللشبكة قناتان خاصتان بها، وتبث هذه المجموعة من القنوات المشفرة في شكل حزمة تصل إلى المشتركين الذين يدفعون مقابلاً مادياً لاشتراكهم ويزودون بديكودر خاص لفك الشفرة.

وقد بدأ البث رسمياً في ٢٥/٥/١٩٩٤ من مركز يقع قريباً من روما .. ويقوم بنقله القمر العربي «عربسات ٢ " A» وتشمل التغطية الشرق الأوسط وشمال أفريقيا .. كما قامت «أوربيت» باستئجار ثلاث قنوات قمرية على أقمار انتلسات الدولية (٧٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٧٠٢). وفي بداية عمل الشبكة عام ١٩٩٥ وصلت قيمة جهاز فك الشفرة إلى عشرة آلاف دولار أمريكي، خفضت مع بداية عام ١٩٩٦ إلى أقل من (٩٠٠) دولار، هذا بالإضافة إلى رسم اشتراك شهري لكل قناة. وقد صدرت قرارات في كل من مصر والسعودية، تحظر الاشتراك في الحزم التليفزيونية إلا بشروط خاصة، وكذلك استقبال قنوات الأوربيت محظور في البحرين رسمياً، ولو أنه متاح من الناحية العملية.

ومن بين القنوات التي تدخل في هذه الحزمة، القناتان الفضائيتان المصريتان الأولى والثانية.

وكانت حزمة أوربيت تضم شبكة أخبار عالمية باللغة العربية، أنشأتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC خصيصاً للشبكة، ولكن حدث خلاف بين الجهتين أدى إلى توقف هذه القناة.

قضايا واقتراحات:

وبعد .. فلعلي أكون قد أوضحت المعالم الرئيسية لغابة القنوات الفضائية التي تغطي المنطقة العربية أو أجزاء منها على الأخص ما يتصل منها بالقنوات العربية، ولا أدعي أنني قدمت الصورة كاملة، فلابد أن تكون بعض الحقائق قد غابت إما لقصور مني، أو لأن جهة ما لم تحاول أن تلملم شتات هذا الموضوع الدائم الحركة والتغير.

وإذا كان الفضاء قد ازدحم بالقنوات التلفزيونية، فقد كانت هذه هي النتيجة الطبيعية لتقدم تكنولوجيا الاتصال وفي مقدمتها الأقمار الصناعية، وما أتاحته من فرص أمام المؤسسات التليفزيونية الرسمية والخاصة العربية أو الدولية لدعم نشاطها في مجالات الإعلام والدعاية السافرة أو التجارة أو الترويج أو الترفيه أو التثقيف العام والتعليم.

والفضاء ملك للإنسانية كلها وليس ملكاً لدولة أو مجموعة دول ولا يملك أحد أن يمنع شخصاً أو مؤسسة ما من استغلال الفضاء في الحدود المتفق عليها دولياً في إطار الاتحاد الدولي للاتصالات، لتحقيق الأغراض السابق الإشارة إليها ما دامت قادرة على تحمل الأعباء التي يتطلبها هذا النشاط، ولكن العبرة أولاً وأخيراً في «الاستقبال» أي في الفرد أو المؤسسة التي تستقبل البث الوافد من الفضاء .. فيستطيع أي إنسان أن يرفض أو لا يهتم باستقبال هذه القنوات أو بعضها، أو يكون غير قادر أو غير راغب في تحمل أعباء هذا الاستقبال مهما انخفضت تكلفته .. وقد يرى استقبال قنوات معينة ولا يستقبل قنوات أخرى حتى لو جاءت من نفس المصدر، فقد أتاح التقدم التكنولوجي التحكم في أجهزة الاستقبال فتقبل البعض وتمنع وصول البعض الآخر.

فنحن إذن أمام موقف لا حيلة لنا فيه، وكل ما نستطيعه، هو ترشيد استخدامه بحيث نحقق من خلاله أقصى ما يمكن من الإيجابيات، ونقلل ما يمكن أن يترتب عليه من آثار سلبية.

وأرجو ألا يتبادر إلى ذهن أحد أن هذا التقدم التكنولوجي الذي أدى إلى هذه الطفرة في استخدام القنوات الفضائية في المنطقة العربية هو شر كله .. كما أنه ليس الخير كله، فهذه الظاهرة لها إيجابياتها العديدة، كما تحمل قدراً من السلبيات.

فمثلاً يقول البعض إن التعرض للقنوات الأجنبية بكل ما تحمله من قيم اجتماعية غربية يؤدي إلى شيوع هذه الأنماط الثقافية بين شبابنا، وبالتالي يهدد هويتنا الثقافية العربية بالخطر وينسى هؤلاء أننا نتعرض في كل تاريخنا الحديث لهذه الأنماط عن طريق الأفلام السينمائية والقنوات التليفزيونية الأرضية، بل والروايات المترجمة والتواصل عن طريق السفر إلى هذه المجتمعات واستقبال سياحها والصحف الأجنبية التي تصدر بعض طبعاتها باللغة العربية، ولم يحدث أن اغتربت مجتمعاتنا العربية أو تركت قيمها الاجتماعية والدينية الأصيلة، واستبدلت بها قيماً غربية .. وقد يكون هذا التعرض قد ترك بعض آثار في الملبس أو طريقة السكن أو الغذاء أو التعامل اليومي، ولكنه لم يمتد إلى القيم الأصيلة التي تغذيها الأسرة والمؤسسة الدينية والمؤسسات التعليمية، وهي على كل حال معركة لم تنشأ فقط منذ ظهور وسائل الاتصال الحديثة، فقد عرفناها منذ بداية تاريخنا الحديث، وينبغي أن تظل الجهود موجهة بوعي إلى تدعيم هويتنا الثقافية وانتماءاتنا الوطنية الدينية، لمواجهة تيارات التسطيح الثقافي أو ما يسمى أحياناً بالغزو الثقافي أو العولمة الثقافية.

ويقولون أن الإعلام الغربي الذي يصلنا عن طريق القنوات الفضائية يبث فينا الدعايات السياسية بطريق مباشر أو غير مباشر، بما يؤثر على مواقفنا السياسية أو انتماءاتنا الوطنية .. وهو أمر لا نريد أن ننكره وإنما هو نوع من التحدي الذي يمر به العالم منذ الحرب العالمية الأولى وما نشأ خلالها من تضخم الآلة الدعائية للأطراف المختلفة، وسلاحنا فيه الآن ينبغي أن يكون في مزيد من الديمقراطية وحرية الإعلام وطرح الآراء والاتجاهات ومناقشتها، وعدم إخفاء الحقائق أو تشويهها ولكن .. وعلى الجانب الآخر تحمل ظاهرة تعدد القنوات الفضائية عدداً من الإيجابيات هي التي ينبغي أن نركز عليها وننميها:

● فقد أتاحت للأنظمة العربية ولفئات الصفوة في المجتمعات العربية المختلفة فرصة التعبير عن نفسها وتوصيل صوتها وإبداعاتها وأفكارها إلى غيرها من المجتمعات العربية، بما لم يتحقق من قبل على المستوى الذي يجري الآن.

● وأعطت للمشاهد العربي فرصة اختيار ما يصلح له ويريد أن يتعرض له، دون أن يكون محتكراً من جانب قناة تلفزيونية أو اثنتين تملكهما السلطة، وهذا نوع من التجدد من شأنه أن يطلق عنان حريات أخرى .. فإتاحة فرصة الاختيار هو اللبنة الأولى في تشكيل الشخصية القادرة على التطور ومواجهة ظروف الحياة بتياراتها المتضاربة.

● وأدى التنافس بين القنوات العربية وعلى الأخص مع القنوات الخاصة إلى إعطاء هامش من الحرية لتلفزيوناتها الوطنية لطرح موضوعات وقضايا لم يكن مسموحاً بعرضها من قبل، كما أتاحت فرصاً جديدة لألوان جديدة من الإبداع.

● وأتاح تخصص القنوات بعد تعددها فرصاً واسعة لخدمة الأهداف الثقافية والتعليمية والرياضية ونقل الأحداث الجارية على الأخص الرياضية والفنية.

ومع ذلك فمازال ينقصنا الكثير في مجال ترشيد استخدام الفضاء في المنطقة العربية:

● فحتى الآن لم تستطع القنوات العربية أن تتهيأ لتقديم خدمة إخبارية عربية واحدة تعتمد على مساهمات القنوات الأعضاء، وتقدم صورة كاملة، نسبياً على الأقل، لما يجري من أحداث على الأرض العربية .. وهناك نموذج ممتاز يذاع يومياً من إبداعات اتحاد الإذاعات الأوروبية يتمثل في قناة «يورو نيوز» أي أخبار أوروبا، وقد بدأ منذ سنوات ويعتمد على مساهمات الأعضاء، ويذاع بخمس لغات أوروبية وربما أكثر، رغم ما في ذلك من جهد فائق، بينما قناة الأخبار العربية لن تتعامل إلا بلغة واحدة وهي ميزة لم نحسن استغلالها واستغلتها الإذاعات والقنوات الدولية في توجيه بثها إلى كل المنطقة العربية بلغة واحدة، هي اللغة العربية.

● بل إن القنوات العربية لم تستطع أن تقيم فيما بينها وكالة أنباء تليفزيونية عربية تعتمد على المراسلين العرب الموجودين حالياً، لكي يستفيد الجميع من خدماتها، مع إمكان تطويرها، إذا هي شكلت جهازاً واحداً .. وغلبت الاعتبارات القومية على أنانية المنافسة.

● والأهم من هذا وذاك ـ ويرتبط به ـ أن القنوات العربية لم تستطع أن تنشئ قناة للتعامل مع العالم الغربي بلغاته، على الأقل الإنجليزية والفرنسية، وتركت هذه المبادرة «لقناة النيل الدولية» التي أنشأها اتحاد الإذاعة والتلفزيون في مصر ويوجهها إلى مناطق في أوروبا وأمريكا ـ وكان من شأن هذه المبادرة أن تزيد ثراءً بصدورها عن مجموعة القنوات العربية أو عدد منها.

● بل إن القنوات العربية لم تستطع الاتفاق على إنتاج مشترك لبرنامج واحد يسجل الآثار العربية والإسلامية في الأقطار العربية ذاتها ليكون بادرة على إمكان المشاركة فيما بينها لإنتاج عدد من البرامج التليفزيونية يعمل على دعم روح المواطنة العربية ويقف في وجه الخطر الذي يتحدثون عنه كثيراً، وهو خطر العولمة الثقافية أو محاولة اختراق الثقافة العربية، كما يمكن ترجمته إلى لغات أخرى ليذاع في العالم الخارجي.

● وعلى شدة حاجة القنوات العربية لبرامج توجه للأطفال باستخدام الوسيلة الأكثر اجتذاباً لهم، وهي الرسوم المتحركة، وعلى كثرة الاجتماعات التي عقدت في هذا الشأن في إطار مجلس وزراء الإعلام العرب، واللجنة العربية الدائمة للإعلام، واتحاد إذاعات الدول العربية، إلا أنه لم يتم التوصل إلى أي بادرة توحي بإمكان الدخول في هذا المجال، وترك الأمر للقطاع الخاص إذا رأى فائدة له في ذلك.

● وبرغم كثرة الحديث عن أهمية العناية باللغة العربية باعتبارها إحدى الركائز الأساسية للثقافة العربية والهوية القومية، والشكوى المتكررة من ضياع هذه اللغة بين الأجيال الجديدة من المهاجرين العرب في الخارج، وهم مهاجرون من أقطار عربية شتى، إلا أن جهداً مكثفاً ومشتركاً لم يحاوله أحد لإنتاج دروس متلفزة لتعليم العربية بمستوياتها المختلفة، والنماذج كثيرة فيما يفعله الناطقون بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، ولم يزد الأمر في بعض الحالات على برنامج واحد لا تصاحبه مواد مطبوعة وبغير متابعة من أي نوع وهو شرط لنجاح مثل هذه البرامج.

● وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى لا يمكن الحديث عن الاستغلال المنظم لهذه القنوات أو بعضها في برنامج للتعليم المفتوح.. ولا نقول جامعة مفتوحة، فذلك حلم بعيد المنال .. ولا يمكن إلقاء العبء في الوقت الحاضر على قنوات النيل التعليمية. أولاً: لأنها تعد وتبث بالتعاون مع السلطات التعليمية المصرية لخدمة مناهج التعليم المصرية، وثانياً: لأن أجهزة استقبال القمر المصري «نايل سات» لم تنتشر بعد في الدول العربية مما يجعل التفكير في استخدام هذه القنوات على المستوى القومي العربي سابقاً لأوانه .. وأخيراً لأن هذه المسئولية ينبغي أن توزع بالمشاركة مع قنوات عربية أخرى تدعيماً للفكر القومي العربي وتدعيماً للعملية التعليمية الشديدة الحاجة إلى التطوير في المنطقة العربية كلها.

والذي قدمناه هنا مقترحات أو أفكار، ليست جديدة أو ندعي الفضل في ابتكارها، فقد تمت مناقشة أغلبها في اللجان المنبثقة عن اتحاد إذاعات الدول العربية، أو لجنة تنسيق القنوات الفضائية أو مجلس وزراء الإعلام العرب أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ولكن أياً منها لم يجد طريقه إلى التنفيذ المحكم في ظل مشاركة إيجابية من القنوات الرسمية أو الخاصة.

باختصار هناك غياب لإرادة سياسية مشتركة تأخذ مثل هذه الأمور مأخذ الجد .. ■



القنوات العربية لم تستطع أن تقيم فيما بينها وكالة أنباء تليفزيونية عربية تعتمد على المراسلين العرب الموجودين حالياً

أعشاب وطحالب

في حياتنا الثقافية!!

محمد سليم العوّا

[١]

أصبح كاتب «وليمة لأعشاب البحر» أشهر شخصية ثقافية عربية في اللحظة الراهنة، فإعلام الدنيا كلها يتهافت عليه ليدلي بحديث أو يكتب كلمة أو يشارك في حوار تذيعه قناة تليفزيونية. وهو قليل الكلام مما يزيد الطلب عليه ويكثّف من أضواء الشهرة حوله!

وأصبح هذا الكاتب ـ كذلك ـ أحد رجال التاريخ، باعتباره مضطهدًا دينيًا، ينادي «الإسلاميون» بمنع كتبه من التداول والنشر، وباعتباره رمزًا «تنويريًا» للتحرر الأدبي، يدافع عنه حماة الإبداع في كل مكان من العالم العربي والغربي أيضا!

وهولم ينل هذا المجد وتلك الشهرة بسبب عمل غير مسبوق في تاريخ الأدب العربي، أو خدمة فنية أو فكرية قدمها للإنسانية، ولكنه نال ذلك كله ـ وأكثر منه ـ بسبب الهجوم علي روايته وانتقاد نشرها في مصر..

وقد انشغلت ـ قراءة ومتابعة ـ على مدى الأسبوعين الماضيين، بأمر هذه الرواية، والضجة التي ثارت حولها، والتوابع التي لحقتها، فأوشكت أن تزلزل الطمأنينة المصرية الراسخة ـ عادةً ـ مهما يكن من عنف الأحداث وقسوتها.

وتأملت كلام الناطقين والكاتبين في هذه الفتنة، وتأملت صمت الصامتين فيها، فتيقنت أن من واجب ذلك الكاتب السوري أن يَمْتَنَّ لمهاجميه أعظم المنة فقد صنعوا منه هذا البطل العربي التنويري المضطهد، وجعلوا روايته «وليمة لأعشاب البحر» من أكثر الكتب شهرة، وستصبح ـ بغير شك ـ من أوسعها انتشارًا مدة غير قصيرة من الزمن، وتلك أياد ينبغي أن يذكرها من أصابه خيرها، ويشكرها لمن أسدوها إليه، وإن كانت في نظر آخرين فتنة عمياء مدمرة كان يمكن أن تأكل الأخضر واليابس، وتذر أعرق عاصمة عربية قاعًا صفصفًا أو يبابًا مُدَمَّرًا.

[٢]

أنا تنقٌ وأنت مئقٌ فكيف نتفق؟

كانت تلك الحال التي يصفها ذلك المثل العربي القديم أحسن وصف ـ ولاتزال ـ هي حال الفريقين المختلفين حول رواية حيدر حيدر. و«التئق»: هو الممتلئ غضبًا، و«المئق» هو الجزوع من ذلك الغضب قليل الاحتمال له.

وقد بلغ ذلك الغضب، وبلغ رد فعله حدًا شغلا معه القضاء المصري والمجتمع الثقافي مشغلة جعلت الإعلام العربي يموج بمناقشة مستمرة للجائز والممنوع، والمقبول والمرفوض، والخطأ والصواب في جملة ما حدث وتفاصيله على السواء.

وإذا كان الشأن القضائي قريب الانتهاء، أيا ما كانت النتيجة التي ينتهي إليها، فإن الشأن الثقافي والفكري يبدو مرشحًا لاستمرار الجدل وتفاعل الخلاف؛ إذ لا يتعلق الأمر عند المثقفين والنقاد والمفكرين برواية نشرت أو منعت، وإنما يتعلق بقضية الإبداع نفسها، وحرية الفكر ومداها، والحق في التعبير، مبتدئه ومنتهاه، وهي مسائل لا يملك أحد أن يمنع أحدًا من الاختلاف حولها، ويظل شأن الفريقين شأن حالة التنافر المستمر التي يصورها قول العربي القديم: أنا تئق وأنت مئق فكيف نتفق؟!

[٣]

الرواية المشكلة نص بالغ الطول، وقع في طبعته المصرية في ستمائة وتسعين صفحة، وهو يحكي قصة شيوعيين عراقيين فرّا من جحيم الصراع السياسي في العراق في بداية الستينيات، والتقيا ـ مصادفة ـ في قرية جزائرية، يعيش أهلها مرحلة التحول في السياسة الجزائرية التي بدأت بتولي هواري بومدين الحكم هناك.

يلتقي العراقيان الهاربان بامرأتين جزائريتين، إحداهما كانت تناضل مع الثوار ثم تحولت إلى ساقطة، وجعلت من غرفة في بيتها فندقا تؤجره بين حين وحين إلى شخص واحد، تفضله من المشارقة، وفيه أقام أحد هذين العراقيين (مهيار الباهلي). والثانية كانت فتاة صغيرة لم تتم دراستها الثانوية، أبوها شهيد تركها وأختًا أخرى في كنف أمهما التي تزوجت بعد وفاته من تاجر فظ غليظ القلب، لكنه كثير المال والنفوذ.

مهيار تحول بعد مقاومة محدودة إلى عشيق لفلة، شأن من سبقوه إلى الإقامة لديها، ومهدي جواد ـ الشيوعي الثاني ـ وقع منذ لحظة لقائه بتلميذته ـ التي طلبت منه أن يدرسها اللغة الغربية ـ في غرامها.

والرواية تحكي ضياع شخصياتها، وانهيار القيم التي تركوها خلفهم، منتمية إلى زمن عاشوه قبل لقائهم في زمن الرواية.

والرواية منذ الصفحات الأولى تصيب قارئها بالملل والسأم، فلغتها متواضعة، وسرد الأحداث فيها يبدأ ولا ينتهي، وفي بنائها وأسلوبها ركاكة ظاهرة، ذكرتني بما قاله لي صديق قديم متخصص في الأدب الإنجليزي عن قراءته لرواية سلمان رشدي (آيات شيطانية)، قال إنه نام مرتين وهو يقرأ الفصل الأول، وأكملها مضطرًا ليقف على المواضع التي أثارت انتقادًا إسلاميًا. وقال لولا الضجة التي ثارت حول تلك الرواية، لما سمع أحد ـ في العالم العربي ـ باسم سلمان رشدي، وهذا نفسه هو شأن مؤلف الوليمة!

يَفْجَأ حيدر حيدر قرّاءَهُ بأنه كاتب غير مكترث، ينسب ما شاء إلى القرآن الكريم دون أن يكلف نفسه أيَّ عناء للتحقق مما يقول لقارئه إنه نص قرآني (الصفحات ٢٢ و١١٤ و١٤٨ و١٥٢ و٣١٩).

وهو غير معني برقي التعبير أو بالارتفاع به عن مستوى تعبيرات السوقة في فحشها وبذاءتها، ويصنع ذلك في التعبير عن أقدس الأشياء وأعظمها حرمة، وعلى امتداد نصه كله. وهو يتحدث (في صفحة ٣٢٠) عن «الانفلات من حقل الحرية إلى غابة الفوضى والمزاج العاري»، وهو ما فعله ـ مخلصا ـ في كتابته كلها في طول الرواية وعرضها.

فأما عدم الاكتراث في شأن القرآن الكريم، فتراه مثلا في صفحة (٢٢)، يذكر أن صوتًا يتلو همسًا «قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم»، وليس هذا نصا قرآنيا أصلا. وتراه في صفحة (١١٤) يقول: «قال الله في كتابه العزيز: إنا خلقناكم فوق بعض درجات»، وهذا قطعا ليس قرآنًا، ومع ذلك فتعقيب أحد السامعين عليه هو: «لالا (اسم أم إحدى بطلتي الرواية) تردد هواجس ووسوسات يزيد». فما يعتبره نص الرواية (قرآنًا) يعتبره أيضا (وساوس وهواجس)!

وتراه في صفحة (١٤٨) يقول: «والله تعالى قال في كتابه العزيز: إذا بليتم بالمعاصي فاستتروا»، وليس هذا بقرآن أيضا! وتراه في صفحة (٣١٩) يقول: «انطلق تعليق: إن لجسدك عليك حقًا. صدق الله العظيم». وليس في القرآن الكريم هذا النص كذلك.

وأما التعبيرات السوقية الفاحشة البذيئة، فإنها تنتشر على امتداد الرواية كلها، وليست جملة عارضة في سياق خاص انتزعت منه لإدانة المؤلف وروايته، بل هي من الكثرة والشيوع بحيث لايمكن فصلها عن الرواية مع بقاء الرواية نفسها.

[٤]

وضياع النماذج التي يقدمها الكاتب في شخصيات روايته الأربع ينتهي دائما إلى معاقرة الخمر أو إدمانها، وإلى ممارسة الجنس، الفردية والثنائية والمثلية، بصورة تثير التقزز وتدفع إلى الاشمئزاز، لا من فرط التقوى واستحكام الحياء عند القارئ، بل من بشاعة العلاقات والأوصاف والكلمات التي تطالعه بقبحها وسوقيتها. ولا يفلت من هذا المصير أحد، بدءًا من «فُلّة» المرأة التي قدمت شبابها لثورة الجزائر، ثم انتهت إلى حالة من السقوط الدائم لا هم لها إلا البحث عن رجل شرقي يعاشرها حرامًا؛ ومرورًا «بعمر يحياوي» البطل الذي فرّ من الفرنسيين بعد القبض عليه ثلاث مرات وانضم في كل مرة إلى الثوار، ثم تحول إلى إدمان الخمر وأحضان العاهرات (ص ٤٨٢ ـ ٤٨٩)، ووصولاً إلى الفتاة الغضة (آسيا لَخْضر) بنت الشهيد (سي العربي لَخْضر) وشبيهته المعتزة بتاريخه، التي تحولت إلى بذيئة اللسان، لا تتحدث إلا بالألفاظ الجنسية، ولا تنكت إلا بإشارات سخيفة إلى الأعضاء الجنسية للرجال والنساء (ص ٥١٥ وما بعدها)، وذلك كله لا يقارن بما انتهى إليه حال المناضلين الشيوعيين أفرادًا وجماعة: خمرا يدمنونها، وزنى يتباهون باقترافه، ولواطًا يتظرفون بالتمازح الثقيل حوله! (ص٤٩٠ ـ ٥٠٠).

فالرسالة التي تبعث بها الرواية كلها هي انهيار محاولات التحرر الوطني في العالم العربي، الدينية منها والشيوعية على السواء!!

والكاتب يمارس هوايته في عدم الاكتراث في شأنه كله، فلا تفلت منها الأحاديث النبوية (ص١٤٨، وص٦٦٢)، ولا اللغة العربية، فهو يستعمل كلمة «أمثولة» بمعنى القدوة (ص٥٥٩)، وهي في اللغة بمعنى التمثّل بالشعر بيتا بعد بيت (القاموس المحيط، ولسان العرب مادة: مثل). ويستعمل كلمة «مُرْبَك» وكلمة «مربكة» في مواضع كثيرة، بمعنى «مرتبك» و«مرتبكة». ويجعل باء الاستبدال (ص ٥٦٤) تعود على المستبقى لا على المتروك! ولا عليه؛ فهو كما يُبدع في الوصف العجيب فحشه، «يبدع» في استعمال اللغة كما لم يستعملها أهلها!

وحين أتتني نسخة من الرواية، تفرغت لها يومين كاملين، فوجدت فيها بالإضافة إلى ما

ذكرته مجملا أكثر من خمسة وستين موضعًا تتراوح بين سطور عدة، وبين صفحات متوالية تتضمن:

١ـ هزءً بذات الله تعالى.

٢ـ سخرية من الدين أو الأنبياء ولا سيما محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام.

٣ـ قرآن مخترع أو محرف.

٤ـ أحاديث مخترعة أو محرفة.

٥ـ بذاءات جنسية مستقذرة يأباها العقلاء ويأنف منها المتادبون.

ويقع كثير من هذه المواضع تحت طائلة نصوص قانون العقوبات، التى تجرم التعدى على الأديان والمقدسات والشعائر، أو نصوص القوانين التى تحمي القيم من الاستهانة بها أو الاحتراء عليها والآداب العامة من انتهاكها بصورة علنية.

ولهذه الأسباب نفسها، **انتهى مجمع البحوث الإسلامية، إلى أن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تحقر جميع المقدسات الدينية، وتحرض صراحة على الخروج على الشريعة الإسلامية وعدم التمسك بأحكامها، وأنها خرجت عن الآداب العامة خروجًا فاضحًا.. وأنها خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة. (تقرير مجمع البحوث الإسلامية المؤرخ ١٣ من صفر ١٤٢١ = ١٧ مايو ٢٠٠٠).**

[٥]

كاتب الرواية اتهم منتقديها بأنهم «لا يتحركون من تلقاء أنفسهم، بل إنك قد تندهش إذا قلت لك إن العدو الصهيوني الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين من حملات هؤلاء ضد المفكرين والفنانين والأدباء، الذين يريدون للأمة العربية أن تنهض» (الأهرام العربى، العدد (١٦٤)، ١٣ مايو ٢٠٠٠ صفحة ٦٩).

وقال : «إن روايته تمجِّدُ الإسلام كما لم يمجَّدْ من قبل»!! وإنه يمثل «الاجتهاد والفقه المتنور لأن النَّص حمَّال أوجه»!!

وأنصار (الإبداع بلا حدود ولا قيود) قالوا: إن الرقابة على العقول وتفتيشها غير جائزين، وإن مسائل الفن من أعقد الظواهر البشرية ولابد من التفرقة فيها بين القارئ المدرَّب والقارئ العادى، وإن الخط الفاصل بين ما يجوز أن ينشر باعتباره إبداعًا، وما لا يجوز، يحدده الفارق بين القارئ السوى والقارئ المعقد، وإن مضمون الرواية مضمون سياسى جيد/ ممتاز/ رائع. بينما قال عنها بعضهم «إنها رواية عادية» وقال أحد كبار النقاد سرًا: «إنها رواية ضعيفة ثم نفى علنا (!) أن يكون قد قال ذلك.

وقال هؤلاء أيضا إن الذى أثار القضية كلها هم من يسمونهم «بالجانب الظلامى من المجتمع»، و«الرجعيين»، و«ذوى الأهداف السياسية»، وإننا لا يجوز أن «نسيِّس» الموضوع ولا أن (نديِّنه)، وإن الطلبة الذين تظاهروا ضد الرواية، سيقوا إلى المظاهرات «كالدهماء»، وإن الرواية ـ على كل حال ـ نشرت عدة مرات وكانت توزع فى مصر من قبل أن تنشرها وزارة الثقافة، وإنه من الضرورى نشر هذه الأعمال الأدبية ليتواصل الأدباء والنقاد المصريون مع «المبدعين» العرب! وإن الأدب العربى القديم وكتب التفسير والفقه وعلم الكلام، مليئة بعبارات وآراء لا تتفق مع صحيح الدين، فهل نكفر أصحابها؟!!

[٦]

والمسالة هكذا تبدو شديدة التعقيد وتحتاج إلى «تحرير محل النزاع»، كما يقول الفقهاء، ولكى يتم لنا ذلك، فإننا لابد أن نقف على عدة أمور:

الأمر الأول: أن الأدب والإبداع لا يعيش فى فراغ ولا ينشأ من فراغ، فهو ليس كلامًا يقال فى الصحراء أو يطلق فى الهواء، ولكنه صناعة اجتماعية تعبر عن حال مجتمع ـ أو أفراد منه ـ وتذاع وتنشر وتقدم إلى مجتمع ليقرأها وينفعل بها، ويرى فيها رأيه إقبالاً أو إعراضًا. والنشاط المتعلق بمجتمع ـ أو ببعض أفراده ـ لا يمكن أن يكون طليقًا فى ممارسته من كل قيد، عصيًا على أىِّ حد. إذ ليس فى الدنيا مجتمع بلا نظام. وجزء لازم من هذا النظام أن يلتزم فى الكلام الذى يلقى إلى الكافة منشورا أو متلوًا بحدود ما يقبله المجتمع وما يرفضه، ما يرضاه وما يأباه، ما يجيزه قانونه وما يمنعه، ما يحتمله عرف الناس وما يضيق به، ما يسيغه الذوق العام وما يمجه.

وكل كلام ينشر على الناس لا يلتزم بذلك، فلا يلومن صاحبه إلا نفسه إن جلب عليه سخط الناس، أو سطوة القانون، أو رفض العامة ولو قبله بعض الخاصة.

وليس فى ذلك تقييد لحرية «الإبداع» ولا «تحديد» لحقوق الأدباء، ولا حجر على خيال المتخيلين، لأن تعريفات الإبداع والأدب والتخيل، مهما اشتط أصحابها فى طلب الإفلات من كل عقال، لا تستطيع التفلت من تلك القيود الاجتماعية، وإلا لحقها ما يلحق الخارجين عليها، أيًا ما كان نوع خروجهم أو سببه. وليقرأ القارئ معى قول رجل لا يمكن أن يتهم ـ عند أنصار الرواية ودعاة الإبداع بلا حدود ـ بالظلامية أو الرجعية أو السلفية أو أنه من الدهماء، إنه الدكتور نصر حامد أبو زيد فى آخر كلام نشر له:

يقول: «.. على الفكر أن يلعب دورًا للتحديث والحرية.. ولا يوجد من يسمى مفكرا محايدا، فدعوى حياد الفكر هى دعوى عدم التزام..». (الأهرام العربى، العدد السابق ذكره، ص ٣٧). وليتأمل القارئ قول الدكتور فؤاد زكريا ـ وهو من هو ـ فى المصور (١٩/٥/٢٠٠٠): «إن هذا الكاتب يفتقر إلى الحس الاجتماعى.. وانعدام الحس الاجتماعى لديه هو الذى أوقعه فى هذا الخطا، فالكاتب يسعى قبل كل شىء إلى أن يجعل القراء ينحازون إلى وجهة النظر التى يعبر عنها، وهذا يقتضى منه ألا يستعدى القراء باستخدام ألفاظ سوقية بذيئة يعبر بها عن مقدساتهم».

الأمر الثانى: أن هذه اللغة العربية يُتَوَجَّهُ بما يكتب بها إلى الأمة الناطقة بالضاد، وهى ليست أمة بلا ثقافة ولا تاريخ ولا عقيدة ولا أخلاق، وذلك كله يمثل مرجعية الأمة ومرجعية حضارتها، وإذا كان فيها بعض الضائعين أو التافهين أو بعض الضائقين بثقافتها وتاريخها وعقائدها وأخلاقها، فذلك شأنهم، وليس الناس ـ عامتهم ومتدينوهم والمستمسكون بالأخلاق الفاضلة منهم ـ بملزمين أن يقبلوا تعبيرا يزعم أنه «أدب» و«إبداع»، يهدر فى فحش من اللفظ وقبح من المعنى، وجرأة على المحرمات واستهانة بالمقدسات، أخلاق الناس، ويسخر من عقائدهم ومن أنبياء الله المبعوثين إلى الناس كافة. وغضب الناس لذلك كله أو بعضه مشروع، وقديما قالت العرب «من استُغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار»!!

وإعمال القانون فى شأن الذين يكتبون مثل هذا الغثاء أو ينشرونه على الناس واجب، والمجتمعات كلها تصنع ذلك لحماية مقدساتها وقيمها، وليس بعيدا عن أحد ما حدث «لجارودى» فى فرنسا، و«لإيرفنج» فى بريطانيا لإنكارهما «المحرقة» التى تزعم الصهيونية أنها أصابت اليهود على أيدى النازيين. والقانون فى الولايات المتحدة وأوروبا كلها، وإسرائيل ـ طبعا ـ يعاقب على مجرد التشكيك فى الرواية الصهيونية لأحداث اضطهاد اليهود، وهى خرافة سياسية لا عقيدة دينية ولا قيمة أخلاقية.

فهل يلوم أحد ـ فضلا عن أن يتهم ـ طلاب أعرق جامعة دينية إسلامية إن غضبوا لدينهم؟! وهل يجوز وصفهم «بالدهماء»؟!

الأمر الثالث: أن هناك فارقًا لا يجوز إهماله أو تناسيه بين الغضب المشروع وبين الخروج على القانون. كان غضب طلاب جامعة الأزهر مشروعًا، ولكن تحطيمهم السيارات والممتلكات العامة غير جائز. وكانت محاولة الشرطة منعهم من مخالفة القانون مشروعة ـ بل واجبة ـ لكن إطلاق الرصاص المطاطى عليهم وإلقاء القنابل المسيلة للدموع داخل المدينة الجامعية كان تجاوزا يجب مساءلة الذين أمروا به.

حدثتنى طالبة دكتوراه مصرية محجبة، تدرس فى جامعة كولومبيا فى نيويورك، إنها كانت مع الصحفى «ستيف نيجز» (أمريكى يحرر مجلة كايرو تايمز)، يرقبان المظاهرات، وفجأة قبضت الشرطة عليهما. وادعت «ضابطة» شرطة أنها قبضت على اليهوديين اللذين يحركان المظاهرات!! فهجمت عليها الطالبات ونزعن حجابها وأوسعنها والصحفي الأمريكي ضربا. وتعالت الهتافات ضد اليهود، ولولا أن أنقذهما ضابط شاب، لكانا الآن فى عداد الهالكين! فهل حاسب أحد هذه «الضابطة»؟! وهل كان هذا الموقف هو سر ادعاء حيدر حيدر أن «العدو الصهيونى الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين...»؟؟

وكان غضب المعترضين علي نشر الرواية ـ فى أصله ـ مشروعًا، ولكن التعبير الذى ساقتهم إليه أقلامهم بألفاظ الكفر والفسوق والدعارة والفجور، واتهام «الفاعلين» وآبائهم بذلك كله، ودعوة الأمة كلها ـ فردا فردا بوظيفته أو مهنته ـ إلى الثورة: كل ذلك كان متجاوزا لحد المشروعية التى يقتضى العقل والعدل والشرع ـ جميعا ـ أن يلتزمها كل كاتب وكل قائل. وإذا لم يفرق الناس، لاسيما ذوى الرأى منهم، بين الغضب المشروع والغضب الممنوع، وبين الانفعال الجائز أو الواجب وبين الثورة المجنونة، فإن الخطر ينال الجميع ويجب أن يتكاتف الجميع فى مواجهته مهما تباينت مواقفهم الفكرية من سبب الغضب وموضوعه.

الأمر الرابع: أن أى عمل ينشر على الناس ويتاح للكافة، يكون عرضة للنقد. وليست هناك حصانة لأى إنتاج بشرى منشور أو معروض ضد انتقاد الناقدين مهما كان حادًا. ومن أراد أن يعصم نفسه من ذلك، فليمسك عليه قلمه ولسانه. فقديمًا قيل: «من ألف فقد استهدف»، يعنى جعل نفسه هدفًا لسهام الناس، تصيبه بما يحب وما لا يحب. ولاريب أن آراء الناس ستتفاوت فى تقويم أى أثر أدبى أو فنى، إلا القليل النادر الذى يجمع على حسنه أو على قبحه. وليس من حق المختلفين أن يحجر بعضهم على بعض، ولا أن يدعى أحد أنه «المختص» وحده دون خلق الله كلهم بالتقويم مدحًا أو قدحًا. وذلك فارق ما بين العمل الأدبى والفنى والفكرى، المبذول للناس كافة يقولون فيه ما يشاءون، وبين العمل العلمى المتخصص الذى لا يفقه حقيقته إلا أهل التخصص وحدهم.

وانتقاد الناس للعمل الفنى والأدبى والفكرى غير الدرس النقدى الذى يقدمه أساتذه الأدب لطلابهم أو الذى يمارسونه فى صالونات الأدب التى لا يشارك فيها إلا أهله. الأول حق لكل قارئ ومشاهد، والثانى لا يقبل فيه إلا قول أصحابه. والأول هو الذى يؤخذ فيه برأى غالبية الناس وجمهرتهم ولو كانوا «معقَّدين» و«غير مدربين» وليسوا «متميزين» ولا «أسوياء» إذ لهؤلاء تنشر الأعمال الأدبية والفكرية نشرًا عامًا. والثانى يستمع فيه إلى قول أهل الاختصاص، ثم يختار كل امرئ ما يطيب له منها: ولا يجوز أن يظن أحد أنهم متفقون على كلمة سواء أو أن أقوالهم تستعصى على النقد والتمحيص والرد، أو أن أعلاهم صوتًا هو أرسخهم فى فنّه قدمًا أو أطولهم يدًا.

ولذلك لم يشعر أحد أن التوفيق حالف تقرير اللجنة التى شكلها وزير الثقافة، حيث قال ذلك التقرير إن عبارة «لا بد أن ربك إذن فنان فاشل» الواردة على لسان بطل الرواية هى عبارة تأتى «على سبيل الدعابة وروح الفكاهة، فى لحظة غزلية... ومن شأن الأدب فى هذه المواقف أن يتظرَّف بعبارات غير لائقة...» وإن البطل «يدين ربها هى لاربه هو ولا الذات الإلهية» وإن موقف القراء «يتوقف على مدى شعورهم بالحرج والتحفظ أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة....».

وعدم التوفيق مأتاه أن التظرف لا ينبغى له أن يتجاوز حدود المسموح دينًا وقانونًا ولياقة مع البشر أنفسهم، فكيف يجوز أن يصنع ذلك كله مع رب العالمين؟

وأن مذهب إدانة ربها هى لا ربه هو ولا رب

العالمين يقع بالتقرير من حيث لا يدرى - وأظن أن كتابه لم يريدوا - فى خطيئة الإقرار بتعدد الآلهة التى تخلصت البشرية منها منذ بعث الله رسله بالتوحيد!

وأن مسألة شعور القراء بالحرج أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة، تعود بنا إلى قصة القارئ العادى والقارئ المدرب، والقارئ السوى والقارئ المعقد، وهى حلقة مفرغة لا مهرب منها، إلا بترجيح ما تراه غالبية القراء من جمهور المثقفين العريض الذين نشر الكتاب ليصل إليهم بسعره الزهيد (أربعة جنيهات لستمائة وتسعين صفحة).

الأمر الخامس: أن الزعم بأن الرواية «تمجّد الإسلام كما لم يمجّد من قبل» زعم متهافت فارغ لا يفوقه تهافتا وفراغا إلا زعم المؤلف أنه «مجتهد». «لأن النص حمّالٌ أوجه» وهو مع «الفقه المتنور». فالأمر كله ليس محلا للاجتهاد، بل نحن أمام رواية إذا تأدبنا قلنا إنها متواضعة القيمة جدًا. وهو لا يتعرض لتفسير القرآن حتى يصح الاستشهاد بقول علىّ رضى الله عنه إنه «حمّالٌ أوجه». وليس فى المسألة فقه لا متنور ولا غيره!!

ومع أن مجمع البحوث الإسلامية قد فصل فى هذا الأمر برمته فى تقريره الصادر يوم ٢٠٠٠/٥/١٧ فإنه ليس على القارئ بأس إن وقفنا معه عند المواضع الأربعة التى قال المالئون لصاحب الرواية ومذهبه إنها تمجّد الدين.

الموضع الأول منها فى صفحة (٢٢) من الرواية، يحكى مغادرته (مهدى جواد) بيته فى العراق، حيث تمسك أخته بالقرآن (الكريم) فى يد، وبصحن من الطحين (الدقيق) فى اليد الأخرى، وتُتلى تمتمات وأدعية تؤكد شيعية الأسرة، ويأتى فى نهاية النص كلام منسوب إلى القرآن - وهو ليس بقرآن - مسبوق بقول المؤلف (لا بقول أحد أبطاله): «ويتلو همسًا» ثم الكلام المزعوم أنه قرآن.

والموضع الثانى فى الصفحات من (٨٥) إلى (٨٧) يبدأ بوصف من المؤلف - لا من بطله المتخيّل - يقول فيه إن كوكبنا المعتم «خرج من ذاكرة الخالق والخلق» وينتهى بأن البطل (مهيار الباهلى) «يرى فى ماركس أو لينين محمدا جديدًا، محمد القرن العشرين ماركس أولينين العربى، هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب». وفى النص نفسه يرى مهيار الإسلام ثورة عربية، ويصف الإسلام بأنه «تم تدجينه»!!

والموضع الثالث فى صفحة (٥٠٣) يصف المؤلف فيه ثوار حرب التحرير الجزائرية بأنهم هبطوا من الجبال المصبوغة بالدم «يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى، كل مجاهد علّق على صدره قرآنا عربيًا، كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبى». وهذا الوصف مسبوق بوصف المدينة الجزائرية بأنها «مدينة إسلامية لا ترحم، عيون من النار والفولاذ، مدينة بربرية تتمخض ببطء من رحم الصحراء.. الغتو الإسلامى المظلم يتمدد كحيوان ديناصورى يتأبّى على الانقراض»!!

والموضع الرابع يبدأ من صفحة (٦١٠) إلى صفحة (٦١٥) وهو يحكى رؤيا منامية رآها البطل من ضمنها مشهد جنائزى فيه أدعية دينية وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وثناء على الله تبارك اسمه، والمشهد (الحلم) ينتهى بأن يذكر لنا المؤلف - لا البطل - أن مهدى جواد «ما كان ميتًا، كان فى الغيبوبة التى تشبه الموت إثر سهرته قرب المرأة الحميمة». وأنها عندما سألته لماذا كان يصرخ فى نومه قال لها إن الأشباح جاءته فقاتلها، وهى سألته بخبث واستهزاء: كيف لى أن أعيش مع رجل تتقمصه الأشباح؟

ولست مرتابًا قط فى أن القارئ لن يجد فى هذه المواضع الأربعة ما وجده فيها المسرورون بالرواية من «تمجيد للإسلام»: كما أنه لن يجد مهما أعاد قراءة الرواية ذلك الحوار بين جماعتين مؤمنة وملحدة، تنتصر المؤمنة فى آخرها على الملحدة ويعلو شأن الدين، كما زعم بعض المدافعين عنها، وهو يلوم الناقدين لأنهم ينقدون نصًا لم يقرؤوه ولو قرأه هو نفسه لعلم أن بعض الناس يدلّس عليه، فينسب إلى الرواية ما ليس فيها، ليوهمه أنها تعلى من شأن القيم الصحيحة!! ثم لماذا يلام الناس إذا صدقوا قول آخرين إن النص ردئ، وهل من الضرورى أن يقرأ عشرات الآلاف أو الملايين نصا رديئًا ليصدقوا أنه ردئ!!

الأمر السادس: أن تصنيف الناس - كلما خالف بعضهم بعضا فى الرأى - بأنهم علمانيون، ملحدون، إباحيون، متغربون.. إلخ، أو وصفهم بالظلامية، السلفية، الرجعية، التخلف، الجمود.. إلخ، ذلك كله يدخل فى باب التنابز بالأسماء والألقاب، الذى يورث الضغينة ويؤجج الشحناء، ويقوى مشاعر البغضاء بين الناس، ولا يقدم حلا لأى مشكلة ولا يضع يده على سبب صحيح لها تمكن مواجهته وعلاجه، والذين يفعلون ذلك، يعطون أنفسهم سلطانا ليس لهم، وينصّبون أنفسهم حكامًا على الضمائر والقلوب والعقول، وهو ما يأبونه جميعا ويرفضونه، وهم يحولون بين أنفسهم وبين فهم الآخرين والالتقاء بهم - وإن اختلفت المشارب والطرق - فى ساحة الحوار الحرّ المحترم الذى يتبين به الحق من الباطل والرشد من الغىّ.

والذين يذهبون إلى أنه لا يجوز الحكم على العمل الأدبى إلا من المنظور الأدبى فقط، وأننا لا يجوز أن «نديّن» النظر فى العمل الأدبى، ينسون أن هذه الأمة المصرية أمة متدينة لا يقبل مسلموها ولا أقباطها فصل دينهم عن حياتهم، ولا يردون موردًا يتنافى وروده مع نواهى الدين أو يتضاد مع أوامره، وحكم «الحلال والحرام» فى كل ثقافة فى الدنيا، هو حكم دينى وليس حكما أدبيا أو فنيا. فإذا أخرجنا الدين - كما يريدون - من معايير الحكم على الفن والإبداع والأدب، فقدنا مرجعية هذا الحكم أصلا، وأبحنا لمن شاء أن يقذف فى حياتنا الثقافية بما شاء، وصارت هذه الحياة - الثقافية - فوضى لا ضابط لها، يختلط الحابل فيها بالنابل والغث بالسمين، وكفى بذلك فتنة وفسادًا. وليقرأ من شاء بيان الأزهر الشريف الذى أشرت إليه من قبل، وليقرأ من شاء خلاصة محاضرة البابا شنودة فى جامعة لندن (فى الأهرام يوم ٢٠٠٠/٥/١٢).

الأمر السابع: أن النص الذى بين أيدينا ليس وحيدا، إنه واحد من عشرات النصوص التى تنشرها الثقافة الجماهيرية أو (هيئة قصور الثقافة) متضمنة مثل هذه المقاطع التى لا يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن - أن يقبل نشرها بأموال الشعب المصرى التى تخصصها الدولة لوزارة الثقافة، وقد ذكر بعض علماء الأزهر أن هناك أكثر من ثلاثين عملاً من هذا النوع معروضة فى الأسواق صادرة عن وزارة الثقافة.

- والسؤال الطبيعى هنا هو: لماذا؟؟
- لماذا تنفق الأموال - مهما كانت قيمتها المادية - على هذه الأعمال التى تحتقر المقدسات أو تستهين بالمحرمات أو تشيع الفاحشة وتكسر الحواجز الخلقية فى نفوس الشباب - وهم غالبية قرائها - إذ هى زهيدة الثمن، كثيرة العدد، توزع فى كل بقعة من ريف مصر وحضرها؟
- ولماذا الإصرار على هذا التوجه الجامع لهذه الأعمال كلها؟

هل هناك من يريد تغيير الذوق المصرى العام من ذوق يقدر الفن الراقى الجميل، ويحترم التعبير الأدبى المحترم، إلى ذوق يقبل البذاءة، والانحطاط اللفظى، ولا يقيم وزنا لاحترام الخصوصيات والعقائد والأديان؟

- إن الذوق المصرى جزء من خصوصية ثقافتنا، وهى ثقافة راسخة الجذور عميقة التأثير لا فى مصر وحدها، بل فى العالم العربى كله، والمفكرون والنقاد والمبدعون والجمهور فى الوطن العربي كله يجمعون على أن الرقى المصرى فى أى مجال، يمتد فورًا إلى كل الأماكن فى هذا الوطن، ولا شك أن التهافت والتحلل يمتد أيضا، فهل لأحد فى ذلك مصلحة؟؟

والثقافة الجماهيرية، أو هيئة قصور الثقافة تعمل فى بلد فيه مئات القمم الثقافية فى كل مجال، نحن فى الرواية بلد نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس، ويحيى حقى، ويوسف السباعى، وعشرات الأفذاذ الآخرين، فماذا نشرت لهؤلاء؟ وهل أجرت أى استفتاء بين طلاب الجامعات - الجمهور العريض لإنتاجها الزهيد الثمن - لتعرف كم واحد منهم استطاع أن يوفر ثمن رواية مصرية عظيمة أو جيدة؟ وهل الأولى أن ينشر بالمال المصرى الإبداع المصرى أولاً ثم غيره أم لا؟ إن الإبداع العربى يجد طريقه إلى المعنيين بالتواصل الثقافى بوسائل شتى، ولايمكن أن يكون هؤلاء هم الجمهور المقصود بالنشر الرخيص ثمنه الذى تقوم به وزارة الثقافة.

وذلك كله يجعل السؤال عن أثر هذا النشر فى تغيير الذوق العام المصرى سؤالا مشروعًا، فقد دافع بعض النقاد عن رواية حيدر حيدر بأنها استعملت ألفاظًا تشيع على ألسنة العراقيين والسوريين والجزائريين، وهذا الدفاع غير صحيح، وغير مفيد فى هذه المسألة، فهو غير صحيح لأن أهل هذه البلدان - وكلنا له منهم أصدقاء - لا يصدق عليهم هذا التعميم أصلاً، والفئات التى تلك لغتها ومفرداتها فئات معينة يوجد مثلها فى كل بلاد الدنيا دون أن يجوز وصف شعب كامل بأنه هكذا يتحدث.

وهو دفاع غير مفيد - حتى لو كان صحيحا - لأننا لا يجوز أن نريد لأبنائنا وبناتنا أن يهجروا الفضيلة، ويتحولوا إلى الرذيلة، وأن يتجنبوا المشروع والجائز ليقعوا فى الممنوع والحرام، وأن تفقد ألسنتهم استقامتها وعذوبتها ورقيها، لتصبح لغتها كلها سوقية تعف عنها الآذان، وتستعصى على النطق بها الألسن.

وحين تمارس وزارة ما - فى أى دولة - عملية النشر، فلا يجوز لها أن تهمل ذلك كله وتغض الطرف عنه ولا تأبه له، مهما زين لها ذلك بعض النقاد وبعض المحترفين، وحين تختار من أدب بلدان أخرى نماذج تحقق بها التواصل الواجب فإنها يجب أن تختار ما يعد إضافة إلى رصيدها الأدبى والثقافى والفنى لا مايعد خصمًا من هذا الرصيد

الأمر الثامن: أن فتنة حيدر حيدر ووليمته أظهرت عيبًا خطيرًا فى حياتنا الثقافية وفى ممارستنا للعمل العام، أظهرت أننا فقدنا فضيلة الشجاعة الأدبية والقدرة على الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه، ونحن أمة تملك تراثًا من هاتين الفضيلتين هائلاً، فليس فى التاريخ كله عدد من العلماء قرروا فى كتبهم ودروسهم أنهم أخطأوا فى مسألة وأنهم يرجعون عنها، ولذلك حُفّظنا ونحن صغار «أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل» و«أن الحق قديم لا يبطله شىء» وأننا إن نقل «أخطأنا كما يخطئ الرجال ونصيب كما يصيبون» خير من أن نصر على الخطأ أو نستكبر عن ترك الباطل.

إن الرقابة على الإبداع والفن كلها بغيضة ، وغير جائزة . ولكنني لست مع الذين يريدون أن يكمم الأزهر فاه فلايعبر عن رأيه فيما يثور في البلاد من أحداث ثقافية تقتضى رأيا

* وقد بدا هذا العيب في الفريقين المختلفين جميعًا. فخالفا سلوكا مستقرا في البلدان المتحضرة كافة: أن المخطئ يرجع عن خطئه ويبادر إلي إعلان ذلك دون انتظار لطلب أو رجاء أو أمر، والالتزام الإسلامي يجب أن يقوى مكارم الأخلاق الفردية والجماعية والمهنية لا أن يضعفها أو ينقص منها.

* والوزارة المعنية، كان يجب أن تتبين أن الرأى العام المصرى في واد وهي في واد آخر. والوزير - بوجه خاص - مشهود له برهافة الحس ورقة المشاعر والحرص على الآخر، فكان ذلك كله يرشحه للاستمساك بفضيلة الرجوع عن الخطأ، وإعلان هذا الرجوع، ومحاسبة المسؤولين عن النشر غير المسؤول في وزارته، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك، فيحمده له الناس، أبى أن يستجيب للرأى العام، ووضع نفسه بذلك في موضع المدافع عن عمل لم يقرأه قطعًا وإلا لكان أول المعترضين علي نشره باسم وزارته.

والمستشارون الذين أشاروا على الوزير بذلك جَنَوْا عليه وعلى سياسته في وزارته، وأساؤوا ولم يحسنوا، وكفى دليلا على ذلك حديث شيخ الأزهر في صحيفة «صوت الأزهر» التي يصدرها الأزهر الشريف، يوم الجمعة ١٩/٥/٢٠٠٠.

* وأنا أقول إن الرقابة علي الإبداع والفن كلها بغيضة ، وغير جائزة . ولكنني لست مع الذين يريدون أن يكمم الأزهر فاه فلايعبر عن رأيه فيما يثور في البلاد من أحداث ثقافية تقتضي رأيا. والأزهر - بحكم قانونه - هو مصدر المرجعية الدينية للحكومة والدولة في مصر، ولايجوز له بهذه الصفة أن يمسك عن بيان ما يجب بيانه في كل شأن يتصل بالدين. وهذا شيء والرقابة علي العمل الفكري أو الفني شيء آخر.

الرقابة لا أقبلها ، والبيان أراه واجبا، إن لم يقم به الأزهر، عندما يطلبه منه ذوو الشأن، أو يحتاجه الرأي العام ، أو يقتضيه الحدث الواقع في حياتنا اليومية، فإنه يكون مقصرا أشد التقصير، وتبقي ذمته مشغولة بواجب البيان حتي يؤديه أو يؤديه من تقع به الكفاية من علمائه.

* إن الأزمة التي فجرتها تلك الرواية المتواضعة فنيا وأدبيا ستنتهي كما انتهت سوابق لها كثيرات. ولكن الفتنة التي صنعها نشرها في حياتنا الثقافية والفكرية والسياسية ليست هينة .

وأظن أننا لو أخذنا الأمور التي حاولت إيجازها في الاعتبار لتجنبنا تكرار ما عانيناه بسبب أزمة هذه الرواية.

* ولا يزال الأمر - عندى - قابلا للتصحيح، والأزمة قابلة للاحتواء، لو أن كل الأطراف تنازلوا عن كبر غير مبرر وتمثلوا بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى «ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك، أن تقضى بغيره. فإن الحق قديم لا يبطله شيء، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل».

[٧]

أين نقف إذن؟!

سؤال ووجهت به فى كل محفل ومجلس ذكرت فيه فتنة هذه الرواية وتوابعها وكنت أقول فى كل مرة، إن الأمر كله لا يستحق أن يقف الناس فيه جبهات متعارضة أو متقاتلة. نحن أمام رواية قليلة القيمة جدا، سخيفة الأسلوب، متهالكة فى بنائها اللغوى والدرامى معًا، لو تركت فاهملت ما كان أحد قد سمع عنها.

* وقد انتقدت من قبل نقدا هادئا عدة مرات، فلم يلتفت إليها (أى الرواية) أحد، ولو أن الجهة المعنية بالنشر قد استجابت لهذا النقد لكنا قد تجنبنا هذه النازلة كلها.

* ولكن الضجة الكبرى التى أثارتها مقالة تحمل شحنة غضب هائلة هى التى أحيت هذا العمل وهو رميم، وبعثت كاتبه من مرقده فى قريته النائية، فدفعت به إلى صفحات الصحف والمجلات، وإلى قنوات التليفزيون ومحطات الإذاعة!!

* لذلك كان علينا أن نقول: إننا مع الإبداع وحرية التعبير بأقصى ما يتيحه النظام العام الدينى القانونى والأخلاقى للمبدع والمعبِّر. فإذا جاوز هذه الحدود كلها أو بعضها فكل امرئ بما كسب رهين.

* والعمل الذى يتجاوز هذه الحدود، إذا عرض على الناس فهم الحكم فيه: يسقطونه بإهماله والإعراض عنه، وذلك أحسن من كل حكم بالتكفير والتفسيق ومن كل دعوة للثورة وتحريض عليها.

* وبقدر حرية التفكير والتعبيرتكون حرية الانتقاد والتذكير والتخطئة والتصويب، لاتكفل واحدة دون الأخري، وإلا كانت ثقافتنا خَلْقًا أعرج عاجزا لايعبر بنا جسرا ولايقطع واديا ولاينتهي بنا إلي مستراح!!

* والدولة التى تنفق على نشاطات مؤسساتها من مال شعبها، لا يجوز لها أن تنفقه على ما يعارض عقيدة الشعب أو أخلاقه أو أعرافه المستقرة أو عاداته المتوارثة ، فضلا عما يخالف دستورها وقانونها.

ولذلك كان اعتراضى الرئيسى على وليمة أعشاب البحر أنها نشرت للمرة السابعة بمال الشعب، وعُرِضَتْ بسعر زهيد للكافة على الرغم مما وصفْتُه - وَوَصَفَه غيرى - من شأنها، وهى لم تُضفْ، مع أعشابها، إلى حياتنا الثقافية إلا كمية ضخمة مخيفة من الطحالب التى لا يستطيع أحد أن يتكهن - صادقا - متى سنتخلص منها وكيف؟ ومتى تصفو حياتنا الثقافية مما كدرته بها تلك الأعشاب والطحالب جميعًا؟

كتاب الزاوية

ابن حزم

* ولد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فى قرطبة فى عام ٣٨٤هـ الموافق ٩٩٤م. شب فى قصر أبيه الذى استوزره المنصور، فقضى طفولة منعمة، ولم يتجه لدراسة الفقه جاداً إلا فى السادسة والعشرين من عمره، وقد شهد ابن حزم فى هذه المرحلة أفول نجم الخلافة الإسلامية، وتفجر الحرب الأهلية فى الأندلس. وقد طالت بعض آثارها بيت ابن حزم الذى كان يجاهر بحق بنى أمية فى الحكم، وهو ما كلَّفه فيما بعد، سنوات فى السجن، خرج بعدها قانعًا بأن يترك ميدان السياسة نهائيًا ويتفرغ لدراساته فى الفقه والأدب، ومن أشهر مؤلفاته «طوق الحمامة»، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي، أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة. وتوفى ابن حزم فى ٤٥٦هـ الموافق ١٠٦٣م.

من كتاب «طوق الحمامة»

١ - فى ماهية الحب

الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد. دُقَّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر فى الديانة، ولا بمحظور فى الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفُه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس، محمد بن عبدالرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه، وعن جميعهم، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها، ومثل هذا كثير، ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم - لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل.

«دور الإيمان فى الصحة النفسية» من القضايا التى تطرح نفسها فى حياة الإنسان المعاصر، فى ضوء ما تحقق من تقدم تكنولوجى، وثورة بيولوجية. وفى مجالات علوم الهندسة الوراثية، والدور الذى يلعبه الإنترنت، وما تحقق من اكتشافات طبية.. هذا التقدم العلمى الهائل، أعطى المزيد من الراحة للإنسان، ولكنه عجز عن إعطائه معنى لحياته. وثبت أن ثمة فراغًا فى حياة إنسان القرن العشرين لن يملأه إلا الإيمان.

وفى المؤتمر العالمى للجمعية العالمية للطب النفسى الذى انعقد مؤخرًا فى هامبورج، كان هذا هو موضوع المحاضرة الافتتاحية التى ألقاها الدكتور أحمد عكاشة بمناسبة انتخابه رئيسا لهذه الجمعية.. تنشرها المجلة فى إطار اهتمامها بإلقاء الضوء على رؤية الطب النفسى لدور الإيمان فى حياة الإنسان المعاصر.

«المحرر»

الإيمان والصحة النفسية

هل يلعب الدين دورا فى حياة الإنسان المعاصر؟

أحمد عكاشه

أعلن الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه فى عام ١٨٨٢، أن الله قد مات. وتصور نيتشه أن مجنونا يجوب الشوارع باحثا بجدية عن الله، فانبرى المارة يسألونه ساخرين: أين ذهب الله؟ ويجيب المجنون على سؤال الناس: «نحن قتلناه، أنتم وأنا، نحن القتلة». ويقال إنه منذ هذا الوقت فقد الأوروبيون التوجه الأساسى للحياة وكأنهم فى انتظار الفراغ أو العبث اللانهائى. وأصبح الأوروبيون يعدون الدين ستارا لإخفاء النفاق الجنسى، وقوة تدعم العنصرية، من أيرلندا إلى البلقان، ولكن هذا لا ينفى الالتزام بالدين والإيمان لدى كثير من الناس. ويؤكد الخبراء أن العلمانية وصلت إلى قمتها فى الثمانينيات. وطبقا لإحصائيات معهد تورينو لدراسة الأديان يؤمن ٩٠٪ من الأوروبيين بوجود الله، وهى نسبة تزيد ٢٠٪ عن العقد السابق. أما الشباب الأوروبى، فقد ابتدع إيمان الخلط المناسب Mix and Match، وأصبح يشكل الالتزامات الأخلاقية على هواه. وغدت البلاد الأوروبية التى كانت ملاذا للمسيحية تمر بزمن الإيمان بالله ولكن دون انتماء للدين. وتدل الإحصائيات الأخيرة أن ٣ ـ ٤ ٪ فقط من سكان باريس ترددوا بانتظام على الكنيسة عام ١٩٩٨، وأن ٨٩٪ من البريطانيين لم يترددوا على الكنيسة بانتظام عام ١٩٩٥، وارتفعت النسبة فى ١٩٩٩ إلى ٩٩٪ لم يترددوا على الكنيسة الإنجيلية، وعلى حين ينتمى ٨٥٪ من سكان السويد للكنيسة السويدية، فإن ٥٠٪ منهم لا يؤمنون بالعالم الآخر. ويعتقد الأوروبيون المعاصرون أن الدولة المتحضرة قد تولت دور وأهداف الدين، فبعد الحرب العالمية الثانية وانتشار الرعاية الاجتماعية والصحية، وظهور مجتمع الرفاهية، وخدمة الفرد تقلص دور الكنيسة وما كانت تؤديه من أعمال الخير. ويقول أحد الفلاسفة الأوروبيين: إن دور الدولة المعاصرة فى رعاية القيم والأخلاقيات الإنسانية والخدمات التى تقدمها جعلت الحصول على هذه الخدمات من خلال الكنيسة عبثا. وتقول إحدى الأوروبيات الشابات: «أنا لا أفكر فى الله إلا عند زيارة إحدى الكنائس الجميلة فى إيطاليا، أو عندما أشاهد فى التليفزيون ما يحدث فى كوسوفو أو البوسنة أو رواندا، وأعتقد أن معظم أصدقائى يفكرون بنفس الطريقة. ولكنى أشعر أنى أفتقد شيئا ما كما أحس بخواء داخلى، وأنا على يقين بأن إيمانى بالله سيمنحنى الكثير من القوة والاطمئنان، وإنى لألمس هذه الطمأنينة بوضوح عندما أتطلع إلى جدتى!

ولا نستطيع أن نغفل أن الحياة السياسية فى العالم تتأثر بالدين سواء إلى الأفضل أو الأسوأ، فقد نجحت الثورة الإيرانية بفضل عودة نشاط الدعوة الإسلامية، وكذلك نجحت أفغانستان فى طرد الروس من خلال الدعوة الإسلامية، ونرى الآن ما يحدث فى كوسوفو والبوسنة والشيشان وداغستان. كما حاول اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة العودة إلى استغلال الدين، وكذلك متطرفو الصهيونية فى إسرائيل، ولا توجد حكومة فى العالم الآن تستطيع تجاهل الدين، وخير مثال لتأثير التطرف الدينى هو اغتيال السادات فى مصر ورابين فى إسرائيل.

ويعتبر التطرف الدينى محاولة يائسة لعودة الإيمان بالله، فهؤلاء يؤمنون بأن المجتمعات الحديثة تحاول وأد الدين والإيمان ومن ثم ينبغى التخلص منهم، والمتطرفون فى الأديان السماوية (الإسلام، والمسيحية، واليهودية) مقتنعون بأن مجتمعاتهم العلمانية تحاول إبادتهم ومن ثم يجب عليهم الصمود واللجوء إلى الإرهاب.

وللأسف الشديد فإن النجاح العلمى، والعلمانية المنطقية أعطت انطباعا بأن هذا هو الطريق الصواب وبدءوا يعتقدون بأن الله حقيقة موضوعية مثلها مثل الذرة، فإذا لم تثبت النتائج العلمية وجوده يحق لنا أن نفقد الإيمان، ومن هنا أدى عدم اكتراثنا بطمأنينة الإيمان والسلام الداخلى إلى فقدان هذا الإحساس الربانى.

وقد خلق الإنسان تحدوه رغبة ملحة فى التأمل المتسامى والإحساس بعظمة الخالق وأن الحياة لها قيمتها ومعناها وأنه بدون ذلك كله يصبح الإنسان كالحيوان.

إن إهمال الروحانيات والإيمان بالدين والحب والسلام قد كبدت أوروبا أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ما لا يقل عن ٧٠ مليون نسمة وذلك لصراعات سياسية. ولذا يجب الاجتهاد المستمر فى فقه الأديان السماوية حتى تواكب التغيرات العلمية والتكنولوجية، لأنه من الاستحالة اتباع الفقه الحالى على غرار فقه الأسلاف، فالعالم قد تغير، وإن لم تواكب الأديان السماوية هذه التغيرات بفكر جديد وسماحة مرنة، فستفقد هذه الأديان كثيرا من أتباعها، وستعم العلمانية التى قد تؤدى إلى هلاك الإنسان.

ولاشك أن تغيير مفاهيم الأديان السماوية مع المتغيرات الثقافية والعلمية إنقاذ للبشر من هلاك الكفر والإلحاد. ويخلط العامة بين الروحانيات والدين، فالدين هو ممارسة الطقوس الخاصة بروحانيات العقيدة من قيم وأخلاقيات ومسلك، وتعرف منظمة الصحة العالمية الصحة بأنها ليست غياب المرض أوالعجز، وإنما هى التمتع بجودة الحياة الجسدية والاجتماعية والنفسية، وقد أراد البعض إضافة البعد الروحى ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل حتى الآن، ولو أنى أعتقد (أنها لو أضيفت) فستضيف بعدا هاما فى صحة الإنسان.

وقد كشفت الأبحاث المختلفة فى أوروبا والولايات المتحدة أن الأطباء النفسيين أقل إيمانا من باقى جموع الشعب وأنهم أقل تفكيرًا فى النواحى الروحية والدينية من آبائهم، بينما يظهر العكس فى البلاد الإسلامية. حيث تبين أن الأطباء النفسيين أكثر تدينا من جموع الشعب ولا يختلفون عن آبائهم فى عمق إيمانهم.

ويعود الاختلاف إلى أن الغرب يتبنى نظرية التحليل النفسى لفرويد الذى اتخذ موقفًا خاصًا من الدين، وأن الإيمان بالله يسبب الشعور بالذنب والاتكالية والاعتمادية الضارة ببناء الشخصية. ومن المؤسف أن العاملين بحقل الصحة النفسية يخلطون بين الدجل والخرافات والتطرف وعدم التسامح وبين الدين والإيمان، مما جعل البعض يصف هذا الموقف فى الطب النفسى بـ «كبت الدين». ومن هنا وجب علينا أن نفرق بين الضلال وهو اعتقاد خاطئ مرضى غير قابل للمنطق أو المناقشة. وقد يكون فى هيئة شعور بالعظمة كأن يكون رسولا أو نبيا أو مخترعا، أو فى هيئة شعور بالاضطهاد وأن أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية تراقبه.. أما الفكرة المسيطرة فقد يتبين للفرد أنها فكرة سخيفة ويحاول مقاومتها ولكنها تسيطر عليه.. أما الإيمان الدينى وهو إحساس داخلى ليست له علاقة بالأفكار الضلالية أو القهرية.

ونظرًا للعلاقة الوثيقة بين درجة الإيمان والصحة النفسية، زاد الاهتمام حديثا بالبحوث الدينية والروحية كأحد معدلات العلاج النفسى، والانتحار، والإدمان، والطب الإكلينيكى، وأعنى أن الإيمان له دور متزايد فى تخفيض حدة الألم وتحسين احتمالات الشفاء فى الظواهر السابقة.

إن أهمية المعدل الدينى فى الفحص النفسى يفتقر إلى الاختبارات المقننة لقياس درجة الإيمان أوالتدين، ونحتاج لمثل هذه الاختبارات حتى يكون مقياسنا صادقا وثابتا. وعند استرجاع كل ما نشر فى المجلات النفسية العالمية لمدة ١٢ عاما، وجد أن ٩٢٪ من المترددين على أماكن العبادة، ويؤدون الصلاة بانتظام، ويشاركون فى الطقوس الدينية كان له أثر واضح فى صحتهم النفسية، وكذلك وجدنا فى أبحاثنا فى مصر والبلاد العربية أن التردد على المسجد أو الكنيسة أحد عوامل الحماية ضد التعرض للاكتئاب. فيجب ألا نكتفى بسؤال المريض هل هو متدين ويؤدى الفروض أم لا، ولكن نؤكد: ماذا تعنى العقيدة والدين له؟

لقد آن الأوان ـ ونحن فى مشارف قرن جديد ـ لتغيير فكرة الطب النفسى عن الإيمان وأن يكون أحد المعدلات الهامة لقياس الصحة النفسية، وإذا استعرضنا ٣٧٧٧ مقالا فى الطب النفسى منشورة فى أكبر أربع مجلات عالمية متخصصة، لوجدنا أن ثلاثة فقط من هذه المقالات ذكرت البعد الدينى.

وقد اتخذ التصنيف الأمريكى الرابع للأمراض النفسية موقفا جادا هادفا، إذ أضاف فصلا كاملا عن المشاكل الروحية والدينية علاوة على الفصل الخاص بالاختلافات الحضارية فى الطب النفسى.

إن الفشل فى احتواء الإيمان فى تفكير الطب النفسى سيؤدى إلى ابتعاد هذا التخصص عن تجارب الحياة والفرد اليومية، كما أن المقولة بأن الدين هو أفيون الشعوب هى مقولة غير سليمة ويشوبها كثير من شطحات السلوك السياسى المعوج، فكل الأديان تدعو إلى العمل والثراء والخير ولكن يجب أن يكون للضعيف والمريض الذى لم يؤهله ذكاؤه المتواضع للنجاح الفرصة لتلقى الخير وللأمل فى العالم الآخر، والحق أن العالم يجتاز حالة من الحيرة بسبب المجتمع الاستهلاكى واقتناص اللذة الفورية والإشباع المادى. وإذا نظرنا إلى العقائد المختلفة، فسنجد إجماعا على أن الإشباع المادى ليس هو هدف الحياة.

فالهندوكية تقول: «عندما تمتلك كنز القناعة فأنت تملك كل شىء».

وفى الإسلام: «إنه لمن الصعب لمن يمتلك الكثير أن يتسلق طريق الرضا، وأن الغنى غنى النفس ورضاء العقل لا وفرة الملذات».

وفى الطاوية: «الغنى هو من يعرف أنه يملك ما يكفيه».

وفى المسيحية: «حياة الإنسان لا تعنى وفرة ممتلكاته».

وفى الكونفوشية: «تتساوى الوفرة والافتقار فى الخطأ».

وفى البوذية: «إن التعطش للثراء يؤدى بالإنسان الغنى إلى تحطيم ذاته وكأنه عدو نفسه».

ونحمد الله على أن الدين فى عالمنا العربى هو نسيج حياتنا بغض النظر عن نوعية الدين أو ممارسة الطقوس الدينية أو إهمالها. وتتشكل شخصية الإنسان المصرى أو العربى سواء فى المنزل أو المدرسة أو المجتمع من خلال هذا النسيج الدينى، ولذا فتأثير الإيمان وممارسة الدين فى مجتمعنا له علاقة واضحة بالصحة النفسية.

إن للإيمان والتدين جانبا إيجابيا من ناحية قبول الإنسان لذاته ضعفا وقوة «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه»، وكذلك التوكل على الله لا الاتكال والنكوص عن بذل الجهد الكافى، وكذلك امتداد الوعى بالغيبيات والتأمل المتسامى الذى يكفل الطمأنينة. وللأسف فإن الدين قد يستغل أحيانا لأسباب سياسية وعنصرية كالتعصب والتطرف والتطهير العرقى والإرهاب جنبا إلى جنب مع عمليات دفاعية لاشعورية مثل الإسقاط وتناقض المشاعر والإنكار... الخ.

وإذا نظرنا إلى اللغة الهندية، نجد أنه لا توجد كلمة مرادفة لكلمة الدين.. وأقرب المعانى هو «الدارما» وهو مزيج من النظام الكونى، القوانين المقدسة والواجبات الدينية، ففى الأديان السماوية يوجد إله واحد وكتاب واحد، ونبى أخير، على حين تسيطر الفلسفة والأساطير فى الهندوكية والبوذية.

ولا عجب أن نجد المسلمين فى كل مكان يتعجبون ويتهامسون ولا يستطيعون إدراك التسيب الخلقى فى المجتمعات الغربية وانتشار ظواهر مثل الشذوذ الجنسى دون أدنى شعور بالذنب مما جعلهم يؤمنون عن اقتناع أنه ولو أن الغرب قد انتصر اقتصاديا وسياسيا على الشرق إلا أنه غرق فى بحر من الظلمات والآثام والتحلل الخلقى.

إن الاختزال العلمى للحياة أصبح غير ذى جدوى حيث أصبح الالتصاق واضحا بين الثقافات الروحية والعلمية خاصة بعد التطور الجديد فى نظرية الفوضى وفيزياء الكم «Chaos theory and Quantum Physics». إن وظيفة الصحة النفسية هى خلق التناسق والتآزر بين الفرد وذاته وبين الفرد والآخرين. والصحة النفسية لا تعيش بمنأى عن الصحة الجسدية ولا تستطيع أن تجد صحة جسدية دون نفسية أو صحة نفسية دون جسدية، وكأنما الصحة سراب لا يرى، فهى موجودة دائما حتى فى غياب المرض تماما مثل وجود السماء بالرغم من اختفائها تحت السحاب، فالطب الذى يعتمد على العلم فقط دون أساس روحى عبارة عن طب ميكانيكى غير إنسانى، وتعنى كلمة الروحانية نظاما يؤكد وجود دافع غير مادى لا تدركه الأحاسيس البشرية أو أى فلسفة تؤمن بخلود الروح.

ويلعب الإيمان دورا هاما فى تكوين الأعراض النفسية بل وأيضا فى العلاج، فالأعراض تختلف حسب النشأة الدينية، وفى أحد أبحاثنا عن مرض الوسواس القهرى، وجدنا أن ٦٠٪ من الأعراض له علاقة بالدين سواء فى أعراض الوسوسة فى الوضوء، الصلاة، الحلال، الحرام، النجاسة، الطهارة، بل وأحيانا ما تكون الأفكار الوسواسية فى هيئة العيب فى الذات الإلهية، ويتميز مرض الوسواس بأن المريض يكون على يقين بلا معقولية هذا السلوك وهذه الأفكار. والطريف أن اللغة العربية هى الوحيدة التى تجمع بين الشيطان «الوسواس الخناس» وبين مرض «الوسواس القهرى». ولذلك يخلط المرضى بين المرض والشيطان فى المتكلمين بالعربية. حتى المحتوى للضلالات أو الاعتقادات الخاطئة فى المريض العقلى يتبع نفس النشأة الدينية. فيعتقد المريض خطأ أنه المهدى المنتظر أو أن عليه رسالة سماوية أو أنه قد نزل عليه الوحى بأفكار معينة. بل إذا نظرنا للاضطرابات الانشقاقية وازدواج الشخصية فعادة ما يؤول ذلك إلى اللبس أو المس بواسطة الجن أو الأسياد، وهنا نستطيع القول أنه من الاستحالة علاج حالة نفسية دون معرفة الثقافة والحضارة والنشأة التى يتبعها المريض النفسى وتأثير الدين فى المجتمع المصرى والعربى تأثيرا واضحا. وإذا أردنا النجاح فى تنظيم النسل أو مكافحة الإدمان أو زيادة الوعى بالمرض النفسى فعلينا الارتفاع بوعى رجال الدين بهذه المشاكل لأن المواطن المصرى شديد التأثر بالناحية الدينية.

وتوجد فروق كبيرة بين المجتمعات المحافظة التقليدية والمجتمعات الغربية، فمثلا يعتمد المجتمع الأوروبى على أن الفرد له استقلاله الذاتى ولا يهتم إلا بالأسرة الصغيرة أى الزوجة والأولاد وأن مستواه الاجتماعى يعتمد على أدائه الفردى، أما المجتمعات التقليدية مثل المجتمع العربى أو اليابانى أو الهندى فالأساس عنده هو الأسرة والمجتمع وليس الفرد، والاهتمام يشمل العائلة كلها أى أنه مجتمع يتمركز حول المجموع وليس حول الفرد.

إن المجتمع الإسلامى على يقين أن المرض وشفاءه هو بإرادة الله، ولذا كان قبول المحن والمآسى والمرض جزءا من الإيمان. ومن النادر أن يؤول المريض فى هذه المجتمعات أسباب المرض والوفاة إلى فشل الطب بل هى إرادة الله، ويختلف ذلك تماما عن المجتمعات الغربية التى تؤمن بأن كل الأمراض والشفاء بيد الإنسان دون تدخل من الله، ويجب أن نفرق هنا بين التوكل على الله عند المؤمن والاتكالية التى هى كسل لا يبيحه الإيمان. وقد قمنا بعمل بعض الأبحاث الانتشارية للمرض النفسى، ووجد أن حوالى ٧٠٪ من المرضى النفسيين يترددون على العلاجات الشعبية وشبه الدينية قبل اللجوء إلى الطبيب ولا ننسى أن الرعاية فى القرى والمراكز وبعض المدن تتحقق من خلال زيارة المشايخ وعمل الحجاب والقراءات الدينية وعمل الزار... الخ وذلك لانخفاض ثقافة المواطن بالصحة النفسية.

وللأسف فإن الكثيرين حتى الآن يؤولون المرض النفسى خطأ بأنه نتيجة قلة الإيمان وضعف الشخصية وعدم التمسك بأهداب الدين والكسل أو الجنون. ولا يعرفون الطفرة التى حدثت فى الطب النفسى، وأن كل الأمراض النفسية ما هى إلا تغيرات كيميائية وفسيولوجية فى المخ، وأحيانا حتى فى نسيج المخ، وإنه لا يمكن الشفاء إلا بإعادة التوازن لكيمياء المخ.

ومن المعتقدات الخاطئة عن الدين أن ثمة علاقة بين الإنسان والجن، وأن المجنون هو من مسه الجن، وإذا رجعنا إلى اللغة العربية لوجدنا أن كلمة «جن» تعنى اختفى أو استتر. فالجن أحد مخلوقات الله الخفية التى لا يراها أو يسمعها أو يتزاوج معها أو يتكلم أو يتقارب منها الإنسان وإلا خالف المعنى القرآنى لأن كثيرا من المرضى عندما يذكر الجن سرعان ما يتطوعون بالقول أنه ذكر فى القرآن ولكنه سوء التأويل على أيديهم. وكذلك اشتق من كلمة جن كلمة الجنين أى ستار حوله أى الرحم. وقد ذكرت كلمة المجنون فى القرآن خمس مرات وصفا للأنبياء وكيف استقبلهم العامة عند قيامهم بإرشادهم ودعوتهم للأديان السماوية، أى أن لفظ مجنون فى القرآن يعنى من يخالف المجتمع وليس بالمريض العقلى. وأريد أن أؤكد هنا أنه لا يوجد تشخيص فى قاموس الطب النفسى يسمى بالمجنون بل يوجد المرض النفسى أو العصابى والمرض العقلى أو الذهانى. ولكن أسئ استخدام لفظ المجنون بواسطة الإعلام وحتى الأطباء لوصف كل الأمراض النفسية.

وأعتقد أن الإيمان يلعب دورا هاما فى تغيير كيميائية المخ من مهدئات ومطمئنات وأفيونات مما يعطى الطمأنينة والسلام والأمل، ويخفف من حدة الآلام النفسية والجسدية. ونتعجب عندما نعلم أنه توجد عقاقير ربانية لم نكتشف وجودها بالمخ إلا بعد سنوات من اكتشاف مرادفها. فقد تم اكتشاف المورفين والهيروين والكودايين قبل أن نعرف أن الله قد خلق مستقبلات أفيونية فى المخ تفرز الأفيون الداخلى لتخفيف الألم. اكتشفنا الفاليون كعقار مهدئ، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات الجابا بالمخ التى تفرز موصلات عصبية مهدئة ومطمئنة. واكتشفنا عقاقير للاكتئاب، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات السيروتونين المسئولة عن المزاج، وأخيرا اكتشف العلماء مستقبلات مخية شبيهة بالحشيش، أى أن عظمة الله سبحانه تتجلى فى خلق كل هذه المطمئنات والأفيونات لكى يخفف من آلام الإنسان. فالكلمة الطيبة تزيد من مهدئات المخ، والحب الصادق يزيد من مطمئنات المخ، والعمل الصالح يرفع من نسبة هذه المواد، بل ثبت أخيرا أن الغضب والقلق والاكتئاب يقلل من عمل جهاز المناعة ويجعل الإنسان عرضة لأمراض المناعة من الروماتيزم والسكر وأمراض الشريان التاجى وجلطة القلب وسكتة المخ. كما أن الحالة النفسية لها علاقة واضحة بكل أجهزة الجسم.

لقد تقدم العلم، وتطورت التكنولوجيا وأصبح الإنسان ينعم برفاهية مادية استهلاكية ولكن هذا لم يمنع الاغتراب والاكتئاب واليأس، وإذا بنا نعيش فى متاهة حياتية وفراغ نفسى وإيمان بعبثية الحياة وعدم وجود معنى لها.

إن العودة إلى الإيمان هى الملاذ الأمثل للصحة النفسية، والصحة النفسية هى إسباغ الجودة على الحياة. إن طول الحياة دون جودتها هو مغنم أجوف. ولن يتمتع الإنسان المعاصر بالصحة النفسية إلا إذا عاد للإيمان، وأعنى بالإيمان كل العقائد التى تحض على الفضيلة والتضحية والتمركز حول الآخرين والابتعاد عن التمركز حول الذات. ■

يعتقد الأوروبيون المعاصرون أن الدولة المتحضرة قد تولت دور وأهداف الدين، فبعد الحرب العالمية الثانية وانتشار الرعاية الاجتماعية والصحية، وظهور مجتمع الرفاهية، وخدمة الفرد تقلص دور الكنيسة وما كانت تؤديه من أعمال الخير

يعتبر التطرف الدينى محاولة يائسة لعودة الإيمان بالله، فهؤلاء يؤمنون بأن المجتمعات الحديثة تحاول وأد الدين والإيمان ومن ثم ينبغى التخلص منهم، والمتطرفون فى الأديان السماوية (الإسلام، والمسيحية، واليهودية) مقتنعون بأن مجتمعاتهم العلمانية تحاول إبادتهم ومن ثم يجب عليهم الصمود واللجوء إلى الإرهاب

فى أحد أبحاثنا عن مرض الوسواس القهرى وجدنا أن ٦٠٪ من الأعراض له علاقة بالدين سواء فى أعراض الوسوسة فى الوضوء، الصلاة، الحلال، الحرام، النجاسة، الطهارة، بل وأحيانا ما تكون الأفكار الوسواسية فى هيئة العيب فى الذات الإلهية

وردة حمــــــــــراء

طال انتظارى للربيع يرجع
والجو يدفا والزهور تطلع
عاد الربيع عارم عرمرم شباب
إيه اللى خلانى ابتديت أفزع؟

نعم ياتى الربيع وياتى أبريل آخر وتزحف يدى هذه المرة بطقوس التذكر إلى رفوف الكتب، لتتلمس رباعيات جاهين وأغانيه وانغامه السبتمبرية وأيضا قصاقيص ورقه.. وتقول لوجوهه الكاريكاتيرية على الأغلفة.. «وحشتنا نظرة عيونك وبسمة الود فيها».. وحشتنا ياجاهين.. يا عصفور كان يزقزق لينا من جوه قلب الهم!.. بس أمر الله لابد يكون، وإن كان الفراق صعب وإنت عارف إننا «شعب قلبه حنون».. لن أنسى هذا اليوم أبدا، يومها كنت فى لندن أتطلع بفرحة لشراء الجرائد المصرية لسحق الغربة جوايا باى أخبار عن مصر.. أيامها لم تكن هناك قنوات فضائية، وكانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة أى شىء عن مصر هى الذهاب إلى العاصمة البريطانية، حيث تباع الصحف الأجنبية..

كنت أمشى فى شوارع لندن وأنا «متفلحسة».. أبحث عن أكشاك الجرائد المصرية

ايديا فى جيوبى وقلبى طرب
سارح فى غربة بس مش مغترب
وحدى لكين ونسان وماشى كده
بابتعد ماعرفش.. أو باقترب!

لم أكن أدرى أن أول خبر سيطالعنى فى الجريدة هو رحيله عن دنيانا، وأن بموته «تيتم» الشعر المصرى بالثلث.. بعد موت بيرم وفؤاد حداد..

وبالرغم من عشقى لبيرم وحبى الشديد لفؤاد حداد.. إلا أنك أنت يا صلاح كنت حاجة تانية.. لك مكانك فى قلب كل مصرى ولو اختلفت عليك الآراء.. لم أقابل أحدا لا يتبارى فى التعبير عن حبه لك، ولا أعتقد أننى يوما سأقابل واحدا لم يحبك.. بل إننى أشعر أحيانا أننا نتنازع عليك.. مين فينا بيحبك أكثر، وكان هذا الحب يجعلنا أفضل أو أحلى.. كما لو كانت آذاننا لا تسمع غير غنوتك.. «حلوين قوى كده وحياة ربى.. ياحبايبى باقولها من قلبى». نعم كنت ياجاهين بالفعل أحلى ما فينا.. وجعلتنا نرى أنفسنا «بمبى.. بمبى..بمبى».. يومها «سالت دموعى مطر».. وأنا الطبيب.. لكن «ازاى أنا ما أبكيش لحظة فراق الحبيب»..

آه يا صلاح.. «عرفنا نحسب شعاع الشمس بالخطوة، لكن أوان الوداع ماعملنلوش حسابات»!

وفى وسط بحر الدموع سمعتك بتقول.. «هى الحياة كده.. كلها فى الفاشوش».

بين موت وموت.. بين النيران والنيران
عالجبل ماشيين الشجاع والجبان
عجبى على ده حياه.. ويا للعجب
إزاى أنا ـ يا تخين ـ بقيت بهلوان!

وشفت ملامحك جوه نن عيونى بتضحك.. ضحكة تقدر تمسح كل دموع البشر وصوتك يقول.. «أجمل ما فيها العشق والمعشقة..

وشويتين الضحك والتريقة».

آه يا جاهين.. هل قدرت وحدك أن تكشف سر الكون وتعرف فعلا أن الضحكة هى أصل الوجود!

هذه الضحكة الأسطورية التى كانت سببا فى أول حزن وأول فراق.. فراق السماء عن حبيبتها الأرض..

ضحك «رع» كما تحكى لنا الأسطورة.. ضحكة لم تكن عادية، بل كانت «مقهقهة».. جعلت الهواء «شو» يخرج من فمه ليفصل السماء «نوت» عن الأرض «جب»، ثم يبكى «رع» فتكون دموعه .. ندى ومطر.. هم أطفال السماء.. هم البشر.. من جاءوا دمعا بالرغم من أنهم نتاج الضحك!

هل يا ترى لهذا السبب نقول على أنفسنا نحن المصريين أننا «ولاد نكتة» وهل لهذا السبب نفسه كان جاهين «الضاحك الباكى» بالنسبة لنا مصريا جدا!

منين أجيب مقص مجنون زيى ـ بس نص نص

وأجيب ورق وأفضل أقص أقص أقص
أفضل أقص ورد من على كل لون
لحد ما عمل عندى حبه كثير كثير
وأركب لى نسمة وأطير أطير..
واللى فى جنازته فى التابوت يفوت يبص
يلاقى عالم.. كله كله زينة عيد ميلاد!

ولنعود مرة أخرى إلى أسطورة البدء التى يتعانق فيها الضحك مع الدموع لنرى فيها جانبا آخر، ألا وهو ارتباط الجبروت والقسوة بالحنان والرحمة فى شخص «رع»، والذى يبدو لنا ظاهرا بوضوح فى حكايا أسطورية أخرى.. ومنها تلك الأسطورة التى تعرف «بنهاية البشر»، حيث يقال إن رع غضب مرة على البشر: لأنهم لا يسمعون كلامه، ويهزأون به، فأراد أن ينتقم منهم جميعا، واستعان «بسخمت»[1] فهو يعرف مدى حبها للانتقام وتعطشها للدماء.. حكى رع لسخمت عن خيبة أمله فى البشر، ووعدته بأنها ستقضى عليهم جميعا فى فجر اليوم التالى..

والطريف أن جاهين نفسه لم يغفل هذه الأسطورة فى شعره.. فنراه يقول:

«يوم رع ما فات بسناه فى السما
وكل العيون خايفه تنظر إليه
وجاله القمر خلقته معتمه
وعدى قصاده.. وضلم عليه
يا ويل اللى فتح فى أبويا العظيم..
يا ويل من تطاول.. ياويل من ضحك»!

ولكن الأسطورة تقول لنا أن رع غير رأيه، فبعد ما نوى الانتقام من البشر، فكر فى الأمر، وكره منظر الدماء فى مخيلته وبدأ قلبه الرحيم يلين.. ولكن ماذا يفعل ليمنع سخمت من تنفيذ ما نوت عليه، وساعات الليل تجرى وسيحين الفجر بعد قليل.. لم يكن من رع إلا أن اتصل بكهنته فى هليوبوليس وأمرهم أن يرشوا الأراضى المصرية بنبيذ أحمر قبل شروق الشمس، وتقول الأسطورة أنهم استخدموا سبعة آلاف برميل من النبيذ الأحمر لينفذوا تعاليم رع!

وعندما استيقظت سخمت من نومها وجدت الأرض وكأنها مكسوة بالدماء بفعل هذا النبيذ.. فلم تاخذ وقتا لتتبين الأمر، بل أخذت تشرب وتشرب ظنا منها أنها دماء، حتى فقدت وعيها من كثرة النبيذ الذى شربته، وضحك رع ثانيا فلقد أنقذ البشر..

من ضحكة رع الأولى، جاء البشر وبنكتة رع أيضا عاش البشر!

ولا تنتهى رمزية الأسطورة المصرية عند هذا الحد، بل تحكى لنا حدوتة أخرى عن «إيزيس ورع».. تلعب الدعابة فيها الدور الأساسى وتعتبر هى الأخرى نكتة ولكنها نكتة عميقة جدا..

إيزيس.. ابنة «نوت» و«جب» وحفيدة «رع».. أخذت تلعب لعبة شقية مع جدها رع، وتمكر عليه مكرا ضاحكا حتى تعرف منه اسمه الحقيقى، والرمزية هنا تكمن فى الأسرار التى يخفيها هذا الاسم، فهو ليس أى اسم إنه اسم رع نفسه، الذى يدل على كل المعرفة التى تخفى عن البشر، وتريد إيزيس أن تعرفها باستخدام أدوات الدعابة والضحك.. هل من الممكن يا ترى أن تكون الضحكة الوسيلة للمعرفة وهل الكوميديا بالفعل هى المسرح الحقيقى للحكمة؟

هذا هو السؤال الذى حاول الإجابة عنه المفكر الإيطالى الرائع «أومبيرتو أيكو» فى «اسم الوردة».. تعرفت على أمبيرتو أيكو لأول مرة فى عام ١٩٨٦.. نفس العام الذى مات فيه جاهين!

وأحببت عقله كثيرا بعدما قرأت له «اسم الوردة» التى ترجمت فى ذلك الوقت من الإيطالية إلى الإنجليزية..

أومبيرتو أيكو ليس روائيا و«اسم الوردة» هى قصته الأولى، ومع ذلك لاقت نجاحا منقطع النظير، لدرجة أنها ترجمت لأكثر لغات العالم.. وتحولت أيضا إلى فيلم سينمائى يحمل نفس الاسم قام ببطولته شون كونرى..

تتخفى هذه القصة الذهنية جدا فى رداء بوليسى مثير، وتدور أحداثها فى دير من الأديرة البنديكتية[2] فى إيطاليا فى العصور الوسطى، حيث ترتكب سلسلة من جرائم قتل،

طرزان صرخ قال عاعاه
صرخت أنا كمان وراه
ولما قال لشيتا يا أمه زغرطى
وحط رجله ع التعيس فوق التراب
حطيت معاه رجلى بدون جزمه وشراب
ولمحت بعيون الخيال بدل الأسد
محمود أفندى حسين.. مدرس الحساب!

عبثا باقول وأقرا فى سورة عبس
ماتلومش حد إن ابتسم أو عبس
فى ناس تقول الهزل يطلع جد
وناس تقول الجد يطلع عبث..

يروح ضحيتها عدد من الرهبان المقيمين فى الدير.. ويأتى إلى الدير الراهب الإنجليزى المثقف «ويليام» الذى ينتمى لمذهب الفرانسيسكان[٣]، ليستكشف السر وراء هذه الجرائم المحيرة..

ويبدأ فى التوصل إلى أول خيوط هذا اللغز، عندما يجد موانع كثيرة تحول بينه وبين التجول بحرية فى مكتبة الدير الغنية بكنوز معرفية ترجع لعصور الإغريق والرومان والعرب من أمثال ابن سينا والرازى وابن رشد.. ولكن أوامر الدير تمنع الرهبان من قراءتها أو حتى الاقتراب منها.. فهم يقرأون فقط ما يوصى به الراهب الأكبر (رئيس الدير) ويسمح به أمين المكتبة..

وتدور حوارات عدة بين ويليام والراهب الأكبر وأمين المكتبة.. تبدأ بنقاش أول حالة قتل وهى لراهب صغير كان يحلو له أن يزين هوامش الكتب المقدسة بصور منمنمة لبعض الحيوانات التى تبدو أحيانا فى مواقف إنسانية ساخرة.. يشعر ويليام أن هناك شبه إجماع بأن ما فعله هذا الراهب يعتبر خروجا عن نصوص العقيدة وتعاليمها، فهو لا يستخدم الصورة فقط، بل يستخدمها بشكل كاريكاتيرى ضاحك..

ومن هنا يبدأ الجدل حول فن الإضحاك وعلاقة الهزل بالجد.. وكيف تعتبر هذه المداخلات الهزلية نوعا من التطاول على الكلمة المقدسة، والتى من وجهة نظرهم لا يمكن معرفتها إلا فى إطار من الجدية الخالصة.. وبدا من الحوار أن هناك قناعة بأن هذا الراهب قد خرج بالفعل عن تعاليم دينه، ولهذا استحق موتته..

عبثا باقول وأقرا فى سورة عبس
ماتلومش حد إن ابتسم أو عبس
فى ناس تقول الهزل يطلع جد
وناس تقول الجد يطلع عبث..

ووجدتنى وأنا أقرأ الحديث عن هذا الراهب أتذكر كيف استخدم المصريون فى الزمن القديم صور الحيوانات الكاريكاتيرية[٤]، وفيها تقوم الحيوانات بأفعال بشرية كنوع من تخفيف جرعة الحياة الجادة ببعض من الهزل، وكيف استطاعوا أن يستخدموا هذا الأسلوب بحرية شديدة فى تعاملهم مع الساسة والحكام، وأحيانا فى أكثر الأمور جدية.. ألم يصل الأمر إلى رع نفسه ومع ذلك عفا عنهم!

ولاشك أن هذا يذكرنا بلغة جاهين الساخرة من خلال فنه الكاريكاتيرى الذى فجر من خلاله أصالة مصريته وترجم فلسفة هذا الشعب الأزلية فى فن التعامل مع الظلم، وكيف طوع السخرية أداة للتمرد عندما يختزل ثورة بأكملها فى خطوط كاريكاتيرية أو فى مجرد نكتة..

وتعالوا نرى كيف رسم جاهين السخرية بمفردات الشعر:

طرزان صرخ قال عاعاد
صرخت أنا كمان وراه
ولما قال لشيتا يا أمه زغرطى
وحط رجله ع التعيس فوق التراب
حطيت معاه رجلى بدون جزمه وشراب
ولمحت بعيون الخيال بدل الأسد
محمود أفندى حسين.. مدرس الحساب!

ooo

مانتاش بتلعب ليه يا روح بابا
ولا عسكرى ولا لص فى عصابه
العب أسد أو ديب رهيب أو غزال
دى الدنيا فى نهاية المطاف غابه!

ooo

وقفت ساعة الصبح باغسل سنانى
قالت لى شايف قوتى ولمعانى
ايش تطلب اليوم منى ضحكة أسد
ولا ابتسامة اعلانات أمريكانى؟

ومرة أخرى نعود إلى «اسم الوردة».. حيث يجادل ويليام مع الراهب الأكبر قائلا له: «ألم يكتب أرسطو[٥] كتابا فى فن الضحك وعبقرية الكوميديا؟

فيجيبه الراهب الأكبر بعصبية شديدة: «نعم. قيل إنه كتب مثل هذا الكتاب، ولكن لم يجده أحد ولا أعتقد أن هذه الحكاية حقيقية. فيطلب ويليام منه التصريح له بالبحث عن هذا الكتاب فى مكتبة الدير ويلح فى طلبه، فهو يعتقد أن المكتبة بثرائها قد تحوى هذا الكتاب، ولكن الراهب الأكبر يرفض، وهذا الرفض يزيد من إصرار ويليام على البحث عن الكتاب، ويقوم بالفعل بعملية بحث سرية محفوفة بالكثير من المخاطر والصعاب، ويبدأ فى الربط تدريجيا بين هذا الكتاب وإنكار وجوده، وأسباب منعه من البحث عنه فى مكتبة الدير وسلسلة قتل الرهبان..

حتى يصل بشكل شبه مؤكد بأن كتاب أرسطو كان بالفعل موجودا فى مكتبة الدير، ولكنه اختفى بواسطة الراهب الأكبر، وأن كل من حاول من الرهبان العثور عليه كان جزاؤه القتل..

ويواجه ويليام الراهب الأكبر بشكوكه سائلا له عن تلك الأسباب التى تخيفه بهذه الدرجة من الضحك.. ويكون الرد: «الضحك يحرر الإنسان من الخوف، ومن هنا لا يكون أمامه مستحيل».. الضحك يجعل المستحيل ممكنا.. الضحك أسلوب احتجاجى راق لا تستطيع مقاومته، يعطى الإنسان فوق كل شىء حرية الشك والتمرد والبحث فى كل البدائل الممكنة.

فيقول له ويليام: «وهل بإخفاء الكتاب ومنع الرهبان من قراءته سوف تمنع الضحك؟»

فيجيبه الراهب: بالطبع لا، ولكن هذا الكتاب بالذات خطير، لأنه يملك قوة لا يملكها الآلاف من العقارب..

فيبتسم ويليام ويقول له: بالله عليك إنه مجرد كتاب.. الكتب تكتب لتقرأ.. إنها لا تصنع من أجل اعتناق ما فيها، ولكن من أجل نقاش أفكارها. الكتاب هو مجرد أداة استفزاز للعقل، التعلم لا يكمن فى التعرف على الأفكار التى تحويها الكتب، وإنما بوصول القارئ إلى ما تحدثه تلك الأفكار فى نفسه..

أنت تحاول أن تكون ذكيا ـ يقول الكاهن

لجاهين

مرفت عبد الناصر



صلاح جاهين بريشته

أنا قلبى كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتوا ليه خفتوا ليه
لا ف أيدى سيف ولا تحت منى فرس..

أوصـيك يا ابنى بـالقـمـر والزهـور
أوصـيك بليل القـاهرة المسحـور
وإن جـيت فى بالك.. اشـتـرى عـقـد فـل
لأى سـمـرا.. وقـبـرى اوعـك تـزور

الأكبر لوليليام ـ ولكنك لا تفهم شيئا. هذا الكتاب خطير لأنه كتب بقلم فيلسوف. لو عرف الناس ان فيلسوفا قد أفرد كتابا باكمله للضحك، سوف تكون تلك بداية النهاية.. سوف يتسلق الضحك من المعدة للعقل.. ولن يصبح الأمر مجرد «كل واضحك ولا تحمل هما»، وإنما يصبح ضربا من الفلسفة. سيعلو شأن الضحك وترتفع مكانته، ويمتد من مجالس البسطاء إلى مجالس المثقفين والعقلاء، بل سيصبح أهم أدوات الحكماء..

أنا قلبى كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتوا ليه خفتوا ليه
لا ف إيدى سيف ولا تحت منى فرس..

ويستمر الحوار بين ويليام والراهب الأكبر، حتى يرغمه على إخراج نسخة كتاب أرسطو فى الضحك من جعبته. ويضحك الراهب الأكبر ويقول له: «لم تكن بعيدا عنه فى بحثك الأول فى المكتبة، ولكنك تركته لأن بدايته بالمصرية القديمة. الصفحات الأولى فى الكتاب تحكى أسطورة ضحكة رع وبداية الإنسان!!

فيقول له ويليام: نعم.. هذا هو جهل اللسان بلغات الإنسان.. كم يحرمه هذا الجهل من معرفة الكثير..

ويأخذ الكتاب منه فيجد صفحاته ملتصقة بما يشبه الصمغ، إذا حاول فصل الصفحات بعضها عن بعض، علق هذا الصمغ بأصبعه أو بلسانه، ويعرف ويليام فى التو والحال أن هذا الصمغ ما هو إلا سُم، وأنه الوسيلة التى قتل بها كل الرهبان.

يسممون أنفسهم فى بحثهم عن المعرفة، ويسرى السم فى جسدهم بقدر عطشهم لقراءة المزيد من صفحات كتاب الضحك!

الدنيا هى الدنيا.. قالها جاهين وفى كل عصر وكل أوان حايكون هناك غربان..

الدنيا هى الدنيا مش كده
الدنيا يا غراب هى هى نعم
اضحك وأنا حاضحك وشوف يابين
مين ضحكته توصل لحد فين..

مرة تانية باقول وحشتنا قوى ياجاهين، وكان نفسى أزورك.. لكنى افتكرت وصيتك..

أوصيك يا ابنى بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإن جيت فى بالك.. اشترى عقد فل
لأى سمرا.. وقبرى اوعك تزور

ذكراك يا فيلسوف الضحك مالها ميعاد لأنك جوه قلوبنا فى كل ميعاد..

ولأنك دايما دايما فى ميلاد وانت اللى قلت إن عيد ميلادك ملوش ميعاد.. «فين الورق والنسمة والمقص والقلم يا واد»!

ولسه فيه لك عندى وردة حمرا من بنت سمرا بتميل عليك وتقول.. والله ما كانت فاشوش! وبكره أجمل من النهارده..

الهوامش

* فى بعض المواقع استخدمت أشعار صلاح جاهين فى نسيج النص.

(١) سخمت: (ربة البطش والانتقام)، يرمز لها بأنثى الأسد، فى بعض التنويعات على هذه الأسطورة تذكر حتحور فى صورة من صور تحولاتها بدلا من سخمت.

(٢) البنديكتية: (أتباع القديس بنديكت) مذهب يعتمد فى الأساس على الرهبنة والعزلة.

(٣) الفرانسيسكان: (أتباع القديس فرانسيس)، مذهب يدعو إلى الزهد فى ماديات الحياة، ولكنه يتفاعل مع المجتمع، وينص على الرحمة والإحسان، أثّر كثيرا فى فنانى عصر النهضة بداية بجيوتو.

(٤) كاريكاتير الحيوانات يختلف عن رمزية الحيوانات فى الميثولوجيا المصرية القديمة، والكثير منها سجل فى برديات تعرف بالبرديات الساخرة، ما تبقى منها يدل على بدايات الأدب الساخر فى مصر القديمة.

(٥) كتاب أرسطو فى الضحك هو الجزء الثانى من رسالته فى الشعر.


Departures
Arrivals
ENGLAND
HONGKONG
YEMEN
NEWYORK
SAUDIARA.
KUWAIT
JORDAN
SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
ZIMBABWE
EFG - Hermes

يعيش فى عالمنا اليوم نحو خمسة عشر مليونًا من الغجر، لا يعرف غالبنا من هم؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين يذهبون؟ الأهم لماذا هم غجر؟ ومع ما وصلت إليه الكتابات الحديثة فى علم الغجريات Gypsiology، فما تزال هناك أسئلة وبالأحرى مشكلات فى حاجة إلى إجابات، أو إلى مزيد من الإجابات. وتتناول المجلة هذه المسألة من خلال موضوعين، الأول يتحدث عن الغجر فى العالم، ويناقش الثانى وجود الغجر فى مصر.

الغَجَر

عبـــــادة كحيــــلة

أول ما يجبه الباحث فى هذا الموضوع هو المعلومات، فنحن لا نستطيع أن نكتب فى موضوع ما، إذا لم تتوافر لدينا معلومات عن هذا الموضوع.

والكتابة عن الغجر تقتضى الرجوع إلى مصادر كتبها غجر أو كتبها جيرانهم من غير الغجر.

لا تتوافر لدينا مصادر تاريخية كتبها غجر، فلم تتوافر لهم لغة مكتوبة، أو أنها توافرت لهم فى أوروبا فحسب وقبل مائة عام.. واللغة ـ كما نعلم ـ أداة اتصال، لكنها وبالقدر نفسه وعاء للمعرفة.

ربما قفز إلى الذهن خاطر، هو أن يكتب الغجر تاريخهم بلغة (أولغات) من يعيشون إلى جوارهم. والرد على هذا بأن الغجر قوم عمليون، لا يعنيهم من لغة غيرهم إلا القدر الذى يتناسب وحجم تعاملهم معهم. ولايزال فى بلاد البلقان ـ وهى المستودع الرئيسى لهم ـ جماعات ـ وإن كانت قليلة ـ لا تستطيع أن تفهم اللغة التى يتحادث بها جيرانهم.

يزيد من ذلك أن الغجر ـ الكثرة الغالبة من الغجر ـ لايزالون أميين، ورغمًا عن جهود بذلت لتعليمهم، فإنهم فى غالب الأحوال لا يستجيبون لهذه الجهود.

يحتج آخرون ويقولون إن هناك شعوبًا ـ بينها العرب ـ كانت كقاعدة أمية، ومع هذا فقد تداولت تاريخها شفاهة، ثم دونته بعد ذلك.

الرد إنه لم يتوافر لدى الغجر حافز لأن يحفظوا تاريخهم، فليس لديهم فى حاضرهم أرض واحدة، وليس لديهم فى مستقبلهم أرض واعدة، وليس لهم كتاب مقدس يجمع تراثهم ويحافظ عليه، بل ليس لهم ماض يشتاقون إليه فقد نسوه، وتحول هذا الماضى إلى ركام من غموض.

لا ندحة إذن من أن نعتمد فى تقصى تاريخ هؤلاء القوم على الأغيار، ومصادرنا فى هذا الشأن قليلة، وفى أحيان نادرة، لأن الغجر عاشوا حياةً هامشية، فاستحقوا كتابةً هامشية، هى فى جوهرها أحادية، ترتبط فى معظمها باشتباكات بين عالم الغجر والعالم حولهم، مما كان يفضى فى النهاية إلى نتيجة منحازة، أو هى غير موضوعية فى أحيان كثيرة.

لكن والحق يقال إن هذه المادة على نزارتها أوفر فى الغرب منها فى الشرق: بحكم أن الهوة بين الغجر والأوروبيين كانت ـ ولاتزال ـ أوسع من الهوة بين الغجر والشرقيين، فظاهرة التمايز كانت أوضح فى الحالة الأولى، وشكلت بالتالى حافزًا للكتابة عنهم.

هناك سبب أهم هو أن وفود الغجر إلى أواسط أوروبا وغربيها فى مطالع القرن الخامس عشر، يتوافق مع صعود المدن الناشئة، وكانت هذه المدن ـ فى سياق تأكيدها لذواتها ـ حريصةً على أن تكون لكل واحدة منها سجلاتها التى تدون بها الأحداث يومًا بيوم.

المشكلة الثانية هى المسمى، فلا يوجد مسمى واحد لهؤلاء القوم، لأنهم تفرقوا فى أقطار عدة فى أزمنة مختلفة، فاصبحت لهم ـ من ثم ـ مسميات مختلفة.

هذه المسميات تصطدم بواقع أن بعض الغجر ينكرون أنهم غجر، كما تصطدم بواقع أن البعض من غير الغجر، يوصفون أحيانًا بأنهم غجر.

على أية حال لدينا فيما يختص بأوروبا مسميان عامان هما Atsínganoi البيزنطية ـ اليونانية، ومرادفاتها فى اللغات الأوروبية مثل Tsiganes الإنجليزية والفرنسية، و Zigeuner الألمانية و Zingari الإيطالية و Cigànyok المجرية.

المسمى العام الآخر يعود فى أصله إلى كلمة Aegyptus أى مصر، ومنها اشتقت Eypsies أو (Gipsies) الإنجليزية و Gitanes الفرنسية و Gitanos الإسبانية و Gúphtoi اليونانية.

أما عن المسميات الفرعية فيصعب إحصاؤها، ويكفينا ذكر أن فى فرنسا ـ وحدها خمسة مسميات هى Gitanes و Tsiganes و Calé (أى سود) و Manouches (أى رجال) و Bohé-miens (المقدم بعضهم من بوهيميا فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) و Romnichels (من روم).

أما عن الغجر فهم يدعون أنفسهم روما ROMA وواحدها روم ROM وتعنى فى لغتهم إنسانًا، ويدعون غيرهم جاجى Gadzé وواحدها جاجو Gadzó.

فى الأقطار العربية وما جاورها لدينا مسمى عام هو الغجر، ومسميات فرعية، منها لوريان أو لوليان (إيران) چنگَنه (تركيا) كاولية وقرج (العراق) نَوَر (بلاد الشام ومصر) حَلَب (صعيد مصر وشمالى السودان) زطوط ـ وواحدها زُطى ـ (سلطنة عُمان)

هناك مسميات أخرى أصغر، وإذا تناولنا مصر كعينة، فلدينا قوم من النور يدعون بالهنجرانية، يدعون الانتساب إلى المجر، وهذا غير صحيح، فأصل الكلمة أهنكَر الفارسية، وتعنى حدادًا، وتجمع أهنكَران أى حدادين، والحدادة مهنة أمّ عند الغجر.

فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية لا يطلق الغجر على أنفسهم مسمى يرتبط بلغتهم، لكنهم يطلقون على غيرهم مسمى خشانة او اخشان وواحد خُشْنى. ننتقل الآن إلى مشكلة المشاكل وهى أصل الغجر.

عندما حط الغجر رحالهم فى أواسط أوروبا فى مطلع القرن الخامس عشر، ادعوا أنهم مصريون أتوا من مصر الصغرى Aegypto minori، وهو زعم ـ يتضح بعد ـ غير صحيح، وربما انتحلوا هذه النسبة لارتباط مصر القوى بأسفار الكتاب المقدس قديمها وجديدها على سواء.

ظلت أسطورة الأصل المصرى مصاحبةً لتاريخ الغجر حتى أيامنا، والغريب أنها انطلت على بعض من المصريين (المصريين المعاصرين) ويتباهون بأن لهم إخوةً أوروبيين.

على أية حال، فلم تتضح الحقيقة إلا فى أخريات القرن الثامن عشر، ففى سنة ١٧٦٣ التقى شاب مجرى يدرس اللاهوت فى جامعة لايدن Leiden بهولندا، بثلاثة طلاب هنود ينتمون إلى ساحل ملابار Malabar، ولاحظ هذا الشاب ويدعى إشتفان فالى István Vályi أن هؤلاء الطلاب يتحدثون بلغة تشبه لغة مواطنيه من الغجر المجريين، فدون حوالى ألف كلمة من كلامهم، ولدى عوده إلى وطنه، عارضها على هؤلاء الغجر، واكتشف أنهم عرفوا بغير كبير صعوبة تفسير هذه الكلمات.

سجل فالى نتائج كشفه فى سنة ١٧٧٦، ولم يلبث أن وصل خبر هذا الكشف إلى علماء آخرين أكدوا هذه النتائج.

لم يقف الأمر عند حدود اللغة، فقد تعامل بعض العلماء مع هذا الموضوع من مدخل أنثربولوجى، أى إنهم اهتموا بالخصائص التشريحية، وهى التى تعنى بمقاييس الجسم وأعضائه خصوصًا الجمجمة، كما أفاد بعضهم بنتائج علم الوراثة، فاكتشفوا بتحليل فصائل الدم لعينات من غجر البلقان أن مورث ب Gene B ينتشر بينهم على نحو قريب من انتشاره بين الهنود، وهو معدل يزيد على معدل انتشاره بين الأوروبيين بمقدار الضعفين.

صار الأصل الهندى للغجر حقيقةً يتفق عليها علماء الغجريات كافة، لكن السؤال الذى يطرح نفسه: إلى أى شعب من شعوب الهند ينتمى الغجر؟

هناك عدة نظريات أشهرها إنهم ينتمون إلى شعب الجت jats، وهو شعب لايزال له حضوره الواضح فى دولتى الهند وباكستان، وعرف العرب هذا الشعب فى فترة ما قبل الإسلام، وعربوا الاسم إلى زُط.

أهم من روج لهذه النظرية هو المستشرق الهولندى الكبير دى خويه De Eoeje (ت١٩٠٩) فى كتاب صغير أصدره فى سنة ١٩٠٣ بعنوان «هجرات الغجر عبر القارة

A History of The Gypsies in Eastern Europe and Russia

(تاريخ الغجر فى أوروبا الشرقية وروسيا)

David. M. Crowe

London. IB. Tauris & Co Ltd. 1995

The Gypsies

(الغجــر)

Angus Fraser

London, Blackwell Publishers, Ltd. 1995



الآسيوية» Les Migrations des Tsiganes à travers L'Asie، واعتمد فيه على مصادر عربية وفارسية أهمها الشاهنامة للفردوسى شاعر الفارسية الأكبر (ت ٤١١هـ/١٠٢٠م).

يقول الفردوسي - ونحن هنا ننقل من الترجمة العربية - أن بهرام جور ملك فارس (٤٢٠-٤٣٨) «كتب إلى شنكَل ملك الهند رسالة، أن ينتخب من الهنود ألفى نفس من الذكور والإناث من المخصوصين بحسن الصوت وجودة الصنعة في الغناء، وينفذهم إليه، فامتثل شنكَل أمره ونفذهم إليه. فلما حصلوا عند بهرام، أمر بأن يعطى كل واحد منهم بقرةً وحمارًا، وفرق عليهم ألف حمل من القمح برسم البذر، وفرقهم في القرى والضياع، ليزرعوا ويحرثوا، ويغنُّوا فقراءها بغير أجرة ولا كلفة. فلما حصل البذر في أيديهم أكلوه، وذبحوا البقر، وحملوا رحالهم على الحُمُر، وتفرقوا في البلاد، واشتغلوا بالتلصص والانتهاب والتخطف، وتناسلوا وهم إلى الآن موجودون في أقطار الأرض ذات الطول والعرض، وهم جيل يسمون اللورية، وهم الزط والعشرية ولهم انتشار في كل صوب».

نخرج من هذا النص بأن هؤلاء الزط كانوا عازفين عن الزراعة، بل عن العمل، بدليل إنهم أكلوا البذور التي أعطيت لهم، كما أكلوا البقر، وصاروا عيالاً على المجتمع المحيط بهم، يتلصصون ويتنقلون من مكان إلى آخر. ويبدو أن الفردوسي - على نحو أو آخر - كان يسقط ما يشاهده عند الزط المعاصرين له - أو بالأحرى الغجر - على أحداث وقعت في الماضي.

وجدت هذه النظرية التي أتى بها دى خويه معارضةً قوية من بعض العلماء، لأن الزط - وإذا شئنا الجت - عرف عنهم أمران لا نشاهدهما في زط الشاهنامة، ولا في الغجر المعاصرين لنا، هما كونهم محاربين أشداء، وكونهم مارسوا الزراعة.

الأهم من هذا الاعتراض اعتراض آخر، هو أن لغة الغجر المعاصرين في أوروبا، وهى لغة الرومَنى Romani أو (Romany) وإن كانت ذات قرابة بلغة الجت، إلا أنها أقرب إلى المجموعة الوسطى من اللغات الهندية، وتمثلها في العصر الحاضر اللغة الهندية Hindi.

هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بأن حدثت هجرة في زمن قديم، لأقوام كانوا يعيشون في وسط الهند، واتجهوا صوب الشمال والغرب. وتشير الدلائل إلى أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين من يعرفون بالدوم Doms الذين اشتهروا في القرن السادس الميلادى بكونهم ذوى بشرة داكنة، ينتمون إلى أصل وضيع، ويعملون كموسيقيين متجولين. ومع أنهم كانوا ينحدرون من الجنس الدرافيدى Dravidian، إلا أنهم صاروا قبل هجرتهم يتحدثون بلغة آرية.

يترجح لدينا أن رواية الفردوسي صحيحة على إجمالها - وليس على تفصيلها - على أننا يمكن أن نضيف إليها أن هذه الطالعة لم تكن تضم الزط وحدهم، إنما ضمت أقوامًا آخرين أهمهم الدوم. أما لماذا أطلق على هذه الطالعة مسمى عام هو الزط، فلأن العرب - في سياق تعميم الجزء على الكل - كانوا يطلقون هذا المسمى على شعوب هندية (وسندية) ليس من بينها الزط.

ولكن متى بدأ الزط خروجهم الكبير من إيران في اتجاه الشمال والغرب؟ وما هى الطريق التى سلكوها؟

تتفاوت الآراء في هذا الشأن، ويذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أنهم بدأوا خروجهم بعد الغزوات التى قام بها السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨/٩٩٨ - ٤٢١/١٠٣٠) في بلاد الهند، حيث وجه إلى الجت ضربات قوية. ويذهب بعض آخر إلى أنهم خرجوا في زمن السلطان تيمور لنك (٧٧١/١٣٧٠ - ٨٠٧/١٤٠٥) بعد غزواته في الهند وغير الهند، وقد وصل في بعض هذه الغزوات إلى أطراف أوروبا.

نلاحظ في هذا المذهب تعسفًا واضحًا، فيبعد أن يقطع الجت مسافات تصل إلى آلاف الأميال، ولا يرد خبر واحد عنهم في مصادرنا عربيّة وفارسية.

الصحيح ما يرد في مصادرنا العربية، ومفادها أن أعدادًا كبيرةً من الزط استوطنت إقليم الأهواز (عربستان الآن) وإقليم البحرين (البر الغربى من الخليج العربى) والأهم إقليم البطيحة - أو البطائح - (الأهوار جنوبى العراق)، وعرفهم العرب على نحو ما قبل الإسلام، وأتوا على ذكرهم في بعض شعرهم.

لا نعلم على نحو واضح موقف الزط من الدعوة الإسلامية، ما نعلمه هو إنهم صاروا - جميعهم - مسلمين في أعقاب الفتوح الإسلامية لأراضى الدولة الساسانية، واستقر بعضهم في مدينة البصرة، وصاروا موالى لقبيلة تميم، واتخذوا جانب الإمام على رضى الله عنه في صراعه مع معاوية، ثم أثاروا قلاقل لبنى أمية، مما أفضى إلى أن أجلوا عددا كبيرا منهم إلى بلاد الشام.

فيما عدا ذلك فالأخبار قليلة عن الدور الذى قام به الزط في الحياة العامة خلال المرحلة الأولى من تاريخ الإسلام، لكننا نعلم أن بعضهم ممن لديهم خبرة بالحديد، عملوا سجانين.

يقول الفرزدق (ت١١٠هـ) مخاطبًا هشام ابن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ - ١٢٥/٧٤٣) يشير إلى سجنه:

أبيت تطوف الزط حولى بجُلجل[1]

على رقيب منهم كالمحالف

وفي أخبار مصر نقف على أسرة زطية، لعبت دورًا هاما في تاريخها، وهى أسرة السَّرى ابن الحكم الذى استطاع وولداه من بعده أن يحكموا مصر مستقلين عن الخلافة العامة ببغداد ما يزيد على العشرة أعوام (٢٠٠/٨١٦ - ٢١١/٨٢٦).

يهمنا من هؤلاء الزط، من استمر منهم مقيمًا في إقليم البطيحة، فقد كثر عيثهم في زمن الخليفة المأمون (١٩٨/٨١٣ - ٢١٨/٨٣٣)، وكان طبيعيًا أن يتجرد لحربهم، ولا تتوافر لدينا معلومات عن هذه الحرب، لكن المعتصم (٢١٨/٨٣٣ - ٢٢٧/٨٤٢) نجح فيما اخفق فيه أخوه، وبعد قمعهم أمر بنفيهم - وكانوا سبعة وعشرين ألفًا - إلى الثغور (أى الحدود) مع دولة الروم، خصوصًا عين زُرْبة، حيث أمضوا عشرين سنةً، إلى أن أغارت الروم على الثغر في العام ٢٤١هـ «فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد» كما يقول الطبرى.

يعد عام ٢٤١/٨٥٥ عامًا فارقًا في تاريخ الزط، ففيه بدأ هؤلاء اقتحام عالم جديد، يختلف عن عالمهم الذى عاشوا داخله سنوات طويلة، من معالمه أنهن كفوا عن أن يكونوا مسلمين.

عاش الزط - وندعوهم منذ الآن بالغجر - داخل العالم البيزنطى في أرمينية، ما يزيد على المائتى سنة، وهذا يتسق مع التأثير الأرمنى القوى في لغتهم.

ولدى تقدم الأتراك السلاجقة على حساب الروم في أرمينية، فقد أسفر هذا التقدم عن اضطراب، أفضى إلى عبور أعداد كبيرة من الغجر إلى الأقسام الغربية من الإمبراطورية، في القسطنطينية نفسها، ومنها إلى بلاد اليونان. وبدأ التأثير اليونانى يجد طريقه إلى لغتهم، بحيث غدت اليونانية أكثر اللغات الأجنبية تأثيرًا في الرومنية - لغة الغجر - تليها الأرمنية.

وأول إشارة إلى هؤلاء الغرباء في الوثائق المعاصرة، وردت في النص الكَرجى[2] عن حياة القديس جورج الناسك، ويعود إلى سنة ١٠٦٨، فنشاهد اسم قوم يدعون Adsincani وهذه الكلمة هى المقابل الكَرجى للكلمة اليونانية Atsinganoi أو (Atzinganoi) وهو الاسم الذى اعتاد الروم أن يطلقوه على الغجر.

والكلمة اليونانية نفسها مشتقة من اسم طائفة متهرطقة، تدعى Athinganoi، ومصدر ذلك هو التشابه بين الغجر وبين هذه الطائفة في ممارسة السحر والشعوذة وقراءة الطالع.

قبل أن نمضى في تعقب قافلة الغجر، تجب ملاحظتان أساسيتان: أولاهما أن الغجر في كل مكان أقاموا به، كانوا يقتبسون جُملاً من مفردات جيرانهم، تدخل في نسيج لغتهم، وهو ما دفع عالمًا كبيرًا من علماء الغجريات هو مارتن بلوك Martin Block لأن يقول «إن عدد الكلمات التى اقتبسها الغجر من بلد ما، يتناسب طرديًا مع المدى الذى قضوه في هذا البلد».

الملاحظة الثانية أننا حين نتحدث عن انتقال الغجر من مكان إلى مكان لا نقصد انتقالهم جميعهم، لأنهم في كل حال، كانت تتخلف عن الركب أعداد تتفاوت حسب مقتضى الحال.

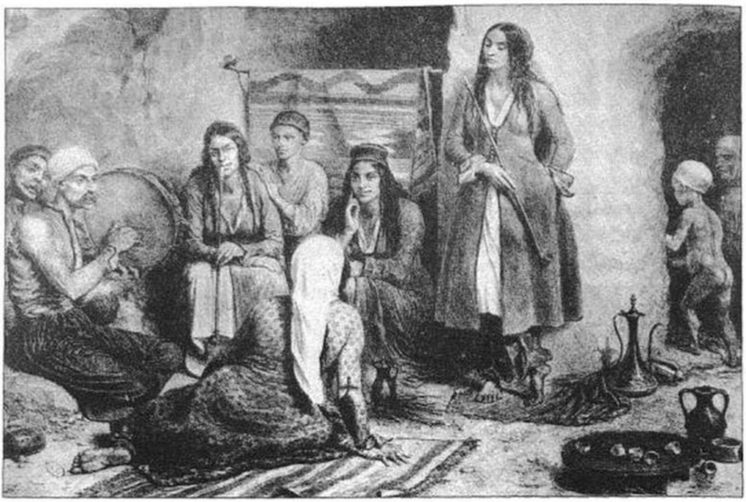
في بلاد اليونان تتواتر الإشارة إليهم بين حين وآخر، لكنها في مجملها إشارات غامضة، إلى أن تصل إلينا في القرن الرابع عشر تقارير لرحالة غربيين، يصفون من شاهدوهم من غجر في جزيرة كورفو Corfu إلى الشمال الغربى، ومدينة مودون Modon (وهى ميتونى Methoni الآن) إلى الجنوب الغربى.

خلال إقامتهم الطويلة في بلاد اليونان، بدأت أعداد كبيرة من الغجر تتسرب إلى بلاد البلقان، مدفوعَة أحيانا بالزحف التركى العثمانى المتواصل، بحيث أضحت هذه البلاد منذ القرن الرابع عشر هى المستودع الرئيسى للغجر، وكانوا يحظون في أحيان كثيرة بالترحيب من أهلها، على أنه نظرًا لما تعرض له إقليما الأفلاق Wallachia والبُغدان Moldavia (في رومانيا الآن) من نقص شديد في عدد السكان ناجم عن الصدام مع العثمانيين، فقد تم استرقاق الغجر، من أجل أن يستقروا ويعملوا في الزراعة.. وظلوا على هذه الحال حتى منتصف القرن التاسع عشر.

يعد العام ١٤١٧ عامًا فارقًا في تاريخ الغجر، يعدل في أهميته العام ٨٥٥، ففى هذا العام بدأ اجتياح الغجر - إذا جاز التعبير - لأواسط أوروبا وغربيها، وخلال مدى لا يجاوز السبعين عامًا، كانوا قد اجتازوها جميعها.

كان السبب الكامن وراء هذا الاجتياح هو اجتياح الأتراك لبلاد البلقان، وبداية اجتياحهم لمملكة الغجر، فقد نتج عن هذا الاجتياح، اضطراب لم يشأ الغجر، وهم طارئون يعيشون حياةً مهمشة أن يدفعوا ثمنا له، لذا اختار بعضهم الرحيل إلى الغرب.

لم يتوافر لدى الغجر حافز
لأن يحفظوا تاريخهم، فليس لديهم
فى حاضرهم أرض واحدة، وليس لديهم
فى مستقبلهم أرض واعدة، وليس لهم كتاب مقدس يجمع
تراثهم ويحافظ عليه، بل ليس لهم ماض
يشتاقون إليه فقد نسوه، وتحول
هذا الماضى إلى ركام من غموض



فرقة موسيقية من غجر البلقان ـ القرن التاسع عشر

في سنة ١٤١٧ حصل فريق من هؤلاء على خطاب حماية Littera Promotoria من الامبراطور سيجسموند Sigismund (١٣٦٨ـ١٤٣٧)، ثم حصلوا على خطابات مماثلة من حكام آخرين، بل من البابا نفسه.

كانت خطابات الحماية في العصور الوسطى، أشبه بجوازات السفر في عصرنا، وكانت تكفل لأصحابها إلى جانب حرية المرور، منحهم زادًا وطعامًا ومالاً، وفي أحيان مرقدًا. وكانت الذريعة التي يلجاون إليها طلبًا لهذه الوثائق هي أنهم «مصريون» تخلوا عن المسيحية وتحولوا إلى الوثنية، وبعد توبتهم فرضت عليهم عقوبة، هي أن يترحلوا لسنوات طويلة حول العالم يكفرون عن خطيئتهم.

وصلت إلينا بعض هذه الوثائق، ويتضح منها أن بعضها مزيف، وتزييف الوثائق كان صناعةً رائجةً في العصور الوسطى، ويعود في بدايته إلى عصر الإمبراطور شارلمان Charlemagne (٧٦٨ـ٨١٤).

على أية حال، فقد كفلت لهم هذه الوثائق سنوات لا باس بها من الهدوء، رغمًا عما كان يتخللها أحيانًا من صدام بينهم وبين مضيفيهم، لدى جنوح بعضهم إلى السرقة والسحر وقراءة الطالع، مما كان يسفر أحيانًا عن طردهم وربما قتلهم.

هكذا نكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق في رحلة الغجر من الهند إلى أوروبا، وهي رحلة طويلة، عبر مئات من السنين ومئات ومئات من الأميال، حافظ الغجر خلالها على هويتهم، ومع ما تعرضت له هذه الهوية من تغيرات، تمت على نحو متراكم، إلا أنها ظلت متميزة وفي أحيان متمايزة.

ونقفز إلى السؤال التالي.. وهو لماذا احتفظ الغجر بهذه الهوية؟ وكيف؟

يحاول البعض أن يتلمسوا السبب في نظام الطائفة ـ الطبقة Caste الذي كان ذائعًا في بلاد الهند ـ موطن الغجر الأصلي ـ فهذا النظام يعني أن الـ Caste، تضم جماعة (أو جماعات) متحدة في عرقها ومتحدة أيضا في نسق مهنها، ويزيد من هذا الاتحاد زواج اللُّحْمة (أو الزواج الداخلي) Endogamy، وهو ما كان يؤدي إلى تماسك الجماعة (أو الجماعات) الواحدة، وبقاء الطابع الخاص بها.

نذهب من ناحيتنا إلى أن في هذا الفرض قدرًا من الصحة، لكنه ليس صحيحا دائما، وكان قمينًا به أن يذوي مع الزمن؛ لأن الغجر تعرضوا لمؤثرات خارجية قوية (اللغة مثلا)، والسبب في بقاء هذه الهوية، نجده عند غير الغجر، فهؤلاء كانوا يعيشون مرحلة متخلفة من علاقات الإنتاج، وهم في حاجة إلى المهن التي تفرد بها الغجر أو مهروا فيها، والتي بدأوا في بيعها، بعد أن بدأت خطابات الحماية تفقد فعاليتها.. هذه المهن وإن كانت هامشية، إلا أنها تتسم بطابع الندرة، والعائد من بيعها يكون كبيرا في أحيان، ويكفل للغجر أن يعيشوا في مستوى اقتصادي أعلى من مستوى غيرهم من عامة الناس بل أوساطهم، وهم عندما لا يجدون مجالاً لمزاولة مهنهم أو يجدون كسادًا لها، يصرون على الحفاظ على هذا المستوى، فينصرفون إلى الاحتيال على رزقهم، وقد يسرقون أو يقطعون الطريق، أو يشغبون على السلطة.

نأتي هنا بمسرد لأهم المهن التي زاولها الغجر في كل العصور وفي كل البلدان، وبطبيعة الحال تتفاوت هذه المهن لدى مزاولتها بين مكان ومكان، وبين زمان وزمان، على أننا نجملها في خمس مجموعات هي:

أـ مهن تتصل بالمعادن:

حدادة، نحاسة، صفاحة، سباكة، صنع الآلات البسيطة وإصلاحها.

ب ـ مهن تتصل بالحياة في الريف:

تربية الخيول، بيطرة، طب شعبي، صوافة، حذاءة الخيل والحمير، اتجار بالسلع الصغيرة أو النادرة.

جـ ـ مهن تتصل بالتسلية:

غناء، موسيقى، رقص، ترقيص الدببة أو القرود، أعمال الحواة، بهلوانات.

د ـ مهن تتصل بالغيب:

سحر، قراءة الطالع، وشم (دق).

هـ ـ مهن ينفر منها المجتمع:

تسول، سرقة.

لكن هذا النمط من الحياة، لم يكن ليتلاءم مع مجتمعات، بدأت تنمو وتتطور، وتقتحم المهن التي زاولها الغجر، مما سوف يسفر ـ بطبيعة الحال ـ عن صدام بين عالم الغجر وبين عالم غير الغجر.

هذا الصدام لابد أن يتفاوت في الزمان، كما يتفاوت في المكان، ونتتبع ـ باختصار ـ مراحل هذا الصدام في الغرب، ثم ننتقل إلى الشرق.

في مطالع القرن السادس عشر كانت أوروبا ـ غربيها على نحو خاص ـ قد قطعت مرحلة طويلة في نهضتها، وتعاظمت سلطة الدولة، وصارت تتدخل في حياة مواطنيها خاصتهم وعامتهم، ومنهم الغجر.

الأهم هو ما جرى من إصلاح ديني، افضى إلى أن صار نصف أوروبا خارجًا عن سلطان البابا الذي يتذرع الغجر بحمايته، وسادت قيم جديدة تحفز على العمل والعمل المنتج، وهو ما يفصله ماكس فيبر Max Weber (ت ١٩٢٠). في تحليله للعلاقة بين البروتستانتية وصعود الرأسمالية، ولم يعد للقيم الفرانسيسكانية التي تحبذ الفقر، وتحبذ معه البر إلى الفقراء (ويدخل فيهم الغجر أحيانًا)، لم تعد لهذه القيم أهمية في هذا العصر الجديد.

زاد من ذلك ما ترتب على حركة الإصلاح الديني من حروب دينية، دامت نحو مائة عام، آخرها حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ـ١٦٤٨)، وأسفرت هذه الحروب عن دمار عام وفوضى، خصوصا في ألمانيا. وشرع الغجر ـ باعتبارهم هامشيين لا يهمهم ما يجري للمجتمعات حولهم ـ شرعوا في المشاركة في السلب والنهب.

تعد المائتا عام التي تمتد من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر، هي العصر المظلم في تاريخ الغجر، إذ تحول المجتمع ضدهم، وصدرت قوانين صارمة، تهدف إلى إدماجهم أو طردهم وربما قتلهم بعد تعذيبهم.

أشهر هذه القوانين هي التي أصدرتها أليزابيث الأولى ملكة إنجلترا (١٥٥٨ـ١٦٠٣)، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣ـ١٧١٥) وماريا تيريزا امبراطورة النمسا (١٧٤٠ـ١٧٨٠)، على أن أشدها قساوةً هي تلك التي أصدرها فيليب الثاني ملك إسبانيا (١٥٥٦ـ١٥٩٨) في أواخر القرن السادس عشر.

التفصيلات كثيرة ومروعة، إذ صار تعبير غجري مرادفًا لتعبير مجرم، يشنق دون محاكمة، وشاعت ظاهرة «صيد الغجر» Heiden Jachten[٣].

في إسبانيا حظر الزواج الداخلي على الغجر، وكان يتم فصل أطفالهم عنهم، وإلحاقهم بالخدمة المنزلية، كما كان يتم تسخير الرجال في سفن الأسطول، حيث يجدفون وهم في الأغلال. وبعدما جرى تقدم في تقنيات الملاحة، جرى تسخيرهم في بناء السفن، أو في الحصون الإسبانية Presidios، على الشاطئ المغربي، أو العمل في ظروف غير إنسانية بالمناجم، وفي كل الأحوال هلك منهم آلاف وآلاف.

أما البرتغال، فقد تفردت بكونها رائدة في تهجير الغجر إلى مستعمراتها في أفريقيا والعالم الجديد، واقتدت بها ـ وإن كان على نحو أقل ـ فرنسا.

من ناحية الغجر، فقد تعاملوا مع هذه المستجدات على نحو مرن، يكفل لهم بقاءهم، واختار بعضهم أن يقيموا على التخوم بين الدول، بخاصة الدويلات الألمانية، يتحركون عبرها إذا دهمهم الخطر.

أسفرت هذه الإجراءات عن تغييرات في نمط الحياة الغجرية، فعرف بعض الغجر السكنى في البيوت، وألحقوا أولادهم بالمدارس، ووقعت حالات من التزاوج مع غيرهم، بحيث صار لدينا أنصاف غجر وأرباعهم، وبدأوا يتقبلون الديانة المسيحية على أصولها، بل ظهر بينهم قساوسة ومبشرون.

مع ذلك ورغما عما طرأ من تطورات، فإن الغجر في غربي أوروبا، ظلوا محافظين على قدر من خصوصيتهم، ظل يصاحبهم عبر الزمن.

أما في أراضي الدولة العثمانية ـ حيث كانت كتلتهم الرئيسية ـ فقد حافظوا على خصوصيتهم كاملة، وتعاملت الدولة معهم على نحو طيب، مما دفع بعضهم إلى أن يتحولوا إلى الإسلام. وعندما علم الصدر الأعظم في أوائل القرن السادس عشر بتفاقم ظاهرة خطف أطفال الغجر وبيعهم، أمر بمنعها وحدد عقوبات لها. كما كان الباشوات (أي حكام الولايات) يفيدون بالغجر كعازفين في احتفالاتهم، وبعضها احتفالات دينية.

في منتصف القرن الثامن عشر، بزغت حركة التنوير في أوروبا، وهي حركة تستهدي بالعقل وتبتعد عن الأفكار المسبقة، لذا حظي الغجر بمكانة لا بأس بها في موسوعة ديديرو Diderot (ت. ١٧٨٤)، وتتوافق هذه الحركة مع نهوض علم الغجريات، وما ترتب عليه من بداية المعرفة الصحيحة بالغجر.

وفي سنة ١٧٨٣، صدر أول كتاب

الغَجَــر

عنهم، عنوانه Die Zigeuner لهـايـنريش جـريلمـان Heinrich Grellmann، وترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات.

فى أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت الحركة الرومانسية، وسيطرت على الفكر الأوروبى مدى يصل إلى مائة عام، وراجت فى أذهان هؤلاء الرومانسيين فكرة المتوحش النبيل (الذى يعبر عنه الغجر أحيانا)، وتنامى الاهتمام بموسيقاهم، فدرج النبلاء على استقدامهم، من أجل أن يعزفوا لهم، بل إن واحدًا من هؤلاء الغجر عزف للملوك المجتمعين فى مؤتمر فيينا ١٨١٤، وأفاد الموسيقار المجرى الكبير ليست Franz Liszt (ت ١٨٨٦)، بموسيقاهم فى رابسودياته المشهورة، بل اعتبر الموسيقى المجرية موسيقى غجرية.

كان للإحياء الرومانسى أثره كذلك فى أن ظهرت أعمال أدبية، لأدباء كبار، جعلوا الغجر موضوعا لها، فبودلير Baudelaire (ت ١٨٦٧) يعبر فى شعره عن شوقه لأن يصطحب قافلة غجرية فى الطرق النائية الوعرة، وميريميه Merimée (ت ١٨٧٠) يظهر الغجرية فى صورة طيبة فى كارمن، بل إن هيجو Hugo (ت ١٨٨٥) يجعل هذه الغجرية مظلومة فى رائعته أحدب نوتردام.

عند انعكاس هذه الصورة على الواقع، تحسنت أحوال الغجر، خصوصا أن حقبة القهر السابقة جعلتهم ـ فى غربى أوروبا ـ يتخلون عن بعض السمات التى صاحبتهم لدى قدومهم، والتى كانت محل سخط الأوروبيين، وصار الاستقرار ظاهرة عامة بينهم، ووصلت الحال إلي أن تزوج بعض شبابهم بفتيات من أسر نبيلة، أو حتي أميرات ووصلت الحال كذلك إلى أن شعر سائرهم بقدر من الانتماء إلى المجتمعات التى جاوروها، فشاركوا فى ثورة ١٨٤٨ ببلاد المجر.

على أنه قبل أن ينتهى القرن التاسع عشر، استجد متغيران مهمان:

أولهما: ما جرى من هجرة جديدة لغجر أتوا من بلاد البلقان، وكان الدافع إلى هذه الهجرة، ما جرى من تحسن فى وسائل المواصلات، فضلاً عن تحرير الغجر بولايتى الأفلاق والبغدان، ولم يصادف هؤلاء الغجر ترحيبًا فى مهاجرهم الجديدة، لكونهم أكثر محافظة من أقربائهم الذين سبقوهم فى الهجرة، وتم استيعابهم على نحو أو آخر.

المتغير الآخر: هو ظهور النظريات العنصرية القائمة على أساس بيولوجى (جوبينو Gobineau ١٨٥٥، ولومبروزو Lombroso ١٨٧٦)، وبدأت موجة جديدة من العداء تجاه الغجر، وصلت إلى ذروتها فى الحقبة النازية، فاعتبرت قوانين نورمبرج Nuremberg ١٩٣٥، كلا من الغجر واليهود عرقا أجنبيا Fremdrasse، يشكل خطورة على العرق الألمانى النقى، وأمرت بمنع التزاوج معهم. وأنشئت بعد سنتين إدارة تابعة لوزارة الصحة الألمانية، مهمتها تقصى نسبة الدماء الغجرية فيهم، بهدف تحديد المعاملة المناسبة لهم، وبدأ الغجر رحلة طويلة من المعاناة، وصلت بهم فى نهايتها إلى المحرقة Holocaust.

هلك فى معسكرات الاعتقال ما يتراوح بين ربع المليون، ونصف المليون من الغجر، وأصيبت أعداد أكبر بعاهات جسمية وعقلية، ومن بين ثمانية آلاف من الغجر عاشوا فى بوهيميا ومورافيا (فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) بقى على قيد الحياة ستمائة، كما اختفى معظم غجر صربيا.

الجدير بالذكر، أنه إذا كانت الدولة الصهيونية قد حصلت على مليارات ومليارات كتعويضات عن ضحايا النازية من اليهود، فإن الغجر لم يحصلوا على أية تعويضات على الإطلاق.

أسفرت الحرب العالمية الثانية عن نتائج مهمة، فصارت الحكومات فى غربى أوروبا أكثر لينا معهم، واعترفت بريطانيا بقوافلهم على أن تخيم فى أماكن حددتها، وصارت تزودهم بخدمات وإعانات، وشجعتهم على أن يتعلم أولادهم فى مدارسها، كما حظى الغجر باهتمام المجلس الوزارى لمنظمة الوحدة الأوروبية.

الأهم أن معظم الغجر فى أوروبا، صاروا يعيشون فى ظل أنظمة ماركسية، ترى أن المشكلة الغجرية ترتبط بالمرحلة الرأسمالية، ومادامت هذه المرحلة قد انتهت، فإنه لم تعد هناك مشكلة غجرية، وعليه فقد اعترف بهم فى معظم أقطار الكتلة الشرقية كأقلية قومية، بل إن الاتحاد السوفيتى اعترف بلغتهم، وصار لهم مسرح خاص بهم، كما شكلوا اتحادا وأصدروا مطبوعات، ولكن كان عليهم فى المقابل أن يعملوا بمزارع الدولة أو المزارع التعاونية، وصدر فى عام ١٩٥٦ قانون يمنعهم من الترحل، وأمرت الدولة فى تشيكوسلوفاكيا بحرق عرباتهم وقتل خيلهم، وعندما ظهر فى بلغاريا فى الثمانينيات تيار معاد للمسلمين، حظرت الدولة موسيقى الغجر لتأثرها بالموسيقى التركية.

فى سنة ١٩٨٩ سقطت الشيوعية فى أوروبا الشرقية، وعاودت الاتجاهات العنصرية صعودها، وكان الغجر أول ضحاياها، وزاد من صعود هذه الاتجاهات، ما جرى من فوضى ناجمة عن اقتصاد السوق الحرة، مما حفز الغجر على المضاربة بالسلع النادرة.. فوقعت اعتداءات أريقت فيها دماء غجرية، ودفعت بأعداد كبيرة من الغجر صوب الغرب، وألمانيا على نحو خاص، حيث تعرضوا لمضايقات من نوع آخر.

على أن الغجر جنحوا فى العقود الأخيرة من القرن المنصرم إلى تأكيد هويتهم، وعقدوا أول مؤتمر لهم فى لندن ١٩٧١، حضره موفدون من أربعة عشر بلدا، واتخذوا لأنفسهم علما، كما اتخذوا شعارا هو Opré Roma، أى انهضوا ياغجر! وتوالى عقد هذه المؤتمرات. وفى بعض دول الكتلة الشرقية السابقة، صارت للغجر أحزاب سياسية، ولهم فى رومانيا وحدها سبعة أحزاب.

شرع بعض الغجر يباهون بغجريتهم ويزعمون ـ بعد أن أضحى أصلهم الهندى حقيقة مؤكدة ـ أنهم ينحدرون من الطبقة الثانية فى المجتمع الهندى وهى طبقة المحاربين Kshatriya، كما أن بعض فتياتهم صرن يرتدين السارى.

ونعاود أدراجنا إلى المشرق.

اتينا على خبر الطبرى من أن الزط لدى غارة الروم فى عام ٢٤١ / ٨٥٥، أسروا «ولم يفلت منهم أحد»، ونحن نصدق الطبرى، ولكن لا يعنى هذا نهاية الوجود الزطى فى تاريخنا؛ لأن هؤلاء المنفيين ثم المسبيين كانوا فريقا من الزط، ولم يكونوا الزط كافة، فلايزال لدينا ثلاثة تجمعات لهم فى بلاد الشام وبلاد الأهواز

تعاويذ وطلاسم وأحجبة لغجر وسط أوروبا



(1) Fragment of baton-sceptre of a Central European Gypsy Chief. (*Drawing by J. G. Séruzier*).

(2) Magical characters inscribed on an amulet. (*Review CIBA*).

(3) Ancient coin bearing the 'Charmer bird' and the three mysterious dots. (*Review CIBA*).

لغة الغجر السرية





رسم لغجرية من رومانيا، وكان أهل أوروبا يخلطون بين الغجر واليهود ـ القرن التاسع عشر

وبلاد البحرين، فضلاً عن زط كانوا يتوافدون بين حين وآخر من بلاد السند، ويشاركون في أحداث سياسية بفارس وكرمان وغيرهما من أقطار إيران.

هؤلاء الزط في تجمعاتهم المختلفة، ثم انتشارهم في مجتمعات أخرى بعد ذلك، هم أسلاف الغجر المعاصرين لنا في المشرق.

إذا نحن تتبعنا أخبارهم، نجد الدولة تواصل الإفادة منهم في أمنها، فولى بعضهم منصب صاحب الشرطة في مدينة بغداد في بعض سنوات القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، لكننا لا نلاحظ أنها أفادت منهم في مناصب أخرى.

فيما عدا ذلك تتواتر الإشارة إلى أدوار لعبها الزط، أو فريق من الزط في أزمنة الفتن، مثل فتنة القرامطة الذين زرعوا الفوضى في كل مكان حلوا به، كما شاركوا في بعض القلاقل التي ترتبط بنزاعات على السلطة، داخل الأسرة البويهية الحاكمة في العراق وإيران.

ومن جملة ما عرف عن الزط في هذه المرحلة، وما تلاها من مراحل براعتهم في الموسيقى والغناء، حتى أن الخليفة الراضى (٣٢٢ / ٩٣٤ ـ ٣٢٩ / ٩٤٠)، كان من المعجبين بغناء «دُوْدَة الزطى الطُّنبورى»، كما اشتهروا أيضا بأن كلامهم غير مفهوم، وهذا مؤشر مهم على لغتهم، فيعيب الصاحب بن عَباد (ت ٣٨٥ / ٩٩٥) على المتنبى (ت ٣٥٤ / ٩٦٥) قبح مطالعه في بعض الأحيان، ويأتى بنموذج من شعره، ويعلق فيقول: «وهذا كلام الحُكْل[4] ورطانة الزط».

الأهم هو نفور المجتمع منهم، ونظرته إليهم بازدراء، ورميهم بكل نقيصة، وعندما كانت تتردد في بعض مصادرنا أخبار عن أعراب يهاجمون قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام، يوصفون بأنهم زط وأوباش.

وقد تسربت هذه السمعة السيئة إلى كتب الأمثال، فيأتى الميدانى (ت ٥١٨ هـ) بمثل يقول: «لا تعلم الشرطى التفحص ولا الزطى التلصص»، وبعده بسنوات طويلة، يأتى شرف بن أسد المصرى (ت ٧٣٨ هـ) بمثل آخر يقول: «من كلم الزطى على نفسه يخطى».

في فترة يصعب تحديدها، بدأ هذا المصطلح «زط» يختفي تدريجيا من حياتنا، فلا نشاهده فيما توافر لدينا من موسوعات العصر المملوكى، وبدأت تحل محله مصطلحات أخرى، ولا نجد في عصرنا هذا استخداما واضحا لهذا المصطلح بمعناه العرقى ـ أى غجر ـ سوى في سلطنة عُمان، فيقال زطى وتجمع زطوطًا.

في غضون القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، بدأت تظهر في أقطار المشرق، جماعات تعرف ببنى ساسان أو الساسانيين، ولدينا مادة طيبة عنهم في كتب الأدب، واختصهم كل من بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨هـ)، والحريرى (ت ٥١٦ هـ) بمقامة مستقلة، كما اختصهم ابن دانيال الموصلى (ت ٧١٠هـ أو ٧١١) ببابة[5] من باباته الثلاث، ولصفى الدين الحلى قصيدة تدعى بالقصيدة الساسانية.

ادعى الساسانيون انتماءهم إلى الطبقة الأولى من ملوك فارس، وأن الزمان انحدر بهم وصاروا في عداد السؤال، ثم إنهم في سؤالهم كانوا يلجأون إلى مختلف الحيل، حتى أن صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧ هـ) يتحدث عن علم بذاته يدعوه «علم الحيل الساسانية».

يتضح لدينا أن بنى ساسان هؤلاء مسمى جديد للزط، وفي كتابه عن الفتوة، يعرف ابن المعمار (ت ٦٤٢هـ) الزطى فيقول: «هو المتلصص والقطوى الساسانى».

إذا كان الساسانيون أخلافا للزط، فهل هم أسلاف للغجر؟!

نستطيع أن نتوصل إلى هذه النتيجة بتحليل القصيدة الساسانية لأبى دلف، وأبو دُلف هو مسعر بن مهلهل الخزرجى الينبوعى (ت حوالى ٣٩٠هـ)، رحالة مشهور وكاتب وشاعر ظريف، وواضح أنه لا ينتمى إلى بنى ساسان، لكنه خالطهم، ووصف أحوالهم، واقتبس مفردات من كلامهم، لا نجدها في معجماتنا العربية. والقصيدة الساسانية قصيدة طويلة، انتخب الثعالبى (ت ٤٢٩هـ) منها مائة وخمسة وتسعين بيتا، ضمنها كتابه يتيمة الدهر وأولها:

جفون دمعها يجرى
لطول الصد والهجر

تتناول القصيدة الحيل التى كان يلجأ إليها هؤلاء الساسانيون، من أجل أن يحصلوا على العطايا والأموال، فهم يسيرون في الطرقات والأسواق يعلوهم التراب، وقد ارتدوا أسمالاً بالية، وحملوا تعاويذ في أعناقهم، أو وضعوا عصابات على وجوههم، ويتعامون أو يدعون المرض أو الجنون، أو أنهم من الزهاد، أو حتى من المجاهدين، وربما ادعوا تعاطى الطب ومداواة المرضى، ومنهم من يعقر نفسه بموسى، أو يزعم أن الروم قطعوا لسانه، أو أنه قطع عليه الطريق وغصب ماله، وقد يقيد نفسه بالسلاسل ثم يفككها، وربما صحب الواحد منهم نساءً وصبية يُكْدى (أى يتسول) عليهم، أو يقرد أو يدبب، أو يطحن النوى والحديد بيديه وأضراسه.

من هذه الألفاظ المشتركة:
كَيْذ: أير. خُشْي: غير الغجرى. جَزارة: عين. سمقون: صبى. كُدَّة: امرأة. مشمول: خبز.
نصل إذن إلى نتيجة هى:
الزط ← الساسانيون ← الغجر.
ولكن متى بدأ استخدام مسمى غجر ومسميات أخرى كنور وحلب؟!

يلوح لنا أن «غجر» مسمى حديث نسبيا، لأن الغين والجيم لا يجتمعان متتاليين فى كلمة عربية واحدة، كما أن هذه الكلمة - وإن صارت دارجة اليوم - لا نشاهدها فى الكتب التى تعود إلى العصرين المملوكى والعثمانى، وربما كان أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م) هو أول من ورد عنده هذا التعبير من علماء اللغة العرب.

يذهب الأب أنستاس مارى الكرملى، وهو عالم لغوى عراقى كبير (ت ١٣٦٦ / ١٩٤٧) إلى أن هذه الكلمة، تصحيف للكلمة التركية كوچر وتعنى الرحل أو المهاجرين، ويبدو أن تخريجه صحيح، ويتسق مع ما يذكر عن أن إحدى جماعات الغجر، وفدت إلى مصر من إقليم البغدان، بعد انتصار حققه العثمانيون فى هذا الإقليم فى أواخر القرن السابع عشر.

نستطيع أن نقرر أنه بعد أن وفدت هذه الكلمة مع وفود هؤلاء المهاجرين، صار لها حضورها على المستوى الشعبى، إلى أن تحقق لها الانتشار، فبدأت تتخذ طريقها إلى الكتب.

أما عن النور (وواحدها نورى)، فهى مشتقة من لوريين (وواحدها لورى) أو لوليين (وواحدها (لولى)، وتطلق على غجر إيران. وأول ذكر لهؤلاء النور، ورد فى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ)، ونقله عنه القلقشندى (ت ٨٢١هـ) فى كتابه «صبح الأعشى».

إذا انتقلنا إلى الحلب، فلا نعلم على وجه التحقيق أصل هذه التسمية، ولا نجد فى معاجم اللغة ما يشى بها، وربما دعى هؤلاء الغجر بهذه التسمية، لأنهم انتقلوا إلى مصر من مدينة حلب.

جدير بالذكر أن الجماعات الثلاث: الغجر، النور، الحلب، تعرف جميعها بمسمى عام يجمعها هو غجر، واشتهرت كل واحدة منها - حقا أو باطلا - بنشاط معين تمارسه إلى جانب سائر الأنشطة، فاشتهر الغجر بالرقص، والنور بالسرقة، والحلب بالتسول، وجميعها مهن - إذا جاز التعبير - تدر عائدًا ماديا مجزيا.

وإذا كان الغجر فى أقطار العالم كافة، مارسوا نسقا معينا من المهن، أتينا على ذكرها فى السابق، فإنهم كانوا يكيفون أنفسهم طبقا لظروف كل قطر على حدة، فبينما اشتهروا فى البلقان بترقيص الدببة، فإنهم اشتهروا فى مصر بترقيص القرود، كما أن من جملة المهن التى تفردت بها الغجريات فى مصر كودية الزار وختان البنات.

وثمة مهنة زاولها الغجر فى مصر لعدة مئات من السنين إلى أن اختفت فى غضون القرن التاسع عشر، هى مهنة المشاعلية أو حملة المشاعل، وترد تفصيلات عنها فى بابات ابن دانيال، كما ترد تفصيلات عنها فى كتب التاريخ ابتداءً بالنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ)، وانتهاءً بعجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتى (ت ١٢٣٧ / ١٨٢٢).

تحدد عمل المشاعلى فى حراسة الوالى وهداية التائهين فى الليل، والتسول، وكسح الأقنية، وتجريس المذنبين وضربهم على أقفيتهم، والنداء بأوامر الحاكم ونواهيه، وسلخ جلود الحيوانات، وتنفيذ الحدود فى اللصوص وصلبهم أحيانا، وتجارة الحشيش والنيلة.

وعلى ذكر المشاعلى ووظيفته، فقد درجت الحال فى الريف المصرى، حتى عهد قريب على أن يعهد بمهمة الخفارة إلى خفير من النور، باعتبار أنهم أعرف باللصوص - ومنهم نور - من غيرهم.

وإذا كنا نشاهد فى الغرب صداما عنيفا بين عالم الغجر والعالم حولهم، فإننا لا نشاهد مثل هذا الصدام عندنا، والسبب - كما نذهب - هو أن الهوة لم تكن واسعة بين العالمين فى المشرق، حيث توافر قدر من الحراك الاجتماعى المرن، وهو ما لم يتوافر فى أوروبا قبل عصر الثورة الصناعية، فضلاً عن أن الغجر فى خصائصهم الفيزيقية الظاهرة، لا يختلفون كثيرا عن جيرانهم من أهل المشرق. وقد حاول بعض الدارسين أن يحددوا هذه الخصائص فى مصر، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة.

نضيف إلى ذلك، أن أسلوب الترحل وسكنى الخيام الذى عرفه الغجر، وظل يصاحبهم عبر أحقاب الزمان، عرفته جماعات أخرى غير الغجر، أخصها العربان، مما هيأ الفرصة للغجر أو بعضهم، لأن يدعوا الانتساب إلى العروبة، مما كان يقضى فى أحيان كثيرة إلى حجب الصفة الغجرية عنهم.

عند انعكاس هذا كله على الغجر تأثر كلامهم - الذى نعرفه باسم السيم - على نحو واضح - وإن كان متفاوتًا - باللغة العربية، مما أدى إلى التباعد بين لغة الغجر (أو لغاتهم) فى مصر وبين لغة الغجر فى أوروبا. واللغة التى تتحدث بها جماعة الغجر هى وحدها - دون لغة النور أو لغة الحلب - أقرب لغات الغجر المصريين إلى الرومنية، وهى لغة الغجر الأوروبيين.

تبقى كلمة أخيرة، هى: إلى أين يمضى الغجر فى عالم يشهد ثورة فى المعلومات، عالم أضحى كقرية كبيرة.

يلوح لنا، بل إنه من المؤكد أن يكون لهذا العالم أثره الواضح وربما الفادح فى نسيج الحياة الغجرية، أما إلى أى مدى، فهذا ما لا نملك إجابة عليه، وربما جاءت الإجابة من علماء المستقبليات Futurology. ■

الهوامش

(١) جرس صغير كناية عن الأغلال.
(٢) نسبةً إلى الكرج سكان كرجستان وهى جورجيا الآن، إحدى الجمهوريات السوفيتية السابقة.
(٣) هايدن أحد المسميات الكثيرة للغجر، ويرتبط بالأراضى المنخفضة وما جاورها فى ألمانيا ويعنى وثنيًا.
(٤) العجمة لا يبين صاحبها الكلام.
(٥) أى تمثيلية من تمثيليات خيال الظل.



... وفى مصـــر

■■ الاهتمام بدراسة الغجر هو اهتمام بدراسة الجماعات الهامشية داخل المجتمع الأكبر، وهو الاتجاه التقليدى الذى بدأت به الأنثروبولوجيا الثقافية مشوارها، خاصة حين صبت جل اهتمامها على المجتمعات النامية ودول العالم الثالث. وإذا كان الاهتمام بدراسة الجماعات الهامشية مبررًا ومفهوما إذا ما تبنته الدراسات الغربية، حيث كانت الدراسات موجهة إلى إبراز نقاط التفريق والاختلاف؛ حين درست البدو ومجتمعات النوبة والغجر، فإن امتلاك الأنثروبولوچيين الوطنيين ناصية البحث فى بلادهم، تجعلهم يدرسون تلك الجماعة برؤية أخرى وتوجهات تدعو إلى إعادة تكامل هذه الجماعات فى المجتمع الأكبر.

وبدأت دراسات الغجر فى مصر منذ وقت بعيد فى حوالى بدايات القرن السادس عشر، واهتمت هذه الدراسات بوجود الغجر فى مصر، فمثلاً هيمندورف عام ١٥٦٥ قال إنه رأى بين دمياط ورشيد بدوًا أو غجرًا، ولم يكن دقيقا فى وصفه لهم، ثم جاء بولزى عام ١٥٩٨ فأشار إلى وجود غجر فى القاهرة والإسكندرية، بينما سيتزن أشار فى ١٩٠٦ إلى وجود غجر فى المملكة العثمانية وقام بوصف ملامحهم وأعمالهم ومظاهر فقرهم.

وهناك من العلماء من اهتم بأسماء الغجر فى مصر، مثل فيليب وود الذى أطلق عليهم «ججر»، ولين الذى أطلق عليهم غجر أو غجر، ثم مارتن الذى اقترح تسميتهم بالنور.. أما دائرة المعارف الإسلامية، فقد أطلقت عليهم كربات أو غربات.

أما فيما يخص أعداد الغجر فى مصر، فقد أشار الدارسون الأوائل إلى صعوبة إحصائهم، بسبب تهربهم من ضريبة الرءوس، وشك الغجر فى الناس، مما أدى إلى رغبتهم فى تقليل أعدادهم والتنصل من أصلهم. فقد قدر نيوبولد وليلاند فى دراستين عددهم بحوالى ١٧٠٠٠ غجرى، أما ماسينيون فقدرهم بحوالى ٢٪ من السكان.

وقد ركزت بعض الدراسات القديمة على المظهر الفيزيقى للغجر، حيث أشار ليلاند إلى أن الغجر والحلب يتميزون عن سكان مصر من الناحية الفيزيقية، وخاصة النساء منهم. أما كريمر فقد وصفهم بخضار البشرة، وسواد العيون، والشعر الأسود المستقيم، والوشم، وارتداء الأقراط.. كما تعرضت بعض الدراسات إلى وصف المظهر الخارجى والزى، حيث أشارت إلى أن النور - وهم إحدى جماعات الغجر - متميزون، نظرًا لحسن أحوالهم المادية، أما الحلب فهم يشبهون فقراء الصعيد (يشتغلون بالاستجداء). وتعرضت هذه الدراسات إلى هجر ظاهرة الوشم لدى غجر مصر فى ذلك الوقت، وذلك محاولة منهم للتوحد مع المجتمع المحيط والتنصل من أصلهم.

وتشير الدراسات القديمة إلى أن الحجاج بن يوسف الثقفى هو الذى أدخل الزط (الغجر) إلى العراق فى العام السابع الميلادى، وهم يعتبرون أسلاف الغجر، واشتهروا بالسلب والنهب.. وقد اكد نيوبولد فى دراسة له أن أصولهم أجنبية (الهند، وإيران، وبعض مناطق أوروبا). أما كريمر فقد أكد أن نسبهم عربى كما يدعون.. فالحلب أصلهم من اليمن وحضرموت، والنور أصلهم هندى ويتواجدون فى سوريا والأردن وإيران وإسرائيل، وقد اهتم سيتزن فى دراسته التى أجراها عام ١٨٠٦ بتسجيل لغتهم، حيث وجد أنها خليط من اللغة الهندية والعربية.

ومن أهم الدراسات المعاصرة، الدراسة التى أجراها د. نبيل صبحى حنا، وتعد أول دراسة مصرية عن جماعات الغجر فى مصر، واستغرق العمل الميدانى وإعدادها قرابة ست سنوات، ولم تكن تلك الدراسة هى الأولى التى يقوم بها الباحث على المجتمعات الهامشية فى مصر، بل سبقتها دراسته الرائدة لمجتمع بدوى منعزل فى الصحراء الغربية هو جاره أم الصغير.

وقد كانت المهمة الرئيسية لهذه الدراسة:

أولا: تقديم وصف شامل لجماعات الغجر من حيث الأصل والبناء الاجتماعى والنشاط الاقتصادى والثقافى والمعتقدات.

وثانيا: تقديم دراسة متعمقة لأحد المجتمعات كنموذج، ووفاءً للأشخاص الذين أسهموا فى إخراج هذه الدراسة فى صورتها النهائية، أطلق د. نبيل صبحى اسما مستعارا على هذه المنطقة وهو «ست جيرانها».

وقد اهتم صاحب الدراسة بديناميات التكامل الاجتماعى لهذه الجماعات فى المجتمع الأم، وكذلك وصف الجوانب التى تلقى الضوء على طبيعة هذا التكامل؛ حيث اهتم بثلاثة أبعاد أساسية هى البناء الاجتماعى لجماعات الغجر، والثقافة والتصورات الشائعة عن الشخصية، مع مراعاة العامل التاريخى لجماعات الغجر.

كان لاختيار غجر «ست جيرانها» كمنطقة للدراسة، عدة مبررات فنية منها:

• أن غجر «ست جيرانها» يتكلمون لغة غجرية خاصة بجانب اللغة العربية، وينطبق ذلك على أكثريتهم، بحيث تعتبر اللغة لغة جماعة اجتماعية، وليست سيما يرتبط بأفراد يعملون فى مهنة خاصة.

• إن الحرف التقليدية التى يمارسها معظم غجر المنطقة، هى الحرف التقليدية الخاصة بالغجر فى مصر، ويعتبر بعضها حرفًا خاصة بالغجر فى مناطق أخرى من العالم.

• إن الجماعة تمارس الزواج من الداخل على الرغم من وجود حالات قليلة كسرت هذه القاعدة، ولا تتزاوج مع الجماعة المحيطة التى تشترك معها فى مقومات كثيرة.

• ترتبط الجماعة بتاريخ الزير سالم، الذى ترتبط به جماعات أخرى من الغجر فى مصر والبلاد العربية.

• إن غجر «ست جيرانها» يُعرفون فى المنطقة بأنهم غجر، ويطلقون على أنفسهم لفظ غجر، وإن كانوا ينكرون ذلك إذا سألهم أحد الغرباء.

• إن لغجر «ست جيرانها» بعض الخصائص الديموجرافية التى تزكيهم لكى يكونوا نموذجا جيدا للدراسة، فأعدادهم متوسطة ليست صغيرة، بحيث لا تتيح

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر، دراسة انثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى
نبيل صبحى حنا
القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣

لا يتزوجون الغرباء ويلقبون بالحلب والنور

الفرصة بوجود ظواهر تتطلبها الدراسة. فيقدر عددهم بحوالى ١٠٠٠ غجرى (فى وقت إعداد الدراسة).. كما أنهم منتشرون فى أكثر من مكان، ولهم علاقات مع جماعات محيطة، وهو الأمر الذى يؤدى إلى توافر درجات مختلفة من العلاقات والتكامل مع الجماعات المحيطة. على أن فكرة الانتشار لم تمنع وجود إحساس مشترك لدى غجر ست جيرانها، بأنهم أعضاء مجتمع محلى واحد، فسهولة الاتصال بين قرى المنطقة ووجود العلاقات المشتركة القوية بين الغجر، قد ترتب عليها الإحساس بالجوار النفسى والروحى. وقد ساهمت فى ذلك أيضا روابط القرابة التى تسود بينهم، وهى التى تشكل الحدود الحقيقية للمجتمع المحلى الغجرى.

• إن منطقة «ست جيرانها» تحوى غجرًا من نوعية خاصة، فهم غير مختلطين بجماعات غجرية أخرى كالحلب أو النور، كما أنهم يلتزمون بالتواجد داخل نطاق الإقليم، ويتمثل فيهم قدر من التنوع المهنى، إذ أنهم يعملون فى أكثر من مهنة غجرية تقليدية. كما أنهم مرتبطون أكثر من غيرهم بالمهن التقليدية، ويحتفظون بالخصائص الأساسية للغجر، ولهذا فهم ممثلون لجماعة غجرية نقية.

• اتضح أيضا أن غجر «ست جيرانها» قد حققوا قدرًا من التكامل مع المجتمع المحيط، غير أنه بقيت جوانب كثيرة من حياتهم لا تقبل التغيير.

• كما اتضح أن مفهوم الغجرى عن نفسه وعن العالم المحيط به، ونظرة الناس إليه تؤثر على العلاقات بين الجماعة الغجرية والمجتمع المحيط.

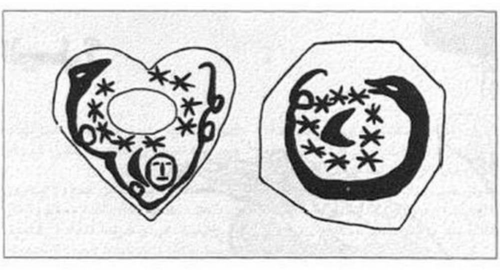
• بمقارنة جماعة «ست جيرانها» مع جماعات أخرى من الغجر، وخاصة الجماعات الإجرامية، اتضح أن دراسة هذه الجماعة أكثر ضمانا من حيث إمكانية الحصول على المعلومات، فهناك بعض الجماعات الإجرامية التى يبدو من المستحيل الاحتكاك بها احتكاكا مباشرا للحصول على المعلومات.

وقد بلغت أعداد الغجر (وقت إعداد الدراسة) حوالى ٨٥٦ غجريا مستقرا، وهم الذين يقيمون فى «ست جيرانها»، ويعتبرونها موطنهم الأساسى، حتى لو مارس بعضهم الانتقال اليومى إلى خارج المنطقة بهدف العمل.. وهم يقيمون فى القرى، ولا يعيشون فى نجوع العرب بسبب أن نشاطهم المهنى يتطلب الوجود فى القرى أكثر مما يتطلب التواجد فى النجوع البعيدة عن مجال تسويق منتجاتهم، وهم لا يعيشون فى المنطقة التى يعيش فيها البدو ولا يخالطونهم.

أصول الغجر فى المنطقة،

يحاول بعض أهالى المنطقة من غير الغجر، إرجاع أصول غجر المنطقة إلى اليهودية، وفحوى هذا الافتراض أن ست جيرانها هى المنطقة التى عاش فيها يوسف الصديق بعد بيعه فى مصر، وهى المنطقة التى عاش فيها قومه بعده، وقد خرج بنو إسرائيل مع موسى من مصر، ولكن لم يستطع كل اليهود أن يتبعوا موسى وبقية اليهود، نظرًا لأن بعضهم لم يود ترك الأعمال التى ارتبطوا بها مع المصريين، والبعض الآخر كانوا قد تكاملوا مع المجتمع المصرى، وقويت علاقتهم بالمصريين. كما أن فئة أخرى من اليهود لم يكونوا مقتنعين بالخروج من أرض مصر، ربما خوفا من المصير المجهول، وهؤلاء هم البقية المتبقية من اليهود فى منطقة «ست جيرانها»، ونسلهم هم من يعيشون فى المنطقة، ويسمون بالغجر. ويحاول أصحاب هذا الرأى التدليل عليه بقولهم: إن الغجر يتصفون بما يتصف به اليهود. فالغجرى يحاول إخفاء تميزه، وهو قوى فى داره، ولكنه يتصف بالضعف بعيدًا عن مكان استقراره، وهو دائما يحاول تملق الآخرين والتظاهر بالتقرب إليهم لكى يتمكن من الحياة بينهم. على أن هذا الرأى لا يمكن قبوله مادام أنه غير مدعم بأسانيد علمية وشواهد تاريخية واجتماعية.

أما الغجر أنفسهم فى «ست جيرانها»، فهم يحاولون ربط تاريخهم بفترة حكم محمد على، وبنظام الالتزام، ويقول الغجر إنهم كانوا فى ذلك الوقت يمتلكون الأراضى ويزرعونها، وعندما هربوا وتركوا أراضيهم، بدأوا يتعلمون مهنًا جديدة، وهى التى يرتبطون بها حتى الآن، ولكن ليس لهذا الرأى ما يؤيده أيضا، إذ إنه يثير تساؤلات عديدة أهمها: لماذا يحتقر الغجر العمل الزراعى ومن يعملون فيه احتقارا شديدا،



إذا كانت مهنتهم الأصلية هى الزراعة والعمل فى الأرض؟

وهناك بعض العوامل التى ساعدت على استقرار الغجر فى تلك المنطقة أهمها:

• ملاءمة البيئة الطبيعية وطابع الحياة الريفية للأعمال التقليدية للغجر، مثل أعمال الحدادة والسمكرة البسيطة التى تتناسب مع احتياجات الريفيين، كذلك فإن تربية الفلاحين والبدو فى المنطقة للأغنام، شجع الغجر الذين يعملون فى جز وغزل الصوف على الاستقرار فى ست جيرانها.

• تشابه طبيعة المنطقة وظروف المعيشة فيها مع المناطق التى كانوا يعيشون فيها، حيث إن معظم الأسر تنتمى أساسا إلى محافظتى بنى سويف والفيوم.

وعمومًا فإن غجر «ست جيرانها»، غجر مستقرون ومرتبطون بالمنطقة، فهم يسكنون بيوتا يستأجرونها، أو يملكونها ويشعرون بالانتماء إلى المنطقة، وحتى مجموعة الأسر القليلة التى تنتقل موسميا بين قرى المركز، فإن ارتباطها بالإقليم ارتباط قوى.

يحرص البدوى على الزواج من غجرية، ويظل الغجر وغير الغجر على السواء، غير موافقين على تخطى هذا الحاجز (إلا أن الدراسة رصدت ١٩ حالة زواج بين الغجر وغير الغجر). وينتشر فى المنطقة أيضا، الزواج بين من يعملون فى مهنة واحدة، ومنها حالات الزواج التى تربط بين أسر الحدادين فى بعض القرى.. كما تبدو القرابة أيضا ذات تأثير قوى.

ومن المعتقدات التى تميز الغجر هى اعتقادهم فى الجن والعفاريت، فهم يعتقدون أن الشخص يمكن أن تلبسه روح أو جن، وعادة ما يُلبس الرجال بأرواح مؤنثة، ويطلق عليها جنية. كما يعتقدون أن وجود الشخص فى أماكن خربة أو خالية فى الظلام، يمكن أن يؤدى إلى أن يلبس الشخص بهذه الأرواح.. كما يعتقدون أيضا فى الحسد عن طريق العين الشريرة، وعن طريق عملية «العد»، حيث ترفض بعض الغجريات كبيرات السن، أن تحدد عدد أبنائها عندما تُسأل عن ذلك، اعتقادًا أن الحسد والعد يُعد سببا فى الوفاة. والغجر يعتقدون أيضا فى «الوحمة»، فالأم التى تشتهى بعض الأكلات أثناء فترة الحمل ولا تأكلها، تظهر هذه الأكلات على شكل وحمة فى بعض مناطق جسم المولود.

أما بالنسبة للثقافة المتعلقة بالمهن والحرف، فقد أوضحت الدراسة أن لهم مصطلحات وتعابير خاصة بمهنهم التقليدية، وهى تعتبر ثقافة خاصة بهم وقاصرة عليهم، حيث يستخدم أصحاب المهنة الواحدة بعض الكلمات التى تدل على معان لا يعرفها إلا من يعملون فى نفس المهنة.

والغجر لديهم لغة خاصة بهم، على الرغم من أنها ليست لغة التخاطب اليومى، إلا أنها تستخدم فى مواقف خاصة ولأهداف محددة، فإنها تستخدم كأداة فعالة للتفرقة بين الغجر وغير الغجر فى هذه المواقف.

وبالنسبة لمجال الممارسات الثقافية بشكل عام، فإن التشابه هو السمة المميزة لما يقوم به الغجر وغير الغجر، ولكن مع وجود هذا التشابه، فمازالت جوانب من هذه الممارسات مقصورة على جماعة دون غيرها، فعلى سبيل المثال، إذا اشترك غير الغجر فى أفراح الغجر التى تماثل فى ترتيبها أفراحهم، فإنهم يظلون على هامش الاحتفال بالمناسبة، لا يشتركون فى عملية دفع النقوط، طالما هى ممارسة تهدف إلى التساند الاجتماعى والمادى بين أعضاء الجماعة الغجرية فقط.

وخلاصة القول، أن الغجر لهم جماعات أساسية هى الغجر والحلب والنور، كما أن هناك جماعات شبه غجرية مثل الغوازى والمشاعلية والرمادية والسماعنة. ومن الخصائص والسمات التى تميز الغجر، أن لهم لغة خاصة هى السنسكريتية (هندية - أوروبية)، أو لغة سرية اسمها (بتيران).. ومن أمثلة مفردات هذه اللغة:

بيانو، صد: اسكت
حوجى: غير الغجرى
خشنى: المغفل (ويقصدون بها غير الغجرى)
بتوكه: الفلوس
الراتى: الظلمة أو الليل
اللهمان: البوليس
يكيف الشاى: يعمل الشاى
يكيف المرعو: يصطاد السمك
البره: الست
اشفور: فقير
اللى يقشلك: اللى عندك

ومن الأمثلة الشعبية التى جاء فيها ذكر «الغجر»، الغجرية «ست جيرانها»، و«كل حارة ولها غجرى»، و«ألف نورى ولا دمنهورى».

الصورة النمطية للغجر،

والتصور النمطى السائد عن الغجر ،أنهم يأتون أفعالا غريبة لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء مفاهيم الانحراف، وبالتالى فالغجرى شخص منحرف. ومن أهم الظواهر التى يذكرونها أن عادة حرق النقود تنتشر بين الغجر، ويفسرونها بأن الغجر يحصلون على المال بسهولة (عن طريق السرقة وغيرها)..

ومن الصور الشائعة عن الغجر أيضا، أنهم ملعونون ومن أصول غير طبيعية (حام بن نوح)، وأنهم سحرة، ويأكلون لحوم البشر ويخطفون الأطفال، ويجلبون القاذورات، وفاسدو الأخلاق، وموضع تسلية وترفيه عند الناس.

ومن عوامل احتقار الآخر للغجر بشكل عام، سواد البشرة، وغموض اللغة، وعدم وجود ديانة معينة لهم. وتتمثل ردود أفعال الغجر تجاه هذا الاحتقار، فى تحولهم إلى السلب والنهب والجريمة والاحتيال وسكنى المناطق الهامشية.

والدليل على هذه الصورة، أن كلمة غجر أو غجرى التى تشيع بين الشعب المصرى، تستخدم لوصف الشخص الذى يتكلم بطريقة غير مهذبة، فيقال: «إنت غجرى»؟ و«ماتغجرش»، وتستخدم كلمة غجر ومشتقاتها كنوع من السب، مثلما يقال، «آه يا غجر»، لأى جماعة تأتى أفعالا غير لائقة.. وحتى بالنسبة للغجر أنفسهم، فإنهم يستخدمون كلمة «غجرى» لوصف أعضاء الجماعة بصفات غير مرغوبة، فعندما يأتى شخص غجرى أفعالا غير لائقة، أو يعد بشىء ولا يفى به، فيقال حينئذ: «أصله غجرى»، وبالنسبة للجماعة ككل يقال: «أصلهم غجر». ■

نهلة إمام

الخطـــــر القــــادم

نقــص الميــــاه

أم التفوق الاستراتيجى لإســرائيل؟

عبدالعظيم حمـــاد

■■ على كثرة ما كتب وقيل حول أزمة المياه العــذبة فى الشــرق الأوسط طوال الأعــوام العشرين الماضية فى المنطقة ، وفى العالم فإن هناك جانبا من جوانبها لم يحظ بعد بالاهتمام الكافى واللازم ، ويتمثل هذا الجانب فى المعنى الواجب استنتاجه من أن الوعى الجماهيرى أو العام بوجود هذه المشكلة ، وتعبئة الجهود السياسية والبحثية لإيجاد حلول لها، ارتبط بتحول الصراع العربى الإسرائيلى من نزاع مسلح إلى عملية بحث عن تسوية سلمية شاملة ودائمة.

فقد كان من النادر قبل الثمانينيات من القرن الماضى أن يتحدث أحد فى المنطقة أو خارجها عن أزمة مياه ، فضلا عن أن يتحدث عن حروب مياه متوقعة، كما يحدث حاليا، ويصل إلى حد النص القاطع على أن هذه الأزمة ستكون السبب الوحيد، وليس الرئيسى فقط للحروب فى الشرق الأوسط وتخومه فى المستقبل القريب، ونحن نعرف أن عملية السلام العربية الإسرائيلية بالطريقة التى تصنع بها الآن كانت قد بدأت باتفاقات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل تحت الرعاية الأمريكية فى عام ١٩٧٨.

ماهو المعنى الذى قلنا إن من الواجب استنتاجه من ذلك الارتباط؟

سوف يتبادر إلى الأذهان أن الحديث عن مشكلة المياه فى الشرق الأوسط، والبحث عن حلول لها فى سياق عملية السلام العربية الإسرائيلية هو جزء لايتجزأ من خطط التعاون الإقليمى بعد الوصول إلى التسوية السياسية، ولكن المسالة أعقد من هذا الافتراض المباشر والمريح للمدافعين عن مفهوم التعاون الإقليمى الشرق أوسطى، إذ إن الاتجاه الغالب فى تشخيص المشكلة ورسم الحلول ينطوى على مغالطتين كبريين، سوف يؤدى التسليم بهما إلى مخاطر لاسبيل إلى تداركها على مستقبل الوجود السياسى العربى، وهاتان المغالطتان متكاملتان وظيفيا بمعنى أن كلا منهما تكمل الأخرى لدفع الوعى الجماهيرى، والجهود الرسمية فى الاتجاه الذى نخشى منه، والمغالطتان هما:

١ ـ تغيير المفاهيم والقواعد الحاكمة لأنماط توزيع المياه بين دول المنطقة ، وبين هذه الدول ودول الجوار.

٢ ـ المبالغة فى تغليب منهج الصراع على منهج التعاون فى التنبؤ بالمستقبل، بهدف محدد هو تمرير ذلك التغيير فى المفاهيم والقواعد بسهولة، خوفا من الصراع المحتمل حول مورد هو بطبيعته أهم للوجود الإنسانى من أى مورد آخر، وهو فى ظروف الدول العربية بالغ الحساسية، بما أن أكثر من ٦٥٪ من موارد المياه العربية يأتى من خارج الحدود.

ولنبدأ برصد معالم ونتائج التغيير الذى يجرى الآن فى المفاهيم والقواعد المطبقة على توزيع المياه، أول وأخطر هذه المعالم هو تبنى كل من تركيا حيث ينبع نهر الفرات ودجلة المتدفقان أيضا إلى كل من سوريا والعراق، وإثيوبيا حيث ينبع النيل الأزرق الرافد الرئيسى للنيل المتدفق إلى السودان ومصر لنظرية أو مفهوم النهر العابر للحدود، بدلا من نظرية النهر الدولى «قديما» وحوض التصريف الدولى «حديثا» ومع أن نظرية النهر العابر للحدود ظلت دائما نظرية مرفوضة من أغلب فقهاء القانون الدولى فى الماضى فإنه قد قضى عليها تماما فى مشروع اتفاقية الأمم المتحدة لقانون الاستخدامات غير الملاحية للمجارى المائية الدولية،وهى اتفاقية إطارية وقعت بالأحرف عام ١٩٩٧، وسوف تدخل حيز التنفيذ عندما تصدق عليها ٣٥ دولة عضو فى الأمم المتحدة ، فقد اعتبرت هذه الاتفاقية كل مجرى مائى يمر فى دولتين أو أكثر أو بين



دولتين أو أكثر مجرى مائيا دوليا، ولم تستخدم قط تعبير نهر عابر للحدود، ومع ذلك فإن تركيا من أكبر مسئول وحتى أصغر باحث فيها لا تعرّف أيا من نهري دجلة أو الفرات إلا بوصفه نهرا عابرا للحدود بل إن الإدارة المختصة بالنهرين في وزارة الخارجية التركية تسمى بإدارة المياه العابرة للحدود.

والنتيجة المترتبة على هذا المفهوم هي اعتبار مياه الفرات ودجلة المتدفقة من روافده في الأراضي التركية مياها تركية خالصة، أو موردا قوميا تركيا، وليس ثروة مشتركة مع كل من سوريا والعراق، ومن ثم تخضع هذه المياه ونسبتها في حالة الفرات تصل إلى ٨٨,٧٪ من جملة مياهه، و٦٠٪ في حالة دجلة، إلى حقوق السيادة التركية المطلقة، أوكما عبر الرئيس التركي السابق سليمان ديميريل عندما كان رئيسا للوزراء بقوله: إذا كان هذا المورد الطبيعي للمياه في بلادنا، فلنا الحق المطلق في استعماله بالطريقة المناسبة لنا، وليس لسوريا أو العراق أية حقوق في المياه التي تنبع من تركيا.

ويترتب على التمسك بالسيادة المطلقة على منابع الفرات ودجلة ليس فقط إنكار الحقوق المكتسبة لكل من سوريا والعراق، ولكن أيضا إقرار حق تركيا في الانفراد باستخدام هذه المياه إلى حد تخزينها وبيعها وحرمان السوريين والعراقيين منها إذا سار هذا المنطق إلى نهايته.

والحقيقة أيضا هي أن مبدأ الحقوق المكتسبة للدول الواقعة في حوض النهر الدولي هو مبدأ ثابت في جميع نصوص ومصادر القانون الدولي، بما في ذلك اتفاقية الأمم المتحدة الجديدة. والخلاصة في هذه النقطة هي أن تركيا تنكر ما هو ثابت، وتتمسك بما ليس له أصل بتاتا في القانون الدولي لكي تغير من نمط توزيع مياه الفرات ودجلة بينها وبين كل من سوريا والعراق.

وأذكر بهذه المناسبة أنني دخلت فيما يشبه المناظرة مع الدكتور علي إحسان باجيش رئيس مركز أبحاث المياه والاستراتيجية في أنقرة حول هذه النقطة في مؤتمر بحثي دولي عقد في فبراير الماضي بالقاهرة. فقد أراد الدكتور باجيش أن يطمئن الحاضرين من سوريا والعراق على حسن نيات تركيا حيال البلدين في مسألة المياه. فقال إن بلاده تعي وعيا كاملا أن نهري الفرات ودجلة هما نهران عابران للحدود، وأنها سوف تستمر في إطلاق المياه للدولتين عبر هذه الحدود. وكان ردي عليه هو أن الخطر الحقيقي لايكمن في التدابير والمشروعات التي تطبقها تركيا حاليا في أعالي النهرين، وإنني أستطيع الاعتراف بأن الحكومة التركية التزمت تقريبا بإطلاق الكميات من المياه المتفق عليها مع سوريا والعراق عام ١٩٨٧ في ذروة الأزمة المترتبة على ملء خزان أتاتورك. ولكن هذا الخطر الحقيقي يكمن في تغيير المفاهيم والقواعد بطريقة تجعل المستقبل محفوفا بالمخاطر، ليس فقط في حوض الفرات ودجلة، ولكن أيضا في حوض النيل، لأنه إذا راجت نظرية النهر العابر للحدود، ومايترتب عليها من إقرار مبدأ الملكية القومية لمنابع الأنهار الدولية، فماذا سيمنع إثيوبيا وأوغندا في المستقبل من تطبيق المعايير نفسها على منابع النيل، وخصوصا أن شيئا من هذا قيل بالفعل.

وفي هذه المناقشة طلبت من جميع أساتذة القانون الدولي المشاركين أن يجيبوا عن سؤال ما إذا كان القانون الدولي يعرف شيئا اسمه نهر عابر للحدود، وقد أجمع الأساتذة على عدم وجود مثل هذا التعريف في أي معاهدة دولية، أو في أي حكم قضائي دولي، أو في أي مصدر آخر من مصادر القانون الدولي.

بعد انتهاء المناقشة، وكانت في جلسة عامة انتحى بي الدكتور باجيش جانبا، وقال إنه يدرك الوضع الخاص لمصر بالنسبة للنيل، وأنه يقترح عدم المقارنة بين أهمية النيل لمصر، وأهمية الفرات ودجلة لسوريا والعراق، فمصر تعتمد على النيل اعتمادا مطلقا، ولكن سوريا والعراق ليستا كذلك بالنسبة للفرات ودجلة، لأن لديهما مصادر أخرى للمياه، ثم أضاف أنه أيضا لايمكن مقارنة تركيا القادرة اقتصاديا وتكنولوجيا على إقامة مشروعات مائية بإثيوبيا غير القادرة على ذلك عمليا في منابع النيل، وهنا أيضا اختلفت مع رئيس مركز أبحاث المياه والاستراتيجية التركي، متسائلا: ما الذي يمنع نظريا أن تكتسب إثيوبيا القدرة الاقتصادية والتكنولوجيا على إقامة مشروعات على النيل تماثل المشروعات التركية على الفرات، ولو بعد مائة سنة أو حتى ألف سنة؟ وهل كون تركيا قادرة على إقامة مثل هذه المشروعات الآن يكفي لتغيير قواعد القانون الدولي على هذا النحو الاستثنائي الصارخ، الذي يجعل من تركيا هي الدولة الوحيدة القائلة بنظرية النهر العابر للحدود.

في اليوم التالي لهذه المناظرة لم يكذب المندوب الإثيوبي في المؤتمر الخبر، وقال بوضوح إن إثيوبيا لا تعبأ بما يسمى بالأمن المائي العربي، وأن لها الحق في استخدام «مياهها» المتدفقة إلى النيل الأزرق كما تشاء، وهي لن تقبل أن تبقى إلى الأبد مصدر ٨٥٪ من مياه النيل ثم لايكون نصيبها من هذه المياه سوى ١٪.

وبغض النظر عن أننا سواء بصفتي الشخصية أو بفهمي للسياسة المائية المصرية لانعترض على حق إثيوبيا في الاستفادة بمياه النيل إلى أقصى حد ممكن في إطار التعاون بين جميع دول الحوض لزيادة موارد النهر، فإن ما يجب أن يستوقفنا هنا هو الحديث عن مياه النيل الأزرق بوصفها ملكية إثيوبية خالصة، وليست ثروة مشتركة مع السودان ومصر، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى إزاء ذلك المفهوم الجديد والخطير.

أما أوغندا فقد مضت ذات مرة أبعد من ذلك، فطالبت في أحد اجتماعات مجموعة تكونيل، وهي منظمة فنية بين دول حوض النيل، كلا من مصر والسودان بدفع تعويضات مالية لها نظير قيامها بدور المخزن الطبيعي لمياه النيل، حيث تقع في أراضيها البحيرات الاستوائية التي ينبع منها النيل الأبيض، وهذا يعني أن أوغندا أيضا تعتبر المياه موردا قوميا لابد أن يخضع لشروط التبادل التجاري.

> **خريطة المياه في الشرق الأوسط حافلة بالمصادفات الجغرافية، وهذه الظاهرة تقوض مفهوم الملكية وشرعية الاستخدام المحلي للمياه، وتفرض الحاجة إلى اتفاق لنقل المياه إلى المناطق التي لم تشأ المصادفات أن تمنحها إياها**
>
> **البروفيسور الإسرائيلي جدعون فيشزون**

كان هذا التغيير المفتعل في الإطار القانوني لتوزيع مياه النيل ودجلة والفرات، مضافا إلى زيادة الطلب على المياه في الشرق الأوسط الذي يعاني في معظمه من قلة المعروض عن المطلوب هو المدخل لاستحداث أعراف جديدة حول المياه في المنطقة، وهذا هو نمط التغيير الثاني والمهم في قواعد ومفاهيم توزيع المياه في المنطقة.

وبدلا من ترويج مفهوم التعاون البري؛ لزيادة موارد المياه من مصادرها المختلفة بين دول الحوض الواحد في إطار قواعد القانون الدولي، اخترعت الأدبيات والسياسات الأجنبية خاصة الأمريكية والصادرة عن البنك الدولي مفاهيم جديدة كلية مثل تسعير المياه، وبورصة المياه، وإنشاء بنك مائي، غير أن البداية كانت في إسرائيل.

مثلا يشير البروفيسور جدعون فيشزون في تقديمه لكتاب «الماء والسلام.. وجهة نظر إسرائيلية» إلى أن خريطة المياه في الشرق الأوسط حافلة بالمصادفات الجغرافية، وهذه الظاهرة تقوض مفهوم الملكية وشرعية الاستخدام المحلي للمياه(لاحظ التناقض مع استمساك تركيا وإثيوبيا بمفهوم الملكية) وتفرض الحاجة إلى اتفاق لنقل المياه إلى المناطق التي لم تشأ المصادفات أن تمنحها إياها.

وليست هذه الفقرة إلا مثلا واحدا على عشرات المحاولات الإسرائيلية لتغيير أعراف قسمة المياه في الشرق الأوسط، غير أنها تشكل الأساس النظري لتلك المحاولات، وإضافة إليها هناك حجج أخرى بعضها اقتصادي، وبعضها الآخر سياسي، فمثلا يقول أليشع كالي - أشهر المهتمين بقضية نقل مياه النيل إلى إسرائيل - إن مصر تبدد ١٠ مليارات من الأمتار المكعبة من المياه في البحر المتوسط، وسوف تكسب إذا باعتها إلى إسرائيل المستعدة لشرائها لأن المزارع الإسرائيلي يستطيع أن ينتج بالكمية نفسها من المياه تسعة أضعاف ما ينتجه المزارع المصري بها من القطن.

وقد ثبت الآن أن الرئيس الراحل أنور السادات لم يتطوع بعرض نقل مياه النيل إلى إسرائيل، وإنما كان يترجم خطة عرضها عليه الخبير الإسرائيلي شاؤول أولوزوروف خلال مفاوضات السلام المصرية - الإسرائيلية عام ١٩٧٩، وكان أولوزوروف يشغل من قبل منصب نائب مدير هيئة المياه الإسرائيلية.

وعلى الرغم من أن مصر نبذت نهائيا هذه الفكرة منذ أواخر أيام السادات، ثم نجحت في إبقاء قضية مياه النيل خارج المفاوضات متعددة الأطراف للسلام في الشرق الأوسط التي تضم لجنة للمياه بين لجانها الرئيسية، فإن إسرائيل لم تتخل قط عن حلمها القديم، فعاد بنيامين نيتانياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مباشرة وكلف هيئة المياه الإسرائيلية بإعداد دراسة عن تكلفة نقل نسبة ١٪ من مياه النيل سنويا إلى إسرائيل.

وكما لاحظنا فإن إسرائيل الحليفة الاستراتيجية لتركيا، والعاملة بنشاط في إثيوبيا تسعى إلى تقويض مفهوم الملكية الوطنية للمياه، في حين أن كلا من تركيا وإثيوبيا تحاولان تكريس هذا المفهوم المخالف للقانون الدولي، فكيف نفسر هذا «اللغز» في ضوء ما هو ثابت من تعاون بين إسرائيل وكل من هاتين الدولتين في مجال المشروعات المائية؟

التفسير المقبول هو أنه بغض النظر عن الاختلاف في التفاصيل فالمطلوب هو تغيير القواعد المعمول بها، ولا بأس من أن تأتي الأفكار الأمريكية وأفكار البنك الدولي لتقدم حلا لهذا التناقض عن طريق إنشاء بنك وبورصة المياه في الشرق الأوسط، بحيث تقبض دول«الملكية» ثمن تصدير المياه للدول التي شاءت «المصادفات» الجغرافية أن تحرمها من المياه على حد تعبير البروفيسور الإسرائيلي فيشزون.

ولنلقي الآن نظرة سريعة على تلك الأفكار التي تحولت إلى مشروعات، ففي الوقت الذي كان يروج فيه فريق جامعة هارفارد الأمريكية، ومركز واشنطن للدراسات الاستراتيجية برئاسة جويس ستارا - وهذا أيضا اسم مهم في قضية المياه في الشرق الأوسط - لمفهوم الكارثة المقبلة في المنطقة بسبب نقص المياه، أصدر البنك الدولي تقريره المعروف باسم «من الندرة إلى الأمان» عام ١٩٩٧، ويرسم هذا التقرير إطارا عاما لسياسة طويلة المدى لإدارة عرض المياه والطلب عليها في الشرق الأوسط، ويقرر أن الأسلوب الأمثل هو إقامة سوق عالمية وإقليمية للمياه، وهو نموذج تبنته أيضا جامعة هارفارد.

وتظهر خطورة هذا النموذج في أنه يلبي احتياجات كل من تركيا وأثيوبيا وإسرائيل على حساب الحقوق التاريخية المكتسبة للدول العربية في أحواض النيل ودجلة والفرات، وبحيث يكون الحل الوحيد لتجنب الحروب حول المياه هو اضطرار الدول العربية لقبول نقل خزين مياهها لإسرائيل في إطار صفقات شاملة تضرب عرض الحائط بقواعد القانون الدولي، وإلا تعرضت هي نفسها لانتقاص حقوقها المائية، ويكون مقتضى هذه الصفقات دخول إسرائيل فاعلا أصيلا في مشروعات تنمية موارد الأنهار الكبرى في المنطقة من خلال تحالفها المائي مع دول المنابع، التي ستلتزم في هذه الحالة بالربط بين نقل المياه لإسرائيل، وبين التعاون مع دول الممرات والمصبات(سوريا والعراق والسودان ومصر) لزيادة الموارد المائية للأنهار.

نأتي إلى المغالطة الثانية أي: المبالغة في تغليب منهج الصراع في المستقبل، يلفت النظر أن الفكر السياسي التركي حول موضوع المياه لم يكن يؤمن بالصراع قبل أن تقفز الخطط الإسرائيلية والأفكار الأمريكية إلى السفينة، ففي ١٨/ ١/ ١٩٩٠ قال الرئيس التركي الراحل تورجوت أوزال: «إن الشائعات المتواترة عن إمكان نشوب صراع





«إذا كان هذا المورد الطبيعى للمياه فى بلادنا، فلنا الحق المطلق فى استعماله بالطريقة المناسبة لنا، وليس لسوريا أو العراق أية حقوق فى المياه التى تنبع من تركيا»

سليمان ديميريل الرئيس التركى السابق

«إثيوبيا لن تقبل أن تبقى إلى الأبد مصدر ٨٥٪ من مياه النيل ثم لايكون نصيبها من هذه المياه سوى ١٪» المندوب الإثيوبى إلى مؤتمر المياه الذى عقد بالقاهرة (فبراير ٢٠٠٠)

بين تركيا وجيرانها بسبب المياه تعبر عن رؤية خاطئة ومضللة، ولايمكن قبول الزعم القائل بأن سد أتاتورك ستكون له تأثيرات سلبية فى سوريا والعراق، لأنه على العكس من ذلك سيكون مصدر رخاء وازدهار لكل من البلدين».

المعروف أن أوزال كان يتبنى سياسة الانفتاح على الدول العربية، وكان من أقل الساسة الأتراك ارتباطا بإسرائيل، وكان أيضا ملتزما بالتعاليم الإسلامية فى حياته الخاصة، ومما له دلالة أن مشروعات تركيا المائية الحديثة بدأت خلال رئاسته للحكومة التركية، وإذن ففى حدود المصالح التركية الذاتية لايوجد ما يدعو إلى تبنى نموذج الصراع مع سوريا والعراق حول مياه الفرات، ولكن ذلك ليس هو المطلوب لتمرير الصفقات السابق الإشارة إليها لتغيير جميع القواعد والمفاهيم والأعراف وفى توزيع مياه الشرق الأوسط من أجل تلبية مطلب نقل المياه إلى المناطق التى «شاءت مصادفات الجغرافيا حرمانها منها»، أى إسرائيل.

وعلى الرغم من محاولة أوزال مبكرا - أى فى سنة ١٩٩٠ - دحض فكرة الصراع، فقد توالت الكتابات والجهود التى تقودها مراكز الأبحاث والمؤسسات الجامعية والسياسية الأمريكية لتكريس مفهوم حروب المياه فى المنطقة، ثم جاء بعد ذلك تقرير البنك الدولى المشار إليه.

وقد أشرنا فيما سبق، إلى دور مركز واشنطن للدراسات الاستراتيجية ورئيسه جويس ستار ودور جامعة هارفارد ونشير الآن إلى مؤسستين أخريين هما المخابرات المركزية الأمريكية، وصحيفة «هيرالد تريبيون» الدولية.

فى أواخر عام ١٩٩٣ نشرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقريرا حددت فيه عشر مناطق فى العالم ستشهد صراعات ومواجهات حول المياه، ومعظمها فى الشرق الأوسط، وحدد التقرير ٣ مستويات للخطورة كما يلى:

١- مناطق مرشحة للحرب بسبب المياه هى الأردن وفلسطين وإسرائيل.

٢- مناطق محفوفة بالمخاطر، وقد تكون فى دائرة الخطر الفعلى وهى حوضا دجلة والفرات والخليج العربى.

٣- مناطق توترمائى مرشح للدخول فى دائرة الخطر خلال ٢٠ أو ٢٥ عاما وهى مصر والسودان.

المؤسسة الثانية: هى صحيفة «هيرالد تريبيون» الأمريكية التى نجحت بمساعدة حكومية وبالتعاون مع الحكومة التركية سنة ١٩٩٧ (وكانت الأوضاع السياسية فى تركيا قد تغيرت على حساب الانفتاح على الدول العربية)، فى عقد مؤتمر «مياه العالم» فى اسطنبول فى شهر سبتمبر من ذلك العام، وشارك فى هذا المؤتمر البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وهيئات المعونة الأمريكية والأوروبية والكندية، وقد أقر هذا المؤتمر نموذج السوق الدولية للمياه، وأوصى بتعبئة الموارد المالية لتمويل مشروعات المستقبل.

نعم هناك مشكلة مياه فى الشرق الأوسط تتمثل فى انخفاض متوسط نصيب الفرد من المياه عن المعدلات العالمية، وتنتج عن وقوع المنطقة فى الإقليم المناخى الجاف أو شبه الجاف، وعن النمو السكانى المتزايد، لكن هذا شىء، وطرق المعالجة المطروحة شىء آخر، فالطبيعى هو أن تتعاون دول الحوض الواحد أولا فى تنمية موارده، وكان هذا هو السائد كما رأينا فى تصريح الرئيس التركى الراحل أوزال.

كما أن هذا هو السائد فى الفكر السياسى المصرى والسورى والعراقى حول الماء، حتى ظهرت محاولات تغيير القواعد، لاستحداث نماذج ضاغطة فى المقام الأول على الدول العربية، وتلبى أيضا فى المقام الأول احتياجات إسرائيل، وهذا هو الخطر الحقيقى لأنه يتكامل مع أخطار أخرى على الوجود العربى مبعثها إسرائيل وقدراتها الفائقة على توظيف موازين القوى الدولية والإقليمية لمصلحتها.

وفى النهاية ثمة سؤال يلح على الذهن: هل التركيز المبالغ فيه على حروب المياه فى الأدبيات السياسية الأمريكية وصداه فى المنطقة هونموذج آخر من تطبيقات اختراع عدو جديد يحل محل عدو قديم، مثلما قيل فى الغرب إن الإسلام هو العدو بعد زوال الشيوعية، أو مثلما تردد عن صراع الحضارات؟

والمعنى هل تصلح عقيدة الصراع على الماء لملء الفراغ الذى سينجم عن غياب الصراع العربى - الإسرائيلى بعد تسويته بحيث يجد العرب عدوا بديلا عن إسرائيل؟!

وثمة سؤال آخر يتفرع عن السؤال السابق: هل الخطر الحالى على الأمن القومى العربى هو نقص المياه، أم الحياة تحت مظلة التفوق الاستراتيجى الإسرائيلى الشامل دون وجود نظام للأمن الإقليمى يفرض على إسرائيل ما يفرض على الآخرين فى المنطقة؟ ■

مراجع

١. المياه العربية وتحديات القرن ٢١، مركز دراسات المستقبل جامعة أسيوط، ١٩٩٩.

٢. قضايا المياه بين تركيا وسوريا والعراق، وزارة الخارجية التركية، إدارة المياه الإقليمية والعابرة للحدود، أنقرة مايو ١٩٩٧.

٣. المشكلة الأزلية، المياه فى الشرق الأوسط، أشوك سواين، وآل جى فينتر، تعليق عبدالعظيم حماد، المركز العربى للدراسات الاستراتيجية، القاهرة.

٤. المياه مصدر للتوتر فى القرن ٢١، د. محمود أبوزيد، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٩٨.

طارق البشرى

مشروع

النهضة المصرية

١٩١١

أهم حدث سياسى وَحّد الأمة

يكاد يكون الذكاء قيمة بذاتها، لولا أن ضرورات الجماعة توجب أن يكون مسخرًا لخيرها. والذكاء قوة، وسعى المرء لخير جماعته أمانة، والقرآن الكريم أوصانا عندما نستاجر أن نستاجر القوى الأمين.

أقول ذلك لأنه كثيرا ما صادفنى وانا أتصفح أوراق التاريخ المصرى الحديث، وثائق أو عبارات أو أفعال، فيستوقفنى الانبهار من الذكاء الأدمى الذى تدل عليه، والذى صدرت عنه. وقد لا أكون متفقا تماما مع ما تضمنته الوثيقة من وجهة نظر، ولكن تحفظى لا يقلل كثيرا من إعجابى بهذا الذكاء وسعة الحيلة، ولا ينفى لدى شعورا خفيا بالفخر الجماعى باننى أنتمى إلى هؤلاء القوم، وبالثقة باننا سنكون قادرين إن شاء الله على تجاوز ما نصادف من صعوبات حاضرة فى زماننا هذا، الذى نحياه فى مفتتح القرن الواحد والعشرين.

من هذه الوثائق مثلا، ما عرف فى تاريخنا الحديث باسم «برنامج الحزب الوطنى القديم»، وكان الفريد بلنت تلقاه من جملة من الزعماء وقتها، منهم محمد عبده، ومحمود سامى البارودى وأحمد عرابى.

وما يلفت النظر فى هذا البرنامج هو الصيغة السياسية بالغة الدقة والتوازن التى صيغ بها، والإدراك الدقيق متعدد الجوانب لمجمل القوى السياسية الخارجية والداخلية التى تحيط بما يمكن أن يسمى وقتها «المسألة المصرية»، والأهداف الواقعية المتوازنة التى رسمها البرنامج بمراعاة التوازنات القائمة.

وأول توازن يشير إليه البرنامج، هو



الإقرار بصلة مصر بالدولة العثمانية من حيث إمامتها للمسلمين واستحقاق الخراج والمساعدة العسكرية، مع المحافظة على امتيازات مصر الوطنية ومقاومة أية محاولة لجعل مصر ولاية عثمانية. والتوازن الثانى يتعلق بتأييد سلطة الخديو على قانون العدل والشريعة، مع العزم على عدم العودة للاستبداد والإلحاح فى تنفيذ حكم الشورى وإطلاق الحريات، مع الاستقامة وحسن السلوك. والتوازن الثالث هو الاعتراف بفضل فرنسا وإنجلترا، واستمرار المراقبة الأوروبية وقبول الديون الأجنبية، مع الاعتراف بأن هذه الديون لم تصرف لمصلحة مصر، وإنما صرفت فى مصلحة حاكم ظالم، ومع الأمل فى أن يستخلص المصريون ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئا فشيئا، وأن يخضع الأجانب للضرائب.

والتوازن الرابع يتعلق بالبعد عن القلاقل، مع عدم السكوت على الظلم، وهم يؤيدون مجلس شورى النواب وتحرير المطبوعات، مع تفويض الأهالى أمرهم لأمراء الجهادية (الجيش)؛ لأن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد، ومتى حصلت الأمة على حقوقها، فإن رجال العسكرية عازمون على ترك السياسة. والتوازن الخامس، أن الحزب سياسى وليس دينيا؛ لأن فيه من النصارى واليهود، ولكن أغلبيته مسلمون لأنهم تسعة أعشار المصريين، والحقوق فى السياسة والشرائع متساوية، إلى آخر هذا النهج.

ونحن هنا أمام نص فى الأدب السياسى، يمكن أن يكون مجال دراسة وتحليل، من حيث ما يعكس من نمط تفكير

فى القرن العشرين



نحن هنا أمام نص فى الأدب السياسى، يمكن أن يكون مجال دراسة وتحليل، من حيث ما يعكس من نمط تفكير لا نجده إلا عند القادة ورجال الدول، المعتادين على اتخاذ القرارات والبحث فى إمكانات إنفاذها وتوقع ردود فعلها وتقدير موازين القوى، والأمر هنا فى النهاية ليس أمر صخب وتجييش عاطفى، ولكنه أمر وزن وحساب وتلفت فى أوضاع البيئة المحيطة

لا نجده إلا عند القادة ورجال الدول، المعتادين على اتخاذ القرارات والبحث فى إمكانات إنفاذها وتوقع ردود فعلها وتقدير موازين القوى. والأمر هنا فى النهاية ليس أمر صخب وتجييش عاطفى، ولكنه أمر وزن وحساب وتلفت فى أوضاع البيئة المحيطة. وآية ذلك كله أن من لم تكن لديه دراية بأوضاع هذه الفترة ويقرأ هذا البرنامج فقط، يمكنه أن يحيط بالخصائص العامة للمرحلة التاريخية، ولطبيعة الحركة السياسية للحزب، ولنوع القادة العاملين فى إطار القوى المتصارعة.

ومن هذه الوثائق أيضا فيما يبدو لى، قرار الجمعية العمومية فى ١٩١٠، بشأن رفض مد امتياز قناة السويس أربعين سنة تالية؛ لانتهاء المدة الأصلية للامتياز، وكان امتياز شركة قناة السويس مخولا للشركة باتفاق مع حكومة مصر لمدة تسع وتسعين سنة، تنتهى فى ١٩٦٨، وأريد سنة ١٩١٠ منح مصر بعضا من ربح الشركة إذا وافقت على مد الامتياز أربعين سنة تالية تنتهى فى ٢٠٠٨.

أثير هذا الموضوع فى عهد وزارة بطرس غالى، وكان لهذا المشروع من شدة الوطء على الرأى العام المصرى، ما جعله بؤرة الصراع السياسى منذ نشر محمد فريد الخبر فى صحيفة اللواء فى أواخر ١٩٠٩، واحتدم الصراع حول المشروع، إلى حد أن اغتيل رئيس الوزراء بطرس غالى فى طيات هذا الصراع فى ٢٠ فبراير ١٩١٠، وأرجع قاتله إبراهيم الوردانى سبب الاغتيال إلى ثلاثة أمور: أسبقها أن بطرس غالى هو من وقع مع بريطانيا فى ١٨٩٩ اتفاقية فصل السودان عن مصر، وثانيها: أنه هو من رأس محكمة دنشواى التى أعدمت ستة من المصريين بغير حق، وكان فى الحالين وزيرا للخارجية، وآخرها، أنه وهو رئيس للوزراء أيد مشروع مد امتياز قناة السويس.

اضطرت الحكومة فى عهد خلفه محمد سعيد، أن تعرض الموضوع على الجمعية العمومية، وهى جهاز استشارى شبه نيابى، تقوم مع مجلس شورى القوانين، وتضم أعضاء هذا المجلس (الاستشارى أيضا) والوزراء وستة وأربعين عضوا آخر، ولم تكن لها سلطة قطعية واحدة، إلا بالنسبة للنظر فى تقرير الضرائب الجديدة، وفيما عدا ذلك، فإن استشارتها غير ملزمة. ولكن ضغوط الرأى العام بالنسبة لمشروع مد امتياز قناة السويس، ألجأ الحكومة بعد اغتيال بطرس غالى، إلى أن تقرر التزامها بما تتخذه الجمعية العمومية من قرار فى شأن مد امتياز قناة السويس.

وشكلت الجمعية لجنة من بعض أعضائها لدراسة المشروع، فأعدت تقريرا قدمته إلى الجمعية العمومية، وكان آية فى الدقة والإحاطة وسعة الاطلاع والربط بين الجوانب القانونية والاقتصادية، وبين توقعات المستقبل عن دور قناة السويس فى مواجهة طرق التجارة العالمية، وانتهى الأمر بناء على هذا التقرير إلى رفض الجمعية للمشروع فى ٧ أبريل ١٩١٠.

أحكى ما سبق لأتوصل بالقارئ إلى الكتاب الذى أريد أن أعرضه عليه الآن، وهو ليس كتابا مؤلفا، ولكنه أعمال لمؤتمر لا يكاد المصريون يعرفون عنه اليوم إلا أقل القليل، ولكنه فى ظنى يشكل واحدًا من أهم الأحداث السياسية الاجتماعية التى حدثت فى بداية القرن العشرين، وصاحبت آثارها مصر فى العقود التالية على مدى النصف الأول من القرن العشرين بصفة خاصة.

عنوان الكتاب «مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول، المنعقد بهليوبوليس (من ضواحى القاهرة) من يوم السبت ٣٠ ربيع الثانى عام ١٣٢٩هـ (٢٩ أبريل ١٩١١م) إلى يوم الأربعاء ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩هـ (٤ مايو ١٩١١م)، المطبعة الأميرية بمصر». وفى وسط الصفحة الأولى «تنبيه، كل ما عزى إلى المؤتمر المصرى ولم يرد بهذه المجموعة فلا يعتد به، اللجنة التنفيذية للمؤتمر». ومن هذا يظهر أن الكتاب وثيقة، لها حجيتها بالنسبة لما دار فى المؤتمر من أعمال، وما سجل فيه من أقوال، وما اتخذ فيه من قرارات. وقد أسمى المؤتمر المصرى الأول، أملا فى أن تتلوه مؤتمرات من نوعه، ولكن أحداث التاريخ جرت على غير ما يتحقق به هذا الأمل بالصورة التى رسمها منظموه، ولا بالاسم الذى أطلقوه، فلم نعرف انعقادا لمؤتمر «ثان» بعده.

وأول معرفتى بأعمال هذا المؤتمر، كانت عندما كنت أدرس الموضوعات التى تضمنها بعد ذلك كتاب لى باسم «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية». وكنت أتابع وقائع السنوات الأولى للقرن العشرين، إبان ذروة النفوذ البريطانى فى مصر، وكانت فشت الفاشية وقتها بين المسلمين والأقباط، وتابعت الصحف وقتها، وبخاصة الصحافة القبطية التى كانت تتسم بالعنف والحدة البالغة لتهييج الأقباط ضد مواطنيهم المسلمين، وسياسة المعتمد البريطانى «فرق تسد» تفعل الأفاعيل، وبخاصة بعد وفود إلدون جورست، الذى خلف كرومر معتمدا بريطانيا فى مصر، وانعقد المؤتمر القبطى فى الأيام من ٦ مارس إلى ٨ مارس ١٩١١.

أنا هنا لا أحكى قصة هذا المؤتمر، ولكننى أمهد به لحديثى عن المؤتمر الذى تلاه، وأحاول أن أجعل التمهيد مختصرا، وبالقدر الذى لا يخل بالسياق، لتوضيح دلالات المواقف.

وكانت فكرة عقد المؤتمر القبطى قد ظهرت وتحدد موعده فى ٢٤ فبراير ١٩١٠، وذلك لحل المشكلات التى كانت قائمة بين رجال الكنيسة وبين جمهور أعيان الأقباط، وأرجئ عقد هذا المؤتمر لاغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء قبل الانعقاد بثلاثة أيام، ثم تحول الهدف من عقده إلى موضوع مطالب الأقباط بعد حادث الاغتيال، رغم أن الحادث كان منبت الصلة بهذه المطالب، على ما سبق البيان.

ولكن ما عرف بأنه «مطالب الأقباط» كانت بدأت إثارته فى صحيفتى «مصر» و«الوطن»، من سنة ١٩٠٨ بعبارات بالغة الإثارة، ثم هدأت قليلا، ثم أعادها حادث الاغتيال عن طريق الصحيفتين إلى أوجها، وتحول هدف المؤتمر.

فى صيف ١٩١١، أصدر «توفيق حبيب» الصحفى فى صحيفة الوطن، كتابا جمع فيه أعمال المؤتمر، وشمل أسباب انعقاده، وظروفه وردود فعل الدعوة إليه وقراراته فى الصحف كلها، صدر باسم «تذكار المؤتمر القبطى الأول»، وقدم له بمقدمة مسهبة «توفيق حنين»، وذكر فيها أن أحد واسعى الاطلاع العارفين

بطبائع الأوروبيين، رأى أن سكوت الأقباط يكون دليلا عليهم في غير صالحهم أمام الأجانب، وأن الصحيفتين «مصر» و«الوطن» سارتا على خطة عدم السكوت، إثباتا لعدم الضعف. وأنه لما كتب عبد العزيز جاويش مقاله الحاد «الإسلام غريب في بلاده» في يونية ١٩٠٨، بدأ يتكون لدى الأقباط رأى عام مستقل، وتفتحت عيونهم «كأمة أو طائفة». وسافر قرياقص ميخائيل إلى لندن، «لإثارة الرأى العام البريطاني فيما يختص بمطالب الأقباط وحالتهم السيئة».

وبالنسبة لمطالب الأقباط، ذكر توفيق حنين، أنه كان عرض بعضها في ١٨٩٧، على اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر، وعرض بعضها في ١٩٠٨ على الخديو، ولكن أول بيان واف لها، هو ما نشرته صحيفة «مصر» في ثمانية مقالات متتابعة، نشرت في ٢٧ يناير ثم في ١، ٢، ٣، ٦، ١٤، ١٨، ٢٨ فبراير عام ١٩١١. وهي المطالب الآتية:

المطلب الأول: عن المساواة في الوظائف. المطلب الثاني: عن تمثيل الأقلية في الهيئات النيابية. والمطلب الثالث: عن ضريبة الخمسة في المائة. والمطلب الرابع: عن راحة يوم الأحد. والمطلب الخامس: عن محاكم الأحوال الشخصية القبطية. والمطلب السادس: عن التعليم الديني والأولى بين الأقباط. وقد اندمج المطلبان الخامس والسادس أمام المؤتمر في مطلب واحد، وصار عنوانه: «الإنفاق من الخزينة المصرية على جميع المرافق المصرية على السواء».

إن من الأقباط من كانوا ضد المؤتمر، والصحافة الوطنية كانت ضده أيضا، ولكنها عارضت منع الحكومة انعقاده حمايةً لحرية الاجتماع وتأكيدا لها. أما الحكومة فقد تلقت خبر المؤتمر بتوجس وحذر شديدين، ولكنها قصرت اعتراضها المعلن على الدعوة إلى انعقاد المؤتمر في أسيوط وزكت انعقاده بالقاهرة. وبذلت الحكومة مساعيها لدى البطريرك ليعلن عدم رضائه عن عقد المؤتمر، وأعد البطريرك بيانا بذلك، ذكر فيه أنه يفرحه اجتماع أبنائه على الخير ويدعو لهم بالتوفيق، إلا أنه يبدى القلق من دعوة جمع غفير وفي مدينة أسيوط، ويخشى من ثوران النفوس والتهييج، ويطلب ألا تكون مساعيهم عرضة للتقول، وأن يستعملوا الحكمة والتأني. وانتقدت الصحافة القبطية بيان البطريرك، وعارضه مطران أسيوط الذي ينعقد المؤتمر في مجال مطرانيته.

وانعقد المؤتمر، وحضره ١١٥٠ مشتركا، معهم توكيلات عن نحو ١٠٥٠٠ قبطي من جميع أنحاء مصر، وكان تعداد الأقباط وقتها نحو ٦٠٠ ألف قبطي، ومجموع السكان بمصر كلها ما بين ١٠.٢ مليون نسمة حسب إحصاء ١٩٠٧، وبين ١١.٦ مليون نسمة حسب إحصاء ١٩١٧. ونسبة عدد المسيحيين جميعا سواء الأقباط الأرثوذكس أو غيرهم تبلغ من مجموع السكان ٦.٣٪ في إحصاء ١٩٠٧، ونسبتهم جميعا من مجموع السكان في إحصاء ١٩١٧ تبلغ ٨.٣٪، وترد الزيادة من شمول التعداد على الجنود الأجانب وأسرهم إبان الحرب العالمية الأولى التي جرى تعداد ١٩١٧ خلالها.

انعقد المؤتمر بمدينة أسيوط، ورأسه بشرى حنا، وكانت أول كلمة من مطران أسيوط: «قد شرعتم في عقد هذه الجمعية العمومية، غير أن عدم وقوف البعض على ما أنتم عليه من الحكمة والتعقل والرزانة والإخلاص لمواطنيكم جميعا، حملهم على أن يوجسوا خيفة من اجتماع حضراتكم، لكن اختباري الطويل مدة إقامتي خمس عشرة سنة بينكم، جعلني على ثقة تامة وأمان من حسن نواياكم..». ثم جرى التعبير عن الشعب المصري بعبارة «المجموع المصري»، ولخصت المطالب الخمسة المذكورة في البداية. ثم دار الحديث في جلسات المؤتمر، فتكلم أخنوخ فانوس عن أجازة يوم الأحد، ثم تكلم توفيق دوس عن مبدأ إسناد الوظائف بالكفاءة دون تمييز، إلا ما يتعلق بالوظائف التي تقتصر بطبيعتها على ذوي دين بعينه مثل وظائف القضاء الشرعي.

ثم تحدث مرقص حنا عن تمثيل الأقباط في المجالس النيابية، وعرض لنظام الانتخاب البلجيكي، وطريقة التمثيل فيه التي تكفل وجود الأقليات دون اختصاص لهم بمقاعد محددة، ثم تكلم حبيب دوس عن أن الضريبة التي تحصل عليها هيئات الحكم المحلي بنسبة ٥٪ من مجموع الضرائب، تصرف على مدارس عامة يدخلها المسيحيون، وعلى رواتب المدرسين الذين يدرسون لطلبة مسلمين وأقباط، وهذا لا اعتراض عليه، وإنما الاعتراض على النوع الثالث الذي يصرف عليه من الضريبة ذاتها، ويمول الكتاتيب، وهي تدرس علوم المسلمين، فلا يدخلها الأقباط. ثم تكلم مرقص فهمي عن إنفاق الخزانة العامة بحديث هادئ، وقال إن مبدأ المساواة مبدأ نظري، تبنى عليه الوطنية العامة، وأن المساواة الفعلية لا يمكن إدراكها، مهما كان نظامها متقنا محكما، والمهم هو تقرير مبدأ أن الوظائف يجب أن تعطى بالأهلية والاستعداد. وليس معنى المساواة حساب ما يصرف بنسبته، إنما الأهم من ذلك، أن تكون للأقباط محاكم للأحوال الشخصية ذات كفاءة، تماثل المحاكم التي تشرف عليها الدولة. وعلق على ذلك وهيب دوس، مؤيدا أن المحاكم الشرعية الإسلامية هي مورد إيراد لا مورد صرف، فرد عليه تادرس المنقبادي صاحب صحيفة «مصر»، أن في السنة الأخيرة دفعت الحكومة لميزانية المحاكم الشرعية ١٧ ألف جنيه.

وانتهى المؤتمر بانتخاب لجنة مستديمة من ٧٠ عضوا، وانتخبت اللجنة المستديمة، لجنة تنفيذية من ١٢ عضوا. ومما يذكر أن مرقص حنا كان بعد ذلك من أقطاب الوفد المصري وثورة ١٩١٩، وكان وزيرا في وزارات الوفد. وأن مرقص فهمي كان من نجوم المحاماة المصرية في العقود التالية من السنين، واشتهر بفقهه وفصاحته، وكذلك كان شأن وهيب دوس الذي عرف بعد ذلك بسنين بعلاقة المودة التي جمعته مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

إنما استطردت في ذكر وقائع هذا المؤتمر، لأظهر سياق الحديث من جهة، ولأبين للقارئ المتابع للأحداث، وجود شبه بين ما حدث في ذلك الوقت، وما يحدث الآن بين ظهرانينا، وأن من يطالع صحيفة «وطني» التي تصدر في هذه السنين الأخيرة، ونعايشها اليوم، ويقارن بين ما تكتبه في نهايات القرن العشرين مع ما كتبته «مصر» و«الوطن» في بدايات القرن ذاته، يلحظ أن النغمة واحدة، من حيث التهييج والإثارة، كما يلحظ أن العنصر الإثاري الأجنبي واحد، الأول كان بريطانيًا، والأخير صار أمريكيًا، ويلحظ توجه حركة الإثارة إلى الخارج في الحالين.

وإن من يكون اطلع على وقائع ١٩٠٨-١٩١١ في هذه المسألة، ويطالع وقائع ١٩٩٨ حتى الآن، يرى هذا التشابه العجيب، سيما في الإثارة الصحفية، والدعوة للمؤتمر التي جاءت في صحيفتي «مصر» و«الوطن»، في بداية القرن، تماثلها «دعوة لقاء الحكماء» التي تروج لها صحيفة «وطني» منذ ١٩٩٨، في عدد من أعدادها، وتجمع التوقيعات وتنشر عشرات الأسماء في كل عدد منها في ذيل مقالة تجدد بها الدعوة. وهي قد تبنت المطالب السابقة فيما عدا مطلب أجازة يوم الأحد، وأضافت إليه موضوع بناء الكنائس، والمشاركة في الإعلام، وتعديل مناهج التعليم، وإعداد مناهج دينية موحدة، حتى سفر قرياقص ميخائيل إلى لندن في ١٩١٠ يقابله سفر رئيس تحرير وطني إلى واشنطون في ١٩٩٨. وحتى الحديث القديم عن الغزو العربي الإسلامي لمصر، يقابله الحديث الجديد عن أن الأقباط مضطهدون منذ أربعة عشر قرنا. (تراجع أعداد «وطني» على سبيل المثال من أبريل ١٩٩٨ إلى فبراير ١٩٩٩).

أقول ذلك، وأنا أدرك حقيقة أدركتها في دراستي لموضوع «المسلمين والأقباط في إطار الجماعة الوطنية»، وهي أن مثيري الشقاق كانوا دائما موجودين وخططهم هي هي، وتوجهاتهم هي هي، وعدم مراعاتهم لضوابط الوجود الوطني، وحدود الصالح العام الذي عبر عنه البعض بعبارة «المجموع المصري» كل ذلك هو هو. ولكن هذا التوجه نجده في دوائر الإعلام، وبعض النخب من المثقفين أو الساسة أو رجال الأعمال، وهم يظلون كما ذكر أحد المصريين للمؤتمر القبطي سنة ١٩١١، أن معظم العامة «هم أتباعنا والمستخدمين عندنا». وهذا هو القسم الذي ظهر في بداية القرن ويظهر الآن في نهايته. أما القسم الآخر، فهو المندمج في الجماعة الوطنية الذي يراها حياته ومستقبله، وهم من ظهر من بعد ثورة ١٩١٩، يحاربون الإنجليز ويرفضون حماية الأجانب لهم ويتوحدون مع مواطنيهم.

ولكن كيف حدث ذلك، هذا ما يمكن أن نستفيد فيه من خبرة أسلافنا ومن ذكائهم وفهمهم.

هو ليس كتابا مؤلفا،
ولكنه أعمال لمؤتمر لا يكاد المصريون
يعرفون عنه اليوم إلا أقل القليل، ولكنه في ظني
يشكل واحداً من أهم الأحداث السياسية الاجتماعية
التي حدثت في بداية القرن العشرين، وصاحبت
آثارها مصر في العقود التالية على مدى
النصف الأول من القرن العشرين

جاء رد الفعل البصير في المؤتمر التالي الذي عقد في ٢٩ أبريل، واستمر حتى ٤ مايو سنة ١٩١١، أي بعد نهاية المؤتمر الأول باثنين وخمسين يوما، وعقد في القاهرة بضاحية مصر الجديدة، في قاعة للألعاب، هيئت لعقد المؤتمر. كان الداعون له والمنظمون جماعة من الساسة والمفكرين والدعاة من حزب الأمة والحزب الوطني، ورغم ما أثارته الصحافة من ردود فعل عنيفة وصاخبة ضد المؤتمر القبطي، فقد أمسك هؤلاء بزمام الموقف، ليردوا الجماعة إلى صواب الاستيعاب وهدوء البصر والبصيرة. لم يسموا المؤتمر بالمؤتمر الإسلامي، إنما أسموه المصري، لأنه «بالمصرية» يمكن استيعاب الموقف، ولم يختاروا لرئاسته شخصا من بينهم، وممن يدخل في خصومات الحاضر، ولكنهم اختاروا له مصطفى رياض باشا، وهو من رؤساء الوزارات السابقين في ثمانينيات القرن السابق، ومن المعروف بالاعتدال الشديد الذي يزيل أي هواجس.



كان من الداعين للمؤتمر والمنظمين له، محمود سليمان، وعلى شعراوى، وإبراهيم الهلباوى، وفتح الله بركات، وأحمد لطفى السيد، وعبد الستار الباسل، وأحمد لطفى، وعبد الخالق مدكور، وأكثرهم يذكر القارئ بتشكيلات الوفد المصرى عندما نشأ فى ١٩١٩، وبعضهم ممن بقى فى أقطاب الوفد على مدى العشرينيات وما بعدها مثل بركات والباسل، وقد عقدوا جلستين تحضيريتين بمنزل على باشا شعراوى، وفيهما تحددت الأطر العامة للمؤتمر، وبدا من هذا الإطار مدى الفهم والذكاء الذى عولجت به الأمور، وتحددت به السياسات العامة.

فهو ـ أولا ـ مؤتمر مصرى، لأن مناقشة موضوع الأقباط يثير سؤالا أوليا، وهو من نحن الذين نناقش، ومن هم الذين نناقش موضوعهم، وما علاقتنا بهم، وبأى مقياس أقيس ولأى معيار أحتكم؟ هل أواجههم بحسبى طرفا يواجه طرفا آخر، إن صنعنا ذلك، فقد صرنا فريقين، ونكون خطونا خطوات فى طريق المفاصلة، وهذا ما حدث فى الهند، تكون «المؤتمر» بوصفه تنظيما سياسيا وضم الهندوس فى الأساس، وتكونت الرابطة الإسلامية وضمت المسلمين فى الأساس، وتشكل بذلك جنينان فى رحم الهند، ومع نمو كل من التنظيمين، كانت تنمو المفاصلة، فلما خرج الإنجليز انشقت الهند شعبين وحكومتين.

وعندما يتكلم المسلمون مع الأقباط فى مصر، إنما يجب أن نبحث عن الجامع المشترك، أى عن وحدة الانتماء التى تضم الفريقين وهى المصرية، ونجعل المصرية هى الحكم وهى الإطار الحاكم، ونجعلها مناط الالتزام على المندرجين فيها فى علاقاتهم مع بعضهم البعض، ووحدة الانتماء هى الجامع لهذين، وهى من حيث كونها الجامع لهما، فهى مناط الالتزام فى علاقاتهما المتبادلة، وهى تشكل صالحا مشتركا لهما، يتحاسبون وفقا له. أتصور أن هذا ما كان يجول بفكر هذه اللجنة التحضيرية، أو هو ما يعبر عن إرادتهم المشتركة بصرف النظر عن التوجه الفردى لكل منهم، وهم فى هذا المجلس ذاته أثار بعضهم وجوب مناقشة الربا ومنعه، وأنه محرم فى الشريعة الإسلامية وفى المسيحية. فلم يكونوا ينظرون إلى المصرية بوصفها بديلا عن الإسلام وعن الدين، إنما نظروا للأمر فى إطار الجوامع المشتركة.

وهو ـ ثانيا ـ مؤتمر الهدف منه «البحث فى جميع الوسائل المؤيدة لحسن الوفاق بين جميع العناصر المصرية وتحسين حال الأمة المصرية، ولا يجوز للمؤتمر الاشتغال بالمسائل السياسية».

وهنا نلحظ أنه بعد أن تحدد الإطار الحاكم للموضوع، وهو الجامع المصرى الذى يضم المسلمين والأقباط فى مصر، ويحدد الجماعة الوطنية التى يكون عليها المعول فى المحاسبة بين المندرجين فيها، بعد ذلك استبعدت المسائل السياسية المتعلقة بالعلاقات بين القوى السياسية المختلفة ووضع السلطة السياسية. وكان فى هذا الاستبعاد من الحذر ما فيه من البصر، لأنه يتعين عند تحديد موضوع الجماعة الوطنية أن يستبعد من إطار الجدل والحوار بشأنها ما يتعلق بالسياسات الجارية حول السلطة بين الحكومة والأحزاب وقوى الضغط السياسى. وفى مصر وقتها سلطة الإنجليز وسلطة الخديو ومطالب تتعلق بالدستور والحياة النيابية وغير ذلك، والواجب عدم الخلط بين أسس البنية الأساسية الخاصة بالجماعة الوطنية، وبين الأبنية المتغيرة والمتعلقة بالسياسات الجارية والمصالح الآنية، ولكى يسوغ إلزام الغير بذلك، يتعين إلزام النفس به.

وهو ـ ثالثا ـ مؤتمر لا يبحث فقط فى «الوسائل المؤيدة لحسن الوفاق»، إنما يتعين أن يبحث فى «تحسين حال الأمة المصرية»، وقصدوا بذلك، أن يناقش المؤتمر الشئون العامة الاقتصادية والاجتماعية، وكان هذا ما يمكن به إخراج المؤتمرين جميعا فى المؤتمر الأول والمؤتمر الآخر، إخراجهم جميعا من حصر المناقشة فى العلاقات المتبادلة، ومن المخطئ ومن المصيب وغير ذلك، إلى ما يتعلق بالأهداف المصرية المشتركة، ومشكلات التنمية وعناصر النهوض. فمادامت المصرية هى الوعاء المشترك، فقد حسن أن تكون التنمية المصرية هى مجال الالتقاء والتعايش والعمل المشترك.

ولما انعقد المؤتمر فى ٢٩ أبريل، افتتحه مصطفى رياض باشا، رئيس المؤتمر بكلمة موجزة جدا، فأشار إلى أن المدعوين هم صفوة أهل المكانة، تهمهم مصالح البلاد العليا ويغارون على رقيها، وأن حالة البلاد لا تسمح بتقسيم المصالح بين أبنائها تبعا لانقساماتهم الدينية، ثم ذكر أنه ستعرض مسائل أدبية واقتصادية للرقى بالتعليم وتنمية الثروة العمومية. وختم حديثه بأن طلب إلى الحاضرين ألا يراعوا فقط العدل والإنصاف، وإنما أن يتصفوا أيضا بالتسامح والتعاطف.

أول ما تُلى فى المؤتمر كان التقرير الذى أعدته اللجنة التحضيرية، وقد تلاه أحمد لطفى السيد، وساعده فى تلاوته أحمد عبد اللطيف وعبد العزيز فهمى، ويمكن ملاحظة لغة لطفى السيد وأسلوبه فى إعداد التقرير. وهو يتكون من مقدمة وثلاثة أقسام، وتضمنت المقدمة أن المؤتمر انعقد لخدمة المصلحة العمومية، و«للنظر فى التوفيق بين العناصر المؤلفة للوحدة المصرية التى كاد يتصدع بناؤها من جراء مؤتمر الأقباط». وهو هنا يستخدم عبارة العناصر المؤلفة للوحدة المصرية، وليس عبارة «المجموع المصرى»، التى استخدمها مؤتمر أسيوط. ثم عاب على رجال مؤتمر أسيوط إعدادهم له خفية، فلم يفصل بين خبر انعقاده وانعقاده فعلا إلا أيام محدودة، ويقول إن رجال مؤتمر أسيوط يستقللون ما فى أيدى الأقباط من السلطة ويستكثرون ما فى أيدى المسلمين منها. وقال إن هذه الحركة الأخيرة ذات شكل مريب مفضٍ إلى الظن بأن الأقباط عوّلوا على أن يكونوا وحدهم أمة مستقلة «وتذرعوا بهذه المطالب حتى يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم فى مصر ـ وهم الأقلية الضعيفة ـ حق السيادة على الأكثرية الإسلامية العظمى».

وإنه إشفاقا على الوطن دُعى هذا المؤتمر الأخير ليزن مطالبهم بميزان العدل وليبين النافع منها والضار والممكن وغير الممكن «من غير أن يحوجهم إلى السعى بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم، فإن المصريين أولى بإنصاف المصريين»، ثم إن اللجنة التحضيرية ترى بعد ذلك التطرق للمسائل الاجتماعية والاقتصادية دون المسائل السياسية.

وتكلم عن مفهوم الأكثرية والأقلية، فذكر أنه من الخطأ تقسيم الأمة المصرية «باعتبارها نظاما سياسيا» إلى عنصرين دينيين، لأن ذلك تقسيم للشىء إلى أقسام تخالفه فى الجوهر، ولكن «لكل أمة دينا رسميا وذلك ضرورى ومشخص من مشخصاتها، ودين كل أمة هو دين حكومتها أو دين الأكثرية فيها».

ثم ذكر أن الحقوق والمرافق فى مصر هى على الشيوع بين جميع المصريين ثم عاب على سياسة الحكومة أن أفرزت للأقباط مراكز خاصة فى مجلس الشورى، فظن البعض أنها للدفاع عن مصالحهم، أو صارت لهم صحف خاصة وأندية خاصة وسمتهم صحفهم أخيرا «الأمة القبطية»، وبدا من هؤلاء اعتماد على الاحتلال المسيحى، وأشار إلى علاقتهم إلى علاقات البعض بالمبشرين والأمريكان وبعض رجال الكنيسة الإنجليزية، وبعث البعوث إلى إنجلترا لبث شكواهم، وأنهم وضعوا المسلمين فى جانب وأخذوا يساومون الإدارة الإنجليزية فى مصر على الوظائف التى فى أيدى المسلمين، وهم يظنون أن المسلمين يكفيهم فى كل هذه المساومة ألا يرموا بالتعصب الدينى أو أن يشهد لهم بأنهم حسنو السلوك مع إخوانهم الأقباط...».

وكان هذا هو مقدمة حديث أحمد لطفى السيد، ثم تعرض إلى مطالب مؤتمر أسيوط كلها، فذكر عن طلب إجازة يوم الأحد، أن الدافع إليه «هو انتهاز فرصة الاحتلال المسيحى لإبطال التقاليد الإسلامية والاستهانة بالأكثرية وتقسيم الشعائر القومية نصفين متساويين بين أقلية صغيرة بعض أفرادها على دين الإنجليز وبين الأكثرية الكبرى الإسلامية»، وذكر أن هذا الطلب غير ميسور ولا يخلو من الضرر فيجب إغفاله، ثم تحدث عن الوظائف العامة فذكر أن الحكام الإداريين لايكون لهم سلطان على محكوميهم إلا إذا ظن الناس فيهم عدم التعصب، والأقلية الدينية لاتفتأ تعطى كل يوم مثلا على إفراطها فى التضامن، ومع ذلك فمنهم المستشارون ووكلاء وزارات ووزراء ورؤساء وزارات، وذكر أن نسبة الأقباط من سكان مصر هى ٦.٤٣٪ ونسبة ثروتهم هى ١٠٪ من ثروة مصر، وهم فى الوظائف إذا كانت نسبتهم فى التعليم ٦٪ فإن نسبتهم فى وزارة الداخلية ٥٩٪ بنسبة مرتبات تصل ٤٠.٢٨٪، ونسبتهم فى وزارة الحقانية ١٥٪ بمرتبات نسبتها ١٤.٥٪، ونسبتهم فى وظائف وزارة المالية ٤٦٪ غير الصيارف، فإن عددهم ١٨٧٧ صيرفيا منهم خمسون مسلما فقط، وأرفق بالتقرير بيانات شاملة وتفصيلية بعدد الأقباط فى الوظائف ونسبتهم، وبالنسبة لما يصرف من الضريبة على الكتاتيب الأولية ومدارس معلمى الكتاتيب، فإن الجزء الأكبر من هذه الكتاتيب بناها مسلمون وأجروا عليها الأوقاف تعبدا لتعلم القراءة والقرآن وبعض الحساب، ومدارس معلمى الكتاتيب تعلم علوم الدين لهم بمثل ما تعلم الأديرة معلمى الأقباط بشأن المسيحية، واللجنة لاتؤيد تعليم المسيحية فى الكتاتيب الإسلامية.

وذكر بيانات عن كل مديرية ونسبة ما يتقاضى من الأقباط بموجب ضريبة ٥٪ التى ينفق بعضها على الكتاتيب ومدارس معلميها، ففى القليوبية مثلا أكثر من ٤٣٣ ألف مواطن منهم ٨.٧ ألف قبطى، ومجموع الضريبة ١٣.٨ ألف

مما يذكر أن مرقص حنا كان بعد ذلك من أقطاب الوفد المصرى وثورة ١٩١٩، وكان وزيرا فى وزارات الوفد. وأن مرقص فهمى كان من نجوم المحاماة المصرية فى العقود التالية من السنين، واشتهر بفقهه وفصاحته، وكذلك كان شأن وهيب دوس الذى عرف بعد ذلك بسنين بعلاقة المودة التى جمعته مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين



جنيه يدفع منها الأقباط ٦٨٩ جنيها، ومقدار ما يصرف على الطلبة الأقباط من ميزانية مجلس المديرية ألف جنيه، وثمة ثلاثة كتاتيب قبطية ينفق عليها ٢١٠ جنيهات سنويا، وفي أسيوط ٧٩ كتابا منها ٩ كتاتيب للأقباط ينفق عليها جميعا مجلس المديرية، والمدارس الابتدائية ٢٠٪ من طلبتها أقباط.. وهكذا.

والمدارس الابتدائية التابعة لوزارة المعارف بها ٦٦٣٩ تلميذا مسلما، يقابلهم ١٣٤٨ تلميذا قبطيا بنسبة ١٧٪. والمدارس الثانوية التابعة للوزارة بها ١٦٢٨ تلميذا منهم ٥٤١ تلميذا قبطيا بنسبة ٢٤,٦٪.. وهكذا.

ثم ذكر أن «العدل أحق أن يتبع.. ولقد يكون التسامح من أنفع وسائط التوفيق بشرط أن يعترف بأنه تسامح، وأن لا يشعر بأنه غفلة أو استكانة لأنه في هذه الحالة يكون عظيم الضرر..».

ثم تكلم بذات الطريقة عن التمثيل بالانتخابات، وعلى الخزينة العمومية، وذكر أن المحاكم الشرعية توفر للخزينة في السنوات الخمس الأخيرة ٤١٧١ جنيها سنويا، وأن الآثار الإسلامية يصرف عليها من أوقاف المسلمين، بينما الآثار المسيحية يصرف عليها من أوقاف المسيحيين بنسبة الثلث فقط، وتتكفل الميزانية العامة بالثلثين.

هذا في ظني أحسن ما تبدت فيه «مصرية» أحمد لطفي السيد، أي الطابع الجمعي لهذه المصرية، إن المصرية كانت ذات وظيفتين، وظيفة انسلاخية من الجامعة السياسية الأشمل، إسلامية أو عربية، ووظيفة جمعية بين المسلمين والأقباط في مصر، وفي هذا الموقف تبدت الوظيفة الجمعية الأخيرة وحفرت معيار تحاكم بين العناصر المكونة لها.

وقد ختم هذا الحديث بأن الأمة يجب أن تبني علاقة أفرادها على التسامح وعلى التضامن مع المعاملة بالمحبة والرحمة، وأن مصر ليست قليلة الواجبات الوطنية حتى تنشغل بما لافائدة فيه من التنازع على المراكز والتخاصم على شيء من الحقوق التافهة، ودعا إلى انضمام الأقباط إلى أي مؤتمر مثيل لهذا المؤتمر ينعقد مستقبلا، ثم انتقل إلى الحالة الاجتماعية ودعا للحديث عن التعليم، وانتقل إلى الحالة الاقتصادية ودعا المؤتمر إلى الحديث بشأنها.

انتهت الجلسة الأولى بهذا التقرير، ثم جاءت الجلسة الثانية وبعض الجلسة الثالثة بالحديث في الموضوع ذاته، وتعرض المتحدثون لطلبات مؤتمر أسيوط وردوا عليها، وكان في ردودهم بعض من حدة، يبدو لي أنها تولدت عن حدة الصحافة القبطية واستفزازها الشديد.

تحدث بعد ذلك محمود أبوالنصر عن عطلة يوم الأحد بما لايزيد عما سبق وأشار إلى دين الدولة الرسمي وأنه غير قابل للتعدد، ثم تكلم محمد حافظ رمضان الذي صار رئيسا للحزب الوطني بعد ذلك، فذكر أن الأقباط استقووا على ضعفهم بالمسيحية الغربية رغم أنهم أقرب إلينا منهم إليها، وأن التمادي في التسامح ضار ولكن العلاج هو ترقية التعليم وعدم التفريق في الحقوق، ثم تحدث صالح حمدي حماد فهاجم الصحافة القبطية وطعنها على المسلمين، ثم إبراهيم غزالي وضريبة ٥٪، ثم تحدث أحمد عبداللطيف عن المجالس النيابية وذكر أن أسباب الحركة الأخيرة هي التهاون وتسامح الحكومة وإغراء جماعة المبشرين البروتستانت وتوهم أن الإنجليز ينصرونهم على المسلمين وأن القائمين على الحركة لم يفكروا في الفلاح القبطي ولا في الموظف القبطي، وذكر أن خير الأقباط في اندماجهم في المسلمين ليشكلوا أمة واحدة، وأنه إذا اشتدت عصبية الأقباط قل عدد نوابهم في المجالس النيابية وكلما اندمجوا في المسلمين زاد عددهم ونسبتهم، ثم تحدث الشيخ عبدالعزيز جاويش فتكلم عن أوقاف المسلمين والمحاكم الشرعية، ثم إبراهيم الهلباوي وكل ذلك بما يؤكد كلمة اللجنة التحضيرية.

استغرق كل هذا الحديث أقل من سبعين صفحة من القطع الكبير، وذلك من جملة أعمال المؤتمر التي نشرت في ٢٠٤ من الصفحات. واستمر الحديث بعد ذلك على مدى باقي الجلسة الثالثة والجلسات الرابعة والخامسة والسادسة لعرض أوراق وأبحاث تتعلق بمخططات النهضة المصرية في المجالات المختلفة الاجتماعية والاقتصادية.

لاأكون مغاليا إذا قلت أن من يقرأ هذا القسم من أعمال المؤتمر، وهو القسم الذي يصل إلى الثلثين أو أكثر من أعمال المؤتمر، من يطالعه إنما يجد فيه مشروع النهضة أو مشروع التنمية الاجتماعية الاقتصادية الذي سارت مصر على دربه طوال النصف الأول من القرن العشرين، وإذا كانت ثورة ١٩١٩ حدثت بعد ثماني سنوات من عقد هذا المؤتمر وكان شعارها شبه الوحيد سياسيا بحتا يتعلق في الأساس بجلاء الاحتلال الإنجليزي من مصر والاعتراف باستقلالها وبإعداد دستور لنظام حكمها، وإذا كان تنظيم «الوفد المصري» الذي ظهر من خلال الثورة وحمل شعاريها الأثيرين حتى نهايات النصف الأول من القرن العشرين وحصر هدفيه المعلنين على هذين الشعارين «الاستقلال والدستور» أي الاستقلال والديمقراطية، دون أن يضع برنامجا للنهوض الاقتصادي والاجتماعي يصوغه ويروج له.

إذا كان ذلك كذلك فإن حقيقة الأمر حسبما يبدو لي، أن أعمال هذا المؤتمر المصري الأول الذي لم يكن له انعقاد ثان، هي ما تضمن البرنامج الاجتماعي الاقتصادي لثورة ١٩١٩، ولتنظيم الوفد. وهي ما صاغ المشروع الذي جرى تطبيقه وتنفيذه في تلك المجالات طوال الخمسين سنة والتي انعقد المؤتمر في أوائلها. وإن تنفيذ هذا المشروع جرى على أيدي الحكومات المختلفة والوزارات التي تناوبت الحكم وعلى أيدي مؤسسي ومنشئي الأنشطة الأهلية وبصرف النظر عن أحزابهم وصراعاتهم السياسية. لاشك أن تنفيذ هذه الأهداف كان أسرع في عهد حكومات الوفد وأن العوائق في مرحلة التنفيذ كان بعضها يزول أو تضعف وطأته من جراء سياسات الوفد، ولكن التنفيذ كان يجري صاعدا ولايتراوح إلا بين الإسراع والإبطاء. وهذا الجانب هو ما أردت أن ألفت النظر إليه فنحن لانجد وثيقة أكثر تعبيرا عن طموحات المصريين في مجالات التنمية خلال النصف الأول للقرن العشرين إلا هذه الوثيقة، ولانجد مجال التقاء بينهم خلال هذه الفترة إلا في العناصر التي تضمنتها.. وأن من يتساءل أين البرنامج الاجتماعي الاقتصادي للثورة ولتنظيم ولحركة سياسية تحريرية، فالجواب: هذه هي مكتوبة مسجلة موثقة من بدايات القرن.

من يطالع صحيفة «وطني» التي تصدر في هذه السنين الأخيرة، ونعايشها اليوم، ويقارن بين ما تكتبه في نهايات القرن العشرين مع ما كتبته «مصر» و«الوطن» في بدايات القرن ذاته، يلحظ أن النغمة واحدة، من حيث التهييج والإثارة، كما يلحظ أن العنصر الإثاري الأجنبي واحد، الأول كان بريطانيا، والأخير صار أمريكيا

أول ما عرض على المؤتمر خارج موضوع الأقباط، كان تقريرا أعدته وألقته الأديبة المعروفة «باحثة البادية» السيدة ملك حفني ناصف عن موضوع «وسائل ترقية المرأة المسلمة المصرية» أوردت فيه عشرة اقتراحات، وهي تشجيع النساء على حضور صلوات الجماعة وسماع الوعظ في المدن والقرى باعتباره نوعا من التثقيف، وتخصيص باب للنساء في كل مسجد، وجعل التعليم الأولي إجباريا للمرأة وتكثير المجانية في مدارس البنات وتعليم الدين الإسلامي وتعيين سيدة مسلمة تراقب أحوال التلميذات لأن المعلمات الأجنبيات لايعرفن عادات البلاد، وتوسيع مدرسة الممرضات وإيجاد مدرسة طب للنساء، وتكثير المستشفيات والصيدليات، ومراقبة الشرطة لسلوك الآداب العامة في الطرقات لمنع معاكسة السيدات، والسعي لتقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس، فلايتزوج الرجل على امرأته إلا بإذن المحكمة الشرعية، وتعليم المرأة مايلزمها من صناعات ومنع مشي النساء في الجنازات.

وعن التعليم تحدث محمد أبوشادي، فعرض لوجوب السعي لدى الحكومة لتخصيص أكثر ما يمكن تخصيصه من مال للتعليم، والأمر الثاني تأليف إدارة معارف أهلية حرة لجمع المال من الأمة وتكميل النقص في التعليم الرسمي وإعداد برامج للتعليم غير الرسمي توافق الاشتغال بالأعمال الحرة، وتكلم عن لزوم التعليم لإقامة دولة صناعية، ثم ركز حديثه على «إنشاء الإدارة الأهلية الحرة للتعليم»، والأمر يقتضي جمع مائة ألف جنيه بالاكتتاب وتلقي الهبات وجمع التبرعات وجمع برامج التعليم من البلاد الأجنبية واختيار أسهلها وأقلها نفقة، ثم عرض لعدم كفاية المدارس ووجود مدرسة واحدة لكل من الطب والهندسة والطب البيطري وشبه مدرسة للصيدلة والصنائع.

وركز على النشاط الأهلي في إتمام النقص إذا لم يسده النشاط الحكومي. ويظهر من حديث أبي شادي إلى أي مدى كانت إمكانات النشاط «الأهلي» مما يمكن الدعوة إليه والتعويل عليه في مجال نشاط أساسي مثل نشاط التعليم، لم تكن الدولة قد آلت إلى قوتها الاحتكارية التي نشاهدها في الأجيال المتأخرة من القرن العشرين، ولا كانت الأمة بمبادراتها الخاصة قد صارت إلى الوهن وفقدان المبادأة بمثل ما اعتاد الناس في نهايات القرن العشرين، لذلك كان غالب حديث أبي شادي يتجه إلى الجماعة، وليس إلى الدولة.

أما الحديث الثاني عن التعليم فكان حديثا بالغ الطول والتفصيل بدراسة أعدها الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة المؤيد وقتها، وكان أبرز صحفيي عصره، وموضوعه كان عن التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه، ولطول التقرير تلا الشيخ جزءا منه ثم ساعده في التلاوة عبدالعزيز فهمي ثم محمود أبو النصر، وكان يرد فيه من وقائع التاريخ على ما ادعته بعض صحف القبط من أفضليتهم على المسلمين، وأتى ببيانات وإحصاءات تخالف هذا الادعاء، ومنها ما يتعلق بالبعثات الحديثة وطلبة المدارس الحديثة، وتعلم الأقباط في مدارس أوقاف المسلمين، وأن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة،



وهو دين الأغلبية التى تصل إلى ٩٢٪ وفصل فى جداول لإعداد البعوث وخريجى المدارس العليا عبر السنوات، وكذلك تلاميذ المدارس.

وتحدث محمد يوسف عن وجوب ترك بدع المأتم والمقابر وماينفق فيها وما ينفق عليها من مال لا لزوم له قدره بنحو مليون جنيه واقترح إبطال ذلك كله. وتحدث عبدالستار الباسل عن وجوه إصلاح القضاء المصرى وأن ثقة الناس به هى أقل مما ينبغى، وفى هذا الظن ظلم للقضاء وإجحاف بحقه، ولكن الناس معذورون عندما يرون أحكام القضاة تخالف فى كثير منها الواقع المشهود، وأرجع ذلك إلى أن القضاة يعينون من أعضاء النيابة العامة، وأعضاء النيابة العامة لايشتغلون بالمسائل المدنية التى يشتغل بها القضاة ولا يعرفون عادات التعامل المدنى وأعراف الناس، والسبب الثانى كثرة القضايا مما يرهق القضاة، واقترح المقرر أن يعين القضاة من المحامين حسنى السمعة ممن قضوا فى المحاماة عشر سنوات على الأقل، وألا يكون القاضى قابلا للعزل ولايرقى استثناء وأن تصرف إيرادات المحاكم على قضاتها، ويلاحظ أن تعيين القضاة من المحامين حسنى السمعة جرى بعد ذلك فى العشرينيات والثلاثينيات، وأن عدم القابلية للعزل صدرت بقانون استقلال القضاء فى عهد وزارة الوفد سنة ١٩٤٣.

ثم قدم الشيخ عبدالعزيز جاويش تقريرا عن «وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء». وأشار إلي وجوب الاجتهاد بما يلائم ظرفي الزمان والمكان ويفيد درك المصالح فى إطار ما لايخالف ما أمر الله به ورسوله، ووجوب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التى قررها نفر من أهل العلم دون رعاية المصلحة العامة، وأشار إلى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قطع اليد فى حالة الحرب استثناء وعدم إنفاذ عمر حد القطع عام المجاعة وغير ذلك من سوابق التشريع الإسلامى، ثم عرض أمثلة للاجتهادات المطلوبة فى زمانه، ومنها أن عدة المطلقة يؤخذ فى تحديدها بقولها، والواجب عند الريبة الإحالة إلى طبيبة مختصة، ومنها وجوب التيسير فى التطليق بسبب إعسار الزوج، ومنها الطلاق ثلاثا ووجوب ووقوعه طلقة واحدة.

ثم تكلم أحمد لطفى عن طرق الوفاق بين جميع عناصر الأمة وطبقاتها، وقصد بذلك أن الوفاق المطلوب لايجوز أن يقتصر على المسلمين والأقباط فقط، إنما يتعين أن يشمل الأجانب المقيمين بمصر وخصصوا عملهم وثروتهم لها وأسسوا بيوتهم فيها واتخذوها موطنا ثانيا لهم، فلم يعد ينقصهم لاستيفاء المصرية إلا التنازل عن جنسيتهم الأصلية، كما تكلم عن الوفاق بين طبقات الأمة.

وقدم على الشمسى تقريرا عن «التعلمي العملى: وفروع العلوم النافعة للصناعة والتجارة». فلاحظ نجاح انتشار الحركة العلمية، بحيث أن الآباء بعد أن كانوا يجبرون على تعليم ابنائهم فى الماضى، صاروا يطالبون الحكومة بنشر المزيد من المدارس، وصار الأغنياء ينشئون المدارس فى الأقاليم، وانشاوا فى القاهرة الجامعة المصرية. ثم تكلم عن تخلف الحرف والزراعة، ومن ذلك اهمال زراعة الفواكه والزهور واهمال تربية المواشى والخيول والأغنام والدواجن. واقترح ادخال مواد زراعة وحرفية فى الكتاتيب، فتعلم الصبية فائدة السماد الكيماوى، واستخدام الآلات، وانشاء مدارس ابتدائية وقانونية ندرس بها مبادئ التجارة وأعمال المصارف. وكذلك ان يضاف إلى المدارس العليا الموجودة وهى الحقوق والطب والهندسة، يضاف إليها مدارس عليا جديدة تدرس الكيمياء والصيدلة والكهرباء والاقتصاد وا لتجارة والمناجم. واقترح أن يدرس في الكتاتيب أيضا ما يحبب التضامن إلى التلاميذ. وتكلم عن تجارب الدول الأخرى ومنها اليابان.

وكان هذا ما قيل متعلقا بما أسمى الجوانب الاجتماعية.

أما عن الجوانب الاقتصادية ، فقد قدم إبراهيم رمزى تقريرا عن الصناعة فى مصر، فذكر أن هذا المؤتمر لم يسبق له مثيل فى بلادنا، وأن الصناعة هى خيرموضوع أخرج للناس فى هذا العصر، وقال إنه من الغريب أن تاتينا العلوم والصناعات محمولة من أوروبا وفينا من حملة الشهادات العليا ألوف ومن حملة الشهادات المتوسطة مئات الألوف، ومنا الأغنياء ، والذين يتراوح دخلهم السنوى ما بين العشرة آلاف والأربعين الفا من الجنيهات، ولدينا من الصحف والأحزاب والجمعيات ما يكفى، ولكننا لا نهتم بالماديات . والزراعة لم تبلغ الأوج فيها، والصناعة نحتاجها صناعة وطنية، وفكرة تاسيس بنك أهلى باموال مصرية هى من الضروريات، وإذا جمعنا نصف مليون جنيه أمكن تاسيس عشرين أو ثلاثين صناعة، وإذا لم يكن لدينا فحم ولامعادن فإن الآلة البخارية التى تبلغ قيمتها ألف جنيه لاتحتاج من الحديد إلا إلى مائتى جنيه ومن الفحم مائة، والباقى عمالة ومهارة، والشركات هى وسيلة تنظيم هذا الأمر، وتضامن العمال مع أرباب العمل هو الوسيلة مثل«شركة التمدن الصناعى» التى أنشئت وصارت ملكا للمساهمين والعمال، وتكلم عن هذه التجربة وهى شركة تشتغل بصنع حروف الطباعة والأدوات المطبعية.

وقدم جبرائيل كحيل اقتراحين، الأول: لتكليف الحكومة بتعديل المعاهدات التجارية مع الدول الأجنبية بشان تعريفة الرسوم الجمركية، وذكر أن تعداد سكان مصر زاد من نحو ٦,٨ مليون نسمة سنة ١٨٨٢ إلى نحو ٩,١ مليون نسمة سنة ١٨٩٧ إلى نحو ١١,٢ مليون نسمة سنة ١٩٠٧، وأن سكان القاهرة زادوا من ٥٧٠ الف نسمة سنة ١٨٩٧ إلي نحو ٦٥٤ ألف نسمة سنة ١٩٠٧. وسكان الإسكندرية زادوا من ٣٠٠ ألف نسمة سنة ١٨٩٧ إلى ٣٣٢ الف نسمة سنة ١٩٠٧، ولم تزد وسائل العمل وطرق الكسب بما يغطى هذه الزيادة فصار فى مصر نحو ٢,٦ مليون عاطل ومجهول الصنعة من الذكور فقط فى ١٩٠٧. ولاحل لذلك إلا فى الصناعة، والصناعة الأجنبية هى الرائجة لا لعجز المصريين عن الصناعة ولكن لأن الأجنبية أرخص وأجود، والصناعة نوعان تحويلى من الخامة إلى نصف المصنوع، والثانى تصنيع ما يستعمل ويستهلك كالنسيج والملابس، وإذا لم نستطع تصنيع النوع الأول فيمكننا تصنيع النوع الثانى، وكل الممالك تحمى صناعتها الوطنية بتخفيض الرسوم الجمركية على المستورد من المواد الأولية وزيادتها على المواد المصنوعة، ولكن الرسوم فى مصر هى بنسبة ٨٪ أو ٩٪ بغير تمييز. ثم عرض للمعاهدات التى يتعين تعديلها . أما الاقتراح الثانى فهو تعديل تعريفة نقل البضائع بالسكك الحديدية بما يرفع الغبن عن الشحنات الصغيرة حتى نستطيع منافسة أصحاب الشركات الكبيرة.

وقدم عبدالخالق مدكور تقريرا عن ترقية التجارة والصناعة فى مصر، أهاب فيه بذوى اليسار من المصريين الذين يودعون أموالهم الطائلة فى المصارف الأجنبية حتى امتلأت بغير فائدة للمودعين ولا لوطنهم ولا لمواطنيهم، أهاب بهم أن يساهموا بهذه الأموال فى تاسيس شركات تجارية، إن ذلك تزيد به فرص العمل وتتسع حركة التبادل والتعامل . وتحدث عن ترويج الصناعات المحلية والاستعاضة عن الصناعات اليدوية بالصناعات التى تعتمد على الآلات البخارية، وأهاب بالجميع تعضيد مواطنيهم من التجار والصناع، وتشجيع التجارة الوطنية والصناعات البلدية.

ثم قدم يوسف نحاس تقريرا عن «حالة مصر الاقتصادية والمالية» ترجم إلى العربية وألقاه على المؤتمر عبدالعزيز فهمى، فذكر أن الحالة الاقتصادية لمصر صورتها سوداء، وأنه لاقوام لأمة إلا بوفر ثروتها ،وأن الفتح الاقتصادى صار يحل شيئا فشيئا محل فتح الأراضى، والحرب الاقتصادية حلت محل حرب السلاح، وقذائف المدافع استعيض عنها بقذائف التعريفات الجمركية، والمقاطعة الاقتصادية صارت أنكى أثرا وأشد وقعا من جلل المدافع. ثم ذكر أننا نستجلب الأموال الأجنبية لا لنستعملها فى مشاريع جليلة ولكن لنبعثرها هباء، وأن أبوابنا لا رتاج عليها بل هى مفتحة. وعرض لخطرين أولهما سوء استخدام القروض، والاقتراض على المحصول الزراعى غيرمامون بسبب ما قد يلحق المحصول من أخطار وسعر الفائدة حتى فى صورته المعتادة يبلغ بالمصروفات نحو ٧٪ ويزيد بذلك على قيمة الإيجار التى لا تجاوز وفقا للدراسات المعدة ٦,٥٪ من قيمة الأراضى الزراعية (واستند فى ذلك إلى كتاب الفريد عيد عن ثروة مصر العقارية وديونها المضمونة بالرهون). وإذا قيل إن القرض لايزيد على ٦٠٪ من قيمة الأرض، فالجواب أن المقترض لايدفع الفائدة فقط ولكنه يدفع قسطا من أصل الدين مما يستهلك قيمة الأرض كلها فائدة وقسطا.

والخطر الثانى، أنه إذا كانت الأموال الأجنبية أدت خدمات جليلة لمصر، ولكننا ابتلينا بمحنة القروض منذ أيام الخديو إسماعيل ونتلقفها من كل فج وأصبحنا بعملنا هذا تابعين لأوروبا التى وضعت أموالها عندنا بفوائد مرضية لها جدا، والاحتلال وضع يده على مالية البلاد لأنه صار مسئولا عن حالة مصر المالية أمام الدائنين الأوروبيين وإيطاليا كانت مدينة فاشترت ديونها شيئا فشيئا. ودعا إلى أن يشترى المصريون ديون حكومتهم التى عليها للمقرضين الأجانب، وذكر أن الأغنياء المصريين يودعون أموالهم بالبنوك على سبيل الأمانة الحرة وتستثمرها البنوك لحسابها لا لحسابهم. وأن البنك الأهلى لدينا هو بنك إنجليزى وليس لدينا أى بنك وطنى للإقراض، والبنك العقارى يرهن أراضينا دون رقابة عليه من الحكومة كما هو شانه فى فرنسا، والاستيراد من الخارج هو سبب فقرنا، والديون المرهونة بعقارات زادت من ١٢ مليون جنيه سنة ١٨٨١ إلى ٢٠ مليون جنيه سنة ١٨٩١، وهى الآن (فى سنة ١٩١١) تصل إلى ٥٠ مليون جنيه. وثروة مصر العقارية مقدرة بنحو ٣٠٠ مليون جنيه، والرهن العقارى الذى بلغ سدس هذه الثروة لم يمض عليه عندنا أكثر من ثلاثين سنة ولم يفعل أفاعيله إلا من عشر سنوات. وفائدة هذا الدين تبلغ ٤ ملايين جنيه تعبر البحر كل سنة إلى الخارج ومعها ٣,٥ مليون جنيه من ديون الحكومة. وانتهى من ذلك كله إلى أنه من الضرورى إنشاء مصرف وطنى يكون رأس ماله

لم يسموا المؤتمر بالمؤتمر الإسلامى، إنما أسموه المصرى، لأنه «بالمصرية» يمكن استيعاب الموقف، ولم يختاروا لرئاسته شخصا من بينهم، وممن يدخل فى خصومات الحاضر، ولكنهم اختاروا له مصطفى رياض باشا، وهو من رؤساء الوزارات السابقين فى ثمانينيات القرن السابق، ومن المعروف بالاعتدال الشديد الذى يزيل أى هواجس



مصريا صرفا وإدارته العليا مصرية بحتة، وأن القعود عن إنشاء هذا المصرف هو عار عظيم تسود منه الوجوه، ويلزم توصية الفلاحين ألا يلتجئوا للبنوك إلا عند الضرورة، وأن يقاطعوا المرابين مقاطعة كلية وأن ينشئوا النقابات الزراعية لتعين الفلاحين (يقصد التعاونيات)، وإنشاء البنك الوطنى المصرى وتشكيل لجنة لتأسيسه فورا.

ثم تكلم بعده على الفور عمر لطفى رائد الجمعيات التعاونية فى مصر، عن موضوع «التعاون المالى والنقابات الزراعية»، ذكر أن مصادر الثروة هى التجارة والصناعة والفلاحة، والتجارة فى مصر ليست فى أيدى أبنائها ولاصناعة فيها، وبقيت الزراعة وحدها مصدرا للرزق، ويتعين النهوض بهذه المصادر جميعها بتأسيس المصانع وتشجيعها، والسيطرة على التجارة وترقية الفلاحة. ولا تحسن لحالة كبار المزارعين إلا بإنشاء مصرف أو مصارف تقرضهم بفائدة لا تزيد على ٤.٥٪. ولاتحسين لحالة صغار المزارعين إلا بإنشاء النقابات الزراعية وشركات التعاون المالى أو بنوك التعاون، ثم عرض لتجربة إنشاء أول نقابة مصرية زراعية فى قرية شبرا النملة. وذكر أن الأموال الأجنبية كانت تهطل على مصر قبل الأزمة الاقتصادية التى حدثت فى ١٩٠٧، ولو كانت استعملت هذه الأموال لتنمية مصادر الثروة لكانت مصر بعدها فى بحبوحة، وأن فائدة النقابات الزراعية الآن هى مساعدة الفلاح على تحسين المحصول وتخليصه من أسر المرابين واستخدام الطرق الفنية فى الزراعة ومحاربة دودة القطن، ثم شرح دور النقابات الزراعية فى فرنسا وإيطاليا، وأن نقابة شبرا النملة فى مصر قامت بمساعدة الفلاحين فى الحصول على البذرة والسماد والآلات والمواشى وتأجير آلات الرى وتسهيل بيع المحصول وتشييد المخازن والشون والإقراض وتنمية معارف الفلاح، وذكر أن الأمم الرشيدة تنهض بنفسها وليس بدافع الحكومة وتكلم عن شركات التعاون المنزلى، واقترح تشكيل لجنة مستديمة للبحث فى الأمور الاقتصادية وعلى الأخص مسألة التعاون، ورجاء الحكومة أن تعجل فى إصدارمشروع قانون التعاون الذى قدم لها من الجمعية الزراعية.

لا أظن أن كتابا أو اجتماعا أو برنامج أو وزارة، عكس كل هذه العناصر التى قدر أهل ذلك الزمان أنها تشكل مشروع نهضة بلادهم، لا أظن أن حدث هذا بقدر ماحدث فى هذا «المؤتمر المصرى الأول»، ولعله لم يحدث قط فى مؤتمر آخر، وقد ورد على لسان أحد المتحدثين أن جزى الله الشدائد كل خير، فلولا مؤتمر أسيوط ماكانت تسنح فرصة هذا الاجتماع

وعرض محمود أبو النصر ما أسماه «شركات مستودعات التامين»، وقال إن هذا ثالث المشروعات العظمى المطلوبة بعد مشروع التعليم ومشروع البنك الوطنى يرد مشروع شركات التامين، وعرض لمشاكل مصر الاقتصادية وسيطرة البنوك الأجنبية حتى صار الملاك فى أملاكهم أجراء لتلك البنوك على هذه الأملاك، وإن سبب مشاكلنا الاقتصادية هو الجهل بالتجارة والصناعة وانحطاط المحاصيل الزراعية، والفوائد الباهظة على القروض، وأن الربا الفاحش هو الحشرة السامة، وربا المصارف ظاهره الاعتدال وباطنه الفحش فهى تصل إلى نحو ١٢٪ وتزيد على متوسط الربح الذى يصيبه العامل من الزراعة والذى لايزيد على ٦٪، أما مراباة الأفراد فهى تصل إلى ٢٠٪، وإن علة انتشار المراباة هو عدم الثقة المالية لأن فى التسليف على المحاصيل وجه مخاطرة ولاترد الثقة إلا فى كبار التجار، ثم عرض لموضوع التامين بحسبانه ضمانة ومورد للثقة، مما يؤدى إلى تقليل سعر الفائدة. وعرض لموضوع الربا الفاحش كل من هاشم محمد مهنا ومحمد على علوبة، فاقترح هاشم مهنا سن قانون يضرب على أيدى المرابين مع ضرورة إنشاء مصرف وطنى يقوم بأموال المصريين، وذكر أن الربا الفاحش لم يزل أقوى عوامل ضياع أموال المصريين سيما مع وجود الأزمة الشديدة لسنة ١٩٠٧، وهو إذا كان من مستلزمات العصر الحاضر إباحة الربا والضرورات تبيح المحظورات فإن الربا المباح كان مقيدا بالحد الأقصى الذى سنه القانون الوضعى وهو ٥٪ فى المواد المدنية، و٧٪ فى المواد التجارية، بما لايزيد على ٩٪ و ١٢٪، وهذا الحد لايمنع الربا الفاحش وقد خفض هذا الحد فى فرنسا ونادى بوجوب إنشاء نقابات وجمعيات للتعاون وإيجاد المصرف الوطنى وأن يكون هدفنا هو الاستقلال الاقتصادى. وعرض محمد على علوبة للربا فى العصور المختلفة من أيام اليونان والرومان، وذكر أن أكثر من يعانى من الربا الآن هم المزارعون لأن ناتج الزراعة أقل من سعر الفائدة، وعرض للقوانين الأوروبية التى تجرم الربا الفاحش الزائد على الحد القانونى، وعرض لصور مما يعانى منه الفلاحون من ذلك منتهيا إلى ذات الطلبات.

ثم كان خاتمة التقارير الاقتصادية هو تقرير «حالتنا الاقتصادية الزراعية» الذى عرضه أحمد الألفى، فعدد سكان مصر بإحصاء ١٩٠٧ نحو ١١.٢ مليون نسمة منهم ٢٨٦ ألف أجنبى بنسبة ٢.٥٪، ومساحة الأطيان ٥.٤ مليون فدان، يملك الأجانب منها ٦٨٢ ألف فدان بنسبة ١٢.٥٪، ومتوسط ما يملكه المواطن ٤ أفدنة و٧ قراريط سنة ١٩٠١ صارت ٣ أفدنة و١٢ قيراطا سنة ١٩٠٩. أما الأجانب فمتوسط ملكية الواحد منهم ٩٠ فدانا و١٢ قيراطا سنة ١٩٠١ صارت ٩٩ فدانا و٤ قراريط فى ١٩٠٩ وعدد كبار ملاك الأراضى

الزراعية الذين يملك الواحد منهم ٥٠ فدانا فأكثر ١٠،٤ ألف شخص يملكون ١،٧ مليون فدان بمعدل ١٦،٢ فدانا و٢٢ قيراطا للشخص سنة ١٩٠١، وصار ذلك في ١٩٠٩ نحو ٦٠٩ آلاف شخص يملكون ١،٨مليون فدان بمعدل ١٦٥ فدانا و٦ قراريط للشخص الواحد، أما بالنسبة للأجانب فعدد كبار الملاك الذين يملك الواحد منهم ٥٠ فدانا فأكثر سنة ١٩٠١ نحو ١٤٨٤ شخصا يملكون ٥١٠ آلاف فدان بمعدل ٣٤٣ فدانا و١٩قيراط للواحد منهم، وارتفع ذلك في سنة ١٩٠٩ إلى نحو ١٦٠٠ مالك أجنبي يملكون ٦٤٣ ألف فدان بمعدل ٤٠٩ أفدنة و٢١ قيراطا للواحد منهم فنسبة كبار الملاك في المواطنين ٠،١ ٪ في الألف وفي الأجانب ٠،٥٦٪.

ولايدخل في هذه الأراضي أراضي الحكومة (الدومين) ولا الأرض غير المقرر عليها ضرائب. وفضلا عن ذلك فإن الديون المرهونة بها الأراضي بلغت ٤٠ مليون جنيه سنة ١٩٠٧، ومجموع الديون الأهلية يبلغ ٦٠مليونا سنة ١٩١١، وأقل ربا لهذا الدين يبلغ ٥،٤ مليون جنيه في السنة، وأن من يعملون بالزراعة حسب إحصاء سنة ١٩٠٧ نحو ٢،١مليون نفس هم في أدنى درجات الفقر، وزادت الأراضي الزراعية في العشرين سنة الماضية نحو ٨٠٠ ألف فدان وتحولت أراض من رى الحياض إلى الرى الدائم، ومع ذلك نقص عدد المواشي من نحو ١،٦٧ مليون رأس في ١٩٠٣ فصار نحو ١،٤٥ مليون رأس في سنة ١٩٠٩.

والجهالة منتشرة في الريف، وخاصة بين الفلاحين، وفي مصر ٧٣٥ مدرسة ليس فيها مدرسة زراعية واحدة، وبها ١٢٤ صحيفة ومجلة ليس فيها واحدة زراعية إلا مجلة وليدة باسم «مصلحة زراعية» صدرت أخيرا. وفي مصرجمعيات شتى وليس من بينها جمعية زراعية واحدة، ثم طالب بتنشيط مشروع النقابات الزراعية ليعم البلاد، وتأسيس بنك زراعي وتحسين حالة الفلاح المعيشية وترقية الزراعة وتحسين أنواعها، وإنشاء ناد للمزارعين وتكوين جمعية زراعية فنية وتنشر المباحث الزراعية والاقتصادية.



لا أظن أن كتابا أو اجتماعا أو برنامجا أو وزارة ، عكس كل هذه العناصر التي قدر أهل ذلك الزمان أنها تشكل مشروع نهضة بلادهم من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، لا أظن أن حدث هذا بقدر ماحدث في هذا «المؤتمر المصرى الأول» ، ولعله لم يحدث قط في مؤتمر آخر، وقد ورد على لسان أحد المتحدثين أن جزى الله الشدائد كل خير، فلولا مؤتمر أسيوط ماكانت تسنح فرصة هذا الاجتماع، وكان ذكاء القوم أن حولوا هذا الاجتماع من أن يكون رد فعل على اجتماع اسيوط ،وأن يكون طرف خصام أو حوار مع رجال ذلك المؤتمر، حولوه إلى أن يكون حكما بموجب الجامعية، وبدل أن ينحصر الحديث في إطار العلاقة الثنائية بين المسلمين والأقباط وحدهما، وأن يقفوا متقابلين ، جعلوه مؤتمر نهوض بمصر ليقف المسلمون والأقباط فيه كتفا لكتف متجهين مع بعضهم البعض لبناء نهضة هذه الجماعة، وقد شخصوا من المشاكل ما أملاه عليهم البحث الموضوعي البصير، ووضعوا له من الحلول في إطار ما سمحت به الثقافة السياسية الاجتماعية السائدة في مصر والخارج، بما يدل على عمق البحث وشمول الإحاطة ونباهة النظر، وقد طمحوا إلى أن يعقد المؤتمر بعد سنتين على نحو دورى وشكلوا اللجنة التنفيذية المستديمة وهم أعضاء اللجنة التحضيرية ، وهي من ١٢٥ عضوا ، وسجلوا مطالبهم كلها باقتراحها وعرضها والتصويت عليها، رفضوا المطالب التي أبداها أقباط مؤتمر أسيوط ودعوهم إلى الانضمام لهذا المؤتمر المصرى، وقرروا في البداية:

«أن الأمة المصرية هي في مجموعها كل لايقبل التجزئة في الحقوق السياسية، وأنه مع ما لكل طائفة دينية من الحرية التامة في عقيدتها فإن للحكومة المصرية دينا رسميا واحدا هو الإسلام».

ثم عرضوا في قراراتهم لمسائل التربية والتعليم والمسائل الاجتماعية ثم عرضوا للمسائل الاقتصادية وكان أول قرار اتخذوه فيها وأهم قرار هو «إنشاء مصرف وطني مصرى برؤوس أموال مصرية» وقوبل الاقتراح والموافقة عليه بالتصفيق المتكرر وصادف إجماعا، وتحمس البعض فأبدى استعداده للاكتتاب في الحال، وأعلن علي لملوم السعدى انه وعائلته مستعدون لتقديم ٣٦٠ فدانا ضمانة لأرباب الحقوق الذين يودعون أموالهم في البنك، وقوبل كل ذلك بالهتاف.

وورد في المطالب تقرير عقوبة على الربا الفاحش والسعى لدى الحكومة لعدم بيع أملاك الميرى الحرة للشركات الأجنبية، وتعضيد النقابات الزراعية وإنشاء مستودعات التأمين وإنشاء نظارة للزراعة، وتحسين الصناعة المحلية وحماية الصناعة الوطنية وتأسيس الشركات الصناعية والسعى لدى الحكومة لإصدار قانون لحماية العمال.

وإذا كان لم يقدر انعقاد المؤتمر بعد سنتين، فقد كانت مطالبه واقتراحاته مما شكل برامج العمل الوطني في إطار ثورة ١٩١٩ وفي إطار النهضة التي عرفتها مصر من بعد.

ولعل الفرصة تسنح إن شاء الله من خلال الدراسات التي أعدت عن النصف الأول للقرن العشرين ، لمتابعة تنفيذ هذا المشروع.

والحمد لله.

هيئتهم نظيفة
وحركتهم خفيفة
وعليهم من الزحام أطباق

الطب والأطباء في ليالى ألف ليلة وليلة

محمد فواد الذاكرى



■■ ليالي (ألف ليلة وليلة) تعتبر صورة عن الأدب الشعبي تحكي نشأة الحياة على اختلاف صورها وتقدم ملامح واقعية عن شخوصها وأفرادها بمختلف اتجاهاتهم وأعمالهم. وتبرز شخصية (الطبيب) باعتبارها مفهومًا عامًا في حكايات الليالي لها خصوصيتها وملامحها الخاصة والمتنوعة وإطارها المتميز من خلال رصد مشاكلها وهمومها ومعاييرها وقيمها والدور الذي تلعبه في الحكاية، فهو يتراوح بين وظيفة مركزية أساسية ووظيفة فرعية لا تؤثر مباشرة في مجرى الأحداث لكن وجودها ضروري، إذ لا تكتمل الحكاية إلا بها، ودراسة واقع الطب والأطباء في الليالي يكشف جانبًا هامًا من التقاليد الاجتماعية السائدة مع تبيان المصادر التي استقت منها الليالي مادتها المعرفية والقصصية، كما تظهر درجة الوعي الصحي ومستوى التفكير الطبي على ضوء المبادئ الأساسية للمنظومة الطبية الفلسفية القديمة، وقد يعتبر البعض أن الليالي مثل ما جاء في بعض الكتب التراثية القديمة تقوم على إيجاد الخوارق والمعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة في سبيل الإعلاء من شأن بعض طرق المعالجة أو الأطباء، وهكذا يرتبط بالذهن أن المعالجات الطبية القديمة قائمة على الخلاب والأسطوري وخرق القانون وإدخال الاضطراب إلى النظام الطبيعي، وتعتمد على ترسيخ قانون الأشياء اللاواقعية والمفاجآت، وبهذا ترسخ منهجًا أقرب إلى اللاعلمية منه إلى العلمية واليقين.

هذه النظرة المتعجلة تنبع من قراءة لا تحليلية وغير متفحصة لتراث هو مرآة الماضي وصورة للتاريخ ومدخل لفهم الواقع المعاش بشكل صحيح بعيد عن الطروحات الجاهزة، ومفتاح لسبر أغوار المستقبل، وتستمد هذه النظرة الآنية شرعيتها بنقد الماضي، في محاولة يائسة لاستعادة جوهرها الإنساني المسلوب ثقافيًا وروحيًا، ولا تستطيع التخلص بالوقت نفسه من الخواء المعرفي الذي يلازمها وتدخل في نقاشات عقيمة واختلافات مصطنعة قائمة على استبعاد القدرات الإنسانية الأساسية وتكسبنا إحساسًا زائفًا بالأمان وثقافة مصطنعة منقوصة.

يقول (توماس كون) في مؤلفه بنية الثورات العلمية: «إن الانتقاص من الواقع التاريخي متأصل بعمق وربما عمليًا في أيديولوجية المهنة العلمية ويقول (وايتهيد) إن علمًا يتردد في إغفال ذكر مؤسسيه علم خاسر وضائع».

صورة الطبيب وعلومه:

تعتبر العلة الغائية لعلم الطب هي حصول واكتساب الصحة لجسم الإنسان ومداواة المرض والعلة وكما يقول محمد علي (التهانوي) في كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون»: فبدن الإنسان وأجزاؤه والأغذية والأدوية والأركان والأمزجة وغير ذلك، إذا جعلت موضوعات للطب فإنها تتشارك في كونها منسوبة إلى الصحة التي هي الغاية القصوى في ذلك العلم.

ويلفت انتباهنا بأنه يطلق على الطبيب في الليالي لقب (الحكيم) كناية عن علو شأنه في العلم والمعرفة بحيث كأنه «حصل له الكل» حيث تصدى الحكيم (رويان) لعلاج الملك من مرض (البرص Leprosy) الذي أصابه وعجز الجميع من (أطباء وحكماء) عن مداواته. في البدء كان لا بد للقاص الشعبي أن يسرد لنا أنواع العلوم والمعارف التي يتقنها (الحكيم) حتى (تنبهر) بمدى قدرته العلمية ومعارفه الطبية، وهي إتقان «الكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية وعلم الطب والنجوم وعالم بأصول حكمتها وقواعد أمورها من منفعتها ومضرتها عالمًا بخواص النباتات والحشائش والأعشاب المضرة والنافعة، قد عرف علم الفلاسفة وحاز جميع العلوم الطبية».

هذه اللائحة الطويلة بالعلوم والمعارف تجعلنا لا نشك مسبقًا في قدرة هذا الطبيب (الحكيم) على علاج مرض عضال مثل (البرص) كان يشكل تحديًا حقيقيًا للأطباء القدامى، ومهما كان جانب الخيال في أمثال هذه الحكايات ومهما تحرر (القاص الشعبي) من قيود التسلسل التاريخي «فالحكاية تجرى أحداثها في مدينة الفرس وأرض رومان، أما الملك فاسمه (يونان)، لاحظ الدمج والتماثل...»، إلا أن القاص لا يمكن أن يفسر أو يبرر أحداث الحكاية بطريقته الخاصة، فهناك قدر من المنطق والمعقولية لا بد من وجوده، كما أن تميز (الحكيم) في نهج معالجته المختلف عن تناول الأدوية المعروفة واستخدام الدهون التي لم تعد تنفع، وكانت الطريقة بأن ينزل الملك (يونان) إلى الميدان الفسيح، وهو «قابض بكفه على قصبة الصولجان وما زال

بعض المؤرخين يدللون على التقدم الطبي، بأنه كان على مائدة (سيف الدولة الحمداني) أربعة وعشرون طبيبا إذا أكل الطعام، وهؤلاء الجمع من الأطباء ليس مهمتهم العلاج والمداواة بطبيعة الحال، بل تنظيم أوقات وكيفية أنواع أصناف الطعام المقدمة له بحيث تناسب صحته ومزاجه

يضرب به الكرة حتى عرق كفه وسائر بدنه وسرى له الدواء من القصبة».

هذه الطريقة المبتكرة في العلاج عائدة بالطبع إلى خبرة الطبيب ومعارفه الواسعة، التي مهد لها (القاص) تمهيدًا مفصلاً، هذا هو المحور أو أساس الحكاية، وتساهم معها الأحداث المتلاحقة بعد ذلك في تأكيده، إذ قرر الملك بعد ذلك قتل (الحكيم) - الذي نجح في مهمة علاجه - نتيجة وشاية من الوزير الذي تضايق من المكانة والأموال التي حباها (الحكيم). هذا الانقطاع قد يعتبره البعض مظهرًا من مظاهر (عبثية العلم) ولا جدواه، وكان لا بد للحكيم أن ينتقم لمقتله، فيحتال بحيلة لطيفة على الملك تؤدي لوفاته أيضًا، وهكذا ينتصر (العلم) أخيرًا على (القوة).

ونحن واجدون تشابهًا شديدًا في محنة العالم العربي (حنين بن إسحق) (١٩٤ - ٢٦٤هـ) - (٨٠٩ - ٨٧٧ م) مع الخليفة العباسي (المتوكل على الله)، الذي اعتقد بأن (حنينًا) مدسوس عليه من ملك الروم لتدبير أذى له، والمبرر لذلك زيارة (حنين) الطويلة لبلاد الروم لطلب العلم والاستفادة في جمع الكتب القديمة ودراسة الطب. فالعامل المشترك بين (حنين) في القصة الحقيقية والحكيم (رويان) في الليالي، هي أن الأول كان خارج البلاد لفترة طويلة، إذ دامت رحلاته أكثر من ست سنوات والثاني كان غريبًا وافدًا، ليس من أهل البلاد الأصليين مما جعل الملك (يونان) و(المتوكل على الله) يداخلهما الشك في كون الاثنين مجندين لحساب قوة خارجية للقضاء عليهما وإيذائهما، ولا ريب أن التحريض والدسائس من رجال البلاط كانت تفعل فعلها، ولكن المصير كان مختلفًا في الحكايتين. فقد كان السجن نصيب (حنين بن إسحق) وسرعان ما أفرج عنه بعد إثبات براءته. أما الإعدام فكان للحكيم (رويان). وبالنتيجة فإن الأدب الشعبي يجد أحيانًا في القصص الواقعية سندًا ومتكأ له ويبقى الخيال والمبالغة سمة رئيسية له، ولكنه يكشف عن وجود الجمال والقبح في الواقع المعاش مع نزعة ظاهرة إلى الوعظ والإرشاد لغايات أخلاقية تعليمية، وهكذا فقد مات (الملك يونان) بعد سويعات معدودة من إصداره الأوامر بقتل (الحكيم) قائلاً: «لقد سرى فيّ السم» ويعلق القاص الشعبي في الختام: «إن الملك يونان لو أبقى الحكيم رويان لأبقاه الله لكنه أبى وطلب قتله فقتله الله».

تودد الجارية:

وقريب من الحكاية السابقة (تودد الجارية) التي استخدمت معارفها المتنوعة ومن ضمنها المعرفة الطبية، كأداة لها أهميتها الاجتماعية والسياسية وبحسب تعبيرها فقد: «وصلت إلى شيء لم يعرفه أحد إلا الراسخون في العلم».

وبغض النظر عن أن هذه الجارية (الموسوعية) كانت تمثل انتصار جماعة السنة على إبراهيم بن سيار النظام (المفكر المعتزلي المعروف) ومعارفها الطبية وغيرها من أنواع المعارف كانت المكافئ الثقافي للسلاح المادي، وهي لم تظهر أي نوع من الممارسة العلاجية، فالزمان والمكان لم يسمحا لها إلا بالمناظرة فقط، وقد اقتصرت في مناظرتها ضد (الطبيب الماهر) المجهول الاسم على ما أوردته من قواعد صحية مقتبسة من الطب النبوي ومن (الوصايا الطبية) المنسوبة إلى الطبيب العربي المشهور (الحارث بن كلدة) في محاورته الشهيرة مع كسرى بعد تحويرها قليلاً وإلباسها طابعًا إسلاميًا.

وما قالته الجارية تودد لا يعدو عرضًا ساذجًا مبسطًا لنظرية العناصر الأولى الشهيرة (النار، الهواء، الماء، التراب)، التي نادى بها الفيلسوف اليوناني (امبادوقليس)، هذه النظرية الفلسفية والتي تطورت فيما بعد لتفسير أمراض جسم الإنسان في ضوء علاقته بالكون وأن حصول العلل والأمراض ناجم عن عدم توازن الأخلاط الأربعة (الدم والصفراء والبلغم والسوداء) في جسم الإنسان، وهو تطوير (جالينوسي) وجد صدى له عند الأطباء العرب القدامى كأساس نظري طبي، والواقع أن تحقيق مشروع نظري عربي خارج عن هيمنة هذه النظرية كان يتطلب جهازًا معرفيًا (منظومة معرفية) لم تكن تتوافر لأحد من الأطباء على اختلافهم وكان ذلك يتطلب (قطيعة) مع المفاهيم الأبقراطية والجالينوسية اليونانية ومخالفة لرأي (السلطة الرسمية) السائدة لم تكن الظروف المادية وغيرها تسمح بها، وهذا ما لم يحققه الأطباء القدامى، بل على العكس حرصوا كل الحرص على تأكيد مشروعية علومهم الطبية بكونها تستجيب للشروط التي يشترطها الطب الأبقراطي اليوناني، والجدير بالذكر أن الأطباء القدامى أثاروا الاعتراضات والاستفهامات والخلافات مع المفاهيم الجالينوسية، ولكن هذه المعطيات كلها لم تترسخ لتشكل نهجًا مستقلاً أو منعطفًا حادًا يسمح بتجاوز سلطة (جالينوس) الطبية والخروج عن وصايته والانفلات الوثيق من سيطرة مفاهيمه. ونعود لنؤكد أن التزام الأطباء القدامى بما ذكرناه لم يكن معيقًا أو مانعًا من الولوج في عالم من الدقة والتفصيل العلمي الرائع مما يعطي الانطباع بأن التزامهم بهذه النظرية كان (شكليًا) في بعض الأحايين وكأنهم يبحثون عن راية يقاتلون تحتها حتى لو لم تكن تلبي طموحاتهم العقلية.

أجور الأطباء:

في حكاية طريفة أن خياطًا وزوجته قد دعوا رجلاً أحدب «رؤيته تضحك الغضبان وتزيل الهم والأحزان» لبيتهم بغية السخرية منه، وأثناء العشاء ألقمت المرأة جزلة سمك كبيرة في فم الأحدب، مما أدى لوفاته اختناقًا، وبغية التخلص من هذا المأزق، حملوه إلى منزل طبيب يهودي تحت ادعائهم بأنه طفل مصاب بالجدري، وطلبوا من خادمته النوبية استدعاء الطبيب بعد إعطائها مبلغ (ربع دينار) سلفًا كأجرة لفحص الطفل ومعاينته، وما كان من الطبيب البائس إلا أن نزل مسرعًا لأرض الدار بدون أن يحمل مصباحًا للإنارة، فالوقت كان ليلاً والظلمة حالكة، فعثرت رجله بالأحدب الميت المسنود على الحائط فوقع إلى أسفل وظن بأنه قد قتله، وتستمر فصول الحكاية الهزلية إلى أن يقوم الحلاق (المزين) باستخراج قطعة السمك من حلق الأحدب بواسطة (كلبتين من حديد) ليستفيق بعدها وقد عادت إليه الروح.

وهذه الإشارة الوحيدة في الليالي التي يشار فيها إلى أجر الطبيب وتحفل بعض المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة فيما يتعلق بإدارة المؤسسات الطبية (المشافي أو البيمارستانات) بما فيها مخصصات الأطباء والجراحين وأطباء العيون والعاملين فيها للعناية بالمرضى وتدبير أمورهم... غير أنه لم تصلنا معلومات مفصلة حول طبيعة الأجر ومقداره وشروط العمل بالنسبة للأطباء الذين يتركز نشاطهم بخاصة بين أفراد عامة الشعب وتتركز معلوماتهم فيما يتعلق بهذه القضية بالأطباء المشهورين المعروفين والذين اكتسبوا سمعة جيدة في المضمار الطبي، وأتيح لهم تقديم الخدمات الطبية لرأس السلطة الحاكمة أو لأحد أفرادها أو المقربين إليها والدائرين في فلكها، فاستفاد هؤلاء الأطباء في غالب الأحيان من الامتيازات المالية الجيدة التي كانت تغدق عليهم أحيانًا بلا حدود، وتحفل المصادر التاريخية بوقائع كثيرة وعديدة من هذا القبيل، نذكر ما رواه مؤرخ الأطباء الأشهر (ابن أبي أصيبعة) (٦٠٠ - ٦٦٨ هـ) عن الطبيب (أبو الفرج النصراني) الذي كان في خدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وطلب معونته لتزويج بناته، فأمر له بنحو ثلاثين ألف درهم.

ألف ليلة وليلة
القاهرة: مكتبة الجمهورية، بدون تاريخ.

وعلى سبيل المثال كان الأطباء في العصر الفاطمي، يتقاضون مرتبات لقاء قيامهم بالخدمة داخل القصر تتراوح ما بين عشرة دنانير إلى خمسين دينارًا شهريًا.

وبحسب (ابن أبي أصيبعة) فإن الأطباء في بلاد الشام في العهدين الزنكي والأيوبي كانوا يتقاضون أجورًا شهرية تتراوح ما بين عشرة دنانير وثلاثين دينارًا، وكان الطبيب العامل في المشفى أو البيمارستان يتقاضى أجرًا شهريًا يتحدد بأغلب الأحوال بحسب سمعته الطبية ومهارته العلمية، وهي التي تعرف (بالجامكية) مع جراية قمح أو نحوه، فالطبيب (رضي الدين الرحبي) كان يتقاضى خمسة عشر دينارًا ليتردد إلى (البيمارستان النوري) ويقوم بمعالجة المرضى وقد أطلق (صلاح الدين الأيوبي) ثلاثين دينارًا شهريًا للطبيب (عبد اللطيف البغدادي) ما لبثت أن زادت حتى وصل دخله إلى ما يعادل مائة دينار شهريًا.

وأما الطبيب (مهذب الدين عبد الرحيم بن علي) والمعروف (بالدخوار) والمتوفى بدمشق (٦٢٨هـ) فقد رفض راتبًا شهريًا مقداره (ثلاثون دينارًا ناصرية) ليكون برسم خدمة العسكر لمعالجتهم من أمراضهم، وذلك لأن صنوه وزميله الطبيب (موفق الدين عبد العزيز) كان يتقاضى مائة دينار شهريًا وهو لا يقل عنه - حسب قوله - معرفة في المعالجة الطبية.

كما عرض الملك الناصر (داود بن الملك المعظم عيسى) عندما كان صاحب الكرك وأعمال القدس وذلك سنة (٦٣٠هـ) على الطبيب (أوحد الدين عمران بن صدقة) (٥٦١ - ٦٣٧هـ) راتبًا شهريًا مقداره (ألف وخمسمائة درهم) ليكون في خدمته. وأن يأخذ سلفة مقدارها (سبعة وعشرون ألف درهم) عن سنة ونصف مقدمًا، فلم يرض وفضل البقاء في دمشق للعمل في البيمارستان الكبير النوري ولخدمة الدور السلطانية بالقلعة.

وهناك وثيقة أصلية توجد في مكتبة جامعة كمبردج يعود تاريخ كتابتها للقرن السابع الهجري، (الثالث عشر الميلادي) وبالتحديد ما بين (٦١١ هـ - ١٢١٤م)، (٦١٦هـ - ١٢١٩م) تتضمن فحواها التماسًا أو عريضة من أحد الأطباء المدعو (مكارم بن إسحق المتطبب) للحصول على وظيفة بأجر شهري مقداره (ثلاثة دنانير) في بيمارستان بالقاهرة، وفيما يتعلق بتفاصيل الأجر الشهري الذي يطلبه الطبيب الملتمس وأسماء الأشخاص الواردة أسماؤهم ضمن الوثيقة يجعلها واضحة ودقيقة ومميزة ومصدرًا هامًا وثمينًا لاستجلاء بعض المعلومات، وهي بالتأكيد أكثر من رسالة مدبجة والجدير بالذكر أن (الملك الكامل الأيوبي) قد أطلق للطبيب (أسعد الدين ابن أبي الحسن) إقطاعات يستغلها كل سنة بالديار المصرية ورسم بانتظامه في سلك الخدمة وقرر له كل شهر مائة دينار مصري. وهذا الراتب الشهري يبدو كثيرًا بمقارنته بمبلغ الثلاثة دنانير المتواضعة التي يطالب بها صاحب الالتماس (مكارم بن إسحق)، كما وصف (أبو علي التنوخي) (المتوفى / ٣٢٨هـ) طبيبًا مصريًا يعرف (بالقطيعي) كان يكسب في الشهر (ألف دينار) من مرتبات أجور كان يتقاضاها من «رؤساء العسكر ومن السلطان وما يأخذه من العامة» ولا بد من الاعتراف بأنه من الصعب تحديد أجر الطبيب العادي بصورة دقيقة في الماضي.

عيادة الطبيب:

كان الأطباء القدامى في المدن الكبيرة ببلاد الشام يعملون في (دكاكين خاصة)، وهي أشبه بالعيادات الخاصة في ذلك الوقت الحاضر، حيث كان الطبيب يجلس في دكان يقع في مركز المدينة التجاري أو أحد أسواقها الكبرى الهامة، ويستقبل المرضى ويعالجهم بحسب احتياجاتهم ويعطيهم الدواء المطلوب الذي يقوم بتحضيره في غالب الأحيان من مصادره النباتية والحيوانية، ويورد (القاسم بن علي الحريري) وصفًا حيًا لدكان أحد المتطببين وهو (الحجام)، من خلال (المقامة الحجرية) نتبين منها كثرة تردد الناس والزحام الشديد على دكان الحجام، فيصفه بأنه «شيخ هيئته نظيفة وحركته خفيفة وعليه من النظارة أطواق ومن الزحام أطباق».

ويذكر (ابن أبي أصيبعة) عددًا من الأطباء الذين كانوا يعملون في الدكاكين الخاصة بدمشق في القرن السادس الهجري، نذكر منهم:

١ - أبو الحكم عبيد الله الباهلي الأندلسي (ت ٥٩٤هـ): كان متقنًا للصناعة الطبية، مشهورًا بالشعر يزاول عمله الطبي في دكان يقع بجوار (باب جيرون) أحد أبواب الجامع الأموي الكبير.

٢ - أبو جعفر عمر بن البذوخ (ت ٥٧٦هـ): كان خبيرًا بمعرفة الأدوية ويقوم بتحضيرها وبيعها في دكان عطارة (باللبادين) يعالج فيها من يقصده أو يستوصف منه، وصنف عدة كتب طبية منها حواشي على كتاب القانون لابن سينا.

٣ - حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني (ت ٦٠٠هـ): كان بارعًا بالكحالة «أمراض العين ومداواتها» واشتهر بها وكانت له دكان في (اللبادين)، وله كتب تتراوح بين البلاغة والشعر ووصفات الأدوية.

٤ - كمال الدين الحمصي (ت/ ٦١٢هـ): اشتغل بصناعة الطب، وكانت له دكان (بالخواصين) بدمشق يجلس بها وله عدة كتب طبية منها: اختصار كتاب الحاوي للرازي.

وفي الليالي يرد وصف حسي لدكان الطبيب في حكاية (نعم ونعمة)، حيث إن الطبيب الأعجمي الذي يوصف «بإتقان الطب والتنجيم وضرب الرمل» قد افتتح دكانًا في مدينة دمشق «وملأ رفوفها بالصيني النفيس والأغطية وزركش الرفوف بالذهب والقطع المثمنة وحط قدامه أواني من القناني فيها سائر الأدهان ووضع حول القناني أقداحًا من البلور». ولا ينسى القاص أن يضيف إلى كل هذه الأشياء (الإسطرلاب)، وهي بالتأكيد أداة للفلكي والمنجم تأييدًا لوصف الطبيب بأنه يجيد التنجيم إلى جانب العلوم الطبية والتأكيد مرة أخرى على الارتباط الوثيق بينهما. ومن الطبيعي أن يصيب هذا (الطبيب الأعجمي) شهرة بين أهل دمشق، فلباسه الفاخر عبارة عن قميص من الحرير وقد حزم فوطة حرير على وسطه مزركشة بالذهب، كما كان يجيد الفارسية ويتحدث بها مع مساعده أمامهم، وعلى حد تعبير القاص فهي «عادة أولاد الأكابر»، وكان لا بد أن يتكلم الطبيب بلغة أعجمية حتى يعطي انطباعًا أمام مستمعيه بأنه ذو علم وخبرة وهو تأثير نفسي قد ينسحب حتى عالمنا الحاضر.

وباختصار فقد لبس الطبيب الأعجمي (أثواب الحكمة والطب)، ويرد في الحكاية وصف لطريقة تشخيص طبية قديمة تعتمد النظر إلى قارورة بول المريض وفحصها ومن ثم تشخيص المرض أو الداء، وهو الاستدلال بالأحوال الحاضرة عن الأحوال الظاهرة وإعطاء العلاج المطلوب.



يقرر (ابن خلدون): «أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية» بعد استنتاجه قوانين عامة في مشروعه الاجتماعي الحضاري. فقد لاحظ أن «أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم». أما «المتقشفون في عيشهم المقتصرون على الشعير أو الذرة.. فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم».

وبهذا الصدد يروي الطبيب الفيلسوف (إسحق الرهاوي) (المتوفى في الربع الأول من القرن الرابع الهجري) حكاية طريفة عن طبيب عرضت عليه إحداهن قارورة لأحد أقاربها بغية وصف علاج لمرض يشكو منه، ولكنها اعترفت قائلة بأن جماعة من جيرانها المرضى لما علموا نيتها الذهاب لدكان الطبيب حمّلوها قواريرهم أيضًا، فاستصعبت حملها، وسرعان ما هداها تفكيرها إلى جمعها كلها في قارورة واحدة مشتركة، وهي تطلب من الطبيب أن يصف لكل مريض منهم العلاج المناسب، ويعلق (الرهاوي) بقوله: «من الناس من هم قليلو التحصيل في حال صحتهم، لا يفهمون ما يخاطبون به ولا يعون ما يشار به عليهم فكيف في حال المرض، لذلك يجب على الطبيب قبل أن يشير على المريض بمشورة أن يختبر عقله وتحصيله وعقل خادمه المتولي لخدمت، فإن وثق بجودتهم أشار بما يراه من الأدوية والتدابير وإن لم يثق بصحتهم أمسك».

وهنالك دلالة أخرى هامة، فقد طلب الطبيب المذكور معرفة اسم المريضة ليحسب نجمها ويستدل منه في أي ساعة يوافقها شرب الدواء بحسب تأثير قوى الكواكب وأوضاع الأفلاك. هذه الظاهرة كانت منتشرة لدرجة أن (ابن خلدون) هاجمها بقوله: «فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدم في ذلك كون وجودها طبيعيًا للبشر بمقتضى علومهم ومداركهم».

وكما يقول الباحث المغربي (محمد عابد الجابري): «لم يقاوم العقل العربي التجريبي اللامعقول الوافد عبر الترجمة وكان حظ اللامعقول فيها كبيرًا واسعًا مثل العقيدة الهرمسية وحلولية الهند ومجوسية الفرس وقبالية اليهود وغير ذلك من العلوم الروحانية مثل السحر والطلسمات والتنجيم والكيمياء وغيرها...».

إن تفسير (اللامعقول) المتداخل في العلوم الطبية عملية معقدة وتستدعي الإحاطة بها كثيرًا من المداد، ولن ننسى بأن المعارف الطبية قد تستقل في اللحظة الزمنية التي تتواجد فيها عن درجة التطور الفكري للأفراد.

وتبرز حكاية أخرى لها دلالة هامة تتحدث عن طبيب تعلم صنعة الطب في مدينة دمشق حيث استدعي لمعالجة مريض شاب فجس نبضه ومفاصله وكتب له (وصفة طبية) وطفق يتردد عليه فترة عشرة أيام حتى تماثل المريض للشفاء. والواقع أنه كان لمعرفة النبض وانقباضه وانبساطه وسيلة تشخيصية هامة لدى الأطباء وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بعد التعلم والممارسة لفترات طويلة وكانوا يستدلون به على أحوال القلب وأمراضه ويقول (إسحق الرهاوي): «وعلم النبض للطبيب في حفظ الصحة وفي معالجة المرض علم عظيم النفع لأنه كما قال جالينوس مخبر لا يكذب فلذلك وأشباهه ينبغي أن يتوفر على حفظ القلب».

ويقول الطبيب (هبة الله بن جميع) (ت٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م) «وجالينوس يقول إنه أقام سنين كثيرة عديدة يتأمل النبض بحرص شديد واجتهاد عظيم حتى أدرك انقباض العرق إدراكًا يثق به. إدراك انقباض العرق مبدأ من مبادئ علم النبض. وأبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا يقول: إن في النبض طبيعة موسيقية مشابهة للأمور التي تألف منها علم الموسيقى، لأن النسب التي بين أزمنة النقرات والنسب التي بين أحوال النبضات في القوة

والضعف ومقادير انبساط العرق كالنسب التى تبين أحوال النغم فى الحدة والثقل...». وقد كان من جملة المعارف التى ينبغى أن يتقنها الطبيب الحركات الموسيقية وتواترها واختلاف نظامها واختلاف الألحان والأنغام لتمييز الصوت العريض والثقيل الأبحّ والدقيق والوسط حتى إن (جالينوس) كان يوصى بترويض الأنامل بحس الأوتار. والواقع أن معرفة ذلك وتعلمه ليس بالأمر السهل، وقد يحتاج الأمر إلى سنين كثيرة ويوجد كتابان من تصنيف (جالينوس) فى هذا العلم هما: «كتاب النبض الكبير»، «كتاب النبض الصغير».

الطبيب الجوال:

وفى صورة مغايرة نجد حكاية (الطبيب الجوال) الذى يجعل على عاتقه جرابًا فيه بعض الأدوية وينادى فى الأسواق والأزقة: من يحتاج إلى طبيب!!! ونفاجا فى الحكاية بانه طبيب مزعوم وحقيقته لص متنكر هدفه القضاء على أحد التجار وسلبه ماله، وقد أقنعه بشرب دواء كان فى حقيقته سمًا زعافًا وانطلت الحيلة وتم المراد للص.

ومن الواضح أن الليالى قد تاثرت بالحياة الراهنة فى زمن القاص فقد عقد (ابن خلدون) فى مقدمته فصلاً هو «فى اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع» ولاحظ فيه أثر اختلاف العادات الغذائية على الإنسان وطباعه وأخلاقه حيث يؤكد «هذا أمر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم».

كما صنف (أبو بكر الرازى) (ت٣٢٠هـ) كتابًا بعنوان «منافع الأغذية ودفع مضارها»، ذكر منافع ومضار الأطعمة المتداولة فى عهده وأثرها فى الجسم الإنسانى، وحاول تصحيح بعض المفاهيم الجالينوسية اليونانية فى هذا المجال. ولقد وافق (ابن خلدون) هذا المعنى «واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية» ويتابع شرحه قائلاً: «الحميات فى الأبدان وهى رأس الأمراض... ولهذه الحميات علاج بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه».

هذا المبدأ يجد صداه فى (دستور الطب فى الجاهلية) الذى قرره طبيب العرب (الحارث ابن كلدة) حين سئل: ما الدواء؟ فقال: «الأزم» يعنى الحمية، ويقرر (ابن خلدون): «أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية» بعد استنتاجه قوانين عامة فى مشروعه الاجتماعى الحضارى، فقد لاحظ أن «أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم».

أما «المتقشفون فى عيشهم المقتصرون على الشعير أو الذرة.. فتجد هؤلاء أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم». ويستطرد (ابن خلدون) فى الاستنتاج والتحليل فيصل إلى «أن الخصب فى البدن وأحواله» ينعكس حتى على الدين والعبادة، وأن المتقشفين من أهل البادية والحاضرة «أحسن دينًا وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب».

وفى توضيح آخر إن الغذاء الذى يحفظ للإنسان حياته، قد يستحيل إلى «تخمة» وهى «إن بقيت فى الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت».

كما ذكر (الحارث بن كلدة) طبيب العرب «إن الإكثار من تناول الأغذية يؤدى لكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة التى تولد فى الجسم فضلات رديئة وتكسب الفرد بعض الصفات الشخصية السيئة منها: البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة». وعدم



كان لمعرفة النبض وانقباضه وانبساطه وسيلة تشخيصية هامة لدى الأطباء وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بعد التعلم والممارسة لفترات طويلة، وكانوا يستدلون به على أحوال القلب وأمراضه ويقول (إسحق الرهاوى): «وعلم النبض للطبيب فى حفظ الصحة وفى معالجة المرض علم عظيم النفع لأنه كما قال جالينوس مخبر لا يكذب».

الإفراط فى الطعام يؤدى إلى «ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم».

وبملاحظة ذكية يقرر أن النفس الإنسانية إذا ألفت شيئًا صار ذلك من عادة طبيعية لها، وكذلك من عود نفسه على الاعتدال، ويعبر عن وجهة نظره الطبية ذات الأصل العربى الإسلامى: «واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أوعلى الإقلال منها، وإن له أثرًا فى صفاء الأجسام والعقول فى صفائها وصلاحها كما قلناه...».

وعودة إلى الأطباء الجوالين فهؤلاء يقومون على مبدأ «أصحاب الحيل methodistes» ويعتمد الأطباء الجوالون على مقارعة المرض باية طريقة كانت لشفائه بدون أى تحصيل نظرى وقد سماهم (ابن جميع) «الطبيب العمال». ويعزو سبب وجودهم أنهم «إذا اتفق أن أصاب لم يدر أنه أصاب ولا من أين ولا كيف أصاب وإن أخطأ لم يشعر أنه أخطأ ولا بد من أين ولا كيف أخطأ».

فهو (كالخابط فى عشواء) والمقاييس التى يصفها (ابن جميع) للطبيب الماهر تنبع من وجهة نظر (جالينوس) التى أشار بها فى أول كتابه «الصناعة الصغيرة» وهى: «بل إنما تحصل تلك القدرة بطول الارتياض والتمرن والتخرج فى مباشرة أعمال الطب وكثرة المزاولة لجزئياته بعد حصول المعارف التى تشتمل أولاً معلومة عند المباشر ولا سيما بين يدى الأستاذين والحذاق».

ومع اعتراف (الرهاوى) أن الإنسان استخرج العلوم الدقيقة والصنائع (بطريق الحيلة)، فى تحقيق الأشياء العويصة البعيدة النظر، وهو بذلك يقصد (الاستدلال العقلى)، ويربط مثالاً عليها بالمهندسين الذين أخذوا مصادر (إقليدس) من كتابه (الأصول) ثم تطوروا إلى معرفة القوانين الطبية وقد أوضح جالينوس تلك (الطرق اللطيفة) التى استخرجها الأطباء فى كتابه (حيلة البرء) وأصحاب الحيل الذين استفادوا من ذلك يصفهم (الرهاوى) بأنهم: «إذا تامل المتامل باطن تلك الأعمال وجدها ممزقة وحيلة وباطلاً لا حقيقة له لا فى علاج المرض ولا فى حفظ الأصحاء، بل على أكثر الأمر إنما تكون أعمالهم سببًا لمرض الأصحاء». ولكنه يقسمهما إلى طبقتين، إحداهما المتشبهين (المموهين) والحذاق التى يكون بدء المريض بفضلها عن طريق الوهم كمعالجة بعض الأمراض النفسية، ويضرب عدة أمثلة لتأييد دعواه، أما (ابن جميع) فيدين هذه الطبقة جميعها بدون استثناء.

قواعد صحية:

فى حكاية ذات مغزى تتعلق بالنظافة العامة أن رجلاً أكل لونًا من الطبيخ يتخذ من السكر واللوز والخل هو (الزيرباج) ومسح يده فقط وتجاهل غسلها، وقد تصادف فى ذلك اليوم زفافه، فلما شمت عروسه الرائحة المنبعثة من يديه ثارت وغضبت غضبًا شديدًا «وكانت ذات نفوذ كبير لأنها جارية السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد». واتهمت زوجها بالجنون لأن العاقل حسب تعبيرها «لا ياكل من الزرباجة ولا يغسل يده بعدها»، وقد كان عقاب الزوج بعدها شديدًا، إذ تعرض للضرب بالسوط حتى غاب عن الوعى، أصرت بعدها الزوجة على قطع يده عقابًا له، ولكنه بعد الرجاء والاسترحام اكتفت بقطع إبهامى يديه ورجليه بعد تقييده طبعًا، وانقلبت ليلة العرس السعيدة إلى ليلة تعذيب سادية، عاهد الزوج نفسه بعدها ألا ياكل هذا اللون من الطعام إلا بعد أن يغسل يديه أربعين مرة بالصابون.

ويتأكد لنا وجود سلطة قرار مركزية ونظام سياسى ينظم ويشرع للشعب، فالسلطة المقترنة بالوعى المعرفى (الجارية) فرضت إرادتها ضد الزوج الذى لا يستحق بلا ريب هذا العقاب الفظيع الدامى، ولكنه درس مؤثر لناحية صحية هامة لا يجوز إغفالها.

ويبرز لنا (الرهاوى) التدابير الصحية والسياسة اليومية التى ينبغى للطبيب أن يدبر نفسه بها فى كل يوم مدة حياته، وهى ترتدى طابعًا إنسانيًا شموليًا لكل الأفراد على حد سواء، فيجب «أن يبدأ فى كل يوم باستنظاف ما يبرز من سائر منافذ بدنه كالذى يبرز من منخريه وعينيه وفمه ونظائرها وتزكيتها بالماء، وليس يكثر فى هذه المنافذ الفضلات إلا لكثرة الأكل والشرب وسوء ترتيبها».

من الصعب إدراك تفاصيل صورة الطبيب الحقيقية الواقعية من حيث إنها ترسم من خلال عالمها صورة لمجتمعها وخيالها انطلاقا من مبادئها الأخلاقية المتميزة والعلاقات الاجتماعية التى تتخللها . إن بعض المؤرخين يدللون على التقدم الطبى، بانه كان على مائدة(سيف الدولة الحمدانى) أربعة وعشرون طبيبا إذا أكل الطعام، وهؤلاء الجمع من الأطباء ليس مهمتهم العلاج والمداواة بطبيعة الحال، بل تنظيم أوقات وكيفية أنواع أصناف الطعام المقدمة له بحيث تناسب صحته ومزاجه، ويروى لنا (ابن أبى أصيبعة) عدة روايات عن أطباء استحقوا شهرة فى زمانهم ونالوامن الرتب والإنعام لأنهم استطاعوا بحيلة لطيفة أن يطعموا رأس السلطة الحاكمة بعض أنواع الطعام التى لا تناسبه، إن هذا الهدف المتواضع من وجهة نظرنا كان حيويا جدا فى زمنه.

ولكن (الرهاوى) المثالى يقدم لنا اتجاها آخر يتعارض تماما، فهو يذكر أن «الفاضل لاياكل إلا ما حاجته إليه ماسة وفى الوقت الموافق والمقدار الكافى، وكذلك ما يشربه، وكذلك يفعل فى سائر أعماله وحركاته وسكونه ونومه ويقظته، وبالجملة سائر ما يدعوه الطبع إلى استعماله ، فإن فضيلته فى ذلك هى ألا ياخذ منه بحسب اللذة لكن بحسب الحاجة».

ويؤكد ذلك بعامل فيزيولوجى وآخر اجتماعى.

العامل الفيزيولوجى: شرح لأعضاء البدن الإنسانى والإجراءات الواجب اتخاذها للعناية بها مثل: الكبد والمعدة والرئة.

العامل الاجتماعى: فى التدابير اليومية الجسمانية والأخلاقية.

إن العلم بالتاريخ شرط مسبق للذكاء العلمى ، فمن دون تاريخ لاتتوافر للعقل العلمى ذاكرة مشتركة عن مكانته فى أزمنة سابقة وعن قيمته المركزية وعن القوانين العلمية التى ظهرت فى الماضى ولاتزال صالحة للحاضر. ▪

المصادر والمراجع

١. ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
٢. ابن خلدون . مقدمة ابن خلدون . تحقيق درويش الجويدى . الطبعة الثانية . المطبعة العصرية . بيروت . ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٣. أحمد عيسى . تاريخ البيمارستانات فى الإسلام . الطبعة الثانية . دار الرائد العربى . بيروت . ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٤. إسحق الرهاوى . أدب الطبيب . تحقيق مريزن عسيرى . مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية . الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

عن «المساخيط»

الذين مزجوا السمو الإنسانى بالعمل اليدوى!

كان كريستيان جاك يستعد للصورة التذكارية التى ستلتقط له مع المطربة الفرنسية سيلفى فارتان، أمام معبد دير المدينة بالأقصر، عندما حاول صحفى من جريدة «الليبراسيون» استفزازه قائلاً: إن علماء المصريات فى العالم يطلقون عليه متهكمين لقب عالم البازار. وحينئذ رأيت كريستيان جاك يخرج عن مظهره الهادئ للمرة الوحيدة خلال الاحتفال الذى أقامه له ناشره الفرنسى فى مدينة الأقصر فى شهر مارس الأخير، بمناسبة صدور روايته الجديدة «حجر النور»، ليرد على محاوره بثقة: «إننى لا أتخيل سوى أن يغار العلماء الكبار منى.. إن هؤلاء العلماء ينبغى أن يمنحونى وساماً، فقد وجهت اهتمام الكثير من الناس إلى التاريخ المصرى القديم».

والواقع أن كريستيان جاك الذى أصبح من أشهر مؤلفى الروايات الفرعونية، وأكثرهم انتشاراً فى الوقت الحالى يستحق أن يغار منه زملاؤه من علماء المصريات. فقد عادت عليه رواية «رمسيس الثانى» التى ألفها فى خمسة أجزاء، صدر أولها عام ١٩٩٥، بأربعين مليون فرنك فرنسى. كما أنه يستحق أيضاً أن يمنح الوسام الذى يتحدث عنه، خاصة إذا عرفنا أن نفس الرواية وزعت ١١ مليون نسخة فى ٢٤ دولة فى العالم مترجمةً بمختلف اللغات. فقد وظف كريستيان جاك خلفيته العلمية والأكاديمية فى كتابة الروايات المستمدة من التاريخ المصرى القديم، وهو الحاصل على الدكتوراه فى الدراسات المصرية من السوربون، كما أنه متخصص فى اللغة الهيروغليفية، و نشر له العديد من الدراسات العلمية فى الدوريات والكتب المتخصصة، ولكن لم يحدث أن اجتذب أى من الكتب ذات الطابع العلمى التى كتبها هو وتناولت مصر القديمة، أو كتبها غيره من العلماء والمؤرخين الذين يفوقونه شهرة، تلك القاعدة العريضة من القراء التى حظيت بها رواياته التاريخية.

فالروايات التى يكتبها كريستيان جاك تعد من النوعية التى تهدف إلى التسلية فى المقام الأول، وتتوجه إلى جمهور واسع من القراء. وعندما تقرأ روايته الجديدة «حجر النور»، تجدها مشتملة على كل عناصر الدراما والتشويق التى قد نراها فى الأفلام الجماهيرية التى تنتجها هوليوود: فهى تبدأ بجريمة قتل، ثم يظهر البطل الذى يخوض سلسلة من المغامرات والصعوبات فى سبيل تحقيق حلم حياته بأن يصبح رساماً محترفاً وينضم إلى جماعة الفنانين التى تسكن فى قرية مغلقة يحيط بها الغموض والسرية، ثم هناك بالطبع البطل الشرير الذى يدبر المؤامرات لتدمير تلك الجماعة المتميزة، وكذلك لا تنقص الرواية بعض المشاهد العاطفية الحارة، وبعض اللكمات العنيفة التى يسددها البطل، الذى تصفه الرواية بالقوة الجسمانية الهائلة والطول الفارع، (ومن المفارقة أن تلك النقطة بالتحديد أزعجت صحفياً يابانياً حضر الاحتفال، قال لى مستوقفاً إن المعلومات التاريخية تؤكد أن المصريين القدماء كانوا قصار القامة).

لكن إلى جانب حكايتها البسيطة، رغم طولها وتشعبها، وشخصياتها المسطحة ذات البعد الواحد، رغم تعددها وتنوعها، تزخر الرواية بكم هائل من المعلومات التاريخية والعلمية يجعل من نجاحها وانتشارها الواسع أمراً يستحق التشجيع. فقد قدم المؤلف من خلال روايته صورة من قريب لحياة الفنانين القدماء فى مصر، هؤلاء الذين احترفوا البناء والنحت والرسم والتلوين، وأبدعوا الروائع الفنية التى نرى بعضها اليوم فى المعابد والمقابر والتماثيل التى خلفوها وراءهم. يقول المؤلف فى مقدمته:

«إن صانعى تلك التحف الفنية لا يمكن أن يكونوا مجرد قطعان من العبيد أو عمال مضطهدين، ولكنهم جماعات، أعضاؤها المختارون كانوا فى الوقت نفسه رجال دين وحرفيين. وعن طريق مزج السمو الروحانى بالعمل اليدوى، قاموا بتكوين جماعة من الصفوة مسئولة مباشرة أمام فرعون».

وتدور أحداث «حجر النور» حول إحدى هذه الجماعات التى كشفت الوثائق أنها عاشت طوال خمسة قرون من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٠٧٠ قبل الميلاد فى قرية «ساحة الحقيقة»، المعروفة الآن باسم قرية دير المدينة والواقعة فى البر الغربى من مدينة الأقصر، وكانت المهمة الرئيسية للجماعة هى بناء وتزيين مسكن الأبدية للفراعنة فى وادى الملوك القريب من موقعها، وكانت قرية «ساحة الحقيقة» معزولة داخل أسوار عالية، لا يستطيع أن يدخلها أى شخص لا ينتمى للجماعة إلا بتصريح خاص، أما أفراد الجماعة الذين يكونون صفوة الحرفيين والرسامين والنحاتين، فقد كانوا يعيشون فيها معاً كعائلة كبيرة، متمتعين بمكانة متميزة عند الفرعون، ولهم محكمة خاصة بهم، ومعبد، ومدينة للأموات.

تلك المدينة التى يستطيع أى زائر اليوم أن يشاهد آثارها ويقرأ تاريخها، قام المؤلف فى روايته ببعث الحياة فيما لا يبدو أمام الكثيرين سوى طرقات ومقابر وكتل من الحجارة الصماء، المزينة بكتابات ورسومات لا معنى لها. فقد استغل كريستيان جاك معلوماته التاريخية، ومعرفته بالنصوص الهيروغليفية، فى وصف التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة اليومية لهؤلاء الناس فى ذلك الوقت: بدءاً من أزياء النساء والرجال فى المناسبات المختلفة، وأصناف الطعام والشراب، وشكل المنازل ونوعية الأثاث المستعمل، مروراً بلمحات عن أساليب العلاج والتحنيط، والآلهة والطقوس الدينية، والنظم الإدارية، وقوانين الدولة الأساسية.. الخ. بل إن الكاتب كان يتحين الفرصة المناسبة ليضع على ألسنة أبطاله بعض العبارات والنصوص الموجودة أصلاً باللغة الهيروغليفية على جدران المقابر وفى الوثائق الأثرية المعروفة.

ولهذا السبب، يقول الناشر الفرنسى للرواية «برنار فيكسو»: إن رواية مثل هذه تستطيع أن تجذب أجيالاً، هجرت - أو فى طريقها إلى هجر - الكتاب، مكتفية بانتشار الوسائط الإعلامية المتعددة multimedia التى تعد بتقديم الثقافة والمعلومة بطريقة جذابة ومسلية، بدون أى جهد أو معاناة.

من المفاهيم التى أثارت اهتمامى فى الرواية، تلك المتعلقة بالمعرفة عند قدماء المصريين. فالمصريون لم يكن لديهم إله خاص بالمعرفة فى صورتها الخالصة، وإنما ارتبط مفهوم المعرفة بالإلهة «ماعت»، إلهة الصدق، والمثالية، والتى تمثل القوة الكونية للتوازن والانسجام والتناسق فى الحياة المصرية. كذلك فإن كلمة ماعت مرادفة لكلمات: الحقيقة، والعدل، والاستقامة، وصفاء القلب.

ففى «حجر النور» مفارقة تتجسد من خلال تباين الشخصيات التى تمتلك العلم والمهارة. فمن ناحية، هناك نموذج «خدام ساحة الحقيقة» الروحانيون، المطيعون لـ«ماعت»، وأصحاب الأسرار العلمية والمهارات العالية، يمثلهم «نفر الصامت» وزوجته «أوبخيت» التى تقول للفنان المبتدئ «بانيب»:

«.. لا يوجد كهنة وكاهنات غير الحرفيين وزوجاتهم. ففى إطار الوظيفة التى يقوم بها كل منا، لا يتم الفصل بين الحياة اليومية والحياة المقدسة. وهذا هو السبب الذى من أجله جاءنى انطباع بأن أحد القلوب الخفية لمصر يخفق بين جدران تلك القرية. ففيها نعايش السر الخفى ونستسيغه ونستمع إلى موسيقاه؛ هذا القدر نملكه».

أما من الناحية الأخرى، فهناك العالم الشرير «داكتير»، الذى يشارك فى المؤامرة ضد ساحة الحقيقة للحصول على الأسرار العلمية التى يخفيها أعضاؤها..

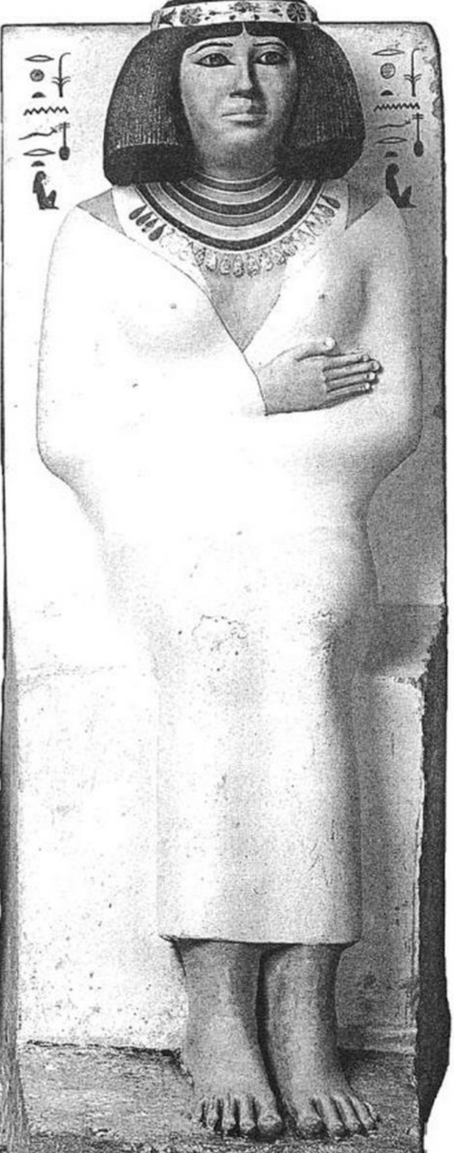
«ولد داكتير ابناً لأستاذ رياضيات يونانى، وكيميائية إيرانية، فى ممفيس حيث اشتهر منذ كان شاباً بسبب عبقريته فى الأبحاث العلمية. ولكن لأنه كان يفتقر إلى المبادئ الأخلاقية، فقد فهم بسرعة منذ كان طالباً، أن سرقة الأفكار من الآخرين ستسمح له بأن يتقدم بخطوات عملاقة بأقل مجهود ممكن. ولكن تلك لم تكن إلا استراتيجية وضعها لخدمة هدفه الكبير: أن يجعل من مصر الأرض المختارة للعلوم البحتة، فتتخلص من كل الخرافات، ويهيمن فيها العلم الذى يجعل الإنسان يسيطر على الطبيعة».

إن ارتباط القيم الروحانية والدينية بالمعرفة العلمية، التى هى أساس كل بناء أو عمل فنى شيده المصريون القدماء، الذين اتسمت أعمالهم أيضاً بالدقة الرياضية والتقنيات الهندسية المعقدة، له دلالته فى عالم اليوم، الذى يدور فيه جدل لا ينتهى بين رجال الدين والعلماء، والحداثيين وما بعد الحداثيين، والشرق والغرب، حول قضايا التقدم العلمى، وما يجب أن يرتبط به من مسئولية أخلاقية ومجتمعية، وما إذا كان يحقق الفائدة للحياة الإنسانية، وخاصة فى ظل القلق الذى يسود الآن بسبب إمكانية تطبيق الهندسة الوراثية المتطورة على المجتمع البشرى.

وقد استوقفنى تواجد العديد من الشخصيات الأجنبية فى الرواية من سوريين أو يونانيين أو غيرهم. وفى حديثى معه، أبدى كريستيان جاك إعجابه بتسامح المصريين القدماء مع المهاجرين الأجانب فى مصر القديمة، وعدم شعورهم بالتهديد من تواجدهم فى المناصب العامة التى وصلت ذات مرة إلى منصب رئيس وزراء. وهو يرى أن السبب فى ذلك يرجع لانصهار هؤلاء فى المجتمع المصرى واندماجهم فى العادات والتقاليد المصرية. كما أكد أن هذا الأمر ليست له علاقة بالادعاءات والمزاعم التى تخرج من حين لآخر، والتى تنسب الحضارة الفرعونية لشعوب أخرى غير المصريين الذين يعيشون فى مصر المعاصرة. وهو يقول إن مجرد النظر إلى التشابه بين وجوه المصريين الآن والوجوه المنحوتة والمرسومة فى المعابد يؤكد عدم صدق تلك الادعاءات.

ومن المعلومات المهمة التى تظهر بين ثنايا الرواية، تلك التى تصف الأدوات والمعدات التى كان يستخدمها النجارون وصانعو الجلود والرسامون والنحاتون، والتقنيات التى مارسوها فى صناعة أعمالهم، وأساليب القياس غير التقليدية التى طبقوها.. يقول رسام محترف من ساحة الحقيقة للرسام المبتدئ «بانيب المتأجج»:

حجر النور: نفر الصامت
كريستيان جاك
ترجمة: ليلى حافظ ومنار رشدى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٣٩٢ ص، ٢٠ جم



«إن خطوة أبي منجل تساوي ذراعا، فهو الذي يجسد «توت» وهو يكشف لنا عن هذا المقياس الرئيسي المسجل في ساعد الإله...».

إذن فأحد أهم أسرار العمل يكمن في جسم أبي منجل الذي شاهده الشاب الضخم كثيراً دون أن يراه. وفهم أن الآلهة تعبر عن نفسها، بلا هوادة، عبر الطبيعة، وأنه يستلزم أن نفتح أكثر عيوننا ونرهف أسماعنا حتى ندرك رسالتها».

أما الطريف فعلاً. فهو عملية اختبار نوع الجنين أثناء الحمل (قبل اختراع السونار) التي كانت تقوم بها النساء في مصر القديمة..

« كانت سيركيتا تتمتع بدورة دموية ممتازة، ويدور الهواء في جسدها بصورة طيبة، وهذا ما كان يجعلها متيقنة بأنها ستنعم بحمل هادئ وولادة هانئة. فقط كان جنس الطفل يعنيها. ومنذ أسبوعين، أصبحت سيركيتا تبول يومياً على كيسين، أحدهما يحتوى على القمح والتمر والرمل،والآخر على الرمل والتمر والشعير، وإذا ما نبت القمح أولاً،فسوف تلد سيركيتا بنتاً، أما إذا حدث ذلك للشعير أولاً، فسوف يكون مولودها صبياً».

ولكن يقع المؤلف في خطأ اصطلاحي رئيسي، عندما يروى على لسان رمسيس الثانى حديثاً يتذكر فيه فرعون مصر خلافه وصلحه مع جيرانه الحيثيين، مستخدماً كلمة «الشرق الأوسط» في الإشارة إلى المنطقة. ومن الجائز أن يكون كريستيان جاك قد كتب تلك الكلمة وهو تحت تأثير جرعة زائدة من البث الإخبارى على قناة cnn.فهو بالتأكيد ليس غافلاً عن أن وصف الشرق بأنه أوسط أو أقصى أو أدنى لم ينشأ إلا في الغرب حديثا جدا، تعبيراً عن موقع تلك المناطق من أوروبا بعد النهضة. وبالرغم من أن المركزية الغربية تعبر حقاً عن واقع حضارى نعيش فيه الآن، إلا أن الأوضاع كانت مختلفة فى الماضي. وكل حضارة تنظر إلى العالم من حولها باعتبار أنها واقعة في مركزه، هكذا كان الصينيون وقدماء المصريين، وغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى. لكن المهم أن كريستيان توقف عند هذا الحد، ولم يقل مثلاً أن رمسيس الثانى قام «بتطبيع» علاقاته مع الحيثيين !

كذلك وجد المؤلف الفرنسى صعوبة فى التخلى عن فرنسيته حين قام باختيار ملامح أبطاله وبطلاته، فاوبخيت المصرية «عيناها الزرقاوان فى لون سماء صيف » و«شعرها مائل إلى الاصفرار»، وعندما سأله الصحفيون فى ذلك الأمر، رد كريستيان جاك مرة بأن قدماء المصريين كانوا مخلطين، ثم عاد ورد فى مرة أخرى بأنهم كانوا يعرفون صبغات الشعر، وعلى كل حال، فالأمران يمكن تصورهما، مادام لم يقل أن المصريين القدماء عرفوا أيضاً العدسات اللاصقة الملونة.

الجدير بالذكر أن تلك هى المرة الأولى التى ترجمت فيها أحد أعمال كريستيان جاك إلى العربية، بالرغم من أن رواياته بدأت تترجم إلى معظم اللغات الأخرى منذ نجاح روايته «شامبليون المصرى» عام ١٩٨٧ والأمر لا يتعلق بكريستيان جاك بالذات، بقدر ما يتعلق بحجم الاهتمام بمعرفة التراث المصرى القديم بشكل عام. فهناك قطاع كبير من المصريين يتجاهل ذلك التراث باكمله على اعتبار أن الفراعنة : مساخيط، كفار، عبدوا الأصنام. وعلى الجانب الآخر نجد أغلب العلماء، والأساتذة، والكتاب المصريين قليلاً ما يستخرجون شيئاً من التراث الفرعوني له علاقة بأى من المجالات التى يتناولونها فى كتبهم أو محاضراتهم أو إبداعاتهم.وهم إن فعلوا، فذلك يكون مقصوراً على ما هو مشار إليه فى المراجع الغربية التى ينقلون منها.وبالتالي يقتصر دور المصريين على حراسة الآثار الفرعونية، مكتفين فقط بالاستفادة المالية التى تأتى من سياحة تلك الآثار.

ولكن من الملاحظ مؤخراً حدوث طفرة جديدة فى اهتمام المصريين بتاريخ أجدادهم الفراعنة، ويتضح ذلك فى الزيادة الكبيرة نسبياً فى حجم ما نشر فى مصر العام الماضى من ترجمات ومؤلفات عن حضارة المصريين القدماء، سواء فى المجلس الأعلى للثقافة، أو دور النشر الخاصة، بل وفى مراكز البحوث أيضاً. وأظن أن الاهتمام الذى بدأ يتصاعد بالتاريخ المصرى القديم يتصل سببه عند البعض بالخوف من العولمة الثقافية، ومسالة الانتماء، خاصة فى ظل انحسار الفكر العربى القومى الذى ساد لفترة من الزمن. كما يمكن أن تكون الثقافة المصرية الحديثة قد تأثرت بالطبقات المسيطرة فى مصر فى قرون سابقة، أهملت التراث المصرى القديم، نظراً لتكون هذه الطبقات فى غالبيتها من عناصر آسيوية وافدة (أتراك، أكراد، مماليك..).

وفى النهاية فإن الأمر ليس فى حاجة إلى مفاضلة أو اختيار، ومن المفيد والممتع أيضاً أن تتعدد وتتنوع منابعنا الثقافية والحضارية. أما أصحاب الحضارات التى مرت بنا وساهمت فى تشكيلنا، فهم جزء من تاريخ خلا ولن يعود، وما نحن عليه اليوم وما سنكون فى المستقبل يختلف ويتمايز حتماً عما كنا عليه فى السابق - لهم ما كسبوا ولنا ما كسبنا. ▪

هديل غنيم

نجيب الريحانى

بين المسرح والسينما

سمير فريد

من بين أعمال الريحانى تبقى الأفلام، ومنها ستة تعرض فى قنوات التليفزيون، وتتوافر على شرائط الفيديو، وتبقى نصوص العديد من مسرحياته التى ألفها مع بديع خيرى، فلم يتم تسجيل أى من مسرحيات الريحانى كممثل بكاميرات السينما، ولاحتى مشاهد منها، بل وقل أن توجد منها صور فوتوغرافية

كان ولايزال من الصعب إن لم يكن من المستحيل إنتاج أفلام تمثيلية فى بلد لايعرف التمثيل المسرحى، ولايسمح للمرأة بالتمثيل على المسرح. ولذلك لم يكن من الغريب أن يكون أغلب صناع الأفلام التمثيلية الأوائل من صناع المسرح، ولا أن يكون أغلب نجوم التمثيل فى السينما من نجوم التمثيل على المسرح. ولايزال وسوف يظل الكثير من الممثلين والممثلات يجمعون بين التمثيل على المسرح والتمثيل أمام الكاميرا.

عرفت مصر التمثيل المسرحى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، أى قبل نحو نصف قرن من اختراع السينما، ووقفت المرأة على المسرح فى مصر عام ١٨٩٠ (مريم سماط)، أى قبل خمس سنوات من العرض السينمائى الأول لسينما توجراف لوميير فى باريس، وشهدت مصر نهضة فى التمثيل والإخراج للمسرح وبدايات التأليف المسرحى فى العقد الثانى من القرن العشرين، وفى نفس العقد شهدت إنتاج الأفلام التمثيلية الأولى وكانت قصيرة، ثم تطورت إلى أفلام طويلة فى العقد الثالث.

وكما كان نجيب الريحانى من نجوم المسرح ابتداء من العقد الثانى وإلى العقد الخامس، كان أيضا من نجوم السينما فى نفس هذه الفترة. وبالطبع لايمكن فصل الريحانى المسرحى عن السينمائى، وخاصة أن بعض أفلامه ماخوذة عن مسرحياته وكل أفلامه من تاليفه مع بديع خيرى ويمثل معه فيها أعضاء فرقته المسرحية.

هناك اختلاف كبير بين النقاد والمؤرخين على تاريخ مولد نجيب الريحانى، واسمه الكامل نجيب إلياس الريحانى (وقيل ريحانة، ولكنه فضل الريحانى لسهولته فى النطق). ففى كتابه «تاريخ المسرح العربى» عام ١٩٦٠ يذكر د. فؤاد رشيد (وهو طبيب من هواة المسرح) أنه من مواليد ١٨٨٧. ويؤيد ذلك نعمان عاشور فى كتابه «مع الرواد» الطبعة الثانية عام ١٩٩٦، بينما يذكر أمين بكير فى كتابه «كشكش بك» عام ١٩٩٧ أنه من مواليد ١٨٨٣. وتذكر د. ليلى أبوسيف فى كتابها «نجيب الريحانى وتطور الكوميديا فى مصر» عام ١٩٧٢ أنه من مواليد ١٨٩٢. ويذكر عثمان العنتبلى فى كتابه «نجيب الريحانى» عام ١٩٤٩ أنه من مواليد ١٨٩٠. ولا يشير الريحانى نفسه إلى تاريخ مولده فى مذكراته التى نشرت مسلسلة فى مجلة «الاثنين والدنيا» عام ١٩٣٧، والتى أعيد نشرها من دون إضافات فى كتاب صدر عن دار الجيب عام ١٩٤٩، ومسلسلة فى مجلة «الكواكب» عام ١٩٥٢، وفى كتاب صدر عن دار الهلال عام ١٩٥٩.

الأرجح أن يكون التاريخ الصحيح عام ١٨٩٢ من واقع مشاهدة فيلم «سلامة فى خير» الذى صور عام ١٩٣٧، ومن الصعب تصور أن عمر الريحانى فى الفيلم أكثر من ٤٥ سنة. وفى كتابه «فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى» عام ١٩٧١ يذكر د. على الراعى أن الريحانى بعث برسالة إلى بريد القراء فى جريدة «الأهرام» نشرت عام ١٩٠٨ يقول فيها إنه من خريجى المدارس الثانوية الذين يجمعهم حب التمثيل ويعملون على الارتقاء به.

وفى مذكراته يقول الريحانى إنه «هجر» المدرسة، وعمل فى البنك الزراعى حيث التقى مع الممثل والمخرج عزيز عيد، وكان أول أدواره على المسرح فى مسرحية «الملك يلهو» ترجمة أحمد كمال رياض «بك». ثم يقول «كنت فى ذلك الوقت صبيا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة»، ثم يقول: «وفى سنة ١٩٠٨ استقال الأستاذ عزيز عيد من عمله فى البنك وألف فرقته التمثيلية الأولى».

وليس هناك خلاف على تاريخ وفاة الريحانى عام ١٩٤٩، كما لايختلف أحد حول مولد الريحانى فى حى باب الشعرية، وهو من أحياء القاهرة الإسلامية التى تاسست منذ أكثر من ألف سنة، وأصبحت بعد إنشاء القاهرة الحديثة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من الأحياء التى تجمع بين كل الطبقات وخاصة الفقيرة. ولاخلاف أيضا حول أن والد الريحانى كان مسيحيا من أب عراقى، وأن والدته (لطيفة) كانت قبطية من مصر.

وقد عرف عن الريحانى إيمانه بالتسامح الدينى والعرقى، وتعبيره عن ذلك فى العديد من مسرحياته وأفلامه، وربما يفسر البعض ذلك لكونه من «الأقلية» المسيحية، ولكن الواقع أن هذا كان الموقف السائد فى مصر قبل وأثناء وبعد ثورة ١٩١٩، ومن الممكن إدراكه بوضوح فى كل أدبيات «العصر الليبرالى»، أو ما اعتبر كذلك بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

يذهب يحيى حقى (١٩٠٥-١٩٩٣) فى كتابه «خطوات فى النقد» عام ١٩٧٦ إلى أن الريحانى كان من ضمن «الأجانب الذين أكرمت مصر وفادتهم»، والواقع أن كل من كان أصل والده من أى بلد عربى فى ذلك الوقت لم يكن يعتبر «أجنبيا»، لأن كل سكان البلاد العربية فى ذلك الوقت بما فى ذلك سكان مصر كانوا يحملون الجنسية العثمانية، ولم يصدر قانون يحدد الجنسية المصرية إلا عام ١٩٢٩، وكان أول قانون يحدد هذه الجنسية، وإذا اعتبر الريحانى أجنبيا لأنه من أصل عراقى، سوف يعتبر بديع خيرى (١٨٩٣-١٩٦٦) أجنبيا بدوره لأنه من أصل تركى، بل ويحيى حقى ذاته لأنه من أصول تركية أيضا.

ومن اللافت أن الريحانى (العراقى) مثل بيرم «التونسى» (١٨٩٣ - ١٩٦١) من أكثر من عبروا عن سكان أحياء القاهرة القديمة من الفقراء وذوى الأصول الريفية، أو الأحياء «الشعبية» كما يطلق عليها وبلغة هؤلاء الفقراء، أو بالأحرى لهجتهم العامية.

ويذكر عثمان العنتبلى فى كتابه أن الريحانى تعلم فى مدارس «الفرير» الفرنسية حتى حصل على البكالوريا، وفقد والده فى هذه السن المبكرة، وكان عليه أن ينفق على أمه وإخوته مع شقيقه الأكبر توفيق. ويذكر الناقد والمؤرخ الصحفى أن الريحانى كان من أبرز أعضاء فريق التمثيل فى المدرسة، وأن قنصل فرنسا أشاد بموهبته عندما شاهده فى إحدى مسرحيات الفريق، ويقول العنتبلى إن الريحانى عمل موظفا فى بنك «كريدى ليونيه»، ولكنه فضل العمل كممثل فى فرقة أحمد الشامى المسرحية التى كانت تتجول فى المدن الصغيرة، ثم عمل فى «البنك الزراعى» حيث التقى مع المخرج المسرحى عزيز عيد (١٨٨٤-١٩٤٢) الذى كان يعمل معه فى نفس البنك، وعملا معا كممثلين فى فرقة جورج أبيض (١٨٨٠-١٩٥٩) عام ١٩١٤، ثم تركا هذه الفرقة وأسسا «فرقة الكوميدى العربى» عام ١٩١٥.

اختلف نجيب الريحانى مع عزيز عيد، فقد كان الريحانى يرى تمصير الكوميديات الأجنبية فيما أطلق عليه «الفرانكو-آراب»، بينما كان عيد يرى ترجمة هذه الكوميديا وتقديمها كما هى. وفى عام ١٩١٦ أسس الريحانى فرقته الخاصة التى تحمل اسمه، وابتكر شخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص مع الكاتب أمين صدقى (١٨٨٠-١٩٤٤)، ولقيت مسرحيات كشكش بك إقبالا جماهيريا كبيرا جعل الريحانى من كبار نجوم المسرح. وفى عام ١٩١٨ اختلف الريحانى مع أمين

نجيب الريحانى
عثمان العنتبلى
الهيئة العامة لقصور الثقافة. الطبعة الثانية.
القاهرة ١٩٩٩

مذكرات نجيب الريحانى
تقديم: بديع خيرى
دار الهلال. القاهرة ١٩٥٩

فنون الكوميديا
من خيال الظل إلى نجيب الريحانى
د. على الراعى
دار الهلال. القاهرة ١٩٧١

أضحـــك النـــــاس ثلاثــــــين عــــامـــــا



صدقى حول توزيع الأرباح. وفى نفس العام التقى مع بديع خيرى ولم يفترقا أبدا، وحسب ما ذكرته د. ليلى أبو سيف فى كتابها مثل الريحانى ٨١ مسرحية من عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٤٦. ويمكن القول بأن مجموع أعماله بلغ نحو مائة عمل، فهناك عشر مسرحيات تقريبا مثلها منذ عام ١٩١٤ إلى تأسيس فرقته الخاصة عام ١٩١٦، واثنا عشر فيلما مثلها واشترك فى تأليفها من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٤٩. وقد تزوج الريحانى الراقصة والممثلة اللبنانية بديعة مصابنى (١٨٩٨ ـ ١٩٧٤)، وطلقا ولم ينجبا.

من بين أعمال الريحانى تبقى الأفلام، ومنها ستة تعرض فى قنوات التليفزيون، وتتوافر على شرائط الفيديو. وتبقى نصوص العديد من مسرحياته التى ألفها مع بديع خيرى، فلم يتم تسجيل أى من مسرحيات الريحانى كممثل بكاميرات السينما، ولاحتى مشاهد منها، بل وقل أن توجد منها صور فوتوغرافية.

ومن ناحية أخرى لم يحفظ أرشيف الراديو المصرى التسجيلات الصوتية لمسرحيات الريحانى، والتى يذكر المذيع محمد فتحى فى مقال بمجلة «الكواكب» عدد ٩ يونيو ١٩٨١ أنها كانت تنقل مرة كل شهر أو ثلاثة أسابيع، وأن «طه حسين ذاته كان يسهر الليل بطوله ليستمع إلى مسرحيات الريحانى». ويذكر أشرف غريب فى كتابه «العصر الذهبى للكوميديا» عام ١٩٩٩ أن فى أرشيف الراديو مسامع من مسرحية «٣٠ يوم فى السجن».

مسرح الريحانى

ما يقال اليوم عن أفلام محمد هنيدى، وفى العقد السابع عن أفلام فؤاد المهندس ومسرحياته، وفى العقد السادس عن أفلام إسماعيل يس ومسرحياته، وما قيل فى العقد التاسع من القرن العشرين عن أفلام عادل إمام ومسرحياته قيل فى العقد الثانى عن كوميديات الريحانى إزاء النجاح الجماهيرى الساحق رغم ضعف المستوى الفنى.

فى البدء عبر الفنان «الشعبى» عن حياة الجماعة التى ينتمى إليها بالرسم على جدران الكهوف، وبالموسيقى والرقص والغناء فى الحقول والمناسبات الاجتماعية المختلفة، ثم بعد ذلك فى المعابد، ثم فى قصور الحكام وكبار ملاك الأراضى الذين كانوا ينفقون على الفن كنوع من الوجاهة الاجتماعية، ولتسلية أنفسهم فى نفس الوقت، تماما مثل «رعاة الفنون» اليوم، وإن اختلفت الوسائل. ومع الثورة الصناعية وجدت الطبقة الوسطى فى المدن، ومعها أصبحت الفنون فى «السوق»، وأصبح لها «جمهور» يدفع ليستمع أو يرى.

ومع وجود الفنون فى «السوق» بدأ تأثير «الجمهور» على الإنتاج الفنى، وأصبح هناك فنان يعمل على إرضاء الذوق السائد لدى الجمهور، وآخر يصنع ما يرضى نفسه، وثالث يحاول التوفيق بين ما يرضيه وما يرضى الجمهور. ولاشك أن هذا النمط الثالث يضمن لنفسه مواصلة الإنتاج، ولحياته مستوى من العيش الكريم. ولكن المشكلة هى مستوى الذوق السائد، فعندما ينحط هذا الذوق لسبب أو لآخر، فإن إرضاء الجمهور أو حتى محاولة إرضائه وإرضاء ذات الفنان يؤدى إلى إنتاج فن يتناسب مع ذلك الذوق، ولذلك فإن ترقية الفن لا تكون إلا بترقية الذوق السائد بكل الوسائل.

لقد بدأ الريحانى هاوى التمثيل ثائرا على الذوق السائد، بل وواصفا إياه بالسقوط فى العقد الأول من القرن، ففى رسالته إلى بريد القراء فى جريدة «الأهرام» المذكورة فى كتاب د. على الراعى يقول: «لما كان فن التمثيل هو الفن الوحيد الذى ينمى الشعور والعواطف، ولما كان هذا الفن ساقطا لا يلتفت إليه فى القطر المصرى، بعكس البلاد الأوروبية، عزمنا بحوله تعالى على إحياء هذا الفن بكل قوانا، نحن بعض المتخرجين من المدارس الثانوية، وبعض المستخدمين فى القاهرة..».

كان الريحانى يقول ذلك فى عام ١٩٠٨، ولكنه بعد سبع سنوات من هذا التاريخ عام ١٩١٥، أى بعد سنة واحدة من احترافه التمثيل ابتدع مسرحيات «الفرانكو ـ آراب» مستسلما لذوق الجمهور السائد الذى كان يصفه بالسقوط، ووصل إلى ذروة الاستسلام لهذا الذوق بابتكار شخصية كشكش بك عام ١٩١٦، وبدأ الهجوم على الريحانى عام ١٩١٨ وهو نجم الكوميديا الأول، وكذلك على منافسه على الكسار (١٨٨٧ ـ ١٩٥٧) الذى ابتكر شخصية الرجل الأسود الفقير الطيب عثمان عبدالباسط فى مواجهة شخصية عمدة كفر البلاص الثرى المتلاف. ففى كتاب «حياتنا التمثيلية» الذى يجمع مقالات محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) وصدر عام ١٩٢٢، نجد مقالا نشره فى «السفور» عام ١٩١٨ يقول فيه إن التمثيل فى مصر فى أزمة «نتيجة سذاجة الجمهور وانحرافه عن الفن الصحيح، والبرهان على ذلك إقباله فى عصرنا الحاضر على الريحانى وعلى الكسار ليرى نوعا من التمثيل يسمى بالفرنسية «الريفو»، وهو عبارة عن مشاهد مفككة العُرى مشوهة التأليف تجمع بين المواقف المخجلة والنكات القبيحة.

ليس فيما يقدمه لنا الريحانى وعلى الكسار من الروايات شىء فنى، فهى خالية من كل بحث أخلاقى. وليس فيها من المواقف التمثيلية ما يصح أن نطلق عليه كلمة رواية، ولكن جمهورنا يقبل عليها إقبالا كبيرا ليقضى ساعة من وقته يغسل فيها قلبه من أدران الهموم والأحزان». ولكن الناقد والكاتب المسرحى يدرك قيمة فن الريحانى كممثل، ولذلك يقول فى نفس المقال: «ما ضر الريحانى لو بدل قليلا فى نوع رواياته، وتحول عن تلك الروايات التى لانرى فيها غير مجموعة من ألحان السوقة. ما ضره لو قدم نوعا يجمع بين الفن واللافن ثم يسير فى طريق التغيير والتبديل إلى أن يصل إلى الفن الصحيح»، ويقول فى مقال آخر فى «المنبر» نفس العام: «ومن أدرانا أن الجمهور المصرى يكره يوما ما نوع الريحانى كما كره نوعه الأول، فيتحول الريحانى من مجرى «الريفو» إلى مجرى الكوميديا الأخلاقية». وقد كان هذا ما حدث بالفعل فى مسيرة الريحانى.

وعن نفس مشكلة الفن والجمهور يسجل زكى طليمات (١٨٩٩ ـ ١٩٨٢) فى كتابه «ذكريات ووجوه» عام ١٩٨١ حوارا جرى بينه وبين الريحانى عام ١٩٢٢ فى مقهى فينكس بشارع عماد الدين (محمد فريد) الشهير بمقهى الريحانى جاء فيه:

ـ أنت بتشتغل فى التمثيل علشان تعمل فلوس.

ـ وعايزنى أشتغل فى التمثيل وألحس صوابعى.

ـ إنت بتضحك على الناس ومن الناس.

ـ طيب ما تعملوا زيى.

ـ ما نقدرش نعمل التهجيص بتاعك.

ـ إنتم لسه بتقدموا فى رواياتكم نابليون ولويس وبلاد تاكل القطط وتركب الأفيال، وأنا أقدم دقدق وسيد وحلويات وشلبية.. الجمهور يريد أن يكون غذاؤه من المسرح مثل غذائه الذى يملأ به بطنه..

ـ الجمهور يحب الطعمية والفسيخ والمش، معدته هزيلة، وذوقه مريض والمسرح أداة إصلاح وارتقاء.

ـ الإصلاح والارتقاء لاياتيان دفعة واحدة، وبمجرد الطلب، وإننى أحاول أن أدخل اللحم الدسم فى سائر ألوان الطعام الذى يتقبله الجمهور، ولكن بمقدار، من غير الانحراف عن توليفة الطبخ المصرى..

وفى عام ١٩٦٩، قرأ الشاعر والكاتب صلاح عبدالصبور (١٩٣١ ـ ١٩٨١) مقالا يصف فيه أحدهم الريحانى بالفيلسوف، فاستفز ونشر فى عدد مايو من مجلة «المسرح» ذلك العام «إن إغلاق مسرح الريحانى ليس أمر أزمة مال أو أزمة نجوم، ولكنه دلالة صحية على تطور الحياة المسرحية، فقد أدى هذا المسرح دوره فى حدود الإضحاك، وتناول المشكلات الاجتماعية تناولا سطحيا، وورث هذا الدور فؤاد المهندس وفرقته، بل إن ثنائى فؤاد المهندس ـ شويكار هو نفس ثنائى الريحانى ـ ميمى شكيب، فى نفس الثياب وبنفس نبرات الصوت مع قدر أكبر من الحيوية، ولست عندئذ أفهم مبررا للهجوم على فؤاد المهندس واتهامه بالإسفاف، ثم المغالاة فى تقدير الريحانى، وتقليده وسام الفلسفة، رغم أنهما صورتان متطابقتان».

وبالطبع، فإن الريحانى ليس مسئولا عمن يصفه بالفيلسوف، بل وليس المقصود بهذا الوصف عند من يقول به إن الريحانى مثل أفلاطون أو ابن رشد، وإنما المقصود أنه يتأمل فى أحوال البشر، وليس الفلسفة بمعناها الصحيح، وقد استنكر الريحانى هذا الوصف فى حياته. ففى كتاب نعمان عاشور (١٩١٨ ـ ١٩٨٧) المشار إليه أنه كان شديد الإعجاب بمسرحيات الريحانى، وأنه ذهب إليه وهو طالب والتقى به على مقهى فينكس، ودار بينهما الحوار التالى:

ـ إيه اللى عاجبك فى مسرحياتى..

ـ فيها حاجات كتير من اللى بتحصل فى حياتنا..

ـ حاجات تضحك مش كده.. ماهم كمان بيقولوا عليا فيلسوف وأنا لافيلسوف ولاحاجة..

ـ أنت مصلح اجتماعى..

ـ لا أحب هذا التعبير.. أنا مضحك اجتماعى..

تقول فاطمة اليوسف فى كتابها «ذكريات» عام ١٩٥٣: أخرج عزيز عيد مسرحية «القرية الحمراء» من تأليف أمين صدقى بطلها عمدة كفر البلاص وخفير وابنة الخفير الشابة الجميلة، وقام نجيب الريحانى بدور الخفير، ولكن المسرحية فشلت، فتركه الريحانى، والتحق بكباريه كان يوجد فى شارع ألفى مكان كازينو شهرزاد حاليا، وقدم روايات عزيز عيد ولكن مع تحريفها تحريفا يضمن إقبال جمهور الكباريهات من المصريين والإنجليز على السواء، وهى الروايات التى عرفت باسم «فرانكو ـ آراب»، حيث اقتبس الريحانى شخصية العمدة من «قرية الحمراء»، وجعلها كوميديا وأطلق عليها كشكش بك، وهو اسم التدليل الذى كانت تناديه به صديقته الراقصة لوسى، وهكذا ولدت شخصية كشكش بك الخالدة فى تاريخ المسرح المصرى».

وفى العام التالى ١٩٥٤ نشر يحيى حقى مقاله الشهير عن نجيب الريحانى فى مجلة «التحرير» المصرية» و «الأديب» اللبنانية، وهو المقال الذى أعاد نشره فى «الكاتب» عام ١٩٦٢، وفى «المسرح» عام ١٩٦٩، وفى كتاب «خطوات فى النقد» عام ١٩٧٦، وفى هذا المقال يقول يحيى حقى: «أود قبل كل شىء أن أفرغ من الاعتراف بحقيقة لايجادل فيها إلا أحمق أو مريض، وهى أن الريحانى كان ممثلا هزليا عظيما»، و«لكن هناك فرقا شاسعا بين القول بأن الريحانى ممثل هزلى عظيم ـ وهو مالا نجادل فيه ـ وبين القول بأن فنه خالد لأنه فن مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها، وترجم عنها وأرخ لها، وأن الريحانى هو مصر ومصر هى الريحانى، أو كما قالوا». و «أجزم وليس فى يدى دليل سوى شعورى بأن الريحانى عاش طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين، وهذا سر وحدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة».

وعن شخصية كشكش بك يقول يحيى حقى إنه «كان موضع سخرية سماسرة القطن وأشباههم فى النهار، فلماذا لايكون موضع لهو وتسلية بالليل، وأمام من؟ أمام جمع أغلبه من هؤلاء السماسرة أنفسهم وأشياعهم والمخدوعين وراءهم»، و«كتب لهذه المسرحيات الاستعراضية الرخيصة ـ وهذا من مفارقات الحياة ـ أن تكون من غير قصد ازدهارا لموهبة مصرية صميمة، موسيقى سيد درويش»، «وبفضل ألحان سيد درويش وحدها ـ لابفضل تلك المسرحيات ـ دار اسم كشكش بك على كل لسان وداخل كل دار».

وينحاز يحيى حقى إلى على الكسار ضد نجيب الريحانى، ويقول: «أنشأ الكسار فرقة عاصرت فرقة الريحانى، واعتمد الاثنان على

بالطبع، فإن الريحانى ليس مسئولا عمن يصفه بالفيلسوف، بل وليس المقصود بهذا الوصف عند من يقول به أن الريحانى مثل أفلاطون أو ابن رشد، وإنما المقصود أنه يتأمل فى أحوال البشر، وليس الفلسفة بمعناها الصحيح، وقد استنكر الريحانى هذا الوصف فى حياته

الغناء والرقص والفكاهة . ولكن الكسار الذي اختار له شخصية عم عثمان البربري ظل مخلصا لطبيعته لم يحاول أن يخدع أحدا، أو يغرق في التهريج، وفضل أن تكون فرقته مصرية لا فرانكو آراب» . بل إن يحيى حقي يهاجم الريحاني في مرحلة ما بعد كشكش بك أيضا عندما «خلع الجبة والقفطان وارتدى زي الأفندي للتعبير عن الموظف البائس من الطبقة الوسطى» . فيرى أنه اتخذ «شخصية هذا الأفندي ليعبر عن مشاكله ومتاعبه . ولكن من أين استمد الريحاني فنه وتعبيره، هل ألف الريحاني وبديع خيري قصة واحدة من صميم الحياة المصرية، لا ، لقد عجزا كل العجز وتساقطا كالذباب بلا خجل أو حياء على مائدة المسرح الفرنسي الرخيص، فهل هذا هو الفن المصري الأصيل» . ويقول إن الريحاني «قلد شارلي، وسار على هدى خطاه، ولكنه حبس فنه في تمثيل متاعب طبقة واحدة هي طبقة الأفندية من موظفي الحكومة وأشباههم، ولولا غلبة هذه الطبقة على المجتمع المصري لما توفرت أسباب هذا النجاح السطحي» .

وبموضوعية يناقش محمد فكري في كتابه: «المسرح والكوميديا من نجيب الريحاني إلى اليوم» عام ١٩٨١ رأي يحيى حقي. فيقول: «وقد نتفق مع الأستاذ يحيى حقي في بعض ما أورده عن مسرح الريحاني، ولكننا نختلف معه في عدة قضايا، فلم يكن في مصر الكاتب الكوميدي الذي يستطيع أن يثري المسرح الكوميدي بمسرحيات مصرية صميمة، كما أن بعض ما وقع فيه الريحاني له مبررات أملتها ضرورة فنية اجتماعية . فقد تناول الأستاذ يحيى حقي بعض سقطات الريحاني في مراحل معينة من تطوره وعممها على مسرحه، وأغفل المميزات التي حققها هذا المسرح» .

وعن شخصية كشكش بك يقول فكري: «هل كان كشكش بك عمدة كفر البلاص هو رمز مصر الأصيل حقا؟، أم هورمز سيئ لابن مصر الذي أتاحت له الظروف أن يتسيد وأن يغتني ويملك آلاف الأفدنة، فجمع عرق الفلاحين وراح يريقه في ملاهي أوروبا أو ملاهي القاهرة، ويقدمه لقمة سائغة للسماسرة والمضاربين وقواد الليل والجنس؟

إن رمز مصر الأصيل حقا هو الفلاح الذي ظل يعمل ويعرق ويحمل مصر على كتفيه، أما كشكش بك فكان نموذجا لابد أن يعاقب فنيا، وكانت الكوميديا دائما هي وسيلة العقاب، لقد أدرك هذا الفنان المغامر المتصعلك الذي انصهر في بوتقة مجتمع المدينة، وعمل أحيانا في بعض قرى الصعيد بحسه الكوميدي البحت أن كشكش بك نموذج كوميدي جيد» .

ويستطرد الباحث: «ألم يكن وراء كشكش بك مغزى أخلاقي في ندمه وتوبته؟ ألم يكن يحمل بعض العناد والمقاومة، ويستخدم فكرة الساذج ضد الخواجة في السوق أو الملهى؟ ألم يكن يحمل إلى جانب طيبته بعض الكبرياء.. ولسنا نحاول أن نحمل شخصية كشكش بك أكثر مما تحتمل، فنتصورها كما تصورها البعض رمزا للمقاومة أمام الأجنبي الذي يستغل، أو نعتبرها كما اعتبرها البعض شخصية قومية، وبحسبنا أن نقول إنها نموذج كوميدي جيد استطاع أن يعكس روح العصر رغم ما أحاط به من معالجة خشنة وحوار هابط» .

و«البعض» الذي يشير إليه محمد فكري هو د. ليلى أبو سيف التي تقول في كتابها عن نجيب الريحاني إن شخصية كشكش بك كانت من رموز «مقاومة الأجانب» وأنه صار عام ١٩١٨ «شخصية كوميدية قومية» . وأنه «على الرغم من جهله وريفيته وسذاجته، ففي أعماقه كبرياء وعناد واندفاع محموم إلى المشاغبة، وسلاحه في ذلك المكر، وحينما يأتي «الخواجا» المتعجرف لمناقشته على أرضه، في السوق وفي الحانة، فإن الريحاني يكفل دائما الانتصار لكشكش الذي يطالب بحقه فيما يملكه» .

لا تناقش د. ليلى أبوسيف رأي يحيى حقي ، ولكنها تنحاز ضد علي الكسار كما ينحاز حقي ضد الريحاني، وتقول: «الريحاني كان أقدر على الفكاهة من الكسار وأرحب خيالا، وتعد شخصية كشكش بك أكثر أهمية من شخصية عثمان» . والواقع أن لكل من الريحاني والكسار شخصيته الفنية المستقلة، والناجحة، وهما يتكاملان رغم تضادهما الفني في التعبير عن العصر الذي عاشا فيه.

وعلى النقيض تماما من يحيى حقي يرى محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) في كتابه «الشخصيات العشرون» عام ١٩٦٩ أن كشكش بك كان «نواة الملهاة المصرية الصميمة» ، ويقول: « كانت مصر لهذا العهد تخوض محنتها الكبرى في الحرب العالمية الأولى، تعاني أزمات نفسية صعابا من الحماية الإنجليزية وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عرفي وامتهان للكرامة الوطنية وحقوق البلاد. وكان المسرح المصري في أغلب الأمر ، بمعزل عن الاستجابة لما يموج في الأمة من تأثر وانفعال، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجد والتزمت والوقار، وجل ما يعرض من الروايات أجنبي الروح من نتاج الترجمة، ليس فيه ما يتصل بأهواء الناس، أو يسري عنهم في محنتهم النكراء، فصرف الناس عن المسرح الجدي، وتركوه قاعا صفصفا يعاني الركود والكساد» .

ويستطرد محمود تيمور: «وهنا رأينا الريحاني يشق ميدانا جديدا دفعته إليه يد القدر، أو قل بصيرته النيرة التي فطنت إلى ما يعتلج في نفسية الجمهور من مطالب ومنازع، فظهر في منظر مصري على أحد مسارح الاستعراض، وكان ذلك المنظر ساذجا فكها قوامه بعض الشخصيات المصرية الصميمة، يحتشد فيها خليط من أغان شرقية وغير شرقية، وابتكر الريحاني لنفسه تلك الشخصية الطريفة، شخصية كشكش بك العمدة السادر الطروب، فما لبث هذا المنظر أن أخذ بالباب النظارة، وانتزع منهم عصي الإعجاب، وكان في ذلك ما أغرى الريحاني وصاحب مسرح الاستعراض بالتوسع في المنظر، والتفنن فيه، وتعهده بالوان التجديد المرح، وتغذيته بالأغاني الشعبية والمشاهد الراقصة حتى طغى المنظر على المسرح كله، فأصبح رواية مستقلة تنفرد بالمسرح بطلها كشكش بك وقوامها الفكاهة والغناء والرقص، وأحسسنا أن نواة الملهاة المصرية الصميمة قد أخذت تتخلق» .

يؤصل د. علي الراعي (١٩٢٠ - ١٩٩٩) مسرح الريحاني فيقول في كتابه عن «فنون الكوميديا» إن «بداية عمل الريحاني في إطار الفصل الواحد المضحك، ثم مواصلة هذا العمل في إطار فرقة جوالة، كان لهما أعمق الأثر على الكوميديا التي خرج بها على الناس بعد ذلك، مبتدئا بالفرانكو آراب، وشخصية كشكش بك، ومنتهيا بالكوميديات الاجتماعية التي قدمها في أوائل الثلاثينيات ممصرة عن الفرنسية، متعاونا في هذا مع زميل عمره بديع خيري» .

ويقول الراعي «كان الريحاني في تطوره يحمل دائما عنصرين أساسيين: الكوميديا الشعبية كما عرفها من إرث الكوميديا المرتجلة وكوميديا الفصل الواحد، والكوميديا الأوروبية التي استطاع أن يحصل على بعض من نماذجها المتفاوتة الحظ من الجودة عن طريق معرفته بالفرنسية، مضافا إلى هذا كله أثر من ألف ليلة وليلة والأدب الشعبي عامة، حمله إليه بديع خيري، شريكه في التمصير الخلاق. وبين هذين القطبين الكبيرين : الكوميديا الشعبية والكوميديا المترجمة ظل فن الريحاني يتأرجح حتى استطاع في أوائل الثلاثينيات أن يثبت في مجال الكوميديا الانتقادية عن أصول فرنسية» .

وتقول د. نجوى عانوس في كتابها «المسرح الضاحك» عام ١٩٨٩ أن مسرح أمين صدقي الذي كان أول كاتب تعاون مع الريحاني «خرج من معطفين : معطف التراث الشعبي ومعطف المسرح الغربي، حيث تأثر بالأراجوز وبابات ابن دانيال وحكايات ألف ليلة وليلة والسير والتقاليد والعادات الشعبية واستخدم أيضا الأمثال الشعبية في مسرحياته» . وتضيف إن «تأثر المسرح الفرنسي وخاصة مسرح جورج فيدو (١٨٦٢ - ١٩٢١) بالتراث الشعبي جعل مسرحياته قريبة إلى ذوق الجمهور المصري» .

وفي كتابها «شخصية العمدة في المسرح المصري ١٩١٤ - ١٩٥٢» عام ١٩٨٩ تقول د. عانوس «تطورت شخصية العمدة كشكش عند نجيب الريحاني تطورا إيجابيا منذ ١٩١٧، وفي أثناء ثورة ١٩١٩ حيث اتخذ منها قناعا سياسيا لطرح انتقادات وطنية لاذعة لجنود الاحتلال، كما شملت بعض الانتقادات الاجتماعية وعبرت عن آمال المصريين في تحقيق الاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادي، كما اتخمت مسرحياته في تلك الفترة بالأغاني والأناشيد الوطنية حتى أصبحت المسرحيات وعاء لها» .

وبقدر ما نتفق مع د. عانوس في قولها: «رأينا وقتئذ شخصيتين شعبيتين بارزتين هما كشكش عند الريحاني وعثمان عند الكسار، وكلتاهما تمثل روح العصر وتعبر عن وعي الجمهور بالأحداث وعن آماله وقلقه الاجتماعي» ، بقدر ما نختلف معها في أن الريحاني في مسرحياته كان يعبر عن «كراهيته للأجانب، وحقده الشديد على الشوام واليونانيين» . فالكراهية لم تكن للأجنبي لأنه أجنبي، وإنما للأجنبي الذي يحتل البلاد أو يضطهد سكانها، وكيف للريحاني أن يحقد على الشوام ووالده من العراق، والمرأة الوحيدة التي تزوجها، وهي بديعة مصابني من لبنان.



عبر الريحاني في مسرحياته ثم في أفلامه عن التسامح العرقي والديني، ربما كان لم يعبر فنان آخر من فناني العصر الليبرالي في مصر، والذي تجسد في ثورة ١٩١٩. كتب الريحاني في مجلة «الحقيقة» في فبراير ١٩٤٧ «في ثورة ١٩١٩ كان مسرحنا يخرج كل ليلة قرابة الخمسمائة شخص بين رجل وسيدة وشاب وفتاة، وقد تأججوا وطنية وحماسا، وفعلت فيهم المونولوجات التي ألقيت عليهم فعل السحر، وأقض نشاطنا وحماسنا مضاجع الإنجليز، واستدعاني هورن بلور النائب العام الإنجليزي في ذلك الوقت، وفاجأني بقوله: أنت تعرف مالطة؟ فقلت: أظن هواها مش بطال. قال: تحب تغير هوا هناك، قلت: يبقى إذن منفى. واستطردت: ضع نفسك في مكاني، وهب أنك مصري، فماذا يكون موقفك مني؟ هل يلام من يطلب تحرير بلاده من ربقة المحتل. هل ترضى بريطانيا أن تكون في يوم ما محتلة من المصريين، وأن يضرب المصريون الإنجليز بالرصاص في الشوارع، وينفوهم لأنهم يطلبون الجلاء عن بلادهم. لم يرد الرجل، وبعد صمت طويل، طلب مني أن أخفف من نشاطي وحماستي، وإلا سيكون مصيري النفي إلى مالطة، قلت: إنني مصري قبل كل شيء، ولتفعل القوة ما تشاء، وحتى الآن لم أذهب إلى مالطة» .

يقول عثمان العنتبلي في كتابه عن نجيب الريحاني: «كان في اجتماع سيد درويش ونجيب الريحاني وبديع خيري قوة إيجابية نفاذة، نشرت سطوتها على الحياة الفنية، وسجلت في التاريخ سطورا مشرقة مشرفة، وقد عبر الثلاثة عن مبادئ ثورة ١٩١٩ في العديد من مسرحياتهم مثل مسرحية «١٩١٨ - ١٩٢٠» التي حضرها زعيم الثورة سعد زغلول (١٨٦٠ - ١٩٢٧) وتضمنت نشيد «مصر أم الدنيا» ومطلعه:

إن كنت صحيح بدك تخدم
مصر أم الدنيا وتتقدم
لاتقول نصراني ولامسلم
ولايهودي ياشيخ اتعلم
اللي أوطانهم تجمعهم
عمر الأديان ما تفرقهم

ومثل مسرحية «حسن ومرقص وكوهين» . والتي يقول بديع خيري في حوار نشر في مجلة «الكواكب» عدد ١١ يوليو ١٩٦١ إن فرقة الريحاني قدمتها لأول مرة على مسرح دار الأوبرا عام ١٩٤١، وكان عنوانها الأصلي قبل العرض «محمد ومرقص وكوهين» . ولكن الأزهر اعترض

على استخدام اسم النبى عليه الصلاة والسلام، كما اعترضت الكنيسة المرقسية على استخدام اسم مرقس تلميذ المسيح عليه السلام، واعترض حاخام اليهودى على استخدام اسم كوهين لأنه يعنى الكاهن الأكبر، ولكننا استطعنا إقناع الكنيسة والحاخامية ولم نستطع إقناع الأزهر.

ويقول بديع خيرى فى نفس المقال إن الريحانى لم يمثل فى المسرحية أيا من الأدوار الثلاثة، وإنما قام بدور عباس الموظف البائس، وقام حسن فايق بدور حسن ومحمد كمال المصرى (شرفنطح) بدور مرقص، وبشارة واكيم بدور كوهين، وأن مضمون المسرحية اتحاد حسن ومرقص وكوهين كعمال فقراء ضد ظلم أصحاب الأعمال، وأن هذه المسرحية كانت تمثل عملا شديد الخصوصية بالنسبة للريحانى حتى أنها لم تقدم بعد وفاته. ومن الجدير بالذكر، أن الريحانى لم يمثل فى الفيلم الذى أنتج عنها.

كان الدكتور طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) أول من أدرك قيمة مسرح الريحانى من كبار الكتاب العرب حين نشر مقاله عن مسرحية «سلاح اليوم» فى عدد مايو ١٩٤٦ من مجلة «الكاتب المصرى» حيث قال: «سلاح اليوم فى قصة الأستاذ الريحانى، ليس جدا، ولاجهدا، ولاكفاية، ولاعملا خصبا منتجا، ولاصدقا فى القول، ولا إخلاصا فى العمل، ولاوفاء للصديق، ولا اعترافا للجميل، وإنما هو كل ما يناقض هذه الخصال من الأخلاق، وهو ليس سلاحا يصطنعه فريق من الناس دون فريق، ولاطبقة منهم دون طبقة، وإنما هو سلاح شائع يصطنعه كل من قدر عليه، والناس جميعا يحرصون على أن يقدروا عليه ويصطنعوا، لأنهم جميعا يريدون أن يغيروا من حالهم، ويخرجوا عن أطوارهم، ويبلغوا منازل أرقى من المنازل التى قدرت لهم.. يريدون أن يصلوا، ولايترددون فى سلوك السبيل التى تنتهى بهم إلى مايريدون مهما تكن شائكة ومعوجة، بل هم يسلكون السبل الشائكة المعوجة لأنها وحدها التى توصل فى سرعة إلى مايريدون.

الأستاذ الريحانى معلم يلقى دروسه الاجتماعية والخلقية على المصريين منذ أكثر من ربع قرن، وهو فى الوقت نفسه صاحب فكاهة رائعة حلوة مرة فى وقت واحد، يسلى المصريين عن همومهم وأحزانهم العامة والخاصة منذ أكثر من ربع قرن أيضا، فليعرف المصريون له ذلك وليقدروه حق قدره وما أراهم يفعلون، وإنه لمن المؤلم حقا أن ينفق الأستاذ الريحانى حياته كلها معلما للمصريين ومسليا لهم عن الهموم والأحزان، وأن يؤثر المصريين انفسهم بدروسه وفكاهته دون أن يجد من الدولة عناية أو تشجيعا، والغريب أن الدولة تفكر فى إنشاء جامعة شعبية ولتعذرنى الدولة إذا قلت أن مسرح الأستاذ الريحانى هو قسم من أقسام هذه الجامعة».

وعندما توفى الريحانى رثاه عميد الأدب العربى الحديث قائلا حسب النشرة الصحفية لفيلم «غزل البنات»:

لست أدرى أيحقق المصريون هذه الكارثة الفادحة المبهظة التى صبت عليهم ثقيلة بغيضة ملحة مضنية يوم اختطف من بينهم نجيب الريحانى، إن هذا الرجل ذا الخلق السمح والقلب النقى والنفس العذبة والضمير البرئ قد أضحك المصريين نحو ثلاثين عاما، أضحكهم ضحكا نقيا سمحا بريئا من كل إثم مطهرا من كل دنس، أضحكهم حتى أنساهم انفسهم، أضحكهم حين كانت حياتهم كلها حزنا وهما وألما وعناء فأنساهم هذا كله.. أضحكهم حين كانت الأزمات السياسية والاقتصادية تعصف بحياتهم العامة والخاصة فتنغص نهارهم وتؤرق ليلهم وتقض مضاجعهم.. سلاهم الريحانى عن هذا كله وأعانهم على احتماله وهيأ لهم تجديد النشاط بعد أن كان الفتور يدركهم ويكاد يؤنسهم من كل شيء، أضحكهم الريحانى ثلاثين سنة فكان لهم صديقا وفيا يسلى الهم ويسرى الحزن ويفرج الكرب ويرد إلى الذين كرهوا الحياة حب الحياة.

فمهما يبك المصريون هذا الرجل العظيم ومهما يأسوا لفقده ويحزنوا لفراقه فلن يوفوه من حقه إلا أهونه وأيسره، إن هذا الرجل الذى مات ولم تتقدم به السن إنما أهدى صحته وراحته ودعته وعافية نفسه وجسمه إلى مواطنيه وأهدى إليهم هذا كله فى غير تكلف ولاتصنع ولا تكبر ولا مَنٍّ وإنما كان كالشمس يرسل فنه إرسالا فترضى النفوس وتطمئن القلوب وتسترد الضمائر ثقتها بالحياة كما ترسل الشمس ضوءها وحرارتها فتملأ الأرض حياة ونشاطا وبهجة».

وفى الذكرى الثامنة لوفاة الريحانى أقيم حفل كبير ألقى فيه الشاعر محمود حسن إسماعيل (١٩١٠ ـ ١٩٧٧) قصيدة جاء فيها:

ضاحكا والأسى يمزق جنبيه
ويأبى لفنه أن يخونه
جعل النفس مسرحا
ومدى النفس بقيد وكلكم تعرفونه
فى أساها، فى مكرها، فى كراها
فى دجى الظن ما أضلت عيونه

وألقى صديق عمره وشريكه فى رحلة الفن بديع خيرى قصيدة أخرى جاء فيها:

لو حد يسألنى يا نجيب
إن باقرى لسه فى نحيب
أفكر وأقول أبدا فرحان
اكمنى شفت بعينى اليوم
اللى اجتمع فيه رأى القوم
على أغلى تقدير للفنان

المسرح والسينما

يتردد كثيرًا أن الريحانى كان يكره السينما، وهذا غير صحيح حتى لو قال الريحانى نفسه ذلك فى بعض الأحيان، بسبب عدم رضائه عن هذا الفيلم أو ذاك من أفلامه. وكيف يكره الريحانى السينما وهو لم يكف عن صنع الأفلام منذ وصوله إلى مرحلة النضج عام ١٩٣٠، حسب إجماع كل نقاد ومؤرخى المسرح، وحتى وفاته عام ١٩٤٩، بل لقد اعتزل الريحانى التمثيل على المسرح عام ١٩٤٦، وقدم أربعة من أفلامه الستة المتوافرة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٩، أى بمعدل فيلم كل سنة.

كتب عباس محمود العقاد (١٨٨٩ـ ١٩٦٤) فى رثاء الريحانى تحت عنوان «رجل خلق للمسرح» فى مجلة «الكواكب» الشهرية عدد أغسطس ١٩٤٩ «إنك تحاول أن تتخيله فى عمل آخر غير عمله المسرحى، فلا تفلح. هو على المسرح كالسمكة فى الماء: دخوله إليه، وحركته عليه، وكلامه، وسكوته، وإيماؤه، وقيامه، وقعوده، طبيعة من صميم الطبيعة تنسيك كل تكلف يحتاج إليه الفنان، حتى ينتقل من العالم الخارجى إلى عالم الفن والرواية». وفى هذه الكلمات يقيم العقاد فن الريحانى، كممثل بدقة فى قوله أنه يمثل بشكل طبيعى، بحيث لا يشعر المتفرج بالتكلف الذى «يحتاج إليه الممثل». ومن المعروف أن التكلف كان واضحًا فى أداء العديد من نجوم المسرح والسينما فى البداية.

وبحس نقدى رفيع كتب محمد عبد الوهاب (١٨٩٨ ـ ١٩٩١) تعليقًا على مقال العقاد فى العدد التالى من نفس المجلة تحت عنوان: «رجل خلق للسينما» قال فيه: بوسعى كفنان زامل الريحانى فى آخر عمل فنى له وهو فيلم «غزل البنات» أن أقول فى ثقة وحماسة وتأكيد أننى لا أتخيل الريحانى إلا مظلوما على المسرح، فإن خشبة المسرح كانت تسرق الكثير من عبقريته لتدفنها فى جو محدود، وتطويها دون أن يشعر بها أحد، بينما هى فى إبداعها مثل عطر غال نادر الوجود، فإن للريحانى وجهًا معبرًا صارخ الملامح ناطق الرحمة، تكاد كل خلجة فيه تبرز قصة بليغة صامتة، وله لمحات تطفر من عينيه يسجل فيها أروع أحاسيس الفنان الملهم: دمعة كسيرة، أو نظرة مرحة، أو غشاء من ترح أو فرح، يكسبه لونًا إعجازيًا قل أن يكون له نظير فى العالم، وكانت له أيضًا نبرة صوت فيها كل شجن الفنان، تقفز رأسًا من خفقة قلبه، لتخرج من شفتيه أشبه بهمسة واهنة لا تكاد تسمعها الأذن، ولكنها أنفاس حارة تنفخ أجيجًا من نار فى إحساس من يتتبعه».

ويستطرد المغنى والموسيقار: «أقول هذا وأنا لا أكاد أتخيل شيئا غير عين الكاميرا، يمكن أن تسجل فى أمانة هذه القدرة التعبيرية، وأقولها وأنا لا أرى شيئًا غير الشاشة، يمكن أن تعرض ذلك فى إتقان، فتقرب وتبرز لك أدق حركة من حركاته وألمع لمحة من لمحاته وأرق نبرة من نبراته، فالريحانى لم يكن جسمًا يتحرك فقط ليراه المشاهد من مقاعد الصف الأخير أو من أعلى التياترو، كما يراه المشاهد فى الصف الأول، ولكنه كان روحًا يجب أن تلمسها لمسًا بإحساسك، فلا تجهد نفسك معها، وإلا فشلت فى تتبعها، السينما فقط ترفع رأسها فخورة بأنها تقدم الريحانى حيًا مجيدًا».

ويقول عبدالوهاب: «كان هذا الشعور الذى أسجله يجول فى نفسى قبل فقدنا له بشهور، فشعرت متأثرا أن الريحانى لو توفى يوما فلن يترك إلا أوراقا بالية ممزقة، هى مخلفات مسرحيات لن تكون لها قيمة بدونه ودون وجوده، فاعتزمت أن أنفذ مشروعا مع صديقى وشريكى الفنان أنور وجدى، وهو أن أبدأ فى إحياء مسرحياته الخالدة على الشاشة البيضاء، ولكن القدر شاء أن نقف بعد المحاولة الأولى لنا فى «غزل البنات»، ولعل الفقيد العزيز كان يشعر بأنه وشيك الانتهاء أثناء عمله فى هذا الفيلم، فاجتر كل قوت العبقرية الذى كان يختزنه فى نفسه، وسجل فنا يمكن أن نعرضه فى قلب إنجلترا أو أمريكا فنبهرهم به قبل أن نبهر أنفسنا، وبودى حين يعرض فيلم «غزل البنات» أن يشاهده الأستاذ العقاد ليتأكد كم أضاع المسرح علينا من فلتات الفن الإعجازى للريحانى، فإن فى الفيلم منظرا صامتا له وهو يتأمل السيدة ليلى مراد يحدثها فيه بتعابير وجهه، أقسم أنه سوف ينتزع التصفيق القوى من أجمد الناس شعورا، ومستحيل على المسرح وأضواء المسرح وترتيب المسرح أن يشعرك به، ولكن الكاميرا تواجهه عن قرب، فلا تتمالك نفسك إلا الانفعال مع هذا الفنان العبقرى، إن الريحانى مات فى نظر المسرح، أما فى نظر السينما فهو حى فيها إلى الأبد لأنه خلق لها وخلقت له».

لم يكره الريحانى السينما إذن، ولم يكن من الممكن أن يكرهها، ليس فقط بسبب الأفلام التى قام بالدور الأول فيها، وإنما أيضا لأنه كان يدرك ما يقوله عبدالوهاب، مثله فى ذلك مثل أى ممثل فى العالم، فالسينما التى تكشف قدرات الممثل من الناحية الفنية، وخاصة مع استخدام المنظر الكبير(الكلوزآب) ، ومن ناحية أخرى ، هى التى خلدت فن التمثيل بعد أن كان يندثر فور انتهاء العروض المسرحية ولايذكر إلا فى سطور الكتب، أو فى الصور الفوتوغرافية بعد اختراع الفوتوغرافيا، ولذلك كان الكثير من الأفلام التمثيلية الأولي مشاهد من مسرحيات لكبار نجوم التمثيل المسرحى، وبعد اختراع الفيلم الناطق أصبح من الممكن تسجيل العروض المسرحية بكاميرات السينما.

ولكن ممثل المسرح لايفكر فى السينما كأداة للكشف عن قدراته، أو تخليد أعماله فقط، وإنما أيضا لاكتساب المزيد من المتفرجين بحكم انتشار السينما، وسهولة عرض الفيلم فى أماكن كثيرة فى نفس الوقت، داخل بلاده وخارجها، وهنا تظهر مشكلة نجوم المسرح ونجوم السينما، فالكثير من نجوم المسرح لاينجحون فى السينما، والسينما تصنع نجوما بعضهم يعجز تماما عن التمثيل المسرحى، وبالتالى يمكن لممثل مسرحى قدير أن يرى ممثلا متواضع الموهبة يصبح نجما ويكتسب جماهير أكبر من جماهيره لأن الحضور المسرحى يختلف اختلافا جذريا عن الحضور السينمائى.

كان نجاح أفلام الريحانى فى حياته أقل من نجاح مسرحياته، وكانت هناك أفلام أنجح من أفلامه رغم أن قيمتها الفنية أقل، ومن هنا جاءت فكرة أن الريحانى يكره السينما، وقد كان مقياس النجاح والفشل الجماهيرى للأفلام قبل التليفزيون هو مدى استمرار العرض الأول فى دور السينما، وبعد

يقول الراعى «كان الريحانى فى تطوره يحمل دائما عنصرين أساسيين: الكوميديا الشعبية كما عرفها من إرث الكوميديا المرتجلة وكوميديا الفصل الواحد، والكوميديا الأوروبية عن طريق معرفته بالفرنسية، مضافا إلى هذا كله أثر من ألف ليلة وليلة والأدب الشعبى عامة، حمله إليه بديع خيرى، شريكه فى التمصير الخلاق

التليفزيون أصبح المقياس مرات العرض، وبعد الفيديو أضيف مقياس ثالث وهو عدد النسخ المباعة. وبمقياس التليفزيون والفيديو بعد ٥٠ سنة من العرض الأول لآخر أفلام الريحاني، فإن أغلب أفلامه الستة المتوافرة على قنوات التليفزيون وشرائط الفيديو تكاد تصبح من «المأثورات الشعبية» . وقد ترجم العقاد كلمة فولكلور «مرددات شعبية» . أي ما يردده الشعب في حياته اليومية، مثل الاستشهاد بالأمثال، وبما جاء في السير والحكايات.

الناس يحفظون حوار «غزل البنات» وخاصة في مشاهده المأثورة مثل مشهد التعارف بين الباشا والمدرس الذي جاء يعلم ابنة الباشا اللغة العربية، وعبارة «مرزوق أفندي.. اديله حاجة..» تستخدم في مواقف كثيرة في الحياة على سبيل السخرية، والناس يحفظون حوار «لعبة الست» ، ولايملون أغانيه من «ياخارجة من باب الحمام» إلى «الغراب ياوقعة سوده جوزوه أحلى يمامة»، ولاتحصى الأمثلة ولاتعد على مدى نجاح أفلام الريحاني في عصر التليفزيون والفيديو.

يقول أستاذ التمثيل زكي طليمات في تقييم فن الريحاني كممثل، وذلك في مقال نشره في مجلة «الكواكب» عدد ١٤ يونيو ١٩٥٥: «قليل على الريحاني في فنه الكبير أن أقرر انه كان يحس المعاني قبل أن يخرجها كلاما»، وانه كان ينفعل بها انفعالا عميقا ومتزنا.. من غير مبالغة أو تقصير، وانه إذا عبر عنها كلاما، وجد خلفها إطارا من وجه بليغ في التعبير، بل لوجد أعضاء الجسم فيه تتحول إلى عيون مفصحة ووجوه معبرة..

وقليل على الريحاني في فنه الكبير أن أقرر انه كان على خفة في الظل وجاذبية تضفي على كل ما يبدر منه بهاء وروعة تأخذ بمجامع القلوب..

وقليل أن أقول أن الإشارة منه أو الحركة تكون أبلغ من الكلام، وأن الصمت الذي كان يأخذ به أحيانا أثناء التمثيل، كان يفصح ، ويبعث ويثير ويدعم التعبير ويسمو به إلى أفق بعيد من الإجادة..

إن الريحاني في فن الممثل كان أبلغ من هذا وأبعد أثرا!!

ومرجع هذا أن الريحاني كانت تملأه فيوض من الإنسانية تضفي على أدائه طابعا من الرفق واللين.. والدماثة.. ومن أشياء لا أجد لها اسما!!

ومتى اجتمع الإنسان الحق، مع الممثل الحق وقعت هذه الأعجوبة!!

ومرجع هذا أيضا، أن الريحاني كان يحس بنفسه إلى حد بعيد فتبلورت لها معالم في أعماقه فإذا هو ذو شخصية قوية.

سينما الريحاني

يقول خيري شلبي في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب عثمان العنتبلي «نجيب الريحاني» عام ١٩٩٩، إن فن الريحاني لم يلق ما يستحقه من عناية الباحثين، والواقع أن مسرح الريحاني لقي من العناية ما يستحق ويزيد، ولكن سينما الريحاني لم تدرس بأي قدر من العناية، ولا حتى عندما احتفل مهرجان القاهرة السينمائي الدولي بمرور مائة عام على مولد الفنان عام ١٩٩٢، أو عندما احتفل نفس المهرجان بفن الكوميديا عام ١٩٩٩، وأصدر كتابًا عن بديع خيري مؤلف أغلب مسرحيات الريحاني وكل أفلامه.

ومن الغريب أن الدراسات الكثيرةالتي صدرت عن مسرح الريحاني وفنه، كممثل تشير إلى بعض أفلامه إشارات عابرة، بينما عمل الريحاني في المسرح والسينما معًا، ولا يمكن الفصل بين أعماله عندما يكون فنه موضوعًا للبحث، فضلاً عن حقيقة أن الأفلام، أو بعض الأفلام، هي كل ما بقي من آثاره كممثل.

لا خلاف حول الأفلام الستة الأخيرة التي مثلها الريحاني، وهي «سلامة في خير» ١٩٣٧، و«سي عمر» ١٩٤٠ إخراج نيازي مصطفى، و«لعبة الست»، و«أحمر شفايف» ١٩٤٦ إخراج ولي الدين سامح، و «أبو حلموس» ١٩٤٧ إخراج إبراهيم حلمي، و «غزل البنات» ١٩٤٩ إخراج أنور وجدي، وكلها ناطقة، ولكن هناك خلافات كبيرة حول الأفلام التي سبقتها، وبعضها صامت. وترجع هذه الخلافات إلى أن هذه الأفلام مفقودة، أو بالأحرى لم يتم البحث عنها بالأسلوب العلمي المتبع في البحث عن الأفلام المفقودة في العالم.

يذكر إلهامي حسن في كتابه «تاريخ السينما المصرية» عام ١٩٧٦، أن الريحاني بدأ تصوير فيلم صامت عام ١٩٢٩ من تمثيله مع بديعة مصابني، ومن إخراج جاك شوتز، ولكن الفيلم لم يتم. ويؤكد منير محمد إبراهيم



ذلك في كتابه «رواد وأفلام» عام ١٩٨٥، ولكن الباحث مفيد فهيم في دراسة مصورة بالأوفست وزعها على نطاق ضيق يذكر أن الفيلم تم، ولكنه كان «أقصر الأفلام المصرية الصامتـــه الطويلة»، وعرض بعنوان «الريحاني» وانه كان من إنتاج شركة الفن المصري ومن تمثيل الريحاني وبديعة وإيمي بروفانزا وياقوت عزيز وبديع خيري.

لا توجد أية إشارة إلى هذا الفيلم في كتاب أحمد الحضري «تاريخ السينما في مصر» عام ١٩٨٩، والذي حاول فيه رصد كل الأفلام المصرية التي تمت والتي لم تتم حتى نهاية عام ١٩٣٠، كما لا يذكر الريحاني الفيلم في مذكراته التي نشرت عام ١٩٣٧. ولكن عدم ذكر الفيلم في هذا الكتاب أو ذاك ليس دليلاً على عدم وجوده، والأفلام غير التامة ليست مثل الأفلام التامة بالطبع، ولكنها جزء من تاريخ السينما. وقد يعتبر البعض أن مذكرات الفنان تختلف عن غيرها من الكتب، وهذا صحيح، ولكن لا يعني أنها «المرجع» بألف لام التعريف، وخاصة أن مذكرات الريحاني التي نشرت لأول مرة عام ١٩٣٧، غير دقيقة وغير موثقة وغير شاملة، وهي أقرب إلى الذكريات منها إلى المذكرات.ومن المنطقي أن يحاول الريحاني صنع أول أفلامه عام ١٩٢٩ في ذروة نجاحه، واللحاق بمنافسه الكبير على الكسار (١٨٨٧ ـ ١٩٥٧)، الذي كان قد سبقه في هذا الميدان.

يذكر الريحاني في مذكراته، فيلمه الصامت الوحيد الذي تم «صاحب السعادة كشكش بك» (تكتب أحيانًا كش كش بيه ولكنها في المذكرات كشكش بك) من إخراج إستيفان روستي عام ١٩٣١، ولكنه لا يذكر أن نفس الفيلم أعيد عرضه ناطقًا عام ١٩٣٢ بعنوان «سعادة كشكش بك». كما لا يذكر فيلم «حوادث كشكش بك» إخراج كارلو بوبا عام ١٩٣٥، مما جعل أشرف غريب في كتابه «العصر الذهبي للكوميديا» عام ١٩٩٩ يعتبره النسخة الناطقة من «صاحب السعادة كشكش بك». وهناك وثيقة تؤكد وجود فيلم «حوادث كشكش بك»، وهي القائمة الرسمية المطبوعة للأفلام التي وزعتها شركة بهنا فيلم موسم ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦، وتذكر أن الفيلم تمثيل الريحاني وروستي وعبد اللطيف جمجوم وفوزية منير.

نمطـــان

نمطان شهيران قدمهما نجيب الريحاني على المسرح: نمط كشكش بك عمدة كفر البلاص المتلاف، الذي يبيع القطن وينفق أمواله في ملاهي الليل أثناء الحرب العالمية الأولى. ونمط الموظف الطيب البائس الذي يعمل في الإدارة أو المحاسبة أو التدريس، وتعانده الظروف، ولكنه ينتصر في النهاية بفضل حرصه على القيم الأخلاقية. وتنقسم أفلام الريحاني بدورها إلى مرحلتين: مرحلة كشكش بك في الفيلم الصامت الذي أعيد عرضه ناطقًا (صاحب السعادة كشكش بك ـ سعادة كشكش بك) و (حوادث كشكش بك) و (بسلامته عاوز يتجوز)، ومرحلة الموظف الطيب البائس (ياقوت ـ سلامة في خير ـ سي عمر ـ لعبة الست ـ أحمر شفايف ـ أبو حلموس ـ غزل البنات).

كشكش بك

يقول الريحاني في مذكراته أن إستيفان روستي (١٨٩٧ ـ ١٩٦٤)، زاره ذات يوم ومعه المصور والمنتج توليو كياريني واقترحا عليه صنع فيلم «صاحب السعادة كشكش بك» ويستطرد قائلا: «كان غريبًا أن نبدأ العمل فيه دون أن نضع له فكرة معـــينة، أو نكتب له سيناريو محدد المناظر والوقائع. وكل ما هناك أننا كنا نخرج في السادسة صباحًا دون أن ندري ماذا سنفعل، حتى إذا جلست لتركيب لحية كشكش، بدأت أفكر في المناظر التي نصورها وفي الحوادث التي نمثلها، فإذا انتهيت من تركيب اللحية أكون قد انتهيت من تفكيري فنبدأ في التنفيذ، يعني في التصوير. وتكلف فيلم «صاحب السعادة كشكش بك» أولاً عن آخر مبلغًا وقدرة أربعمائة جنيه مصري لاغير. يعني اننا أخرجناه بتراب الفلوس، ومع ذلك فقد نجح وجلب فلوس، وأقبل الجمهور على مشاهدته إقبالاً لم يكن يتوقعه أكثر الناس تفاؤلاً». ومن الواضح أن الفيلم كان مجرد استغلال لنجاح مسرحيات كشكش بك. ونفس الأمر بالنسبة للأفلام الكشكشية الأخرى (سعادة كشكش بك ـ حوادث كشكش بك ـ بسلامته عاوز يتجوز).

ياقـــوت

يقول الريحاني في مذكراته: «في أغسطس ١٩٣٣ وصلتني برقية من الأستاذ إميل خوري، الذي كان سكرتير تحرير جريدة الأهرام، يحمل تحويلاً بمبلغ خمسين جنيهًا، ويطلب مني أن أوافيه بباريس، فقمت على عجل بعد أن طلبت من زميلي بديع أن يعد نفسه للحاق بي، حين أرسل برقية باستدعائه. ووصلت إلى باريس وقوبلت بالحفاوة اللازمة، وما هي إلا يومين ثلاثة وبدأت أفهم «الفولة»، وإيه هي «الفولة»؟ هي أن عم خوري أخذ المقاولة من شركة جومون لحسابه هو، وجاء يقنعني بقبول الاشتراك معه بنسبة الثلث، ثم قدم لي سيناريو من وضعه هو، وذكر أنه مشرف لمصر، وأنه سينال نجاحًا لا نظير له وأنه إلى آخر الإنهات اللي في الدنيا.

اطلعت على السيناريو، فوجدت أنه لا بأس به، إذا تركت لنا الحرية في وضع الحوار الذي يدور بين ممثليه، وفي الحال أرسلت في طلب بديع، ولكن وقبل أن يصل الزميل، تقدم إلى إميل وأعطاني نسخة من حوار وضعه باللغة الفرنسية، وطلب إلى ترجمته إلى العربية، بحيث لا نخرج عنه قيد أنملة. فلما قرأته وجدت أنه لا يصلح بتاتًا، وخاصة لجمهوري الذي عرفته وعرفني، فحاولت أن أقنع الشريك المخالف بأن هذا الحوار في مقدوره أن يسقط بدل الفيلم الواحد فيلمين أو ثلاثة، ولكنه أصر ولم يصغ لأي اعتراض، فصممت إزاء هذه الصلابة على التوقف عن العمل والعودة إلى الوطن، فظل بديع يهدىء من ثورتي، ويعمل على إقناعي بأن عودتي خاوي الوفاض إلى مصر ستطلق ألسنة الناس بالشائعات والأقوال، وستدع لخصومي فرصة النيل مني، وستكون النتيجة كيت وكيت.

و«خشت» هذه النصائح في مخي، وزادها ثباتًا أن جيبي كان فارغًا حتى من ثمن تذكرة العودة، فقلت لنفسي صهين يا واد يا نجيب واهو فيلم ويفوت ما حد يموت! وبدأنا عملنا في الفيلم ـ وقد نسيت أن أذكر لك باننا اخترنا له اسم «ياقوت» ـ بدأنا في إخراجه باستوديو جومون يوم الاثنين وانتهينا منه نهائيًا يوم السبت التالي، أي أننا «كروتناه» في ستة أيام. أما الداعي لهذه «الكروته»، فهو أن السيد خوري لم يكن يهمه إلا أن يضغط الميزانية، وقد كان. وبعد أسبوعين انتهت عملية المونتاج وجاء خوري ومن معه يجزلون لي التهنئة ويقسمون انني فشر هاري بور وشارل بوايبه ومش عارف مين ومين كمان، فهززت رأسي وطمانتهم بأن الفيلم ـ مع هذا وذاك ـ لن تقوم له قائمة، ولن يلاقي أي حظ من النجاح.

وعن فيلم «ياقوت» يقول بديع خيري في مقال نشر بمجلة «الكواكب» عدد ٢٤ أبريل ١٩٥٦»، وصلتنا رسالة من باريس اعتبرناها إنقاذا من السماء، وكان مرسلها هو الأستاذ إميل خوري وزير لبنان المفوض حاليًا في روما.

وكان الأستاذ إميل خورى يعمل قبيل ذلك سكرتيرًا لتحرير الأهرام. وكان - أمد الله فى عمره - وثيق الصلة بالزعيم سعد زغلول «باشا». وقد كان يهاجم الإنجليز فى لغة شديدة اللهجة إلى حد أن طالبوا بنفيه، وصدعت حكومة عدلى يكن باشا بالأمر وأخرجت إميل خورى من مصر، فاستوطن فرنسا واتخذ باريس مقرا له. وقد ساهم هناك فى بعض الأعمال التجارية، واستطاع أن ينجح نجاحًا ملحوظًا مما كان سببًا فى ثرائه.

واتفق الأستاذ إميل خورى مع شركة سينمائية فرنسية على إنتاج فيلم مصرى فرنسى يشترك فى تمثيله ممثلون من مصر ومن فرنسا.

وسافر الأستاذ نجيب الريحانى إلى باريس ثم لحقت به. ولم يكن من الممكن أن تسافر معنا بقية الفرقة نظرًا لكثرة المصاريف، فرأينا أن نستعين بالطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون هناك. وقد يسر لنا مهمة العثور عليهم الأستاذ أدمون تويما - وكان يقيم فى باريس منذ خمس سنوات - وقد وجدنا من الطلبة المصريين ترحيبًا كبيرًا وتعاونًا صادقًا طوال فترة تصوير الفيلم. إن من بينهم اليوم قضاة وأساتذة فى الجامعة، وأنا مهما مرت السنون لا أنسى روحهم الطيبة. أما قصة الفيلم، فكانت تدور حول فكرة إنسانية تتلخص فى أن الخلافات الدينية أو العنصرية لا يمكن أن تقف حائلاً بين الناس وحبهم لبعض، وهكذا يمكن أن يتبادل ياقوت أفندى «نجيب الريحانى» الحب مع مس رودى الأمريكية الحسناء «إيمى بريفان» رغم أنه مصرى بسيط الحال وهى ثرية أمريكية.. وحسناء».

هذا ما نشره الريحانى عن الفيلم عام ١٩٣٧، وما نشره بديع خيرى عن نفس الفيلم عام ١٩٥٦، أما ما نشر وقت تصويره عام ١٩٣٣، فينشر صلاح عيسى نموذجًا منه فى جريدة «صوت الكويت» العربية التى كانت تصدر فى لندن عدد ٢٣ أبريل ١٩٩٢، ونصه كالتالى:

«انتهى الأستاذ نجيب الريحانى من تمثيل فيلمه السينمائى «ياقوت» الذى أخرج فى ستوديو جومون بباريس، وكانت الشركة كما قال لنا الأديب والكاتب الأستاذ بديع خيرى، قد اتفقت مع «الريحانى» على أن يمثل لها تسعة أفلام فى مدى ثلاث سنوات بمعدل ثلاثة أفلام فى العام.

ويتكتم الأستاذ «الريحانى» قصة الفيلم، إلى أن يشاهده النظارة، ولكننا علمنا أن شخصية «ياقوت» التى يتقمصها، تختلف اختلافًا بيّنا عن شخصية «كشكش بك» التى اشتهر بها «الريحانى» وظهر على خشبة المسرح، وأن موضوع الفيلم، هو معارضة للأفلام التى تعودت الشركة السينماتوغرافية الأجنبية إخراجها عن البلاد الشرقية، فالقصة فى فيلمه لا تقوم على أمير شرقى يحب سائحة أوروبية فقيرة، ولكنها تقوم على رجل عربى طيب القلب هو «ياقوت أفندى» يعمل فى وظيفة متواضعة، إلى أن تسوقه الظروف للتعرف بسائحة سويدية تدعى «رودى أريسون» ابنة ملك الكبريت ومن صاحبات الملايين، تقع فى غرامه، فترفع من مكانته وتعلى من شأنه.

وقامت ببطولة الفيلم الممثلة الفرنسية «إيمى بريفان»، وقد سبق لها زيارة مصر والعمل على مسرح الكورسال. كما مثلت به دورًا آخر فنانة مصرية تدعى ناهد كمال، تقيم فى باريس، وقد فازت بلقب فتاة الغلاف فى مسابقة أجرتها إحدى المجلات الفرنسية بين هاويات السينما، وتقوم فى الفيلم بدور طالبة عربية تدرس الطب فى لندن، وتعود مع ابنة ملك الكبريت إلى مصر فى باخرة واحدة، فتتعارفان. وقد مثل فى الفيلم عبد الله صالح والدكتور شكرى رمسيس وأدمون تويما. وقام بديع خيرى - فضلا عن مشاركته فى كتابة السيناريو - بدور مغربى يدعى الحاج حسن، قام بإخراج الفيلم «المسيو روز بيه». وقد مارس الفن فى ألمانيا وفى هوليوود بأمريكا. وعمل معه كمساعد «أحمد أفندى بدرخان» عضو بعثة شركة مصر للتمثيل والسينما، وصوره جيلمان بمساعدة شاب جزائرى ماهر اسمه طاهر الحنش. ويقول «نجيب الريحانى» إن فيلم «ياقوت» يحوى من المحادثات باللغة الفرنسية ما يكفل حسن تفهمه فى باريس وغيرها، ويضمن الإقبال عليه فى مصر وغيرها، وأضاف أنه يثق أن هذه الرواية سوف تلقى فى مصر إعجابًا لا يقل عن إعجاب الأقطار الأوروبية بها، التى لن ترى فيه تلك الأغلاط العديدة التى طالما تشاهد فى الروايات التى يخرجها الأجانب عن الشرق.

سلامة فى خير

يقول الريحانى فى مذكراته إن نجاح فيلم «الحل الأخير» من إنتاج ستوديو مصر، جعله يطمئن ويقرر عمل فيلم جديد، ويقول: اشتركت مع بديع فى وضع فكرة السيناريو ثم ذهبنا إلى الاستوديو والتقينا الأستاذ أحمد سالم، وعرضنا عليه فكرتنا. ولكنه قص علينا فكرة أخرى لا أجد غضاضة فى التصريح بأن هذه كانت المرة الأولى التى استحسنت فيها قصة لأى إنسان كان، ووافقنى بديع على صلاحية هذه الفكرة، وكان اختيارنا قد وقع على اسم «أفراح»، ولكن الأستاذ سالم فضل عليه «سلامة فى خير».

وعن مخرج الفيلم نيازى مصطفى (١٩١٠ - ١٩٨٦) يقول الفنان الكبير: صدمت هذا الفتى فى ذلك الحين بتصريح غير مستحب، لأننى لدغت من مخرجين قبله، ولكن بمرور الوقت عرفت قيمة نيازى، فاعترفت بخطئى فى تقديره، فهو كفء مخلص لفنه. وكانت اجتماعات متعددة متتالية بينى وبين بديع ونيازى عالجنا فيها وضع السيناريو وربط موضوعه وحوادثه. وسرنا فى عمل الفيلم وحولنا جو من التفاهم التام لم يكن لى به عهد من قبل، فقد كان المخرج يعمل فى حدود واجبه، وكثيرًا ما عاوننا بأفكار ثاقبة وآراء ناضجة، فكنا نحن الثلاثة نواصل العمل سويًا، وكل منا يشعر أنه يؤدى فرضًا واجبًا يدفعه إليه الإخلاص والحرص على النجاح.

وأثناء مونتاج الفيلم صرح نيازى لمجلة «المحروسة» عدد ١٩ أكتوبر ١٩٣٧ قائلاً:

«عندما عهد إلى الاستوديو فى إخراج هذا الشريط كان على بطبيعة الحال أن أتصل بالأستاذ نجيب الريحانى لكى نشترك سويًا فى وضع سيناريو الشريط وإعداد مواقفه، وكانت هذه أول مرة أتصل فيها عمليا بالريحانى، فلم تكن لديه فكرة واضحة عنى، ولهذا شعرت عند أول مقابلة لى معه أنه ينظر إلى وكأنه لا يصدق أننى كفء للقيام بمهمة إخراج هذا الشريط الكبير، وجعلنى شعوره نحوى أشك فى نفسى فتولد فىّ شعور الخوف والوجل مما أنا مقدم عليه، وتضاربت فى نفسى عوامل مختلفة كانت تجعلنى أحيانًا أفكر فى الانسحاب من هذه المهمة الخطيرة.. فليس إخراج شريط كوميدى أمرًا سهلاً، وخصوصًا بالنسبة للأستاذ نجيب الريحانى.

وهكذا تولد شبه سوء تفاهم بينى وبين الريحانى عند بداية العمل، وكانت الظروف تحتم أن أتصل به يوميًا هو والأستاذ بديع خيرى لإعداد السيناريو، وكان من كثرة اتصالنا أن كلا منا بدأ يفهم الآخر، وتغيرت نظرة نجيب إلى ولهذا خرج السيناريو بعد كتابته جامعًا لكل أسباب السيناريو الفكاهى الناجح حتى لقد أطلقنا عليه اسم السيناريو «البدنجانى!» لأنه يجمع بين مواقف فكاهية مثيرة للضحك إلى درجة الجنون!

وقد زاد فهمنا لبعضنا أيضا عندما بدأ العمل فى الإخراج والتمثيل، فقد كان نجيب يؤدى مواقفه أمام الكاميرا بسهولة جعلتنى أطمئن إلى النتيجة التى سيسفر عنها الشريط بعد تمام إخراجه، وهكذا بدأت أعمل فى الشريط وشعورا الخوف والوجل يلازمانى، ولكنى عندما انتهيت منه وجدت نفسى وكلى أمل فى النجاح».

كان فيلم «سلامة فى خير» الذى أنتج وعرض عام ١٩٣٧ أول فيلم تمثيلى طويل من إخراج نيازى مصطفى، وأول فيلم سينمائى يقبل عليه الجمهور من تمثيل نجيب الريحانى وأول كوميديا سينمائية مصرية ناجحة من الناحية الفنية فى نفس الوقت.

تذكر عناوين الفيلم أن القصة من تأليف ستوديو مصر، و السيناريو والحوار من تأليف بديع خيرى، ونجيب الريحانى. وقد كان المقصود من نسبة قصة الفيلم إلى الاستوديو أنها عمل جماعى للعاملين فى قسم السيناريو.

عنوان الفيلم يعنى أن كل شىء أصبح على ما يرام، فعندما كانت تتعقد الأمور ثم تحل يقول أحدهم فى النهاية سلامة فى خير وخير فى سلامة، بمعنى كانت أزمة وانتهت بسلام. وهذا ما يردده بطل الفيلم فى اللقطة الأخيرة مع زوجته. وكما كان مفهوم القصة السينمائية ملتبسا إلى درجة نسبتها إلى الاستوديو، كان مفهوم السيناريو أيضًا. فالمؤكد أن خيرى والريحانى كتبا الحوار، ولكن التقطيع الفنى أى السيناريو صنعه نيازى مصطفى باعتباره ضمن عملية الإخراج، فلم يكن السيناريو المكتوب غير تتابع المشاهد أو بالأحرى تتابع الأحداث مع الحوار.

سلامة (نجيب الريحانى) ساعى فى محلات خليل هنداوى (فؤاد شفيق) يكلف بتوصيل مبلغ كبير من المال إلى البنك، ولكن مجموعة من المصادفات تضطره للعودة إلى منزله، حيث يعيش مع زوجته ستوتة (فردوس محمد) وحماته ومعه المبلغ الكبير، تقول ستوتة إن لصا سرق أدوات المطبخ فى الصباح، فيأخذ سلامة المال ويغادر المنزل، وينصحه أحد أصدقائه بالمبيت فى فندق كبير، وإيداع المبلغ فى أمانات الفندق حتى لا يضيع.

يذهب سلامة إلى الفندق فى نفس الوقت الذى تستعد فيه الإدارة لاستقبال أمير ثرى من بلاد بعيدة يدعى كيندهار (حسين رياض)، وفى نفس الوقت الذى يستعد فيه رستم بك (إستيفان روستى) لاستقبال الأمير على أمل أن يتزوج من ابنته جيهان (راقية إبراهيم). تطلب جيهان من خادمتها ناهد (روحية خالد) فى الإسكندرية أن تأتى لها بمجوهراتها، وفى الطريق تتعطل السيارة التى تقل ناهد وتلتقى مع الأمير كيندهار - الذى يعرض توصيلها إلى القاهرة. وعلى باب الفندق يتصور مديره أن سلامة هو الأمير، ويستظرف الأمير اللعبة، ويراها فرصة لاختبار مشاعر ناهد تجاهه، ويتفق مع سلامة على القيام بدوره لمدة يومين.

يرى بيومى أفندى مدرس اللغة العربية (محمد كمال المصرى) صورة جاره سلامة فى الصحف على أنه الأمير كيندهار، فيبلغ الشرطة، فى نفس الوقت الذى يكتشف فيه خليل هنداوى أن سلامة لم يورد المبلغ إلى البنك، ويجد سلامة فى حقيبة المال عينات من القماش، فتقبض الشرطة على سلامة، ويتدخل الأمير فى اللحظة المناسبة ليقول إنه الذى اتفق معه على تمثيل دوره، ويأتى صاحب حقيبة العينات فى اللحظة المناسبة أيضا، ويفتح الحقيبة فيجد المال الذى يسترده خليل ويدرك أنه اتهم سلامة ظلما، ويحصل سلامة على مكافأة كبيرة من الأمير وصاحب المحلات.

وفى الفيلم شخصيات أخرى مثل شقيق جيهان الساذج الذى يقوم بدوره حسن فايق، والذى يحب ناهد، ولكنها تفضل كيندهار وهى لا تعلم أنه أمير. كما يظهر عدد من الممثلين فى أدوار ثانوية مثل منسى فهمى، وفى أدوار قصيرة أقرب إلى الكومبارس مثل حسن البارودى ورياض القصبجى وجمالات زايد.

للوهلة الأولى تبدو نقطة الضعف الأساسية فى كمية المصادفات، ولكن المصادفات مقبولة فى الكوميديا، ونقطة الضعف الحقيقية فى حبكة السيناريو، وخاصة عندما تتكاثر الخطوط الدرامية ولا يتحقق التوازن بينها، وعندما يستطرد الفيلم فى المفارقات الناتجة عن تصرفات الساعى الفقير وهو يقوم بدور الأمير الثرى، ولكن الإخراج يخفى عيوب السيناريو بالتوزيع الصحيح للأدوار، وإدارة الممثلين الحاذقة، وحركة الكاميرا، والتكوين، والمونتاج المتميز، حتى يمكن اعتبار «سلامة فى خير» ربما أول فيلم مصرى يتخلص تماما من أساليب الإخراج المسرحية فى بدايات الأفلام المصرية الناطقة.

يحاول نيازى مصطفى فى الفيلم، نقد

لست أدرى أيحقق المصريون هذه الكارثة الفادحة المبهظة التى صبت عليهم ثقيلة بغيضة ملحة مضنية يوم اختطف من بينهم نجيب الريحانى. إن هذا الرجل ذا الخلق السمح والقلب النقى والنفس العذبة والضمير البرئ قد أضحك المصريين نحو ثلاثين عاما، أضحكهم ضحكا نقيا سمحا بريئا من كل إثم مطهرا من كل دنس، أضحكهم حتى أنساهم أنفسهم

طه حسين

بعض العادات السائدة مثل صخب الأطفال فى المنازل، وعدم مراعاة الجيران بصفة عامة، والثرثرة فى الهواتف العمومية، وذلك فى إطار مفهوم أن السينما قادرة على تغيير العادات السيئة بتصويرها. كما يعبر الفيلم عن التسامح الدينى والعرقى فى قاهرة الثلاثينيات، وهى سمة رئيسية من سمات فن الريحانى، حيث نرى علاقة إنسانية حميمة بين الموظف الفقير المسلم سلامة وصاحب المحلات المسيحى، والذى ينزعج من زوجته لرغبتها فى إطلاق اسم جوزيف على ابنهما، وبين سلامة وموظف حسابات شركة المياه القبطى أرمانيوس، وبين سلامة وزوجته ستوتة وجارهم اليونانى نيكولا، والذى نرى زوجته هيلين تذهب مع ستوتة إلى قسم الشرطة للسؤال عن سلامة، وتساندها فى أزمتها عندما يتم القبض عليه.

سى عمر

أدى نجاح «سلامة فى خير» إلى تكرار التجربة مرة ثانية بين الريحانى ونيازى مصطفى فى فيلم «سى عمر» الذى انتج عام ١٩٤٠ وعرض عام ١٩٤١، وكان من إنتاج ستوديو مصر أيضا. وفى هذا الفيلم يمثل الريحانى دورين (عمر بك الألفى وموظف الحسابات جابر) ويستعرض نيازى مهارته فى التروكاج أو الحيل السينمائية المعملية وغيرها، وهى الحيل التى عرف بها بعد ذلك، وكان رائدها فى السينما المصرية.

جابر (نجيب الريحانى) موظف أمين فى إدارة أملاك عمر الألفى (نجيب الريحانى) الغائب منذ سنوات طويلة، والذى يقوم عمه ضابط الشرطة السابق جميل (شرفنطح) بسرقة أمواله وخداع والدة عمر وخالته نازك (مارى منيب) وأخته لولا (زوزو شكيب). يفصل جابر من عمله لدقته ونزاهته، ويلتقى بالصدفة مع برلنته (ميمى شكيب التى تزوجها عمر الألفى فى الهند)، وتخبره أنه يشبه زوجها تماما، وتطلب منه أن يقوم بدور عمر إلى أن يعود. يتورط جابر فى مشكلات كثيرة، ولكنه يتمكن من المحافظة على أموال عمر. يعود عمر من الخارج ويعرف مدى إخلاص جابر، وأنه يتبادل الحب مع أخته لولا، فيوافق على زواجهما.

لعبة الست

حقق «سلامة فى خير» ثم «سى عمر» نجاحا دفع شركات السينما أن تتنافس للفوز بإنتاج فيلم من تمثيل الريحانى، ولذلك مثل فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته (١٩٤٦ - ١٩٤٩) أربعة أفلام، ولم يمثل على المسرح. الفيلمان الأولان فى نفس عام ١٩٤٦، ولنفس المخرج ومصمم المناظر الكبير ولى الدين سامح: «لعبة الست» مع الراقصة الأولى تحية كاريوكا، و«أحمر شفايف» مع منافستها الأولى سامية جمال. والأفلام الأربعة تجمع بين الكوميديا والرقص والموسيقى والغناء بخلاف كل ما سبقها من أفلام. وإذا كان الغناء فى فيلمى ولى الدين سامح، لأصوات تحية كاريوكا وعزيز عثمان وعفاف شاكر (شقيقة شادية)، ففى الفيلم الثالث «أبو حلموس» يغنى كارم محمود بصوته دون صورته، وفى الفيلم الرابع «غزل البنات» يغنى نجم الغناء الأول محمد عبد الوهاب، ونجمة الغناء ليلى مراد أحد أضلاع المثلث الذهبى للمغنيات فى السينما المصرية مع أم كلثوم وأسمهان، وأصبح الريحانى من نجوم «الشباك» فى السينما فى السنوات العشر الأخيرة من حياته.

تدور أحداث «لعبة الست» فى القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، قبل عامين من تاريخ إنتاج الفيلم، حيث يلتقى الموظف العاطل عن العمل حسن أبو طبق (نجيب الريحانى) مع لعبة «تحية كاريوكا» ويتبادلان الحب من أول نظرة. يجد حسن عملا فى محلات إيزاك عمير (هكذا يكتب الاسم بالعربية على اللافتة فى الفيلم)، فيتزوج لعبة التى تعمل كمغنية وراقصة فى فرقة يديرها والداها العازفان إبراهيم نفخو (عبد الفتاح القصرى) وسنية جنح (مارى منيب)، رغم أن المغنى محمود بلالايكا (عزيز عثمان) زميلها فى الفرقة كان يريد الزواج منها.

تصبح لعبة نجمة سينمائية، ويدفع الطمع والديها إلى إقناعها بطلب الطلاق من حسن حتى تتزوج من الثرى اللبنانى وجيه بك (بشارة واكيم). مع تقدم قوات القائد النازى روميل فى العلمين، يقرر إيزاك اليهودى (سليمان نجيب) الهجرة إلى جنوب أفريقيا مثل العديد من أثرياء اليهود فى ذلك الوقت. ولأنه يحب حسن لأمانته وطيبة قلبه، يقرر إيزاك أن يبيع محلاته إليه بيعا صوريا يسدد ثمنه من الإيرادات ثم تصبح ملكا له، وهذا ما يحدث بالفعل نتيجة ارتفاع الأسعار أثناء الحرب. يرفض الثرى اللبنانى الزواج من لعبة عندما يعلم أنها كانت متزوجة، وأن والديها دفعاها إلى طلب الطلاق من زوجها، وتشعر لعبة بالندم وتعود إلى حسن الذى لم ينس حبها أبدا.

مرة أخرى، وكما فى «سلامة فى خير»، يعبر الريحانى عن التسامح الدينى والعرقى فى مصر «الليبرالية» من خلال العلاقة بين حسن المسلم وإيزاك اليهودى، بل إن شخصية اليهودى «الإيجابية» فى «لعبة الست»، من الشخصيات النادرة من نوعها فى السينما العالمية فى ذلك الوقت. ومن اللافت أن هجرة إيزاك إلى جنوب أفريقيا، وليس إلى فلسطين، تعنى بوضوح أن صناع الفيلم يفرقون بين اليهودى والصهيونى، ولا يعتبرون الصورة الإيجابية لليهودى دعاية للصهيونية، بل إنهم يعبرون عن موقف متقدم حتى عن موقف بعض الضباط «الأحرار» الذين اشتركوا فى ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بعد ذلك، والذين كانوا يرون أن انتصار النازى يخدم مصر فى كفاحها ضد الاحتلال البريطانى، عندما يقول أحد موظفى محلات إيزاك عمير لزميل له: إذا الألمان دخلوا مصر تبقى مصيبة.

أحمر شفايف

«أحمر شفايف» هو الفيلم الوحيد الذى أنتجه الريحانى بعد أن أغراه نجاح أفلامه الثلاثة السابقة (سلامة فى خير، وسى عمر، ولعبة الست). ولكنه مع الأسف لم يحقق ما حققته هذه الأفلام من نجاح سواء على المستوى الفنى أم المستوى التجارى.

تدور أحداث الفيلم فى عام إنتاجه (١٩٤٦)، أى بعد الحرب العالمية الثانية، ويحدد الحوار الزمن حيث يقول إبراهيم أفندى بطل الفيلم هو أنا أحسن من ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان.. أنا كمان انهزمت.

إبراهيم أفندى (نجيب الريحانى) موظف ناجح فى شركة مياه غازية، يعيش سعيدا مع أسرته المكونة من زوجته نرجس (زوزو شكيب) وابنته الشابة صفية (عفاف شاكر) وابنه الصغير نبيل (نبيل خيرى ابن بديع خيرى). إحدى عاملات المصنع قمر (سامية جمال) فتاة لعوب، تحاول لفت نظر إبراهيم أفندى، ولكن من دون جدوى، فتتحايل للعمل فى منزله كخادمة عن طريق خالها مدبولى (عبد العزيز خليل). تشك نرجس فى وجود علاقة بين قمر وزوجها، فيترك المنزل، ويفصل من الشركة التى يملكها خال زوجته. يحاول مدبولى إقناع إبراهيم بضرورة الزواج من قمر. ولكن نبيل ابن إبراهيم يأتى إليه، ويقنعه بالعودة إلى المنزل.



أبو حلموس

مثل الريحانى فى سنواته السينمائية الذهبية فى فيلمين من إخراج نيازى مصطفى وفيلمين من إخراج ولى الدين سامح، وفيلم من إخراج إبراهيم حلمى (١٩١١ - ١٩٦٤)، وكان الفيلم الأخير من إخراج أنور وجدى.

فى «أبو حلموس» ينتقل شحاتة أفندى (نجيب الريحانى) من العمل ككاتب حسابات لدى بائع طيور شرس (رياض القصبجى)، إلى العمل فى دائرة الأزميرلى باشا التى يديرها عبد الحفيظ (عباس فارس) من منزله حيث يعيش مع زوجته أزهار (فردوس محمد) وأختها ليلى (مارى منيب) وابنته سوسن (زوزو شكيب) التى تتبادل الحب مع أنيس أفندى (محمد الديب) الموظف بالدائرة، وابنه الطالب الجامعى الفاشل فريد (حسن فايق) الذى يرتبط بعلاقة آثمة مع الراقصة أحلام (هاجر حمدى). تدعى أحلام أن فريد والد طفلها حلموس، وتطلب سوسن من شحاتة ادعاء أنه والد الطفل حتى تتخلص من زواج يريد والدها أن يفرضه عليها، فيوافق لأنه يحب سوسن، يثور الجميع ضد شحاتة، ولكنه يكسب ورقة يانصيب بـ ٦٠ ألف جنيه، فيتوددون إليه، توافق سوسن على الزواج من شحاتة بعد أن تدرك أن أنيس لا يحبها بصدق، ومن دون أن تعلم بالثروة التى فاز بها شحاتة.

غزل البنات

فى ذروة نجاحه، استطاع أنور وجدى (١٩٠٤ - ١٩٥٥) أن يجمع فى فيلم واحد هو غزل البنات، أربعة من عمالقة الفن ليمثلوا معه فى فيلم واحد من تأليفه وإنتاجه وإخراجه، وهم نجيب الريحانى، وليلى مراد، ويوسف وهبى، ومحمد عبد الوهاب، إلى جانب سليمان نجيب، ومحمود المليجى، وزينات صدقى، وإستيفان روستى، وعبد الوارث عسر، وفردوس محمد، بالإضافة إلى فريد شوقى وسعيد أبو بكر، وكانا فى بداية حياتهما الفنية.

إنه فيلم «غزل البنات» الذى أصبح جزءا من الثقافة الشعبية فى مصر والأمة العربية كلها، والذى يدور حول قصة الحب المستحيلة بين الطالبة ليلى بنت الباشا ومدرس اللغة العربية، الذى يعلمها فى المنزل «الأستاذ حمام»، والذى يكبرها فى العمر، ولكنه يجد فى حبه لها السعادة التى بحث عنها طوال حياته ولم يجدها. يطلب حمام «نجيب الريحانى» من الضابط الطيار أنور (أنور وجدى) مساعدته فى إنقاذ ليلى (ليلى مراد) من شاب أفاق (محمود المليجى) فينقذها، ويقع فى هواها. وفى نفس الليلة يلجأ حمام وليلى إلى منزل يوسف وهبى الذى يقوم بدوره الحقيقى فى الفيلم، وفى منزله يغنى عبد الوهاب الذى يقوم بدوره الحقيقى أيضا فى أغنية «عاشق الروح»، فيبكى حمام ويفضح حبه، ولا تدرى ليلى ماذا تفعل، ويعلق يوسف وهبى: «ما الدنيا إلا مسرح كبير»، وهى من العبارات التى صارت من الأمثال الشعبية. وفى سيارة أنور وبجوار ليلى، يرى المتفرج الأستاذ حمام بينهما يتذكر من أغنية عبدالوهاب «ضحيت هنايا فداه، وحعيش على ذكراه»، ويضع نجيب الريحانى يده على خده ويبتسم ابتسامته الساخرة.

توفى الريحانى قبل عشرة أسابيع من عرض الفيلم، فأصبح فيلم الوداع، وحقق نجاحا لم يحققه أى من أفلام الريحانى طوال حياته. وحسب النشرة الصحفية للفيلم، كتب نجيب الريحانى بعد مشاهدة بعض أجزاء الفيلم يوم ٣ مارس ١٩٤٩: «هل وفقت فى أن أسيطر على الستار الفضى بمثل القوة التى منحتنى إياها خبرتى ومواهبى فى السيطرة على زمام التمثيل المسرحى؟

اعتقد أننى لم أوفق تماما.. وكثيرون ممن يعرفون الريحانى قد يشاطروننى هذا الشعور، ولكن.. ألم تنل أفلامى قسطا وافرا من النجاح؟ نعم.. إنها حازت هذا النجاح، ولكنه فى نظرى كان نجاحا ناقصا، لأنه لم يظهر تلك الجهود التى بذلتها من صدق العاطفة وحسن الأداء، حتى أننى أحسست أن ضوء الستار الفضى إنما هو كضوء القمر.. جميل.. ولكنه بارد.. لا حياة فيه، ثم شاءت الظروف واجتمعنا، وكلنا من أخلصوا لفنهم، فانسجمنا، واستحال ذلك الضوء الفضى إلى شعاع منعش كله حياة، وكله حرارة، تحقق الحلم المحبب إلى نفسى، الحلم الذى وهبته حياتى، شعرت بوجود عشاق فنى أمامى، شعرت باننى أنفذ بسهولة من وراء الستار فاصل إلى قلوبهم وأصيب مشاعرهم...

هذا ما جال بخاطرى عند مشاهدتى لبعض مناظر من فيلم «غزل البنات» الذى أعده وأخرجه عزيزى أنور.. ابنى البار الوفى». ■

عـــــروض موجـــزة

كتب عربية

عبد الناصر وثورة إيران

فتحى الديب

القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ٢٠٠٠، ١٥٠ صفحة، ٩ جنيهات



كان منطقيًا فى إطار سياساتها الداعية إلى التحرر من الاستعمار ومناصرة الشعوب العربية والإسلامية ودعمها لنيل استقلالها، أن تصطدم ثورة يوليو ١٩٥٢، بنظام الشاه فى إيران، الذى كان يمثل ـ وفق منطق نظام يوليو وقادته ـ رأس حربة للاستعمار فى المنطقة، بل إنه قاوم نزوع عبد الناصر نحو تحرير الدول العربية والإسلامية من ربقة الاستعمار والاستغلال. والمؤلف لم يكن راصدًا فحسب لما يجرى، بل كان مشاركًا فيه ومفوضًا من قبل الرئيس عبدالناصر للاتصال بقيادات حركة الحرية الإيرانية التى تزعمت المعارضة ضد نظام الشاه، بهدف تقويض إمبراطوريته وإزاحته عن السلطة فى إيران، وتنصيب نظام حكم وطنى أكثر تجاوبًا مع تطلعات وآمال الشعب الإيرانى، وانسجامًا مع تطلعات شعوب المنطقة نحو الحرية والاستقلال، ولذلك يتضمن الكتاب وثائق هذه التحركات التى شارك فيها المؤلف، واتصالاته بقيادات حركة الحرية مصطفى تشمران وبهرام راستين وابراهيم يازدى وعلى شريفان وبارفيز أمين، ولم يتوقف دعم عبد الناصر للحركة على التأييد المعنوى، وإنما تجاوزه إلى إعداد برامج لتدريب عناصرها بدءًا من نهاية نوفمبر ١٩٦٤، لممارسة العمل الفدائى فى المدن وحرب العصابات فى الجبال، وتم تدريبهم على استخدام الأسلحة وتكتيكات الحرب النفسية واستخدام المفرقعات، بالإضافة إلى محاضرات تثقيفية وتنظيمية، وكانت لوفاة الدكتور مصدق فى مارس ١٩٦٧، ثم هزيمة يونيو فى نفس العام، أبلغ الأثر فى تقويض حركة الحرية الإيرانية، التى كانت استقرت فى بيروت، وتعرضت لاستقطابات حادة من القوميين العرب وغيرهم، فضلاً عن محاولات اختراقها من عناصر تنتمى للمخابرات الأمريكية.

ويؤكد المؤلف أن وفاة الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وغيابه عن ساحة النضال الشعبى العربى والإسلامى، كانت نقطة تحول فارقة فى علاقة مصر بالثوار الإيرانيين، إذ كان خلفه الرئيس السادات، هو الوحيد الذى رحّب باستقبال الشاه وعائلته، حين ضاقت بهم السبل وقامت الثورة فى إيران فى نهاية السبعينيات، وكان نجاح الثورة الاسلامية فى إيران، هو نهاية حكم الشاه من ناحية، وبداية جديدة لإيران الإسلامية وتفاعلاتها مع محيطها الخارجى من ناحية ثانية.

□□□

التنمية فى عالم متغير

إبراهيم العيسوى

القاهرة، دار الشروق ٢٠٠٠، ٢١٣ صفحة، ١٢ جنيها



يميز المؤلف منذ البداية بين مفهومى النمو والتنمية، ويرى للثانية شروطًا تتجاوز تحقيق زيادات فى الناتج القومى الإجمالى أو حتى فى مستويات الدخول الفردية، التى يمكن اعتبارها نموًا، أما التنمية فينبغى لتحققها أن تتوسع دوائر المشاركة السياسية والإسهام فى صنع القرار بين كافة الفئات المساهمة فى التنمية والمستفيدة منها فى آن، وأن يتحقق قدر من العدالة فى توزيع الثروة، يحقق حياة إنسانية كريمة لأبناء الوطن الواحد، ويقرّب الفوارق بين الطبقات، وأن تبنى التنمية اعتمادًا على الذات وليس بمعونات وديون خارجية، تمثل قيودًا على حرية الوطن وتحد من استقلاله، والاعتماد على الذات كما يبين المؤلف، يتسع لأكثر من البعد القطرى، بل يتجاوزه إلى النطاق الإقليمى ونطاق العالم الثالث كله وهو ما يطلق عليه الاعتماد الجماعى على الذات، ولذا، لا يرى المؤلف فى سياسات التحرير الاقتصادى والخصخصة والارتباط بالنظام الرأسمالى العالمى فرصًا للتنمية، بل إن الانفلات من هذه السياسات هو ما يحقق التنمية ويطرح من هذا الإطار عديدًا من القضايا المستحدثة ذات الصلة بالتنمية، ومنها قضايا الثورة العلمية والتكنولوجية، والتى ينبغى أن يكون للدول النامية فيها دور أكبر من مجرد مستهلك للمنجز الذى يقدمه العالم المتقدم فى هذا المجال، وقضية الحفاظ على البيئة، إذ ثبت أن الفقر هو أحد العوامل المتسببة فى تهديد وتخريب البيئة فى الدول النامية، ويتحمس المؤلف لمفهوم التنمية المطردة التى تسعى لاستغلال موارد البيئة المتاحة، دون أن تجور على حقوق الأجيال المقبلة فى البيئة ذاتها، ثم قضية الحريات والمشاركة الديمقراطية وتنمية البشر وإدارة شئون المجتمع والدولة.

هذه هى البدائل التى يطرحها المؤلف فى مواجهة سياسات الليبرالية الاقتصادية الجديدة، القائمة على تثبيت الأوضاع الاقتصادية وإعادة هيكلتها وفق وصفة صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، والتى يرى أن آثارها السلبية خطيرة على المدى القصير والبعيد، ولن تؤدى إلا إلى مزيد من التبعية التى تهيمن على العلاقة بين البلدان النامية والغنية، وهو ما يقود إلى اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب، وغياب فرص التكافؤ المنشود لإقامة علاقات سوية بين أفراد، وليس بين أتباع ومتبوعين، وينتهى المؤلف إلى نتيجة متوقعة أكدتها مقدماته فى سطور الكتاب كله، وهى أنه ليس فى دروس التاريخ، ولا فى تحليل الواقع الملموس ما يدعو إلى الاطمئنان إلى حتمية استمرار العولمة الاقتصادية أو اطراد نموها، بل يرى تناقضات وقوى مضادة للعولمة تهدد مسيرتها بالتوقف، وتشير إلى احتمال تحول الاقتصاد العالمى إلى اتجاه مغاير فى المستقبل.

□□□

الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس

عبد العظيم رمضان

القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠، ١٥٥ صفحة، ٢٧٥ قرشا



يأتى هذا الكتاب ـ كما يقول المؤلف فى مقدمته ـ ردًا على فيلم ناصر ١٩٥٦، الذى رأى فيه افتئاتًا على الحقيقة التاريخية وتزييفًا لها، ويرى المؤلف أن الفيلم كله ليس سوى خطبة بليغة وحماسية عن أحداث تأميم قناة السويس، كان لها ما يبررها فى حينها، لكنها أصبحت قابلة للجدل فى ضوء الحقائق التى تكشفت فى فترات تالية، واعتبر أن عرض ما جرى من أحداث اكتفاءً بتبريرات قدمت فى حينها.. «نوع من أنواع تغييب الوعى».

على أى حال، فإن ما يسوقه المؤلف من حجج حول قرار التاميم الذى اعتبره كارثة كبرى، يبقى هو الآخر قابلا للجدل، وسنجد على الضفة الأخرى من ينتصر له ويعده قرارا تاريخيا عظيما، وليس كارثة.

وأول ما يعترض عليه المؤلف، فيما يتصل بقرار التاميم، هو أن عبد الناصر اتخذه منفردًا، دون استشارة وزير واحد فى حكومته. يقول المؤلف إن عبد الناصر دعا مجموعة محدودة من وزرائه إلى اجتماع قبل ساعتين فقط من خطبته الشهيرة بالإسكندرية، وقال لهم فى اقتضاب.. «إنى دعوتكم الليلة لكى أبلغكم بقرار سوف أعلنه فى خطابى، هذا القرار هو تاميم قناة السويس».

كما أخفى عبد الناصر القرار عن الجيش، برغم ما يمكن أن يجره قرار التاميم ـ وهو ما جرى فعلاً ـ على مصر واحتمال تعرضها إلى ضربة عسكرية من الدول التى أضيرت من تاميم القناة، فلم يعرف عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة بالقرار، إلا أثناء سفره إلى الإسكندرية مع عبد الناصر فى القطار.

ويؤكد المؤلف أن حسابات عبدالناصر لما يمكن أن يسفر عنه قرار التاميم، جاءت خاطئة تماما، فقد استبعد قيام فرنسا بشن حرب على مصر لانشغالها فى الجزائر، واستبعد كذلك أن تشارك إنجلترا فى حرب ضد مصر حرصًا على مصالحها فى الوطن العربى، ورأى أن إسرائيل لو حاولت أن تشن عدوانا على مصر فستمنعها بريطانيا، والمحصلة أن قرار عبد الناصر بتاميم قناة السويس بنى على حسابات خاطئة، وعرّض استقلال مصر للخطر. أما الشىء الإيجابى الوحيد فيما جرى، فكان كفاح الشعب المصرى الذى ظل صامدًا برغم انهيار قيادته السياسية والعسكرية. أما أفدح الخسائر من وجهة نظر المؤلف لقرار عبد الناصر بتاميم شركة قناة السويس، فكان إتاحة الفرصة للسفن الإسرائيلية بالمرور فى مضيق تيران.. «وهو ما جعل منها دولة كبرى تحتل أراضى ثلاث دول عربية بعد أن كانت قبل قرار التاميم مجرد دولة صغيرة تحاصرها مصر بحريا عن طريق إغلاق منافذها الشمالية إلى البحر الأحمر، وهى خليج العقبة وقناة السويس». وقد فشل العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ لأسباب عديدة، على رأسها صمود الشعب المصرى والموقف العربى المتضامن وموقف الاتحاد السوفيتى ودول عدم الانحياز الداعم للموقف المصرى، ثم التحذير الأمريكى للدول المعتدية بضرورة وقف العدوان. ويبقى كتاب المؤلف عن قرار عبد الناصر بتاميم قناة السويس فى ١٩٥٦، اجتهادًا تقابله بالضرورة اجتهادات أخرى فى الطريق.

□□□

عروض موجزة

المثقفون العرب والغرب

أحمد الشيخ

القاهرة: المركز العربى للدراسات الغربية، ٢٠٠٠، ٣١٥ صفحة، ٢٥ جنيها



بعد كتابه الأول «حوار الاستشراق»، يقدم لنا المؤلف كتابه الثانى «المثقفون العرب والغرب». وفى هذا الكتاب ينقل المؤلف الكرة أو الحوار إلى ملعب المستغربين العرب - إذا جازت التسمية - بعد أن حاور فى الكتاب الأول كوكبة مهمة من المستشرقين الغربيين.

والطريف فى هذا الحوار الجديد أن المؤلف يطرح الأسئلة ذاتها التى طرحها من قبل مع المستشرقين، وكأنه أراد بذلك مواجهته - أو مقارنة - غير مباشرة بين رؤية المستشرقين ورؤية المستغربين حول الأحكام والمناهج المستخدمة فى النظر وتلوين الصور عن الثقافات المغايرة ومدى دقتها ومطابقتها لحقيقة الثقافة موضوع النظر أو الرؤية. يحاور المؤلف هنا كوكبة مهمة تشكل خلاصة الفكر والأدب فى ثقافتنا العربية المعاصرة، ويكتسب الحوار قيمته من تنوع الأعلام المشاركة فيه من المشرق والمغرب، ناهيك عن صلتهم بصورة أو بأخرى، بالطريقة التى أدركنا بها الغرب فى الحقبة الحديثة والمعاصرة من تاريخنا، ومن بينهم: أنور عبد الملك، فؤاد زكريا، محمد فؤاد الحبابى، لويس عوض، فتحى رضوان، زكى نجيب محمود، على فهمى الخشيم، مصطفى صفوان، سميح فرسون، أنطوان المقدس، السيد ياسين، الحبيب الجنحانى، أمين معلوف، عز الدين قلوز، رينيه حبشى، علال سيناصر.. وغيرهم.

وتتراوح آراء المفكرين والأدباء العرب فى هذا الكتاب، بين من يرى أن خلافنا مع الغرب مبنى على وهم متبادل (زكى نجيب محمود)، وكراهيتنا للغرب مشروعة (فتحى رضوان)، والغرب لم يفرض ثقافته، بل نحن الذين سعينا إليها (فؤاد زكريا)، والغرب لا يسمح لنا بدراسته (لويس عوض، على فهمى خشيم، سميح فرسون)، والاستغراب يؤدى إلى التحرر الوطنى (مصطفى صفوان)، وقضايانا أولا والاستغراب ثانيا (الحبيب الجنحانى)، ونعم للاستغراب لكن بشروط (عز الدين قلوز)، ومستغرب بدون استغراب (أنور لوقا).. إلخ.

يسعى المؤلف عبر حواراته إلى تنشيط وتجديد رؤيتنا للغرب، ومراجعة قنوات اتصالنا به، بحثا عن معرفة أكثر دقة فى مرحلة الصراع الراهن، كما يهدف إلى جذب الانتباه إلى ضرورة تجديد إدراكنا للغرب من خلال تأسيس مراكز بحثية علمية تنهض بهذه المهمة.

□□□

المسألة المائية فى السياسة السورية تجاه تركيا

عبد العزيز شحادة المنصور

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ٢٣٨ صفحة، ٣٠ جنيها



ثمة إجماع بين الخبراء العسكريين والمراقبين السياسيين، على أن المياه ستكون واحدة من الأسباب الرئيسية لحروب القرن المقبل، وتكتسب المياه أهمية خاصة فى منطقة الشرق الأوسط لندرتها من ناحية، وتعرض المنطقة لموجات من الجفاف والتصحر من ناحية ثانية. ثم النزاعات المحتملة بين الدول المستفيدة من تلك المصادر، وخصوصا أن العلاقات بينها لم ينتظمها إطار يسمح بدرجات من التعاون بديلا عن الصراع، ومن الأقطار التى تعانى أزمة مائية سوريا، فهى تعتمد أساسا على مياه نهر الفرات الذى تقع منابعه خارجها.

وكما يشير المؤلف، فإن ٨٨٪ من مياه الفرات تأتى من تركيا، كما أن الأحواض الجوفية السورية تقع على الحدود مع تركيا، بالإضافة إلى وقوع سوريا ضمن الحزام الجاف وشبه الجاف، واعتماد خططها التنموية على المياه، ومعدلات الزيادة السكانية المرتفعة (نحو ٣،٨٪)، والتأثيرات السلبية للمشروعات المائية التركية ومنها مشروع جنوب شرق الأناضول (غاب)، والذى يتضمن بناء ٢١ سدا و١٧ محطة كهربائية على نهرى دجلة والفرات وفروعهما، وقد جربت سوريا واحدة من هذه التأثيرات حين قطعت تركيا مياه الفرات عن سوريا والعراق لمدة شهر، ابتداء من ١٣ يناير ١٩٩٩، مما جعل تدفق نهر الفرات ينخفض منسوبه نحو ٤٠٪ بالنسبة لسوريا. ويدرس هذا الكتاب مشكلة المياه فى العلاقات السورية التركية فى الفترة الممتدة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٢، وهى الفترة التى استغرقها بناء سد أتاتورك الذى افتتح فى يوليو ١٩٩٢.

ولأن موضوع المياه ليس بحثا فى واحد من الموارد الاقتصادية على أهميتها فحسب، وإنما هو قضية سياسية فى المقام الأول، وذات صلة وثيقة باعتبارات الأمن القومى، فإن الكتاب يبدأ بتحليل السياسة الخارجية السورية، ثم يدرس الميزان المائى لدول حوض الفرات والمركز القانونى لنهر الفرات وفق أحكام القانون الدولى، ثم يدرس فى فصله الثالث المشروعات المائية التركية وتأثيرها على الموارد المائية السورية، ثم أخيرا أدوات السياسة الخارجية السورية فى التعامل مع المسألة المائية، والتى يرى أنها ينبغى أن تعمل على ثلاثة محاور: عربية وإقليمية ودولية، دون إغفال مد جسور للتعاون مع تركيا، وهو خيار وحيد أمام سوريا، كما يؤكد المؤلف الذى يلح على استبعاد خيار الحرب تماما من النزاع بين الدولتين على المياه.

□□□

النباتات الطبية البرية فى سيناء

مجموعة باحثين

القاهرة: مؤسسة الخليج العربى، ٢٠٠٠، ٣٣٨ صفحة



يلقى هذا الكتاب أضواء جديدة على هذه البقعة الغالية من أرض مصر «سيناء»، التى ارتبطت دوما بالصراعات والحروب، ثم بالسلام والهدنة، وأخيرا بالمشروعات السياحية العملاقة التى تسعى للاستفادة من البيئة السيناوية الخلابة، التى تمتزج فيها الطبيعة البكر والبداوة الصريحة، مع «عصرنة» زمن التسويق والبيزنس.

أما هذا الكتاب، فيعنى بموضوع آخر، ربما هو نفسه من مستحدثات الاهتمامات فى زمن العولمة والكوكبة، ونعنى به البيئة، التى باتت همّا شاغلا لعشرات من مراكز البحوث فى العالم كله، وسيناء التى تصل مساحتها إلى ٦١ ألف كيلو متر مربع أى ما يقارب ٦٪ من مساحة مصر الإجمالية، تطل على أكثر من ٣٠٪ من سواحل مصر الإجمالية، وتتميز بغطاء نباتى طبيعى ويوجد فيها ما يقرب من ١٠٠٠ نوع، وبينها نباتات ذات قيمة غذائية أو تصلح للرعى، ومنها نباتات طبية وعطرية.

وفى سيناء مجموعات من النباتات المتوطنة تقدر بنحو ٦٠ نوعا، وهذه المجموعة ثروة تتميز بها سيناء.

أما المناطق النباتية فى سيناء، فهى مرتفعات جبال الحلال والمغارة ويلج بشمال سيناء، والتى توجد بها بقايا النباتات الصنوبرية من العرعر، والمرتفعات الجبلية بجنوب سيناء، ويوجد بها ٣٠ نوعا من النباتات الجبلية القزمية المتوطنة ومنها الصبار البلدى والزهيرة والزعيتر وحقاب القولة وعشب الماء، ثم نباتات المناطق شبه القاحلة فى الشمال ومنها الجعدة واللصف والعورور ولحية البدن، ثم العجرم والحاد والسلة والحرمل والقطف والطرفة فى المناطق القاحلة أقصى الشمال، ثم نباتات الكثبان الساحلية الرملية ومنها الجزاف والسعد وخبيزة البحر وأراضى السنجة الملحية وبها الزيتية والحطب الأحمر، ومناطق الصحارى الحارة تجاه السواحل الجنوبية التى يوجد بها السيال والطلح والسدر والعشار، ثم المناطق الصحراوية الرملية جنوب المنطقة الساحلية وتتميز بالنجيليات المعمرة ومنها الرتم والعادر.

هذه عينة لبعض المناطق النباتية، أما النباتات الطبية، فقد قسمها الكتاب إلى نحو ٤٦ عائلة، قدم ثبتا بها واستخداماتها، فضلا عن عشرات الصور لهذه النباتات وأماكن زراعتها.

□□□

أحوال مصر فى نصف قرن

عبد المجيد فراج

القاهرة: دار إيجى مصر للنشر، ٢٠٠٠، ٤٤٠ صفحة، ٢٠ جنيها



جمع المؤلف مقالاته واجتهاداته على مدى نصف قرن، منذ أواسط الخمسينيات وحتى اليوم، والتى نشرها فى دوريات علمية أو صحف سيارة بين دفتى هذا الكتاب الأول، كما يرد فوق غلافه، بما يعنى أن كتبا أخرى فى الطريق. وقد قسّم كتابه إلى محاور أربعة هى مكافحة الاكتئاب الاقتصادى، والتخطيط والتنمية، والمسألة السكانية، ومسألة عدم العمل. وهو تقسيم موضوعى يجمع ما كتبه المؤلف الذى شغل منصب عميد معهد الإحصاء سابقا، والذى يعمل الآن أستاذا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. فى كل موضوع من هذه الموضوعات على مدى نصف قرن، بما يسمح بمتابعة التطور الذى طرأ على فكره فى كل موضوع منها من ناحية، كما

عروض موجزة

يكشف عن مؤشرات الإنجاز فيها عبر الفترة الزمنية ذاتها من ناحية ثانية.

سنلاحظ مثلا أن المؤلف يكتب في المحور الخاص بالمسالة السكانية مقالا عام ١٩٥٨ عن الانفجار السكاني والقاعدة الشعبية في الشرق الأوسط، اعتمادًا على تقرير للأمم المتحدة يتنبأ بوصول سكان العالم إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن. ويحذر الدول النامية بالذات من أن معدلات الزيادة السكانية المطردة ستقود حتما إلى مزيد من الإفقار والتخلف. لكننا سنلاحظ أن المؤلف في تعقيبه على التقرير، لا ينساق خلف دعاوى تنظيم النسل، وإن كان لا يرفضها، لكنه يؤكد على أهمية أن تكون سياستنا في هذا الإطار، نابعة من واقعنا واحتياجاتنا و«وحى ضمائرنا» قبل أى شيء آخر، ثم يكتب بعد ٤٠ سنة تقريبا تحت عنوان «أمريكا وتنظيم الأسرة» عن انسحاب أمريكا من دعمها لبرامج تنظيم الأسرة في العالم الثالث، الذى ظلت تقدمه لما يقرب من ٣٠ عاما. واللافت أن المؤلف ينهى مقاله بهذه العبارة: «إذا كان كل شيء نابعا من اعتقادنا واقتناعنا واعتناقنا لسياسات نابعة من ظروفنا بغض النظر عن توافر أو عدم توافر العون الأجنبى لنا، فسوف نضمن أن تستمر سياساتنا بغض النظر عن رضا أو عدم رضا دولة كبرى أو دول كبرى عدة».

ونلاحظ هنا أن ما ينهى به المؤلف مقاله هو نفسه ما أكده قبل ٤٠ سنة في مقالة حول الموضوع نفسه، ولعلها الفكرة ذاتها التى يلح عليها في عشرات المقالات التى دارت حول المحاور الأربعة التى أشرنا إليها في البداية، فكرة استقلالية القرار وعدم الاستجابة للضغوط التى تحدد مساراته، أو على الأقل مراعاة التكيف بأقل قدر من الخسائر، وبمراعاة كاملة لظروفنا وواقعنا وقيمنا الثابتة، ونظن أن النموذج الذى قدمناه «دال» تماما على ما ذهبنا إليه.

□□□

من أوراق التسعينيات

فاروق عبد القادر

القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٠، ٣٢٠ صفحة، ١٦.٥ جنيه



بين عشرات الوجوه المبدعة من أمثال عبد الرحمن منيف ونجيب محفوظ وأميل حبيبى وسعد الدين وهبة وأمين معلوف وألفريد فرج ومحمد البساطى وإبراهيم أصلان ولطيفة الزيات وعبد السلام العجيلى وحيدر حيدر وأحلام مستغانمى وعلاء الديب وغيرهم، يخص المؤلف المسرحى العربى الراحل سعد الله ونوس بدراسة مستفيضة ومهمة يسميها كراسة سعد الله ونوس، وتتضمن قراءة في أعماله الأخيرة «يوم من زماننا» و«منمنمات تاريخية» و«طقوس الإشارات والتحولات» و«أحلام شقية» و«الأيام المخمورة»، وهى الأعمال التى أنجزها «ونوس» في فترات مرضه الطويل، كما لو كان يقاوم المرض بالكتابة، ويلاحظ المؤلف أن علاقات الحب في هذه الأعمال لا تتحقق، بل إن نهاية «أحلام شقية» مثلاً تشير إلى موت الأمل وبقاء القهر على حاله، كما لو أن المسرحى الكبير يئس من إصلاح الحال عبر المسرح أو غيره.

وحين يتناول المؤلف أعمال نجيب محفوظ، التى نشرها في أواخر الثمانينيات والتسعينيات مثل «الفجر الكاذب» و«السهم» وأصداء السيرة الذاتية و«القرار الأخير»، يلاحظ أن محفوظ «يستقطر لقارئه خبرات حياته الطويلة، يصفيها ويكثفها ويركزها في بللورات صغيرة مضيئة».

ويرد المؤلف عما أثير من نقد لرواية إبراهيم أصلان الأخيرة «عصافير النيل»، والتى تدور في عالمه الأثير: منطقة إمبابة والكيت كات، مؤكدا أن عالم محفوظ في مجمله دار في بضعة كيلومترات على أرض القاهرة، التى يعرفها وخبر أزقتها وناسها ومفاهيمها، وكذلك أصلان في عملة الأخير، يطأ أرضًا يعرفها ويحدثنا عن ناس خبرهم، وليس عجبًا إذن أن نراهم على صفحات روايته كأنهم شخوص من لحم ودم.

ويرصد المؤلف مسيرة سعد الدين وهبة المسرحية والثقافية، ويرى أن ملمحها الأساسي، هو حرص صاحبها على التواجد المستمر في بؤرة الضوء، عبر المناصب الرسمية أو العمل الإبداعى أو الاشتغال بالكتابة والانشغال بالشأن العام، أى أن وهبة خطط لمسيرته جيدًا وشبع أدوارًا في السينما والمسرح والصحافة والمؤسسة الثقافية الرسمية.

ويقدم المؤلف نقدًا رقيقًا لرواية صنع الله إبراهيم الأخيرة «شرف»، كما يحتوى برواية محمد البساطى «ساعة مغرب» و«أصوات الليل» ويشيد بمسيرة الأديب الفلسطينى الراحل «أميل حبيبى» وبعطاء فؤاد دوارة وفتحى غانم وأمين معلوف وعبد السلام العجيلى، قراءة واعية محبة ناقدة، تعيد للنقد بهاءه ودوره الأصيل في تقديم مفاتيح للقراءة الصحيحة للعمل الأدبى، بعيدًا عن التقعرات التى عمقت الهوة بين النقد والقراء.

□□□

كتب أجنبية

The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam

(المعركة من أجل الله: الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام)

Karen Armstrong

Harper Collins, 2000, £19.99



عندما يثور الحديث عن الأصولية، يتبادر إلى الذهن الأصولية الإسلامية وفتوى الإمام الراحل آية الله الخومينى بهدر دم الكاتب البريطانى الجنسية الهندى الأصل، سلمان رشدى مؤلف «آيات شيطانية»، ومذابح المتطرفين في الجزائر، إلا أن مؤلفة هذا الكتاب الأمريكية كارين أرمسترونج تذكّر الجميع بأن الأصولية ليست ظاهرة إسلامية فقط، بل يهودية ومسيحية، بل إنها تتجاوز الأديان السماوية الثلاثة إلى البوذية والهندوسية وحتى الكنفوشية. ففى كل هذه الأديان والعقائد، هناك من يقاتل باسم الدين، كما أنها - أى الأصولية - ليست ظاهرة القرن العشرين فقط، بل تعود إلى عام ١٤٩٢، عندما جرى طرد اليهود من أسبانيا وأيضا تم اكتشاف العالم الجديد.

وتعرف المؤلفة الأصولى، بأنه الشخص الذى يبدأ في التحرك من أجل تنفيذ فكرة، سواء كانت الدفاع عن الدين أو مهاجمة من يعتقد أنهم ضد الدين أو الدعوة لهذا الدين.

وقد اختارت أن تركز على ٤ ممثلين للأصولية في الأديان السماوية الثلاثة، وهم الولايات المتحدة والأصولية البروتستانتية وإسرائيل والأصولية اليهودية، ومصر، والأصولية السنية الإسلامية وإيران والأصولية الشيعية الإسلامية، وهى ترى أن الأصولية رد فعل للحداثة، فالأصوليون متحيرون ومندهشون من سرعة التغيير، ويرون العالم وهو يمضى كما لو كان بدون إله.

وتأخذنا المؤلفة في رحلة طويلة تمر خلالها بظهور الأصولية في أوروبا وبالاستعمار الأوروبى للشرق الأوسط، وتحول المجتمع الأمريكى من مجتمع ريفى بروتستانتى إلى مجتمع علمانى حضرى، وتتحدث عن اغتيال الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين، وكذلك عن الهجمات على عيادات الإجهاض في الولايات المتحدة. ويعتبر الكتاب محاولة جيدة لفهم أعمق وأكثر موضوعية لظاهرة الأصولية التى جرى تشويهها بكل وسيلة سواء كان ذلك حقا أو باطلا.

□□□

A strange Eventful History.. Democratic Socialism in Britain

(الاشتراكية الديمقراطية في بريطانيا)

Edmund Dell

Harper Collins, 2000, 624pp., £24.99



احتفل حزب العمال الحاكم الذى حمل راية الاشتراكية الديمقراطية في بريطانيا مؤخرًا بمرور ١٠٠ عام على تأسيسه عام ١٩٠٠، وخلال تلك السنوات الطويلة، تغير الحزب كثيرًا سواء في الزعامات أو السياسات أو الأفكار، ومؤلف هذا الكتاب الذى توفى بعد تأليف الكتاب بوقت قصير، انتمى إلى حزب العمال عضوًا عاديًا ونائبًا في مجلس العموم، ووزيرًا في حكومة چيمس كالهان، ثم خرج عن صفوف الحزب خلال عضويته في مجلس اللوردات.

وتكمن قوة الكتاب في أنه يتناول سياسات حزب العمال منذ الثلاثينيات من خلال عدم الاكتفاء بسرد المعرفة الشخصية للمؤلف فقط، بل الاعتماد أيضًا على قائمة كبيرة من المراجع.

ويناقش ديل مقولة أن الاشتراكية الديمقراطية هى الطريق الثالث بين الماركسية والرأسمالية، ويقول إن حزب العمال حاول على مدى تاريخه أن يدير بشكل فعال وجيد، الاقتصاد الرأسمالى في بريطانيا، إلا أنه لم يكن ناجحًا على الدوام. وقد حاول كثير من الوزراء الاشتراكيين أن ينفذوا خططهم لتحويل الاقتصاد إلى اقتصاد اشتراكى قائم على التخطيط، إلا أنهم اصطدموا في الغالب برؤساء وزارات عماليين «خانوا» الاشتراكية على حد تعبير مؤيدى هؤلاء الوزراء.

ويعتقد المؤلف أنه فيما يتعلق بتبنى الحزب للاشتراكية الديمقراطية، فإنه نجح في إظهار قدرته على أن

عروض موجزة

يكون ديمقراطيًا، لكن قدراته على إدارة الاقتصاد طبقًا لمبادئه الاشتراكية كانت ضعيفة.

ويتهم الكتاب حزب العمال القديم، الذى نجح تونى بلير رئيس الوزراء الحالى فى تغيير كثير من أفكاره، ليصبح حزب العمال الجديد، بانه لجا إلى الخيارات السهلة، وهى التاميم وفرض الضرائب، لكن منتقدى ديل يردون بأن وزراء الخزانة العماليين حاولوا قدر جهدهم أن يطبقوا سياسات اقتصادية سليمة، وأحدثهم جوردون براون وزير الخزانة الحالى الذى يطبق معايير اقتصادية بحتة، دون النظر إلى تاثيرها شعبيًا.

□□□

Cat Fish and Mandala

(السمكة والمندالة)

Andrew Pham

Flamingo, 2000, £10.99



احتفلت فيتنام الشهر الماضى بالذكرى الخامسة العشرين لسقوط سايجون، وإعادة توحيد فيتنام بعد الهزيمة المذلة للأمريكيين، والكتاب الذى نعرضه نتاج رحلة مثيرة قام بها المؤلف الأمريكى، وهو من أصل فيتنامى، وهو على ظهر دراجة. وبدأت الرحلة من كاليفورنيا إلى فيتنام، واستغرقت عامًا كاملاً زار خلالها مسقط رأسه فى جنوب فيتنام، ثم توجه فى المرحلة النهائية إلى العاصمة الفيتنامية هانوى. وكلمة المندالة الواردة في عنوان الكتاب، هي رمز الكون عند الهندوس والبوذيين.

وواجه المؤلف فى رحلته، المرض والإجهاد والتهديدات بالضرب ومحاولات لا نهاية لها من جانب المسئولين المرتشين، وقابل خلالها شخصيات من الصعب أن يلتقطها قلم كاتب أو قاص. إنهم أناس عاديون، لكنهم من النوع الفريد فى طباعه وأخلاقه.

ويقول المؤلف أن أسرته، التى كانت تعيش فى فيتنام الجنوبية، وهى «أسرة قام» هربت إلى الغرب فى قارب بعد انتصار الشيوعيين، وقد مكث والده فى معسكر اعتقال لأنه كان يعمل ضمن الجهاز البرلمانى لحكومة فيتنام الجنوبية قبل انهيارها.

لكن المؤلف يتحدث طويلاً عن الفيتناميين العاديين، عن فقرهم وكرههم وعطفهم، وكذلك عن استعدادهم لقبول الرشوة، ويقول إن فيتنام، هى البلد الذى يعمل فيه البوليس بجد من أجل أن يستمر التهريب. وعلى المستوى الشخصى تحكى قام عن معضلته التى تعيش دائما معه، فهو فى أمريكا من بين المنبوذين، بل إن هناك من يهتف فى وجهه داعيا إياه إلى العودة إلى بلاده، وعندما زار فيتنام اعتبره الفيتناميون أجنبيًا ونظروا إليه على أنه من أسرة ساندت الأمريكيين ضد فيتنام وفى النهاية، يتحدث المؤلف عن جانب مأسوى أكبر في حياته، فقد غادر كاليفورنيا تاركًا أخته تشى، لكنه عندما عاد وجده يدعى «مناه»، فقد أجرت عملية تحولت بموجبها إلى رجل.

□□□

Parable of The Talents

(حكاية الموهوبين)

Octavia E. Butler

Women's Pren. 2000, £9.99



هذه القصة تدخل تحت تصنيف قصص «الخيال العلمى»، لكنها تمثل صيحة تحذير شديدة على خطر الأصولية الأمريكية، وتوضح أن القرن الحالى، ربما يكون أكثر وحشية وبربرية من القرن الذى سبقه مالم تتم مواجهة الخطر الأصولى.

تدور القصة فى العام ٢٠٣٢، حيث تنهار الولايات المتحدة، نتيجة الفساد، وتصبح البلاد فى حالة فوضى ويتفشى العنف والإخلال بالنظام على سائر المدن الأمريكية، ويتعرض الضعفاء للذبح أو للاستعباد، وتفشل الحكومة الفيدرالية فى استعادة الأمن والنظام، لذا يصوت الناخبون لمنقذ جديد للبلاد، وهو أندرو جاريت رئيس الحركة الأصولية العنصرية «أمريكا المسيحية»، ويؤذن انتخابه رئيسًا للبلاد ببداية مرحلة جديدة من القتل والتطرف، وتحاول المجتمعات الريفية الخروج من الأزمة بشكل منفصل، ومن هذه المجتمعات «أكورن» الذى أسسته لورين أولامنيا وزوجها الطبيب المسن بانكوك، وبالفعل تنتعش الحياة من «أكورن» بعيدًا عن الفوضى، ويعود التسامح من جديد، لكن الأصوليين يهجمون بأسلحتهم على «أكورن» ويقتلون زوج لورين، ويحولون «أكورن» إلى معسكر اعتقال ويسمونه «المعسكر المسيحى»، ويجرى تعذيب الناس ومعاملتهم بوحشية تحت شعار إعادة التأهيل والتعليم، ويستمر ذلك لمدة ١٨ شهرًا إلى أن يحدث انهيار أرضى، فيتوقف التعذيب، لكن لورين تفقد طفلها فى هذا الانهيار، وتظل تبحث عنه، وتمضى القصة فى هذه الأجواء المرعبة. ورغم ذلك فإن القصة تؤكد فى النهاية أهمية التسامح والاعتدال، إذا أردنا أن يستمر العالم دون أن ينزلق للفوضى.

□□□

Ramesses: Egypt's Greatest Pharaoh

(رمسيس: فرعون مصر الأعظم)

Joyce Tyldesley

Viking, 2000, 225pp., £16.99

يعد رمسيس الثانى أكثر فراعنة مصر شهرة وإثارة للجدل، ربما لأن آثاره التى تركها مثل معبد أبو سمبل هى من بين الأكثر جمالاً وروعة، وربما للمبالغة فى الادعاء بشجاعته أثناء المعارك، وربما ثالثًا لإعداد أطفاله، وأيا كان السبب فإن رمسيس الثانى جذب لزمن طويل اهتمام وإعجاب المصريين والأجانب، بل أصبح رمزًا دوليًا لمصر القديمة، وناقش بذلك توت عنخ آمون على أنه الملك الطفل، فإن رمسيس الثانى بنيت شهرته على أعماله، فهو قد حكم واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم القديم لمدة ٦٧ عامًا، أى أكثر بثلاث سنوات، مما حكمت الملكة فيكتوريا بريطانيا فى القرن التاسع عشر، ولكن أى شخص كان رمسيس، وماذا حقق بالضبط. إن مؤلفة الكتاب وضعت فى السابقة كتابين عن حتشبسوت ونفرتيتى، وبالتالى فإنها مدركة للمشكلات التى تواجه أى شخص يمكن أن يكتب عن مصر القديمة.

وتبدأ المؤلفة كتابها بدراسة موميائه، وهى أحد الكنوز التى يحتفظ بها متحف القاهرة، ويحاط اكتشاف هذه المومياء بأسطورة، فهى قد انتقلت فى موكب ملكى من مكانها الأصلى إلى حيث توجد حاليًا، وفى السنوات الأخيرة ظهرت معلومات جديدة عن رمسيس الثانى، فقد كان طوله ما بين ٥ إلى ٧ أقدام، وكان شعره أحمر، وهو لون غير عادى بالنسبة للمصريين وله أنف طويل وفم ضخم، وكان يعانى من التهاب المفاصل وتعفن الأسنان.

وتتناول المؤلفة شخصية رمسيس الثانى من نواحٍ عديدة، لكنها تفاجئ قراءها، بانه لم يكن قائدًا جيدًا رغم كل الحديث عن إنجازاته العسكرية، وتقول إنه كان إداريا أكثرمنه قائدًا عسكريًا، نجح فيما فشل فيه الملك الذى سبقه، وهو أخناتون فقد استعاد سلطة الإله آمون، وكان رجلاً محبًا لأسرته، خاصة زوجته نفرتارى.

ولكن هناك جانبا مظلما فى حياة رمسيس الثانى، وهو أن طموحه للمجد جعله يلجأ للخداع، فقد نسب لنفسه أعمالاً قام بها من سبقوه.

□□□

The Art of the Story

(فن القصة)

Ed.Daniel Halpern

Viking, 2000, £20.00



يضم هذا الكتاب بين دفتيه ٧٨ قصة لكتاب، ينتمون إلى ٣٥ دولة، ويجمع بينهم أنهم ولدوا فى الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٧٠، ولذلك فإن الكتاب عبارة عن معرض كبير لقصاصى العالم، ويتناول شتى القضايا بمختلف المدارس الفكرية والفنية، وعلى سبيل المثال، فإن دور المرأة السياسى والاجتماعى والأسرى يحتل مساحة واسعة من خلال قصص عديدة، تتناوله مثل قصة «هدية من مكان ما» للقاصة «أما آتا ايدو» من غانا، وهى تتناول سيدة من بلدها، تستعد للحمل وتقول بطلة القصة: «إن ذلك يبدو هو الهدف من خلقى.. أن أكون حاملاً ٩ أشهر من كل ١٢ شهرًا من كل عام»!

ويلقى الكتاب ضوءًا جديدًا على كتاب شهيرين، فهو ينشر قصصًا للكاتب النيجيرى «كين سارو ويا»، وكذلك «لجانيت وينترسون»، ويقول المحرر دانييل هالبرن، أنه اختار القصص المعبرة عن الثقافة الشعبية للبلد الذى ينتمى إليه مؤلفها، لكنها أيضًا لها صلة بالعالم وما يجرى فيه، ويشير إلى أن البعض يمكن أن يختلف فى هذه الرؤية، لكنه يعتقد أننا نعيش فى عالم تشكلت فيه حياة كل شخص تقريبًا بصور أماكن وتقاليد، كانت بعيدة عن مجال خبراته الشخصية، ومادمنا نتحدث عن صور وخبرات وتراث، فإن البعد العالمى يبرز بشدة، كما أن مسالة الترجمة من لغة إلى لغة، لم تكن هى الشيء الأهم فى هذا العمل بالقياس إلى الفهم المشترك للعادات والتقاليد.

□□□

إعلام واتصـــــال

الاتصال الإلكترونى

ترجمة: محمد أمين سليمان

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

يتابع المؤلف التطور الذى حدث فى عالم الاتصالات، لربط أجزاء العالم ببعضها، وتطور أجهزة البث والإرسال، ويعلق على الاتصال عن طريق الإنترنت وثورة المعلومات الناتجة عنه.

■■■

حقائق وأسرار.. الكلمة المكتوبة

طارق غنيم

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

الكتابة من أقدم صور التعبير، فمنذ عهد السومريين والفينيقيين والفراعنة، كتب الإنسان على ألواح الطين والجلود والعظام، ثم تطورت الكتابة وعرف الإنسان الطباعة والكتابة على الكمبيوتر، ويختتم المؤلف كتابه بسؤال عن الكتابة بعد ألف سنة.

■■■

رمية النرد - التلفزة والسينما والفوتوغرافيا - مقالات فى الصورة

الهادى خليل

تونس: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يحلق الكاتب فى سماء الصورة، وما تسببه من نشوة للرائى، وتأثير السينما والتليفزيون فى هذا العالم، وكيف يمكن للصورة أن تصور نقيضين، فالإنسان بأحلامه وآماله، والعالم بما فيه من صراعات تزيل مجتمعات بأكملها، وكيف أن أوروبا غزت عقولنا العربية عبر الصورة السينمائية.

■■■

قصف العقول

فيليب تايلور

ترجمة: سامى خشبة

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب عن العلاقة الحميمة بين علم التاريخ وفنون الاتصال، التى تطورت بشكل جعلها ذات تأثير كبير فى مجالات السياسة والحرب وغيرها. والكتاب يتتبع تطور الدعاية للحرب التى ترتبط فيها أهداف العمل السياسى ونوايا الفعل العسكرى.

■■■

Avatars of the Word: From Papyrus to Cyberspace

(متجسدات الكلمة: من البردى إلى الفضاء التخيلى)

James J. O'Donnell

Harvard University Press, 2000

منذ القدم، والكلمة المكتوبة هى حاملة الثقافة، ولكن هذا الوضع يتحداه الآن قوة الوسيط الإعلامى الجديد بطريق الاتصال الإلكترونى. يعالج المؤلف ثورة الاتصالات التى تحدث اليوم فى ضوء مقارنتها بالثورات الاتصالية التى سبقتها، منذ التحول من الشفاهية إلى الكتابة، ولفافات البردى إلى المخطوطات ومنها إلى الطباعة.

بيئـــــة

دليل الأثر البيئى فى المشروعات الصناعية

صلاح الحجار

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

ردًا على المشكلات البيئية التى نتجت عن الصناعة ومخلفات المصانع، وضع المؤلف رسما متكاملا لمنطقة صناعية، وراعى أن تكون لها منافذ للمخلفات، واختار موقعها بعناية، بحيث لا تؤثر على السكان والبيئة.

■■■

The Human Impact on the Natural Environment - 5th Edition)

(الأثر الإنسانى على البيئة الطبيعية - الطبعة الخامسة)

Andrew Gouelie

MIT Press, 2000, 527pp., $29.95

يعد هذا الكتاب، المرجع الكلاسيكى للدارسين والمهتمين بالبيئة، وأثر النشاط الإنسانى فى تغيير الملامح الطبيعية لوجه الأرض.

وفى هذه الطبعة المحدثة، أقسام جديدة أو موسعة تتناول موضوعات مثل السلالات المهددة بالانقراض، والتلوث، وارتفاع مستوى البحار، وثقب الأوزون، والتغيرات المناخية.

تاريـــــخ

تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة

لسان الدين ابن الخطيب

تحقيق: مجلس النشر العلمى

الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠٠

يرتد بنا الكتاب حيث بلاد الأندلس الإسلامية، والحضارة العربية وسياسة الحكام، وخاصة فى مملكة غرناطة فى الجنوب الأندلسى والأمراء المسلمين والأوضاع الاجتماعية هناك.

■■■

ثمانون عامًا على ثورة ١٩١٩

تقديم: يونان لبيب رزق

القاهرة: دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٠

قدم المؤلف مجموعة من الأبحاث والمحاضرات التى ألقيت فى الموسم الثقافى الأول لدار الكتب، حول «إرهاصات ثورة ١٩» لسعد فخرى عبد النور، والوحدة الوطنية فى ثورة ١٩ - لـ د. رمزى ميخائيل، وتناولت المحاضرات أثر هذه الثورة على السودان، وآثارها على الشعب المصرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

■■■

حضارة مصر الفرعونية

فرانسوا دوما

ترجمة: ماهر جويجان

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يرسم المؤلف صورة عميقة للحضارة المصرية، عبر تشريح متكامل لأغلب طبقاتها، يتحدث عن السياسة والاقتصاد والأدب والفن، ويتناول الدين عند الفراعنة وأثره على حضارتنا، وكيف امتدت حضارة الفراعنة، لتصل لجنوب أفريقيا ومناطق أخرى من العالم القديم.

■■■

مصر فى العهد العتيق

و. ب أمرى

ترجمة: راشد محمد نوير، محمد على كمال الدين

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠

تتبع المؤلف حفريات الأسرتين الأولى والثانية فى عشر مقابر، ليكشف النقاب عن الحياة الفرعونية فى تلك الحقبة الزمنية، ومن عدة نواح فنية واجتماعية وثقافية من خلال ما ضمته هذه المقابر.

■■■

موجز تطور الحضارات الإنسانية

محمد صادق صبور

القاهرة: دار الأمين، ٢٠٠٠

يرصد الكتاب تطور الإنسان، وصناعته للمجتمعات، حيث بدأ الإنسان صيد الحيوان، ثم تعلم الزراعة ثم شرع فى تكوين النواة للمجتمع والحضارة الإنسانية.

■■■

مؤرخون مصريون فى عصر الموسوعات

يسرى عبد الغنى

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠

يضم الكتاب عددا من المؤرخين مثل ابن إياس، ابن زنبل والمقريزى، ويعرِّف بعصر الموسوعات، وأثره فى تطور العلم والمعرفة فى مجتمعنا، وتأثير كبار العلماء على هذا العصر.

■■■

Historical Prespectives on Contemporary East Asia

(رؤى تاريخية حول شرق آسيا المعاصرة)

Edited by Merle Goldman and Andrew Gordan

Harvard University Press, 2000, 352pp., $45.00 / $19.95

يبحث الكتاب القرنين الماضيين فى تاريخ بلاد شرق آسيا، اللذين شهدا عملية دمج النظم السياسية والاجتماعية الآسيوية فى نظام عالمى يهيمن عليه الغرب. يبين المؤلفون أن هناك تغيرات مهمة كانت فى طريقها للظهور قبل الاتجاه نحو الغرب، وكانت لها منطق داخلى وقوة ثبات خاصة بها.

كذلك يتضح أن «القومية» كانت المحرك الأقوى فى التطور الحديث لتلك البلاد، إلا أن تنوع القوميات التى ظهرت، هو أيضًا الذى جعلها تتصادم فيما بينها.

تراجم وسير

ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان

جيلبرت سينويه

ترجمة: آدم فتحى

لندن: دار الجمل، ٢٠٠٠

يعكس الكتاب وفاء التلميذ لأستاذه، حيث كان الجوزجانى أشهر تلاميذ ابن سينا ومن أخلص الناس له، فقد كتب حياته ومواقفه المتباينة والمختلفة مع الملوك والأمراء، ويضم الكتاب رحلة ابن سينا من الشرق إلى الغرب طلبًا للعلم.

■■■

Marcel Proust: A Life

(مارسيل بروست: حياة)

William C. Carter

Yale UP, 2000, 946pp., £22.50

فى العقد الأخير من حياته، كان مارسل بروست فى حالة مرثية، فقد كان مريضا بالربو لدرجة ألزمته المنزل، كما فقد أمواله فى استثمارات غير حكيمة بعد أن كان ثريًا جدًا، كذلك فقد والدته التى كانت الحب الأول والكبير فى حياته.

كان بروست أنانيًا ومدللاً لأقصى حد، وكان مع ذلك كريما ولطيفا. يتناول الكتاب سيرة حياته كاملة مع التركيز على الصلة بين حياة بروست وبين عمله الرائع «البحث عن الزمن المفقود».

■■■

Margaret Thatcher - Vol One: The Grocer's Daughter

(مارجريت تاتشر - الجزء الأول - ابنة البقال)

John Cambell

Cape, 2000, 512pp., £25.00

يتناول هذا الجزء من سيرة حياة مارجريت تاتشر - والتى يكتبها أحد أهم كاتبى تراجم السياسيين البريطانيين - كيف صنعت المرأة الحديدية أسطورتها بنفسها، وتنتهى تلك الفترة بالعام ١٩٧٩.

تربيـــــة وتعليـــم

التربية بالقصص

حامد القصبى

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠

يتتبع المؤلف هنا التأثير النفسى للقصة على الطفل من سن ٦ سنوات وحتى ١٢ سنة، وكيف تساهم فى غرس كثير من القيم والمبادئ الجميلة فى عقله ونفسه، فيقدم مجموعة من الحكايات حول العدل وطاعة الله وطاعة الوالدين وغيرها.

■■■

طرق التدريس الخاصة باللغة العربية.. والتربية الإسلامية

فخر الدين عامر

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠

مشكلة اللغة العربية فى عرضها، وطريقة تقديمها للطلاب، مما يصعب الفهم

بين اللغة ومتعلميها، ينتقد المؤلف طرق تدريس العربية ويعرض لكيفية تبسيطها، كما يعرض بعض قواعد الإملاء والنحو والأدب، ويعرج على التربية الإسلامية مناقشًا قضاياها.

■■■

فن فجوات العدالة فى التعليم

محسن خضر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يصور المؤلف حال التعليم فى مصر، والتفاوت فى مستوى التعليم ما قبل الجامعى، وكذلك مشكلات الخريجين فى مصر والعالم العربى، والاختلاف العقلى والفكرى بين خريجى العرب وخريجى الغرب، واستيعاب الغرب للأساليب الحديثة، فى وقت تعانى مجتمعاتنا من تفشى الأمية.

■■■

Changing Minds: Computers, Learning, and Literacy

(عقول متغيرة: الحاسبات الآلية والتعليم والتعلم)

Andrea Disessa

MIT Press, 2000, 293pp., $29.95

ترى المؤلفة أن استخدام الحاسبات الآلية فى تدريس العلوم، قد يحدث ثورة فى حجم المعرفة العلمية التى يمكن أن يحصل عليها الطالب فى سن مبكرة جدا، كذلك فإن طريقة الفهم والتفكير تختلف باستخدام وسائل تعليمية تتضمن الابتكار والتفاعل، عما تكون عليه بمجرد التلقين المباشر.

■■■

رواية وأدب

الفرعون الأخير

فرانسيس فيفر

ترجمة: فاطمة البهلول

سوريا: دار الحصاد، ٢٠٠٠

ينبش المؤلف الفرنسى قبر رمسيس الثالث، ليعيده إلى الحياة ويعيد أمجاده الماضية وحربه ضد الهكسوس، ومحاولته لإعادة أمجاد مصر وتجميعه لشعبه والاستقرار الذى نعمت به البلاد فى عهده.

■■■

فئران بلا جحور

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يدخل الكاتب عالم الصحراء ليكشف عن كل ما فيه، وما يحويه من صراعات وما يخفيه من مصائر مختلفة، حيث صراع الإنسان مع الجوع والعطش، وكذلك الصراع مع تلك الطبيعة الجافة التى لا تجود.

■■■

القرية الأولى

عبد الله حمد المعجل

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

أخذت الرواية من الواقع الاجتماعى السعودى، فى إحدى مناطقه الساحلية، حيث رسمت مشاهد عديدة حملت فى طياتها سلبيات وإيجابيات الناس فى تلك المناطق.

■■■

نبع الذهب

محمد العشرى

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تأخذك الرواية إلى عالم البحث عن الكنوز الدفينة فى باطن الأرض، كالبترول والذهب وغيرها، حيث البطل المهندس الجيولوجى الذى يعيش فى الصحراء، ولكنه بحث واكتشف أن الكنز فى داخل الإنسان، فى مبادئه وعقله وأخلاقه وكذلك فى آماله وأهدافه.

■■■

الجنائن المغلقة

برهان الخطيب

السويد: دار بوديوم، ٢٠٠٠

من خلال أبطال العمل الروائى، يتعرض القاص للأحداث الدامية التى حلت بالشعب العراقى، والخلل الاجتماعى والمادى الذى أصاب المجتمع هناك، والهوة التى وقع فيها الشعب نتيجة أطماع السلطة التى راح ضحية استبدادها وتسلطها.

■■■

الحب مع مغامر مرتبك

منى حلمى

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تتعانق العاطفة مع الصور والأخيلة، لتكون قصصا عاطفية، تتحاور فيها الكاتبة مع قلبها وعقلها، وتكشف أسرار الحبيب المتغير، الذى لا يثبت على حال دائمًا.

■■■

حامل الراية

إيهاب دكرورى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة

تلعب المشهدية ورسم المنظر مساحة كبيرة فى قصص حامل الراية، حيث تتنوع المشاهد حين يحاول المؤلف الربط بينه وبين حامل الراية الواقعى، فيرصد المؤلف حياة الناس بكل أبعادها، واضعًا إياها فى مشاهد مكثفة من خلال مجموعته القصصية التى تحوى ثمانى عشرة قصة.

■■■

دنسكو

غازى القصيبى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

تعتبر القصة حلما بالاتحاد العربى فى أبسط أشكاله، حيث إنشاء منظمة عربية وهمية نشأت فى خيال المؤلف، لاسترداد الحقوق وحقن دماء العرب وتوطيد ما تبقى بينهم من صلات.

■■■

رماد اللوحة

يحيى سلام المنذرى

سوريا: دار المدى، ٢٠٠٠

تضم المجموعة تسع قصص قصيرة، تدور فى فلك الأحلام والأمنيات الجميلة، وتشوبها عاطفة رقيقة وحالمة تلف المجموعة وتؤثر فى لغتها وصورها الخيالية.

■■■

سقوط ثمرة وحيدة

حسن صبرى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

تدور أحداث المجموعة القصصية حول صخب الحياة وتوتر الواقع، ويحاول المؤلف رسم مشاهد مكتملة لوقائع مختلفة من الحياة والمجتمع، محاولا تحليلها.

■■■

سعادات صغيرة

عفاف السيد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

مجموعة قصصية تقدم رؤية تعبيرية ترصد فيها الكاتبة الواقع، بكل ملذاته ومفاجآته، حيث الحياة بصخبها وهدوئها، بجمالها وصعوبتها بآمالها وأحلامها، والواقع بكل تفاصيله.

زراعـــة

تمويل الزراعة المصرية

عادل محمد خليفة، عبده حسن جاويش، محمد إدريس

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

تتناول الدراسة المشكلات التى تواجه الزراعة فى مصر، حيث يعد تمويل الزراعة فى مصر بطيئا جدا، إضافة لأن المحاصيل الزراعية تحتاج لرعاية وتخزين، وكذلك تضع الدراسة مجموعة من الحلول المناسبة لحل مشكلة الزراعة.

■■■

The Economics of World Wheat Markets

(اقتصاديات أسواق القمح العالمية)

Edited by J.M. Antle and V.H. Smith

CABI Publishing, 2000, 300pp., $110

يقدم عرضًا مفصلاً للتطورات الحديثة والمتوقعة مستقبلاً فى أسواق القمح العالمية بين الدول المصدرة والمستوردة. يتناول أدوار كل من روسيا والصين، التى تغيرت بسرعة فى أسواق القمح، وكذلك الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة وكندا والأرجنتين وأستراليا.

■■■

Safe and Effective Use of Crop Protection in Developing Countries

(الاستخدام الأمنى والفعّال لمنتجات حماية المحصول فى الدول النامية)

Edited by John Atkin and Klaus M. Liesinger

CABI Publishing, 2000, 184pp., $65.00

يحتوى الكتاب على نتائج برنامج بحثى استغرق سبع سنوات، تناول أفضل طرق خفض استخدام المبيدات الحشرية بين المزارعين من أصحاب الدخول المنخفضة فى الدول النامية، مع محاولة الارتفاع بمستوى أمان وفعالية تلك المنتجات فى الوقت نفسه.

الدراسة أجريت فى كل من الهند وزمبابوى والمكسيك، حيث تتشابه تلك الدول فى مستوى التطور الاقتصادى، بينما تختلف تماما فى البيئة الاجتماعية ـ الثقافية، وفى الممارسات الزراعية.

سياســة

الجماعات السياسية الإسلامية والمجتمع المدنى

أحمد حسين حسن

القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب قصة تغلغل هذه الجماعات داخل مجتمعنا، وكذلك الآمال السياسية الواضحة لهذه الجماعات، حيث تهدف لنشر أفكارها البعيدة عن الدين وفرض الهيمنة الاجتماعية.

■■■

النظام الإقليمى للخليج العربى

محمد السعيد إدريس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

دراسة للنظام الإقليمى للخليج العربى بتفاعلاته وعلاقاته، يستخدم فيه المؤلف منهج تحليل النظم الإقليمية، وهو منهج حديث فى ميدان العلاقات الدولية، ويوضح المؤلف تأثير التغيرات فى البيئة الدولية على النظام الإقليمى فى الخليج العربى، ويرصد مراحل هذا النظام منذ نشأته عقب الانسحاب البريطانى من الخليج عام ١٩٧١ وحتى اليوم.

■■■

حجية القرار الدولى

على عباس حبيب

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف أهمية وجود قوة حاكمة مثل هيئة الأمم المتحدة، التى ساهم إنشاؤها فى توقف كثير من الحروب، ويوضح أهمية احترام القرارات الدولية، التى تؤثر فى مصائر الشعوب، ولماذا يجب أن تبتعد هذه القرارات عن الأهواء الشخصية أو العداوات الدولية حتى نأمن أخطارًا قد تنشب فى أى وقت.

■■■

تاريخ إيران السياسى

سعيد الصباغ

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٠

تُعد إيران قوة سياسية إسلامية، وتميز السياسة داخل إيران بالتوتر وكثرة الخلافات، بين التيار الإصلاحى والتيار الدينى، ويتناول المؤلف الجذور التاريخية لهذه الخلافات منذ ١٩٠٠ ـ ١٩٤١.

■■■

Empire

(إمبراطورية)

Michael Hardt, Antonio Negri

Harvard University Press, 2000, 512pp., $35.00

إذا كانت الإمبريالية الأوروبية التقليدية قد اختفت، وكذلك أشكال التوسع الرأسمالي التي سبقتها، إلا أن الإمبراطورية كنظام عالمي تاريخي تتجلى الآن كما يقول هذا الكتاب في «العولمة».

يقدم المؤلفان عملاً في الفلسفة السياسية، ويؤكدا أن المستقبل القريب سوف يتجاوز المفاهيم التي شكلت أساس السياسة الحديثة مثل السيادة والدولة والشعب. وهذا التحول مرتبط كما بينا، بالتغيرات الثقافية والاقتصادية في المجتمع ما بعد الحداثي، ومن بينها الهجرة، وشبكات الاتصال، والمفاهيم الجديدة المرتبطة بالهوية، والأشكال الجديدة من العنصرية.

■■■

The Breakdown of the State in Lebanon, 1967 - 1976

(انهيار الدولة في لبنان، ١٩٦٧ - ١٩٧٦)

Farid El Khazen

Harvard UP. 2000. 448pp., $49.95

يعمل فريد الخازن أستاذًا مساعدًا للعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية ببيروت، ويقوم في هذا الكتاب بتفسير أسباب الحرب الأهلية التي دارت في لبنان، حيث يؤكد أن الشعب اللبناني يتميز عن جيرانه بأنه مجتمع مفتوح ومتسامح، وأفراده متحضرون ومتعلمون. والمسئول عن الحرب التي دمرت الدولة اللبنانية من الأطراف الخارجية، على رأسها منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا. فهي لم تكن حربا أهلية بالمعنى التقليدي كما يقول، وإنما سلسلة حروب صغيرة مرتبطة بتدخلات خارجية.

(الكتاب يباع فقط في أمريكا الشمالية)

شعــــر

أحاديث سمك

مبارك الخاطر

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩

ديوان ينتمي للشعر التراثي الخليجي، حيث يضع المؤلف من خلاله ملامح لتاريخ الخليج القديم، ويرسم صورة للمجتمع آنذاك.

■■■

العالي يطلب دائما

حسين جلعاد

عُمان: دار أزمنة، ٢٠٠٠

أنات حزينة على الأحداث التي تحل بالعالم مع حلول الألفية الجديدة، حيث يجني العالم ثمار المدنية، شعوب مشردة، آمال وأحلام جائعة. القصائد تقوم على المفارقة في حضارة العولمة، حيث يبدو ظاهرها السعادة والرفاهة، فيما تحل داخلها كل الشرور والآثام.

■■■

خمرة حب عادى

ظبية خميس

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠

تدور قصائد الديوان في إطار اجتماعي، ويرسم لوحات لوجوه متعددة وملامح مختلفة، تؤثر فينا ونتأثر بها، لوحات وأخرى لأناس قد يعجب المرء من تصرفاتهم.

■■■

فتافيت

عادل الحراني

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

ديوان عن ليالي الدراسة وأدوات المدرسة، والحياة العذبة والطفولة الجميلة، عن مفردات حياة الطفل. تدور قصائد ديوان فتافيت للأطفال.

■■■

في مرآتي يتشهين عصفور الذهب

فوزية شويش سالم

سوريا: دار المدى، ٢٠٠٠

ديوان جديد للشاعرة يحمل عاطفة حالمة، ويرسم صورا للحظات ذات طابع مهم في حياة المرأة، ويعكس الديوان في بعض جوانبه نظرة المرأة لنفسها.

■■■

لكننا السنا على ما يرام

الشاعر حمدى عابدين

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تتنوع قصائد الديوان بين العاطفية الرومانسية، والقضايا الاجتماعية، تتحدث عن الحياة ويومياتها، وعن الحب في مجتمعات تئن تحت وطأة ضغوط هائلة.

علوم وطب

كيف تقاوم ضعف النظر

أيمن أحمد الإسكندراني

القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف مجموعة نصائح لكل فئات المجتمع حول ضرورة الحفاظ على النظر لمرضى السكر ومستخدمي الماكياج والأمهات، وكيف يحافظن على سلامة نظر أطفالهن، وكيف كان الأجداد يحافظون على سلامة عيونهم.

■■■

الهندسة الوراثية في موسوعة

وجدى عبد الفتاح

القاهرة: أكاديمية البحث العلمي، ٢٠٠٠

يناقش المؤلف قضية الهندسة الوراثية، من الناحية التاريخية والعلمية منذ عهد الفراعنة وحتى الآن، ما طرأ على علم الوراثة من تغير في أعقاب ثورة الجينات، ويتحدث عما سيقوم به العلماء من استحداث نباتات جديدة للقرن القادم عن طريق تعديل الجينات.

■■■

صبي الساحر.. نماذج من العلم الردئ

سمير حنا

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠

يتابع المؤلف الحركة العلمية في العالم، ويرصد مواقف العلم والعلماء، وكيف أن الحقائق العلمية أخفت تخاريف السر والشعوذة، وكيف أن الاستخدام الخاطئ للعلم لا يجلب إلا الخطر على أنصاف العلماء.

■■■

هكذا تحدث كارل ساجان

سمير حنا

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف هنا أهم الموضوعات التي تناولها ساجان، حول الوراثة والجينات والبيئة، وأخطار التلوث. كما يتناول ساجان في قسم آخر الحضارة المصرية ومراحل تطورها، ودور مكتبة الإسكندرية هي كأول منارات البحث العلمي في العالم في الإشعاع الحضاري.

■■■

الثقافة النووية للقرن ٢١

ممدوح عبد الغفور حسن

القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٠

تدخلت الطاقة النووية في حياتنا لتقترب حتى من مياه شربنا فتنقيها، وكذلك الحياة العسكرية، حيث ساهمت في إنتاج أحدثها وأكثرها تدميرا، وغيرها من المجالات المختلفة. حول الطاقة النووية، سلبياتها وإيجابياتها يدور هذا الكتاب.

■■■

Smart Medicine for Healthier Living: Practical A - Z Reference fo Natural and Canventional Treatments for Adults

(طب ذكي لحياة أكثر صحة: دليل عملي شامل للعلاجات الطبيعية والتقليدية للكبار)

Janet Zand,Allan Spreen

Avery Pub. Group, 1999, 608PP., $31.00

يبدأ هذا المرجع بمقدمة عامة عن تاريخ وأساسيات الأنواع المختلفة من العلاجات، التقليدية منها والعشبية والغذائية... إلخ.

ثم يحتوى على قائمة شاملة بأنواع المتاعب الصحية المختلفة من الهالات السوداء حول العين إلى البرد والسل. ويقدم مع كل مشكلة يتناولها التفسير الواضح لأسبابها ونصيحة محددة عن السبل المتنوعة لعلاجها.

■■■

In the Shadow of the Bomb: Bethe,Oppenheimer, and the Moral Responsibility of the Scientist

(في ظلال القنبلة: بته وأوبنهايمر والمسئولية الأخلاقية للعالم)

Max Schweber

Princefon University Press, 2000, 256pp., $24.95

المؤلف عالم فيزياء تشغله مسالة المسئولية الأخلاقية للعلماء، لذلك قام بدراسة حياة كل من أوبنهايمر وبته، وهما العالمان اللذان ساعدا في صنع القنبلة الذرية، ويتضح للمؤلف أن أوبنهايمر كان يسعى للشهرة والنفوذ مما جعله لا يقاوم استخدام السلاح الذرى في الحرب، كما وشى بزملائه أثناء الفترة المكارثية، رغم أنه كان يساريًا من قبل. وعلى النقيض أبدى إعجابه ببته الذى أمضى معظم طاقته بعد الحرب ينادى بخفض التسلح، مما ساهم في عقد الاتفاقية الدولية لمنع التجارب النووية عام ١٩٦٣.

عمـــــارة

Hybrid Modernities: Architecture and Representation at the 1931 Colonial Exposition, Paris

(حداثات مختلطة: العمارة والتمثيل في المعرض الاستعماري بباريس ١٩٣١)

Patricia A. Morton

MIT Press, 2000, 352pp., $40.00

في عام ١٩٣١، أقيم في باريس المعرض الدولي الاستعماري، الذى قدمت فيه فنون شعوب العالم المستعمر، وكان غرضه تجسيد التناقض بين تلك الشعوب، والحضارة الغربية الحديثة، لذلك كان المعرض إشارة لسياسة فرنسا الاستعمارية، وللنظريات الفلسفية والعلمية التي بررت الاستعمار.

ولكن وكما يشرح الكتاب، أبرز المعرض في الواقع عكس تلك الرسالة، حيث ظهر في المعروضات من الجانبين، التأثير المتبادل بينهما. كما قامت المظاهرات المقاومة للاستعمار أثناء المعرض، وأقام السرياليون معرضًا مجابهًا للمعرض الاستعماري يسقط الحواجز الفاصلة بين فنون وإبداعات العالم الأوروبي والشرق.

■■■

Architecture Reborn: Converting Old Buildings For New Uses

(العمارة تولد من جديد: تحويل المباني القديمة من أجل استخدامات جديدة)

Kenneth Powell

Rizzoli International Pub, 1999, 256pp., $60.00

حين يتجاوز عمر البناء المجتمع والغرض الذى قام من أجله، يصبح الحل العملي والايجابي هو إعادة تصميمه للقيام بوظيفة أخرى تناسب المجتمع الجديد، الأمر الذى يتطلب إبداعًا من نوع خاص.

وفي التاريخ نجد المعابد الرومانية واليونانية أصبحت فيما بعد كنائس مسيحية، وتحولت الأديرة الإنجليزية إلي منازل ريفية، كما تحولت القصور الروسية بعد الثورة إلى متاحف.. إلخ.

يضم هذا الكتاب أمثلة معمارية حديثة من ٤٤ مشروعا وتصميما من جميع أنحاء العالم، لتقديم الإبداعات والأفكار الحديثة في هذا المجال.

فكـــــر

الدين والديناميت

أنيس منصور

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

مجموعة من المقالات في الأدب والسياسة والتاريخ والفلسفة، يجمعها خيط واحد يميز بين الفكر والإرهاب، بين المجادلة بالحجة والصراع بالسيف، ويرصد دوافع الحب والكراهية في كل زمان

ومكان، سواء عبر أعمال الأدباء والمفكرين أو عبر الواقع الإنساني العام.

■■■

الشرق يصعد ثانية

اندريه جوندر فرانك

ترجمة: شوقي جلال

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يحكي المؤلف قصة صعود الغرب لقطار الحضارة، على أكتاف كنوز الأمريكيين، ويوضح الرابط بين انحطاط الشرق وصعود الغرب، حيث لم يستفد الشرق من خبراته قدر ما استفاد الغرب من هذه الخبرات.

■■■

ثقافة المصريين

محمد حسين يونس

القاهرة: دار الفسطاط للدراسات، ٢٠٠٠

يحاول المؤلف وضع مجموعة عوامل تاريخية كان لها تأثير فعال في ثقافة المصريين، الحروب التي مروا بها والثورات التي قاموا بها والتحولات التي قادت إلى تغيير شكل المجتمع وأثرت على ثقافته. يبحث المؤلف في حلول جذرية لمشكلات ثقافية يعانيها المجتمع الآن.

■■■

خيانة المثقفين

عبد الحكيم بدران

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

يرصد الكاتب حال المثقفين في العصر الحالي، ووجهات نظرهم تجاه قضايا بالغة الخطورة، ويحلل الانقسام الذي حدث في مجتمعنا ويعزوه إلى خيانة المثقفين لأحلام مجتمعهم وآماله.

■■■

عالم يتحول.. ووطن يستجيب

تحرير: حمدي أبو كيلة

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

حول التغيرات العالمية الحادثة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دارت مجموعة من الندوات والمحاضرات، ضمها هذا الكتاب، حيث موقف بلادنا من هذا التغيير، كيف نواكبه، وكيف نقلل كمية الخسائر الناتجة عن هذه التحولات العالمية.

■■■

كلنا أينشتين

طارق الأجهوري

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يحاول المؤلف اكتشاف النواة الإبداعية داخل كل شخص، التي يحاول من خلالها أن يجد لنفسه مكانًا في المجتمع، ويتحدث المؤلف عن معايير النجاح في كل عصر وعوامل النجاح في عصرنا ومفردات هذا العصر.

■■■

نواحات الغربة

محمد عناني

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠

يرصد المؤلف في كتابه ما جرى خلال عشر سنوات منذ ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٥، وهي سنوات عصيبة، فيتحدث عن هزيمة يونيو وتأثيرها على نفسيته ووجدانه، وكذلك الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وهي القضية التي صارت هاجسًا مؤرقا للشعب العربي كله حتى الآن.

■■■

مصر تراجع نفسها

أسامة الغزالي حرب

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠

تشريح لمجتمعنا المصري المعاصر، وما طرأ عليه من تغيير، وأسباب هذه الظواهر منذ عهد عبد الناصر وإلى الآن، وما آل إليه حال الطبقة الوسطى، وتأثير الرأسمالية الجديدة على الأوضاع في مصر.

فكر ديني

الابتلاء والدعاء

أحمد الحوفي

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

يتعرض الكاتب لموضوع الابتلاء والمحن عند الإنسان، وكيف أن هذه الاختبارات تصقل إيمان الشخص وتقوي معرفته بالله، يتحدث عن ابتلاءات الأنبياء والرسل، ودور الدعاء في تخفيف البلاء عن المؤمن.

■■■

الخلفاء الأربعة.. أيامهم وسيرهم

الإمام إسماعيل الشيمي

تحقيق: كرم حلمي

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، كثرت الأحداث والفتن، التي جعلت من عصر الخلافة الراشدة، فترة انتقال عصيبة في الدول الإسلامية. يتناول المؤلف هذه الفترة، وكذلك أحداث الفتنة الكبرى في عهد الخليفتين عثمان وعلي، وتأثيرها على مسيرة الفتوحات فيما بعد.

■■■

حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة

نعيم إليافي

القاهرة: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٠

يستنهض المؤلف الفكر الإسلامي، ليجدد حركة الإصلاح الفكري والديني، التي تخاطب العقل الواعي، وتحاول أن تنشط حركة الاجتهاد الإسلامي في العصر الحديث مرة أخرى.

■■■

History and Ideology in the Old Testament: Biblical Studies at the End of a Millennium

(التاريخ والأيديولوجيا في العهد القديم: الدراسات الإنجيلية في نهاية الألفية)

James Barr

Oxford University Press, 2000, 216pp., $39.95

بالتركيز على «العهد القديم» وتاريخ إسرائيل، هذا الكتاب يجمع أوجه الجدال والخلاف التي تحيط بالكتاب المقدس في نهاية الألفية. ويتساءل المؤلف عما إذا كان الكتاب المقدس يعبر عن أحداث تاريخية حقيقية، أم المطامح الأيديولوجية والدينية لكتاب من عهود لاحقة.

■■■

No God but God: Egypt and the Triumph of Islam

(لا إله إلا الله: مصر وانتصار الإسلام)

Geneive Abdo

Oxford UP, 2000, 240pp., $25.00

تقول المؤلفة أن مخاوف الغرب من دعاوى الحرب المقدسة الإسلامية أو الإرهاب الإسلامي، جعلته يغفل عن دراسة الحركات الدينية الإسلامية الهادئة والسلمية في نفس الوقت، والتي تنتشر على نطاق واسع بين مختلف الطبقات الاجتماعية. والنموذج التي نتناوله هنا هو النموذج المصري، حيث تقوم من خلال مئات من اللقاءات الشخصية، برسم صورة من قريب لمدى نفوذ «الإسلام الشعبي» بين القطاعات المهنية المختلفة: الأطباء والأساتذة وطلبة الجامعات والمحامون، وهم كما تؤكد لا يهدفون إلى التخلص من الحكومة، وإنما يحولون المجتمع المصري ببطء نحو مجتمعهم، من الإطار العلماني إلى مجتمع تحكمه المبادئ الإسلامية التي يعتقدون أنها لا تتعارض مع متطلبات العالم الحديث.

معاجم وموسوعات

معجم مصادر الأفعال الثلاثية في اللغة العربية

أحمد محمد هريدي، أبو بكر علي عبد العليم.

القاهرة: ابن سينا، ٢٠٠٠

يحوي الكتاب مصادر الأفعال الثلاثية في الكلام العربي، وتأثير تغيير المبنى على المعنى، فكلما اختلف التشكيل في أحد الحروف الثلاثة، اختلف معها المعنى في الكلمة.

■■■

موسوعة الحضارة المصرية القديمة

سمير أديب

القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، ٨٨٣ص، ٦٠ جنيها (عادي)، ٧٠ جنيها (فاخر)

مرجع ميسر، يحتوي على قدر كبير من المعلومات عن مصر القديمة في النواحي التاريخية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفنية المختلفة.

جمعت عناصر الموسوعة على الأساس الهجائي، كما تضم بعض الصور والرسوم والخرائط المرتبطة بالمادة المعروضة.

■■■

Dictionary of the Ancient Near East

(معجم الشرق الأدنى القديم)

Piotr Bienkowski and Alan Millard (editors)

Penn Press, 2000, 352pp., $49.95

يتناول المعجم تلك المنطقة من العالم التي تعتبر مهد الحضارة، ونبعت منها الديانات الرئيسية في العالم. فيحتوي على تعريف للأفكار والمؤسسات والشخصيات الرئيسية والأماكن والفنون التي ظهرت في المراكز الحضارية الأولى عند المصريين والحيثيين والبابليين وغيرهم منذ زمن العهد القديم وحتى سقوط بابل على أيدي الفرس.

نقد أدبي

التناص القرآني في شعر أمل دنقل

عبد العاطي كيوان

القاهرة: مكتبة النهضة، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب مفهوم التناص بالشرح والتحليل، وكيف استفاد الشعراء من القرآن الكريم وكتبوا نصوصهم مستفيدين من بعض نصوص القرآن الكريم، ويخص المؤلف بالدراسة الشاعر أمل دنقل الذي استفاد من نصوص القرآن أكثر من غيره.

■■■

الزمن الأبدي

رفيق سليطين

دمشق: دار نون، ٢٠٠٠

يحلق المؤلف في فضاء الصوفية، جاعلاً أداته هي القصيدة، شارحًا ما بها من إيحاءات تحكي عن حياة التصوف، وما تحمله من أفكار ومعان مختلفة وما يراه ويشعره المتصوف.

■■■

دراسات نقدية لأعمال قصصية

محمد زكي العشماوي

الإسكندرية: نادي القصة، ٢٠٠٠

تتداخل الآراء حول مدى تأثير الأدب الغربي على أدبنا، من حيث ظهور أجناس أدبية جديدة مثل القصة والرواية، وتطورهما حتى ظهور الواقعية السحرية وما بعدها، وإنتاج جيل جديد من الروايات عبر كبار الكتاب من أمثال يوسف إدريس، ونجيب محفوظ وظهور عوالم جديدة للقصة القصيرة.

■■■

وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية

عائشة حسين فريد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

تتعرض المؤلفة للأساليب والتراكيب الجمالية المختلفة التي يتزين بها الأسلوب في اللغة العربية، حيث توضح ألوان البديع المختلفة، والصور والأخيلة في أدبنا قديما وحديثا مثل ابن العمدة، والجرجاني، والزمخشري وغيرهم.

■■■

نظرية التأويل

د. مصطفى ناصف

السعودية: النادي الأدبي الثقافي جدة، ٢٠٠٠

أثرى التأويل ثقافتنا وتراثنا وأدبنا، ويقف الكاتب عند معناه، حيث أنه ما خفي من الكلام، وما يستنبطه كل عالم بمفرده، حيث خضع فقهنا وأدبنا للتأويل، مما أدى إلى تنافس حضاري وعلمي ملأت نتائجه موسوعات ومجلدات، ساهمت في تقدم الحضارة الإنسانية.

■■■

البيان، فيما اتفق فيه الشيخان البخارى ومسلم

حرف
أسطوانة مدمجة CD
ويندوز



مـا يزيد على ١٧٠٠ حـديث من المتفق عليها بين الإمامين البخارى ومسلم، مترجمة إلى ست لغات: الإنجليزية، الألمانية، والإندونيسية، التركية، الفرنسية، الماليزية. هو محتوى هذا الاصدار الذى قدمت به شركة«حرف» لإصدارها الأشمل والأكبر«موسوعة الحديث الشريف» والتى تضم ٦٢ ألف حديث للنبى - صلى الله عليه وسلم - هى كل ماورد فى كتب الحديث التسعة المعروفة.

وكما هو متوقع من إصدار يعتمد على تقنيات«صخر» اللغوية، يتميز«البيان» بإمكانات بحث متعددة. منها ماهو«نصى» من خلال تقنية المحلل الصرفى الذى يقوم بربط كل كلمة بجذرها ووزنها الصرفى فيمكن للمستخدم البحث عن أى كلمة بخيارات متعددة منها: المطابق بنفس الشكل الذى أدخله المستخدم أو مع اللواصق التى تسبق الكلمة كحروف العطف والجر أو تلحق بها كالضمائر، أو كلمة على مستوى الجذر اللغوى، وأيضاً البحث عن مفردات متتالية، أو مفردات متباعدة، أو مفردات مرتبة، أو مفردات متباعدة غير مرتبة، وما إلى ذلك.

كما يمكن للمستخدم بدلاً من ذلك أن يلجأ للبحث«الموضوعى» من خلال شجرة موضوعات تشتمل على ١٤ موضوعا رئيسيا، يتفرع كل منها إلى موضوعات عامة ثم فرعية من خلال ٨ مستويات حتى تصل جملة موضوعات البحث إلى أكثر من ٣٧٠٠ موضوع تغطى جميع الموضوعات التى يحتاجها المسلم فى العصر الحديث.

وبالإضافة إلى عرض النص بدلالة أطراف الأحاديث أو طبقا لتبويب المصدر، يعرض النص مشكلاً مع استعراض الموضوعات التى يعالجها الحديث المعروض.

ويقدم الإصدار الإلكترونى للصحيحين هنا فهارس متعددة، منها ماهو للآيات القرآنية التى وردت فى المتون. ومنها ماهو للأحاديث النبوية. وتشمل أحاديث قدسية وأخرى متواترة أو مرفوعة أو موقوفة. وكذلك فهارس للأعلام. وتشمل أسماء الرسول، والأنبياء والملائكة، والأماكن، والجماعات، والرجال والنساء.

وهناك أيضاً فهارس للأشعار التى وردت ضمن نصوص الأحاديث.

ولايكتفى الاصدار الإلكترونى للصحيحين بهذا كله، فهناك أيضا تخريج الأحاديث ونسبتها إلى موضعها. وكذلك شرح الألفاظ الغريبة الواردة فى نصوص الأحاديث. كما يقوم البرنامج - عند الطلب - بعرض الأحاديث التى لها صلة بنفس موضوع الحديث الذى يختاره المستخدم.

وفضلاً عن أن البرنامج يوفر فرصة الطباعة منه مباشرة، يوفر أيضاً فرصة نسخ النص إلى أى محرر نصوص.

وفوق كل ذلك فإن خدمات الإصدار كاملة تتوافر بعدة لغات: الإنجليزية والماليزية والإندونيسية والتركية والفرنسية والألمانية بحيث يتعامل المسلم غير العربى مع البرنامج بلغته الأصلية ثم يعرض الحديث باللغة العربية وترجمته إلى أى لغة أخرى على نفس الشاشة. كما يمكنه أن يبحث أيضا عن أى موضوع بلغته الأصلية من بين جملة موضوعات الشجرة والمترجمة إلى عدة لغات. ويوفر البرنامج إمكانية البحث عن كلمة أو جملة أو موضوع باللغة التى يختارها المستخدم من اللغات الست المتاحة. كما يقدم شرحا لعلم مصطلح الحديث بكل أقسامه وأنواعه وبلغات البرنامج بالإضافة إلى تدريبات متنوعة فى علم مصطلح الحديث، وفضائل الصحابة والأنبياء ومسائل فقهية، مع حساب نتيجة التدريب.

وحسب ماهو مبين فى الوثائق المرفقة بالبرنامج،فقد تمت مراجعته واعتماده من الأزهر الشريف.

لسان العرب

ابن منظور
صخر لبرامج الحاسب
إنترنت
http://lexicons.sakhr.com
مجاناً



أما بعد فإن الله سبحانه قد كرّم الإنسان وفضله بالنطق على سائر الحيوان ، وشرّف هذا اللسان العربىّ بالبيان على كل لسان ، وكفاه شرفا انه به نزل القرآن ، وأنه لغة أهل الجنان . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله:

«أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربىّ ، والقرآن عربىّ ، وكلام أهل الجنة عربىّ».

هكذا قدم ابن منظور عبد الله محمد ابن المكرم بن أبى الحسن بن أحمد الأنصارى الخزرجى لمصنفه الأشهر«لسان العرب» والذى يعد أقدم وأضخم المعاجم العربية؛ إذ يحتوى على ثمانين ألف مادة وستمائة ألف مشتق وأكثر من ثلاثة ملايين كلمة. وهو بذلك يأتى فى المرتبة الثانية فى الحجم بعد معجم تاج العروس للزبيدى. وقد قامت «صخر» لبرمجيات الحاسب أخيراً بتطوير نسخة الكترونية من معجمى الغنى ولسان العرب وإضافتهما إلى صفحة المعاجم العربية الموجودة فى موقع صخر على الإنترنت
http://lexicons.sakhr.com

ويعتبر لسان العرب أشبه بالموسوعة اللغوية منه بالمعجم، حيث اهتم بأشعار العرب واللهجات والقراءات القرآنية والنوادر وقواعد اللغة وخلاف النحاة فى الكثير من القضايا وذكر أسماء الرواة الذين اقتبس عنهم.

وقد أورد معجم لسان العرب الكثير من الشواهد على المعانى المختلفة المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال والخطب. كما أورد كل ما وقف عليه من المواد ومشتقاتها ومعانيها، حيث جمع بين طياته خمساً من أمهات المعاجم القديمة، وهى تهذيب اللغة للأزهرى، المحكم لابن سيده، الصحاح للجوهرى، والحواشى لابن برى، والنهاية لابن الأثير.

ومعجم الغنى للدكتور عبد الغنى أبو العزم، يعد أحد المعاجم العربية الحديثة التى طورتها شركة«صخر ميديا» وهو مقدم على أسطوانة مدمجة ضمن مجموعة برامج الأسرة، وتمت إضافته إلى المعاجم العربية التى يتضمنها موقع صخر مؤخرًا.

وهو يخدم بصورة مباشرة طلاب التعليم الأساسى والثانوى خاصة والمثقفين ومستخدمى المعاجم العربية الحديثة عامة. والمعجم مرتب ألفبائيًا ومشكل تشكيلاً تامًا، ويتميز بسهولة البحث فيه وتعزيز الشروح بتعريفات بسيطة وشواهد أدبية واستشهادات من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ونصوص الكتاب القدماء والمحدثين.

ويضم الغنى عددًا ضخمًا من المصطلحات الأدبية والعلمية والتقنية وألفاظ الحضارة. كما يضم مئات الرسوم والصور الإيضاحية لنباتات وحيوانات وغيرها، ويبلغ عدد مواد هذا المعجم حوالى ٣٠,٠٠٠ مادة، كما يبلغ عدد المشتقات ١٩٥,٠٠٠، وعدد كلماته ٢٠٠٠,٠٠٠ كلمة.

وتحتوى صفحة المعاجم العربية الموجودة فى موقع صخر فى الإنترنت على الكثير من أنواع البحث المختلفة، مثل البحث عن الكلمة كما هى، وهنا يتم البحث عن الكلمة المدخلة كما هى، والبحث بجذور الكلمات المدخلة، والبحث بالمترادفات، إذ يتم توسيع نطاق البحث حتى يشمل مرادفات الكلمة المدخلة أيضًا.

ومن أساليب البحث الأخرى التى يتيحها الموقع، البحث ثنائى اللغة الذى يتيح للمستخدم البحث فى الوثائق العربية والإنجليزية فى آن واحد. ويراعى الموقع الأخطاء العربية الشائعة فى الكتابة، إذ يمتلك القدرة على التعرف على الأخطاء التى يقع فيها معظم مستخدمى اللغة العربية ويتجاوزها.

وعلى الموقع الخاص بالمعجم على الانترنت حرصت«صخر» على إيراد تقديم خاص بقلم الأستاذ الدكتور محيى الدين صابرالمدير العام الأسبق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم«الأونيسكو» ،يتحدث فيه عن أهمية متابعة النشاط المعجمى وتجويده، ويشير إلى الفائدة المرجوة من وراء إتاحة مثل هذا المعجم الكبير في صورة إلكترونية تتماشي مع احتياجات جيل جديد وعصر جديد. وذلك مع التأكيد على اهتمام العرب تاريخيا بالنشاط المعجمي أحد تلك المجالات التى بدأ العرب السّعْىَ فيها مبكرًا، على مراحل عدّة، منها جمع المفردات النوعية في موضوع واحد، مثل كتب الأصمعى فى النّخل والخيْل، ومنها وضع المعجم على نمط خاص فى الترتيب ليرجع إليه من أراد البحث عن الكلمات ومعانيها.

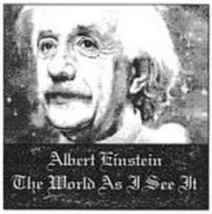
ويسود الاعتقاد لدى الباحثين أن الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥ هـ) كان أوّل من وضع معجمًا لغويًا عربيًا سمّاه (كتاب العيْن) فارْسَى بذلك منهج التاليف المعجمى. ثم قام بعده من وضعوا المعاجم المتنوعة، منها معجم (الحروف) لأبى عمرو الشيبانى (ت ٢٠٦ هـ) ومعجم (الألفاظ) لابن السكّيت (ت ٢٤٤ هـ) و(الجمهرة) لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) و(البارع) لأبى على القالى (ت ٣٥٦ هـ) و(تهذيب اللغة) للأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) و(مقاييس اللّغة) و(المُجمل) لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) و(الصّحاح) للجوهرى (ت ٤٠٠ هـ) و(المُحكم) و(المخصّص) لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)

و(لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١ هـ) و(القاموس المحيط) للفيروز آبادى (ت ٨١٧ هـ) و(تاج العروس) للزبيدى (ت ١٢٠٥ هـ).

THE WORLD AS I SEE IT

العالم كما أراه

Albert Einstein
Internet
BiblioBytes
www.bb.com
Free



عندمـــا بدأت مـجلـة «تايم» الأمريكية استفتاءها الشهير قبل حوالى العام لاختيار «شخصية القرن»، كان الكثيرون - رغم الازدحام الكبير لقائمة حوت علماء وزعماء ومفكرين وفنانين - يتوقعون أن يكون هو هذا الرجل «ألبرت أينشتاين» العالم الأمريكى الألمانى الأصل الذى أرست نظرياته الأساس للكثير من نظم التكنولوجيا الحديثة، بما فيها الأسلحة النووية.

يومها وصفت المجلة أينشتاين بالعبقرى، واللاجئ السياسى ذو الحس الإنسانى المرهف، وكاشف أسرار الذرة والكون. وقالت إن أينشتاين يبرز شامخا كأعظم عقل بشرى وقمة لرموز عصر حفل بالفتوحات العلمية والتكنولوجية وذكرت مجلة التايم أن الطبيعة التى عرف بها العالم الشهير ذو الذهن الشارد والشعر الأشعث والعينين الثاقبتين، إضافة إلى نزعته الإنسانية الطاغية وذكائه الخارق، جعلت من وجهه رمزا للعبقرية ومن اسمه مرادفا لها.

وكان مائة من أبرز علماء الفيزياء قد اتفقوا فى وقت سابق علي اختيار ألبرت أينشتاين كأعظم عالم فيزياء فى التاريخ

والمعروف أن أينشتاين، الذى ولد فى ألمانيا عام ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين، لم تظهر عليه فى طفولته أية بوادر ذكاء، ولكنه فاجأ العالم بنظرياته حول الفضاء والزمن والمادة، والتى قلبت المفاهيم السائدة عن الكون وأثرت تأثيرا عميقا على المجتمعات الإنسانية

وشرح أينشتاين فى نظريته النسبية الشهيرة، أن القيمة الثابتة الوحيدة فى الكون هى سرعة الضوء، وما عداها متغير، ويمكن حسابه من المعادلة التى تقول إن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى القيمة التربيعية لسرعة الضوء.

ولسد بعض ثغرات هذه النظرية، وضع أينشتاين بعدها النظرية العامة للنسبية، والتى تنص على أن التفسير السليم لقوى الجاذبية يستلزم تغيير مقاييس الزمن والفضاء كلما اقتربنا من الأجسام الضخمة كالنجوم والكواكب والثقوب السوداء.

وفى عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين، وبعد ست سنوات من هروبه من الفاشية التى كانت ترزح أوروبا تحت وطأتها، حث أينشتاين، الذى كان من دعاة السلم ونبذ العنف، الرئيس روزفلت على تصنيع القنبلة الذرية قبل ألمانيا النازية لردعها عن استخدامها.

وقد استجاب روزفلت بمشروع مانهاتن، الذى قام العلماء من خلاله، وتحت غطاء من السرية، بتصنيع أول سلاح ذرى، رغم أن أينشتاين لم يشارك فى إنجازه.

والكتاب الذى وجد طريقه أخيراً للانترنت يقدم قراءة حقيقية لتلك الشخصية الفريدة، من خلال تجميعه لمجموعة ذات دلالة من مقالاته وأقواله التى تقدم صورة تكاد تكون كاملة عن الرجل ونظرته للحياة والكون والبشر. وكما قال العرب قديماً: «فالمرء مخبوء تحت لسانه».

تأمل «وجهات نظر» من منتجى البرامج والناشرين والشركات العاملة فى «النشر الإلكترونى» موافاتها بالجديد من إصداراتهم ليتسنى لها عرضها فى هذا الباب.
e-mail: sayyad@mail.com

.. بل أدعو إلى الإسراع بتصدير الغاز الطبيعي

تابعت باهتمام بالغ في مجلة «وجهات نظر» عدد مايو الماضي، دعوة أستاذي الفاضل الدكتور رشدي سعيد بالامتناع عن تصدير الغاز الطبيعي المصري والاحتفاظ به لاستخدامه في عمليات التنمية الحالية والمستقبلية، ولاشك عندي في أن دعوة الدكتور رشدي وراءها حس وطني مرهف لم يقلل منه ولا من انتمائه لوطنه الأم طول اغترابه في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكني أختلف مع ما ذهب إليه الدكتور رشدي، بل أدعو إلى الإسراع في إجراءات تصدير الغاز، وذلك للأسباب التي سيأتي ذكرها. وقد أعطاني حق الاعتراض على ما دعا إليه أستاذي الفاضل، وأن أدلي بدلوي في هذا الموضوع الحيوي والمهم، أني شغلت خلال حياتي العملية عدة مناصب تؤهلني لهذه المداخلة، منها أني كنت مديرًا للاستكشاف في شركات مختلفة منتجة للزيت والغاز ونائبا لرئيس هيئة البترول للاستكشاف والاتفاقيات البترولية لفترة عاصرت خلالها وشاركت في تطبيق وإنهاء وتطوير اتفاقيات الغاز المصرية.

إن مصر تمر حاليا بفترة حرجة من تاريخها، فهي تسعى إلى التقدم، بينما هي مقيدة القدمين واليدين بمشكلات تحد لدرجة كبيرة من إمكانياتها في الحركة للأمام، بل تسحبها أحيانا إلى الوراء، ولا يخفى على أحد أن مشكلاتنا يقف دون حلها بالدرجة الأولى، عدم توافر الاعتمادات اللازمة للتعامل معها. وكان الدخل العائد من تصدير جزء مهم من حصتنا من الزيت الخام المنتج لفترة، للأسف لم تزد على العشرين عاما الماضية عاملا أساسيا في دعم عمليات التنمية. أما الآن وقد تناقص إنتاجنا من الزيت كما زاد استهلاكنا منه محليا، بحيث إن دخلنا الناتج عن تصدير الجزء المتبقي بعد حصول الشريك الأجنبي على حصته وبعد دفع فاتورة ثمن حصته من الغاز المنتج أصبح هذا الدخل سلبيا. وأصبح قطاع البترول معتمدًا على الحكومة في تمويل جزء من استثماراته والتزاماته بعد أن كانت الحكومة معتمدة لدرجة كبيرة على ما يصلها من قطاع البترول للإنفاق على مشروعاتها التنموية وغيرها. وأصبح قطاع البترول، وبالتالي الحكومة في مأزق. فإنتاجنا من الزيت يتناقص والحقول التي يتم اكتشافها صغيرة، والاحتياطات المضافة تكاد لا تعوض ما ينتج، بحيث إن احتياطي الزيت توقف تقريبا عند الرقم ٣,٣ بليون برميل خلال العشر سنوات الأخيرة.

وأتساءل: هل هناك حل لهذه المشكلة يضطلع به قطاع البترول؟ والإجابة هي نعم لو تم تصدير الغاز.. فلدينا مناطق بها إمكانيات بترولية هائلة محتملة تنتظر البحث فيها واكتشاف ما تحتويه من غازات وربما زيت.

ولكن ما علاقة تصدير الغاز باكتشاف حقول جديدة منه في تلك المناطق؟ والإجابة عن هذا السؤال الأخير سوف تأتي في سياق السرد التالي.

إن دعوة الدكتور/ رشدي سعيد بعدم تصدير الغاز والاحتفاظ به لاستخدامه في عمليات التنمية المختلفة، هو نداء له وجاهته فقط في حالة ما إذا كانت الدولة هي التي تقوم بعمليات البحث عن الغازات وتنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها، أما إذا كانت الشركات المتخصصة هي التي تقوم بهذا الدور، فلا يمكن عمليا ولا منطقيا أن نلبي دعوة الدكتور سعيد، فهذه الشركات تنفق لتربح وليس من شئونها توفير احتياطي أمن لمصر. بناء على ذلك فإن هناك طرحا مؤداه أنه إذا كان ما ينادي به أستاذنا ضرورة، فلماذا لا تتولى الحكومة مهمة البحث عن الغاز، وإضافة الاحتياطيات التي تعطيها الأمان تنتج منها ما تشاء في الوقت الذي تراه مناسبا. أستطيع أن أزعم بمنتهى الثقة أن الحكومة غير قادرة ولا مؤهلة لأن تقوم بهذه المهمة، وذلك لعدد من الحقائق والثوابت يمكن تلخيصها في السطور القادمة.

الحقيقة الأولى: وهي مرتبطة بالمخاطرة برأس المال المستثمر في عمليات البحث عن البترول (زيت أو غاز) وتنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها. فمن المعروف للمتخصصين أن عمليات البحث عن البترول هي عمليات معقدة تتصف بالمخاطرة برأس المال المستثمر فيها، فاحتمال النجاح في العثور على حقل للبترول في المكان الذي تحدده دراسات كثيرة ومختلفة ومعقدة وذات تكلفة مرتفعة هو احتمال تقل نسبته عن ٣٠٪ ولا تزيد في أحسن الظروف عن ٥٠٪. ومعظم الشركات العاملة في مجال البحث عن البترول، تقوم بحفر الآبار المكلفة للعثور على هذه الخامة الهامة، وهي تعلم مسبقا أن احتمال النجاح في العثور عليها تقل نسبته أحيانا عن ٢٥٪.

ومصاريف البحث في مكان معين واللازمة لعمل دراسات جيولوجية وجيوفيزيائية وغيرها من الدراسات، ثم حفر بئر استكشافية واحدة، تتراوح بين ١٠,٥مليون دولار، إذا كان الموقع المختار يقع تحت مياه بحرية عميقة (أكثر من ١٠٠٠م)، وإذا كان العمق المستهدف الوصول إليه بالحفر يزيد على ٤٠٠٠م. هذا ومن المعلوم أن عمليات البحث في منطقة معينة لا تقتصر على بئر واحدة، ولكن يتم حفر عدد من الآبار وتتضاعف التكلفة مع عدد الآبار المحفورة وكم من شركات أنفقت ملايين الدولارات في مناطق، وخرجت منها دون أن تحقق أي اكتشاف بها. ولكي تقلل الشركات العاملة في مجال البحث عن البترول من حجم الأموال التي تخاطر بها،وكذلك لكي تقلل من معامل المخاطرة فإنها تلجأ إلى عدة طرق منها اشتراك أكثر من شركة في الإنفاق على عمليات البحث في منطقة واحدة، وقيام الشركة مع شركات أخرى بعمليات البحث في مناطق مختلفة في البلد الواحد أو في بلاد مختلفة.

الحقيقة الثانية: وهي مرتبطة أيضًا بمعامل المخاطرة ومتعلقة بالمرحلة التي تجري خلالها عمليات البحث، فعمليات البحث التي تجري في مناطق بكر أو حظيت بمجهود استكشافي متواضع، يكون حجم الحقول المكتشفة فيها كبيرا، ويقل تبعًا لذلك معامل المخاطرة، حيث إن الحقول الكبيرة يسهل التعرف عليها وتحديد أماكنها، وليس أدل على ذلك من أن معظم منطقة الحقول الكبيرة التي تم اكتشافها في أماكن مختلفة من العالم كلها حقول تم اكتشافها قبل انتهاء النصف الأول من القرن العشرين، وكان اكتشافها نتيجة لمجهود استكشافي محدود نسبيا وباستخدام التكنولوجيات المتواضعة، التي كانت متاحة في ذلك الوقت ونفس الشيء حدث في مصر، حيث تم اكتشاف الحقول الكبيرة في خليج السويس والصحراء الغربية والدلتا وفي البحر الأبيض، حينما كان البحث في هذه المناطق في مراحله الأولى، ولم يتأخر اكتشاف الحقول الكبيرة في المناطق مثل بحر الشمال والاسكا وجنوب السودان، حتى أواخر السبعينيات بسبب انتظار تكنولوجيات لم تكن متاحة قبل ذلك، ولكن لأن تكلفة إنتاج البترول من تلك المناطق مرتفعة.

وعلى العكس مما تقدم، فإن الحقول التي يتم العثور عليها في مناطق أو أحواض بترولية حظيت بنصيب وافر من عمليات البحث تكون حقولا صغيرة، حيث إنه يكون قد تم اكتشاف معظم الحقول الكبيرة المتوسطة، وهذه الحقول الصغيرة إلى جانب أن إنتاجها اليومي أو السنوي قليل، فهي قابلة للنضوب بعد فترة قليلة من بدء الإنتاج منها، وتكون اقتصادياتها في معظم الأحيان حرجة. وبسبب صغر حجم هذه الحقول، فإن العثور عليها لا يتم بالسهولة التي يتم بها العثور على الحقول الأكبر حجما، ويزيد تبعا لذلك معامل المخاطرة برأس المال المستثمر في البحث عنها. ولأكون أكثر توضيحًا، فإن معامل النجاح المثبت إحصائيا على مستوى العالم، هو أنه يتم العثور على حقل متوسط أو كبير نتيجة لحفر من ٣ ـ ٥ آبار استكشافية، كما يتم العثور على حقل صغير نتيجة لحفر من ٧ ـ ٩ آبار استكشافية.

إن صناعة البحث عن البترول وإنتاجه، لا يجب أن تتولاها الحكومات غير المؤهلة للدخول في هذا النوع من الاستثمارات، حتى لو كان لأسباب استراتيجية وغير المؤهلة أيضًا لاستحداث وتطوير التكنولوجيات المستخدمة في هذه الصناعة، وأن هذا العمل يجب أن يوكل للشركات المتخصصة والقادرة على الاضطلاع به، وإذا نظرنا للواقع البترولي المصري سوف نجد أن الحكومة حاليا وأكثر من أي وقت سابق، لا يجب حتى أن تفكر في أن تقوم بأي أعمال بحث عن الغازات منفردة، فكل مناطقنا البترولية في خليج السويس والصحراء الغربية والدلتا والسواحل الشمالية أصبحت من المناطق التي حظيت بنصيب وافر من عمليات البحث، والحقول المحتمل العثور عليها في هذه المناطق، هي في أغلب الظن حقول صغيرة والبحث عنها تكتنفه كما ذكرنا آنفا مخاطرة عالية برأس المال المستثمر.

على الرغم مما ذكر حتى الآن، فإن الواقع البترولي المصري ما زال مشرقًا، والعثور على حقول كبيرة من الغاز وربما من الزيت ما زال ممكنا، واشتراك قطاع البترول المصري بالمساهمة الإيجابية في تمويل خطط الدولة في التنمية خلال السنوات القادمة، مازال احتماله قائما. والسؤال هو كيف؟

ذكرنا سابقا أن العثور على حقول كبيرة يتم في الأحواض البترولية البكر أو التي لم تحظ بقدر كاف من النشاط الاستكشافي فيها، ولدينا في مصر مساحات شاسعة تتسم بهذه الصفة،وهي متمثلة في المياه العميقة لكل من البحرين الأبيض والأحمر، وعلى الرغم من أن العثور على حقول الغاز في هذه المناطق هو الأكثر احتمالا، إلا أن احتمال العثور على حقول كبيرة للزيت في هذه المناطق مازال واردا. والمطلوب للعثور على هذه الحقول هو إقدام شركات البترول على البحث فيها.

ويجب أن أوضح هنا أن عمليات البحث عن البترول تحت المياه العميقة هي عمليات مكلفة. وعمليات تنمية الحقول التي تكتشف تحت هذه المياه ليست فقط ذات تكلفة خيالية، بل إن التكنولوجيات المستخدمة فيها تكاد تكون متاحة لعدد قليل من الشركات العملاقة تعد على أصابع اليد الواحدة. والشركات ومن قبل أن توقع اتفاقيات للبحث في منطقة معينة، فإنها يجب أن تكون مطمئنة إلى أنها سوف تجني ثمار جهودها المالية والفنية. وهذا أمر ممكن التأكد منه بسهولة في حالة مناطق تواجد الزيت، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمناطق التي توصف بأنها مناطق لحقول الغاز. فالغاز لا يمكن تخزينه ولا يتم إنتاجه إلا في حالة وجود مستهلك

فالغاز يذهب من البئر إلى المستهلك. «إذا كانت مصر سوف تكون هى المستهلك الوحيد كما ينادى الدكتور رشدى سعيد، فإن الشركات لن تقدم على البحث فى المناطق المذكورة، فهى لا تستطيع ولا تقبل أن ترقص على إيقاعنا، كما فى المثل الشائع، وهى لا تستطيع أن تكتشف الغاز اليوم وتتركه لمدة ١٠ سنوات» مثلا قبل أن تبدأ الإنتاج منه لأننا لسنا فى حاجة إلى الغاز اليوم قبل ذلك. سوف تأتى الشركات لتوقيع عقود للبحث عن الغاز فى البحر الأبيض وربما البحر الأحمر، إذا اطمانت إلى أن ما سوف تعثر عليه، سوف يجد طريقه للمستهلك بعد فترة وجيزة. وهذا المستهلك يمكن أن يكون محليا أو خارجيا. ولما كانت تغطية احتياج الاستهلاك المحلى من الغاز لا تتطلب إضافة احتياجات كبيرة بعد أن وصل رقم احتياطى الغاز إلى ٤٣ ترليون قدم مكعب، فإن المستهلك الأهم والذى يشكل الدافع الأعظم لشركات البترول لتوقيع اتفاقيات للبحث عن الغازات فى المياه العميقة هو المستهلك الخارجى، والذى لا يصل الغاز إليه إلا عن طريق تصديره، وذلك طبعًا في حالة ما إذا كان سائل الغاز المنتج يستطيع أن ينافس الغاز المنتج من دول أخرى.

وتصدير الغاز ليس بالأمر السهل، فهذا يتطلب إنشاء خطوط أنابيب أرضية أو تحت البحر أو مصنع لإسالة الغاز. ولكل من هذه البدائل اقتصادياته وظروفه. ومن الواضح أن قطاع البترول المصرى قد درس هذه البدائل اقتصاديا وسياسيا، ووصل فيها إلى القرار الذى أعلن عنه وهو اختيار إنشاء مصنع للإسالة، وربما كان هناك اختيار آخر، ولكن الأهم من كل هذا هو وجود المستهلك، وهذا أمر لا يقل صعوبة فى وقتنا هذا، حيث المنافسة شديدة بين المصدرين المحتملين وبيننا، فالغاز الذى سوف ينتج من عندهم تكلفته قليلة نسبيا، وهؤلاء المنافسون موجودون فى قطر وليبيا والجزائر ونيجيريا وإيران. والمنافس الأخطر لغاز هذه الدول وللغاز المصرى هو الغاز المكتشف فى حقول تركمانيا وروسيا. وحجم الحقل الواحد هناك يزيد على ثلاثة أضعاف كل ما تم اكتشافه فى مصر حتى الآن. والحائل دون إنتاجه وتصديره حتى الآن، إلى جانب القلاقل السياسية السائدة فى منطقة القوقاز، هو بعد المسافة بينه وبين المستهلك فى اوروبا وفى شرق البحر الأبيض، وهذه ظروف ممكن التغلب عليها والانتهاء منها فى القريب. ومن هنا فإن من يسرع فى إنهاء اتفاقيات بيع للغاز طويلة الأجل، سوف يكون هو الطرف الرابح، والانتظار والتردد قد يضيع فرصة التصدير إلى الأبد، وهذا سبب ندائى بان نسرع فى كافة الإجراءات والاتفاقيات، وبما يسبقها من مفاوضات حتى يسبق الغاز المصرى الغاز المنتج من دول أخرى منافسة فى الوصول إلى المستهلك فى أوروبا أو شرق البحر الأبيض المتوسط.

وأنا لست على علم بما وصلت إليه الاتفاقيات بين مالكى الغاز المصرى وهم هيئة البترول وشركات أجنبية عثرت على حقول غاز فى مصر وبين المستهلكين سواء فى أوروبا أو تركيا أو شرق البحر الأبيض المتوسط، ولست كذلك على علم بما تم من اتفاق بين الحكومة المصرية والشركة أو الشركات التى ستقوم بإنشاء مصنع إسالة للغاز أو أى وسيلة أخرى للنقل. لذلك فإنى سوف أقدم اقتراحًا قد يكون تم العمل به أو أن يكون متخذو القرار ليسوا فى حاجة إلى الأخذ به لوجود بدائل أخرى. والاقتراح يتلخص فى أننا فى حالة رغبة المستهلك أو الشركة التى ستبنى مصنع الإسالة فى أن يكون هناك حد أدنى من الاحتياطيات المثبتة من الغازات متاحة للتصدير، وأن هذا الحد غير متوافر لرغبة الجانب المصرى فى الاحتفاظ بالاحتياطى المثبت وعدم البيع منه، فإنى أقترح على الجانب المصرى أن يراجع نفسه فى هذا، بل على العكس عليه أن يلتزم ببيع الكميات التى تكون ضرورية لإنهاء المفاوضات والتعاقدات، حتى لو كانت من رصيده الاستراتيجى. وقد يظن البعض أن هذه مخاطرة غير محسوبة وأنا أراها غير ذلك، فمجرد العثور على المستهلك وإنهاء التعاقد معه والاتفاق مع الجانب الذى سينشئ وسيلة التصدير، والانتهاء من النموذج الجديد والخاص بالغاز فى الاتفاقيات البترولية المصرية، فإن ذلك سيتبعه إقبال من الشركات الدولية المتخصصة فى البحث والإنتاج من مناطق المياه العميقة لتوقيع اتفاقيات بحث تخص ما يعرض من هذه المناطق.

وسوف أعرض تاريخا مختصرًا لتطور البند الخاص بالغاز فى الاتفاقيات التى أنهتها الحكومة وهيئة البترول خلال القرن الماضى، وتأثير هذا التطور فى العثور على الغاز فى مناطق مختلفة من مصر.

الاتفاقات البترولية التى انهيت قبل عام ١٩٧٤ سواء منها اتفاقيات مناطق الامتياز Concession Agreement أو اتفاقيات المشاركة Sharing Agree-ments، لم تشتمل على أى بند يحدد كيفية التعامل مع الغاز فى حالة العثور عليه، حيث لم يكن متوافرا أية بنية تحتية فى مصر لاستخدام الغازات محليا، ولم يكن هناك سوق خارجية لتصديره، وبالتالى فإنه لم يكن هناك حافز، حتى ذلك الوقت لشركات البترول للبحث عن الغازات، وعلى الرغم من ذلك فقد تم العثور عليها ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٦٩، وبالصدفة على ثلاثة حقول للغاز وهى حقل أبو ماضى فى شمال الدلتا، والذى عثرت عليه الشركة الدولية للزيت المصرى، ثم حقل أبو الغراديق بالصحراء الغربية، والذى عثرت عليه شركة أموكو، ثم حقل أبو قير شمال الإسكندرية، وعثرت عليه شركة فيلبس.

الاتفاقات التى تم إنهاؤها بعد عام ١٩٧٤، وكلها اتفاقيات مشاركة الإنتاج Production Sharing Agreements اشتملت على بند يحدد أن الغاز إذا وجد فى منطقة متعاقد عليها إذا لم يكن بكميات تسمح بتصديره، فإن ملكيته تؤول للدولة. وهذا البند لم يكن فيه ما يشجع الشركات على البحث عن الغاز. وعلى الرغم من ذلك فقد تم العثور على عدد من حقول الغاز الصغيرة بالصدفة.

وفى النصف الثانى من السبعينيات، وقبل اكتشاف الغازات الطبيعية فى بحر الشمال، كانت السوق الأوروبية متعطشة للغاز الطبيعى، وبناء على ذلك فقد تم إضافة ما أطلق عليه Gas Clause للاتفاقيات البترولية القائمة. وتعتبر هذه الإضافة جزءا لا يتجزأ من الاتفاقيات، وتحل فقط محل المادة المختصة بالغاز فى الاتفاقية الأصلية، وهو تعديل يهدف إلى تصدير الغاز لأوروبا، بعد أن يتم تكوين احتياطى استراتيجى لمصر قدر وقتها بـ ١٣ تريليون قدم مكعب، واشتمل الاتفاق على أن الشركات المختلفة المتمتعة بهذا التعديل، تشترك فى تحقيق الاحتياطى القومى المذكور، وتشترك بعد تحقيقه فى إنشاء وسائل التصدير وإنهاء الاتفاقيات المرتبطة بذلك، وتكون حصة كل شركة فى التكلفة المطلوبة للتصدير متناسبة مع حجم ما تقوم بتصديره من حقولها، واشتمل الاتفاق أيضا على أنه فى حالة عدم رغبة شركة معينة فى الانتظار، حتى تحقيق الاحتياطى الاستراتيجى والاشتراك فى التصدير أن يتم تعويضها عما وجدته وتنازلت عنه للحكومة طبقًا لنظام معين مرتبط بحجم الحقل المتنازل عنه. وللأسف لم يكد يبدأ تنفيذ هذا النوع من الاتفاقيات، حتى تم العثور على حقول كبيرة للغاز فى بحر الشمال وبسرعة أيضا تمت تنمية هذه الحقول، وتم الإنتاج منها لتصل للمستهلك فى وقت قصير، وأصبحت السوق الأوروبية مغلقة أمام الغاز المصرى، وفقدت الشركات الباحثة الرغبة فى البحث عن الغازات لضياع فرصة التصدير.

وفى عام ١٩٨٤ دعت هيئة البترول الشركات الأجنبية للتفاوض بشأن إيجاد بديل للجزء الخاص بالغاز فى الاتفاقيات القائمة والقادمة يؤدى إلى بذل مجهود أكبر للبحث عن الغازات فى الأحواض البترولية المختلفة فى مصر والإنتاج منها، وكان البديل المنطقى المطروح هو أن يتم استخدام الغاز محليا وعلى أن تقوم هيئة البترول بشراء حصة الشريك الاجنبى من الغازات المنتجة. وكان السعر المتفق عليه لشراء غاز الشريك الأجنبى هو ٨٥٪ من سعر المازوت القليل الكبريت والمكافىء حراريا للغاز. وتم إنهاء اتفاقيات تشتمل على هذا المضمون، وأصبح هذا النمط هو المعمول به حتى عام ١٩٩٥، حينما تم الاتفاق على أن يحصل الشريك الأجنبى على ثمن المعادل الحرارى لزيت خليج السويس بدلا من المازوت، وزادت بذلك قيمة ما يحصل عليه من الحكومة. وبسبب هذا الحافز الاقتصادى الهام الذى تضمنه هذا الاتفاق، فقد نشطت شركات البترول فى البحث فى كل مكان محتمل لوجوده ونتج عن ذلك أن قفزت احتياطيات الغاز من ٥ إلى ٤٤ تريليون قدم مكعب فى حوالى عشر سنوات.

ويمكن تلخيص ما سبق فى الأسطر القليلة القادمة:

١ - الأحواض البترولية المصرية مازالت تحتوى على كميات هائلة من الغاز والزيت وخاصة تحت المياه العميقة للبحرين الأبيض والأحمر، وهى مناطق لم تحظ بعد بنشاط استكشافى يذكر.

٢ - الاحتياطات المثبتة من الغاز فى مصر تكفى وحدها لتغطية احتياج السوق المحلية، ربما للخمسين عاما القادمة.

٣ - لا يستطيع غير الشركات البترولية العملاقة المتخصصة القيام بالبحث عن البترول وانتاجه من المناطق المذكورة.

٤ - تصدير كل أو جزء مما سوف يتم العثور عليه سيسهم عائده فى تمويل مشروعات الدولة التنموية والخدمية.

٥ - المنافسة شديدة بين الدول المنتجة للغاز فى بيع غازها للدول المستهلكة، وهناك دول لديها احتياطيات هائلة من الغاز لن يمضى وقت طويل حتى تنافس هى أيضا وبشراسة فى سوق بيع الغاز.

٦ - تعاقدات بيع الغاز طويلة السريان ومن يسرع بالتعاقد فى ظل هذه السوق التنافسية فرصته أحسن ومن يتلكأ فى التعاقد ربما تضيع فرصته إلى الأبد، فمصادر أخرى للطاقة فى الغالب سوف تكون متاحة وباسعار اقتصادية قبل انصرام النصف الأول من هذا القرن.

وأنا أهيب بالسيد/ وزير البترول الشاب المتحمس بعد أن انتهى من ترتيب البيت فى هيئة البترول خاصة فى القطاعات المختصة بالاستكشاف والاتفاقيات البترولية أن يسرع فى الإنتهاء من البت فى العروض المقدمة لهيئة البترول للبحث فى مناطق مختلفة وألا ينحصر اهتمامه بالغاز وبالمياه العميقة. فعلى الرغم مما ذكر آنفا فإنى أعتقد أن فرص العثور على حقول كبيرة للزيت مازالت موجودة، خاصة فى خليج

كتاب الزاوية

من كتاب «طوق الحمامة»
ابن حزم

٢. باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان، وجحود المحب إن سُئل، والتصنّع بإظهار الصبر، وأن يُرى أنه عزهاة خلىّ، ويأبى السرُّ الدقيق، ونارُ الكلف المتأججة فى الضَلوع، إلا ظهوراً فى الحركات والعين، ودبيبًا كدبيب النار فى الفحم، والماء فى يبيس المدر، وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال.

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى، وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه، إذ القلوب بيد مُقلّبها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلْقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة.

وفى ذلك أقول:

يلوم رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى
وسيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون: جانبتَ التصاونَ جُملةً
وأنتَ عليهم بالشريعة قانتُ
فقلتُ لهم: هذا الرِّياءُ بعينه
صُراحًا وزِىٌّ للمرائين ماقتِ
متى جاء تحريمُ الهَوى عن محمد
وهل منْعُهُ فى مُحكم الذكرِ ثابت
إذا لم أُواقعْ مُحرَّمًا أتّقى به
مَجيى يومَ البعثِ والوجهَ باهت

رسائل

السويس، حيث إن هناك دلائل تشير إلى أن هناك كميات هائلة منه لم تكتشف بعد وهى تنتظر استخدام أفكار خلاقة والتكنولوجيات المتقدمة المتاحة لتحديد أماكنها.

جمال حنظر
خبير استكشاف واتفاقيات بترولية

أعمال كبار الكتاب العرب

كنت أزور أحد أصدقائى عندما وقع نظرى على مجلة «وجهات نظر». وحدّقت فى هذه المطبوعة عدة مرات لأقنع نفسى بأننى أرى بين يدى مثل هذه المجلة المثيرة للعقل، وأنها مجلة مصرية خالصة شكلاً وموضوعًا. وقد اقترضت المجلة من صديقى لعدة أيام، لاكتشف أن من المستحيل قراءتها فى يوم واحد أو جلسة واحدة.

وليست لدينا هنا فرص متاحة للحصول على كتب عربية ومن هنا فإن مثل هذه المجلة تسد فراغا مهما، عن طريق استعراض أحدث الكتب، ومتابعة آخر التطورات فى الآداب والكتابات العربية.. كل ذلك فى شكل جميل وصورة أخاذة. وإنه لمن المريح أن يجد المرء بين يديه هذه المجموعة المختارة لأهم الكتب والمطبوعات.

هل لى أن اقترح إضافة قسم إلى المجلة يستعرض ويعرض لأهم الأعمال المشهورة لكبار الكتاب العرب. نحن جميعًا نعرف أسماء طه حسين، والعقاد، والحكيم. ولكن قليلين من أتيحت لهم قراءة أعمال مثل «سارة» و«أديب» و«عصفور من الشرق».

وربما كان فى إعادة نشر بعض مقتطفات من هذه الكتب ما يساعد على استعادة الاستمتاع بهذه الأعمال وكسب المزيد من المعرفة بهؤلاء الكتاب العظام، حياتهم وتاريخهم. نحن نعرف الكثير عن حياة طه حسين طفولته وصباه وماكتبه تلاميذه عنه، وأنه كان ضريرًا. ولكن أشخاصا آخرين مثل العقاد لانكاد نعرف شيئًا عن حياته، وما زال بالنسبة لكثيرين سرًا غامضًا، على الرغم من أنه كان مفكرًا كبيرًا وعلم نفسه بنفسه، وجعل من نفسه شخصًا عظيمًا على الرغم من تواضع تعليمه.

وقد أعجبنى كثيرًا النوعية الحديثة للفن الصحفى فى المجلة، وشجاعتها وجراتها فى تحليل الأحداث الجارية، بالمقارنة بمطبوعات أخرى لم تحظ بمثل هذا النضج فى معالجة الأحداث الراهنة.

والنقد الوحيد الذى أوجهه إلى المجلة، هو نقص المواد الدينية فيها، والاهتمام بالعقيدة وتذكير الناس بأهميتها فى حياتهم، وقد كنا فى موسم الحج وكان من المناسب لو نشرت المجلة شيئًا عن مناسك الحج، أو الإشارة إلى مفهوم الزكاة، وأنه يسد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، والتركيز بأن الصلاة ليست فقط تدريبًا للأبدان والأرواح، ولكنها أيضًا أفضل وسيلة لحماية الشباب غير المتزوج من الانحراف، وأهمية الصيام فى تطهير الجسد والروح. إننى أتطلع إلى مزيد من النجاح فى مجلة وجهات نظر، ومزيد من الجوائز لهذه المجلة المتميزة.

د. نادر عبد الرحمن
نيوجيرسى

عودة لسؤال الهوية

تعليقًا على الجدل الذى دار على صفحات مجلة وجهات نظر فى عدة أعداد، خاصة عدد شهر ابريل الماضى حول «أسئلة الهوية المصرية.. غزو أم فتح»، أود أن أشارك فى هذا الحوار بهذا التعليق.

ماذا فعل المصريون مع الغزاة؟

المصرى نتاج انصهار أجناس تجمعت من الجنوب والشرق والغرب على شاطئ النهر الخالد العظيم.. كان مقياس حركتها سعيها على أقدامها وراء الماشية طلبا للكلأ. انصهرت جميعها فى بوتقة الوادى الضيق بين جبال الصعيد وعلى ريف مروحة الدلتا الممتدة إلى البحيرات والمستنقعات عند لقاء البر والبحر، وحتى عند لقاء البر المروى بماء النيل بالبر المروى تحت الرمل الثقيل فى الشرق والغرب على طول النهر، والمصرى الجنوبى الأسمر بلون الحنطة وعيونه بلون العسل فى الصعيد هو نفس المصرى الأسمر بعيونه الخضراء فى الشرق أو الزرقاء فى الغرب (كان الليبيون القادمون من الغرب ذوى عيون زرقاء). مصر تصبغ المصريين مهما كان مصدرهم وتحولهم إلى ضمير وقلب وعقل.. بالصبر.

هكذا فعلت فى بدايات الحضارة عندما وحدت المصريين جميعا لشق الترع وبناء السفن، وعندما وحدتهم فى أيام البذر بعد الفيضان، وعندما وحدتهم فى أيام الحصاد قبل الفيضان، وعندما وحدتهم لبناء المصاطب الأولى من الطين بعيدا عن حافة النهر والمصاطب التالية من الحجر عند حافة الجبل ثم بتوالى المصاطب علوا تم بناء الأهرامات الخالدة من الحجر. عذوبة النيل فى دم المصريين سماحة ولينا.. ووفاء النيل كل عام صدق بالوعد والعهد .. وحفظ حق الغير أمانة وطهارة.. هكذا عرف المصريون آخرها من أولها وعاشوا السعادة والدعة فى دفء برد الشتاء وفى نسيم حر الصيف. منذ ذلك التاريخ البعيد يعيش المصريون ساعتهم بين لقمة .. ونكتة .. وحكمة.

كبير العائلة هو عمدتهم ومرجعهم حتى اليوم، لذلك ينظر المصريون إلى لعبة الحكم والحكام باعتبارها لعبة بين فارغى العقول، منذ شيوخ البلد الأول

رسائل

وجهات نظر الكتاب

والولاة والسلاطين والملوك.. ولكن عشقهم للإيمان يجعلهم يحبون دائما أن يقدسوا الفرعون والكهنة والقسس والشيوخ لإشباع ذلك الجانب السامى فى نفوسهم السمحة. والمصرى الحكيم يبدأ بالملاينة (الفلاح الفصيح) فيطمع الذى فى قلبه مرض.. ثم يلهج لسانه بالدعاء.. لعل وعسى.. ثم يشتد فينقلب لسانه بطلب العدل من الرب والانتقام من الظالم.. وعندما يشتد الوعيد - وفى مرات نادرة - يقود المصريين أحد العمد.. ويحول النقمة إلى ثورة على الظلم والظالمين.. وبعدها يجلس مستريحا ويسلم قيادة الأمور لمن يانس فيه القوة والعدل (نموذج اختيار محمد على لحكم مصر!).

نعم لقد كان دخول الهكسوس إلى مصر غزوا.. وبعد سنوات من الصبر قاتلوهم وطردوهم وكذلك كان دخول الفرس ومن بعدهم الرومان ثم العرب وهو صراع تاريخى طبيعى بين البيئات ولكن ماذا حدث من المصريين تجاه الغزاة؟!

كان أهل مصر قبل الغزو مصريين واستمروا كذلك بعده.. قد يتغير اللسان ولكن لايتغير القلب المؤمن بالله، قد يشتد الظلم فى البداية ولكن بالصبر يتبدل الظلم إلى فهم وتسامح من خلال حكمة المصرى فى الوصول بالظالم إلى منتهاه.. فيبوء بظلمه أمام نفسه.

لقد مصّر المصريون الرومان (راجع نص حجر رشيد) وغيروا أسماءهم وأربابهم.. بالصبر والحكمة.

لقد مصّر المصريون المسيحية، كما وردت بسيطة فى تعاليم مرقص الرسول وحولوها إلى دين له شعائر وطقوس، وهاجروا بها إلى الحصون والأديرة تحت الأرض فى الفيوم، وفى قلب الصحارى فى وادى النطرون، وفوق الجبال فى سيناء.. هربا من بطش البيزنطيين المسيحيين!

كما مصّر المصريون العرب والإسلام، عندما وجدوا أن جوهر الدين لا يختلف عن عقيدتهم الأولى فى التوحيد والبعث والحساب.. فكان منهم شيخ القراء (سيدنا ورش) وظهر وبرع منهم بفطرة الإيمان بالله الإمام الفقيه والشيخ العالم (الإمام الليث).. (راجع فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين).. كما مصّر المصريون عمارة الإسلام، عندما شارك البناءون المصريون فى إقامة المساجد الأولى بالنسق القبطى من الأعمدة والحجارة بدلا من الطين والقش وجذوع النخيل (راجع تاريخ العمارة المصرية د. توفيق عبد الجواد).

نعم لقد كان غزوا.. بدأ كصراع بين البداوة والحضارة (راجع مرة ثانية أنماط من البيئات للدكتور جمال حمدان).. وهو ذلك الصراع الذى راقبه وحلله عمنا الشيخ الحضرمى المغربى أحمد بن خلدون فى مقدمته الرائعة التى كتبها، وهو مقيم على أرض مصر.. وزيرًا بها وكبيرًا لقضاتها.

نعم لقد كان غزوا.. ولكنه لم يلق مقاومة أو عنتا.. كراهة لظلم وقسوة الرومان.. وأملا فى محبة القادمين تحت راية الإسلام.. حتى وصلت الجيوش إلى الاسكندرية التى فتحت لهم أبوابها مرحبة.. تحمل السعف الأخضر وأطباق الحلوى.. ولكن حين اشتدت قسوة الجباة، منعت الجزية وأعلنت الثورة.. فجاءها عمرو وحطم أسوارها وأضرم النار فيها.

المصريون هم المصريون.. تغيرت بعض المبادئ والقيم وبقى الجوهر نقيا.. لكن:

لقد أحنى هامتهم وأجدب أرضهم طول ظلم العمد من أبنائهم.. للأسف. وأحدث - ويحدث حتى الآن - تداخل القيم المنقولة بالهجرة المؤقتة إلى بلاد النفط من أجل الدولار (الذى جمعته وشردت به شركات توظيف الأموال)، والقيم الوافدة بالتليفزيون أو الهجرة الدائمة إلى بلاد العالم (من أجل الدولار أيضا)، شرخا فى شخصية المصرى تهدده بفقدان هويته لأول مرة فى تاريخه. وللأسف فإن الشرخ يتسع بفعل الأعلى صوتا ممن يرى جزءا من الحقيقة، فيعمم الأحكام، ويوزع الاتهامات فى غيبة الروية وحيدة القاضى.. التى يجب سماعها من الأكثر حكمة والأخفض صوتا والأبعد عن مراكز السلطة والفعل زهدا وأصالة (راجع تقارير المجالس القومية المتخصصة.. بديلا عن التوجيهات التى يتم العمل بهديها فى جميع التخصصات).

ويذكرنى ذلك بقصة العميان الثلاثة الذين سد عليهم الطريق جسد فيل.. فمد أولهم يده، فلمس الزلومة فقال أمامنا لفات من خراطيم، ومد الثانى يده، فلمس الساق فقال: بل أمامنا أعمدة غلاظ، ومد الثالث يده، فلمس الجسد فقال: بل هو حائط سد.. لقد قال كل منهم الحق بما لمس، ولكن لم يقل أى منهم الحقيقة.

والله أسأل السلامة.

دكتور حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

كـــيـف نصـــبح؟!

اعجبتنى مقالة مرفت عبد الناصر المنشورة فى عدد ابريل الماضى من المجلة. ولكن بقدر ما أعجبتنى، بقدر ما شعرت بالحزن. كيف يكون فينا هذا الإبداع والوعى ونكون متخلفين، عنوان المقالة «كيف نصبح لكى نكون» عنوان مختار بدقة وذكاء. أما آن الأوان لكى تنتصر الشمس (بل الاثنى عشر شمسًا) على ظلمة الليل الطويل الذى لم نبصر له نهارا بعد، كيف يكون هذا حالنا وفينا من يكتب ويبحر فى أعمق الفلسفات. فلسفتنا نحن المصريين. كيف يكون هذا حالنا وفينا من له هذا الوعى والإدراك. المقالة ليست رائعة فقط فى محتواها العميق، ولكنها أكثر من رائعة فى صياغتها الفنية.

عزت أحمد هلال
مهندس كمبيوتر

كتاب الزاوية

من كتاب «طوق الحمامة»

ابن حزم

٢ - باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع مَن يحبه، وترى المرء شَرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضى العزيمة، حمىّ الأنف، أبىّ الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب، ويتورَّط غمره، ويعوم فى بحره، فتعود الشراسة ليانًا، والصعوبة سهولة، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا.

وربما كان المحبوب كارهًا لإظهار الشكوى، متبرمًا بسماع الوجد، فترى المحبّ حينئذ يكتُم حزنه، ويكظم أسفه، وينطوى على علته، وإن الحبيب مُتجنٍّ، فعندها يقَع الاعتذار عند كل ذنب، والإقرار بالجريمة، والمرء منها برئ، تسليمًا لقوله، وتركًا لمخالفته، وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقى الجلد.

ولا يقولن قائل: أن صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة فى النفس، فقد أخطأ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفوًا ولا نظيرًا فيقارض بأذاه، ولس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان، ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء، ولا فى مقاعد الرؤساء، فيكون الصبر جارًا للمذالة، وضراعة قائدة للاستهانة، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأمَته التى يملك رقّها، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها، فكيف الانتصارُ منها، وسبل الامتعاض من السبب غير هذه، إنما ذلك بين علْية الرجال الذين تُحصى أنفاسهم، وتتّبع معانى كلامهم فتُوجَّه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يوقعونها سدى، ولا يُلقونها هملا، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة، وقضيب مُنآد، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى.

"نــون"

وليمـــــة لإهـــدار العقـــــل..

لايكاد يمر الآن فى العالم العربى أسبوع أو شهر، إلا وتنفجر أزمة أو حملة تقودها قوى شعبية، موجّهة أو مضللة، ضد رواية أو كتاب أو عمل غنائى أو اجتهاد فلسفى تطالب الدولة وتحث السلطة الدينية على اتخاذ إجراءات قمعية تمتد من الرقابة والمنع إلى المصادرة والحرق، ثم المحاكمة والسجن.. تتكرر الظاهرة بإيقاع متسارع، وتنتشر فى أرجاء مختلفة من العالمين الإسلامى والعربى، على نحو يقترب كثيرا من الاتجاهات التى تدعو إليها وتطبقها جماعة «طالبان» فى أفغانستان، وتجد لها أنصارا فى دول إسلامية مجاورة. وهو ما يحمل على التساؤل عن سبب هذا النكوص المستمر الذى أصاب الحياة العقلية الإسلامية؟ ولماذا ضاقت مساحة التسامح وحرية التعبير وإبداء الرأى؟ وهل أصبح التدين قرين التعصب والغلو الذى يؤدى لامحالة إلى تكفير الآخر والطعن فى عقيدته؟ وهل يعنى تكرار الظاهرة بهذه الوتيرة أن الشعوب العربية ازدادت تدينا عما كانت عليه قبل عدة عقود؟ أم أن اشتداد الهزائم السياسية والاجتماعية، وتراجع الحريات فى الوطن العربى، والخوف الكامن إزاء العالم الخارجى وتحدياته هى التى ولدت هذه الظاهرة وضاعفت الشعور بالحصار ضد الدين والهوية؟

وعاصفة التكفير المذهلة التى أثارتها رواية «وليمة لأعشاب البحر» هى إحدى تجليات هذه الظاهرة، التى تتخذ صورة الدفاع عن الدين ضد موجات التغريب والإلحاد، وضد دعاة المدنية والتحرر، وضد ما تبديه الدولة من تساهل إزاء ما تعتبره القوى التقليدية تيارات هادمة للعقيدة ومحرفة لمبادئ الدين.. فهى تمثل من ناحية عجزا عن مواجهة التيارات الفكرية الحديثة التى يتعرض لها العالم الإسلامى، كما أنها فى الوقت نفسه تعبر عن قلق شديد من انحسار نفوذها الدينى والاجتماعى والسياسى فى مواجهة قيم زاحفة عبر وسائل الإعلام والترفيه المنتشرة.. وبدلا من العمل على الملاءمة بين التراث القديم وروح العصر والاندماج فى نسيج الحداثة المفروضة باسم التقدم العلمى والتكنولوجى ومبادئ الحرية والإنسانية، فإنها تلجأ إلى استثارة المخاوف الكامنة داخل العقل الجمعى بين صفوف العامة من أفراد الشعب، الذين أقعدتهم الأوضاع السياسية المضطربة فى العالم العربى عن المشاركة فى تقرير مصيرهم، وحكم أنفسهم بأنفسهم، بل ونأت بهم عن التزود بالحد الأدنى من التعلم والمعرفة بمعناها الواسع.

ومن الممكن أن يقال إن هذه التيارات قد نجحت فى أحيان كثيرة فى استخدام أجهزة الدولة وقوانينها وجانب كبير من الرأى العام الذى تغذيه مشاعر دينية موروثة، على حصار الإبداع الفنى الأدبى وقمعه.. بل وتجاوز الأمر فى أحيان كثيرة إلى محاربة الفكر العلمى والفلسفى والترويج للخرافات والغيبيات، والعودة إلى الأساطير الشعبية وأعمال السحر والشعوذة المغلفة بالدين، وتعرض بسبب ذلك كثير من المفكرين والمجددين والعلماء فى مجتمعاتنا العربية للاضطهاد والتنكيل، والتطبيق المتعسف للقوانين ضد حرية الفكر والبحث والدراسة.. الأمر الذى يفسر دون ريب جانبا من أسباب التخلف المحير الذى سقطت فيه الأمة العربية، فلاتكاد تستطيع منه فكاكا، وأدى إلى هروب أعداد من المفكرين والعلماء للحياة خارج أسوار الوطن العربى.

غير أننا لانستطيع أن نلقى اللوم كله على قوى التخلف والجمود، ولاعلى الأحزاب السياسية التى توظف الغرائز الدينية والإحباطات الشعبية لخدمة أهدافها، بل إن الخلل المتغلغل فى معظم المجتمعات العربية، يرجع إلى الانفصام الشديد الذى تعانى منه النخب السياسية وصفوة المثقفين، من المفكرين والصحفيين والكتاب وأساتذة الجامعات والقانونيين والأطباء والمهندسين والضباط، وغيرهم من الفئات التى تتصدر صفوف المجتمع وتقوده، فهى لاتستطيع أن تفهم أن الديمقراطية معناها أن تطلب الحرية للغير كما تطلبها لنفسك، وأن الحقوق والواجبات متساوية فى أى مجتمع ديمقراطى حر.

ولكن فى حالات مختلفة، لم تتورع فئات الصفوة على اختلافها عن المطالبة باستخدام الإجراءات القمعية ضد خصومهم السياسيين أو خصومهم فى الفكر. واستخدمت السلطة المثقفين فى تبرير أخطائها وانحرافاتها والدفاع عن فسادها، وانخرط المثقفون فى أنشطة واتجاهات معادية للحرية والديمقراطية.. فهناك قوى «علمانية» أو تسمى نفسها كذلك تأبى على الحركات الإسلامية أن تكون جزءا من الحياة السياسية بحجة أنها لا تؤمن بالديمقراطية، وأنها ما إن تصل إلى السلطة عن طريق الديمقراطية حتى تنقلب عليها، وتفرض حكمها تحت سطوة الدين على زعم أنها تمتلك الحقيقة المطلقة.. وهناك فى المقابل قوى سياسية فاشية تتاجر بالدين، فلاترى فى حرية الفكر والإبداع إلا منافذ للكفر والضلال، وإفساد المجتمع، والدعوة إلى الانحلال، وهى لاتملك علاجا غير التكفير وإهدار الدم أو مصادرة الفكر وإحراق الكتب ومنعها من الأساس..

النموذج الأول تجده فى التجربة الجزائرية بدرجة صارخة، وفى مصر وتونس والأردن بدرجات متفاوتة. والنموذج الثانى تجده فى السودان وإيران على مابينهما من اختلاف، وكذلك فى عدد من الدول العربية والإسلامية الأخرى.

هناك إذن خلل جسيم فى المجتمعات العربية، يتيح لأطراف عديدة أن تنتزع لنفسها حق مصادرة الفكر، سواء تحت دعوى مخالفة العقيدة أو تحت دعوى الإرهاب السياسى وتهديد الديمقراطية والنظام، وأغرب شىء هو ذلك الميل الواضح فى معظم المجتمعات العربية إلى انتهاج الرأى الواحد، والقبول بمبدأ الفرقة الناجية التى كل ماعداها متهم بالضلال الذى يقود إلى النار، ومن ثم تتعدد مصادر قمع التفكير الحر والتضييق عليه فى معظم المجتمعات العربية، سواء من جانب السلطة، أو من جانب الدعوات التقليدية المحافظة، أو من جانب المثقفين أنفسهم.

وهذا العجز الشديد عن أن تُطوِّر المجتمعات العربية نفسها، هو الذى يولد الانقسامات داخلها، ويخلق أرضا خصبة للفتن واللجوء إلى العنف، ويضعها أمام تحديات لاتملك غير الفرار منها إلى الخرافات والأساطير والجهالات المنتسبة إلى الدين.

وفى ضوء ذلك المناخ الملتبس بالدعاوى والادعاءات، جاءت رواية «وليمة لأعشاب البحر» لتشعل حربا أهلية فكرية وسياسية ودينية، امتدت ألسنة نيرانها خارج مصر، لايكاد أحد يعرف فيها الصواب من الخطأ، والقاتل من القتيل، والرشد من الغى، والمؤمن من الكافر، والمدافع عن الدين من المتاجر به.. ولكننا نستطيع أن نجمل الموقف فى عدة ملاحظات قد تساعد على فض الاشتباك فى عقل القارئ الباحث عن الحقيقة:

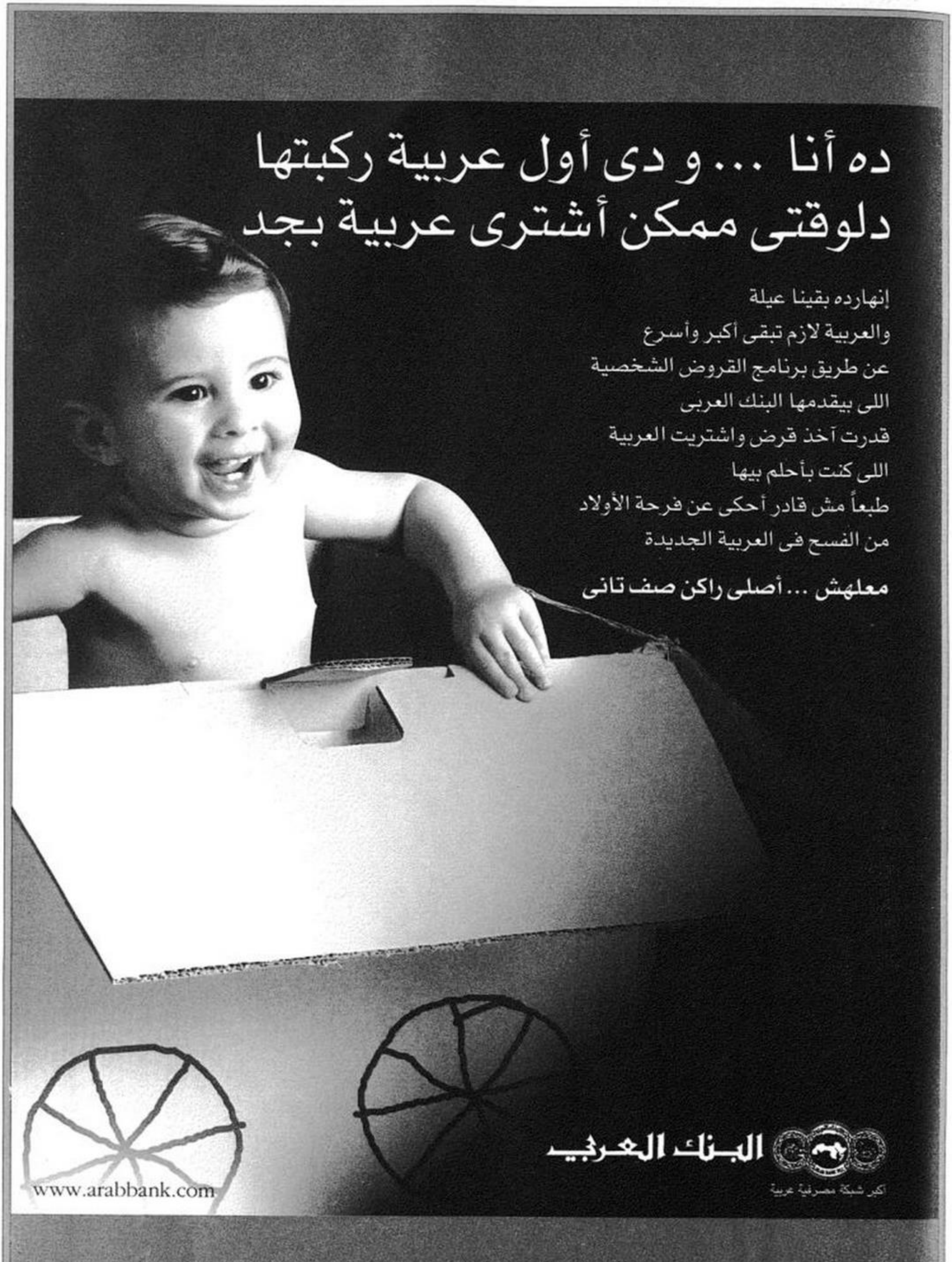
أولا: إن مقاييس العمل الإبداعى تختلف اختلافا بينا عن الدراسات والكتابات الموضوعية، وأن معظم الفنون الأدبية تعتمد على إبداع عالم فنى متخيل، بكل وقائعه وشخصياته وأساليب السرد وطرق التعبير المتبعة فيه. ولاينبغى أن تجتزأ أقوال شخصياته وأفعالها، أو تفهم بعيدة عن السياق فى الشعر والقصة وفنون الإبداع الأدبى على اختلافها. والرواية التى نحن بصددها رواية سياسية بالدرجة الأولى، ليس هدفها الهجوم على الأديان أو الإساءة إليها، وما يمكن أن يكون قد ورد فيها من بذاءة أو خروج بالكلمات والألفاظ التى تجرح المشاعر الإيمانية، ليس مقصودا بذاته، بل إن بعض العبارات تعتبر فى اللهجة العراقية الدارجة من أساليب الخطاب العامة، وإن كانت مكروهة.

ثانيا: إن المحاسبة المنصفة للرواية ومؤلفها، ينبغى أن يترك أمرها للنقاد الذين يحترفون صناعة النقد الأدبى، وليس لرجال الدين.. ومن هنا فقد يؤخذ على المؤلف أنه لم يتقن حرفية الأديب، التى يمكن أن تجنبه زلل الاصطدام بالمشاعر الدينية والأخلاقية السائدة فى مجتمعه. وهناك أساليب راقية فى الآداب العالمية، عولجت فيها أصعب المواقف والشخصيات دون جموح أو تجاوز أو ابتذال. وكان حريا بالمؤلف أن يراعى ذلك ويحترمه، وعند هذا الحد يجب أن تتوقف المحاسبة، فلاتتجاوزها إلى التكفير والطعن فى الدين، واستخدام العمل الأدبى فى الإثارة الغوغائية لأهداف سياسية.

ثالثا: إن المؤسسة الحكومية التى سمحت بنشر الرواية قد تتحمل نصيبا من المسئولية، فهى تشكر على جهودها فى نشر الأدب العربى، وتشجيع الإبداع بين الشباب، وتحقيق التواصل الفكرى والثقافى بين أرجاء الوطن العربى، ولكنها ينبغى أن تتحفظ وتتريث كثيرا أمام أعمال أدبية قد تمس المشاعر العامة، أو تطرح وجهات نظر مخالفة للعقيدة، أو مخاصمة لرأى الأغلبية. ذلك أن مهمة التنوير ليست فى صدم المشاعر ولكنها فى إيقاظها والتواصل معها والأخذ بيدها.. وفى مثل هذه الحالات فلا ينبغى أن تحتضن وزارة الثقافة إلا مايساعد على تحقيق هذا الهدف.. وبالرغم من ذلك كله، فإن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول الرواية المذكورة لم يكن ينبغى أن تتحول إلى محاكمة للحياة الثقافية والعقلية فى مصر، ولاتجد الحكومة أمامها مخرجا إلا أن تحيلها إلى الأزهر ليفصل فيها، ويقدم معها المبدعون والكتاب إلى المحاكمة، وتفرض فيها على العقل المصرى وصاية دينية أو أمنية، لأن بعض مشعلى الحرائق المتاجرين بالدين لأهداف سياسية نجحوا فى تحقيق أهدافهم.

رابعا: لابد أن نعترف بأن القمع الفكرى لابد أن يفضى إلى قمع سياسى، وأن القمع السياسى يفضى بالضرورة إلى قمع فكرى، فهما كاليدين تغسل إحداهما الأخرى بدماء الرأى والتعبير المهدرة على كافة المجالات فى الوطن العربى. ولو أن أمورا عديدة فى قضايا العمل السياسى تؤخذ بقدر أكبر من التسامح وسعة الأفق والإيمان بالديمقراطية، لكان من الأرجح أن يتسع أفق التفكير والتعبير بما يشجع حرية الاختلاف فى الرأى، الذى يسمح بالتعايش والتعددية دون حاجة لهذا الاقتتال المستميت من أجل إقصاء الآخر ونفيه، وإعدامه وإنكار حقه فى الحياة.. سواء بالتكفير أو التخوين أو الإرهاب والتصفية الجسدية.. ولما كان لمثل هذه الرواية العادية أن تزلزل أركان المجتمع المصرى والعربى هذا الزلزال العنيف، الذى يوشك أن يقوض كثيرا من الإيجابيات، ويسمم كثيرا من الآبار ويعود بمجتمعاتنا إلى عصور الظلام.

سلامة أحمد سلامة



ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com